أسطورة آدم وحواء

بين العلم والديـن والخرافة ومنظور قرآني جديد

محمد خلاوي

أسطورة آدم وحواء



محمد خلاوي

أسطورة آدم وحواء

بين العلم والدين والخرافة ومنظور قرآني جديد

محمد خلاوى

أسطورة آدم وحواء

بين العلم والدين والخرافة ومنظور قرآني جديد

تصميم الغلاف: محمد دياب

مقاس الكتاب: 17 × 24

رقم الإيداع: 13162 / 2019

الطبعة الأولى، القاهرة، يوليو، 2019 م

mohamedkhalawy.com

إهداء

إلى كل باحث عن الحقيقة دون تعصب وتعالي على التعلم...
إلى كل مؤمن يريد أن يزيد إيمانه أكثر بالله تعالى...
إلى كل من غابت عنه الحقيقة ولم يدري عنها شيئاً...

المعرفة هي انكشاف للحقائق، تُدعمك بالقوة، وتدفعك دفعاً لقول الحق بشجاعة، وتجعلك تخشى الله تعالى وتحبه، وتبغض الشيطان فتكرهه.

محمد خلاوي



المقدمة

نحن نعيش اليوم في حالة من التخلف الفكري والعلمي في هذا العالم العربي البائس؛ منذ عدة قرون ونحن ما زلنا على هذا الوضع البائس ولا نتقدم ولا نأخذ أي خطوة إلى الإمام، أو إلى المستقبل العلمي المنتظر!..

ويعود هذا التخلف الذي نعيش فيه اليوم إلى عوامل عدة؛ لن أتطرق إليها كلها الآن.. ولكن من أهم هذه العوامل هي سيطرة الفكر الديني التقليدي على المجتمعات العربية، ومنعها من التقدم نحو العلم الحديث، خوفاً من أن يصطدم العلم مع الدين!..

وفي حقيقة الأمر نعم سيحدث هذا التصادم بكل تأكيد في يوم من الأيام وسيكون بشكل عنيف إذا لم نحاول معالجة هذه المشكلة مبكراً..

ويأتي سبب هذا التصادم كما قلت أن هناك فئة تحترم العلم وفئة أخرى بالمقابل تقدس الفكر الديني التقليدي؛ فالمسيطر الآن هم رجال الدين ولكن إذا أستمر الأمر على هذا الشكل سوف تحدث ثورة فكرية كما حدثت في الغرب على رجال الدين المتحكمين في حياة الناس، وحينها لن نستطيع أن نتراجع إلى الخلف وستنتشر العلمانية بعنف في البلاد العربية كما انتشرت في الغرب..

وأنا أقول ذلك الآن بكل ثقة؛ لأنني من فئة الشباب، وأنا أحتك بالشباب العربي بحكم عملي كباحث، وأرى ما لم يراه الآخرون من رجال الدين..

أرى كيف أن الشباب الآن بدأ يتجه نحو ما يسمى اليوم بـ "الإلحاد"؛ وقد أنتشر الإلحاد بشراسة بين الشباب، خصوصاً بعد ما يسمى بـ "الربيع العربي".. لأن هذه الثورات العربية منحت الفرصة للشباب أن يعبر عن رأيه بكل جراءة؛ فقد كسر كل القيود من حوله، وأصبح لا يخاف من أي سلطة فُرضت عليه بالقوة..

وأحد هذه السلطات التي فُرضت على الشباب العربي اليوم هي: "السلطة الدينية".. لذلك بدأ يثور على تلك السلطة وبدأ في اتجاهه إلى "الإلحاد"؛ وبدلاً من احتواء هؤلاء الشباب بدأ رجال الدين بتكفيرهم وسجن البعض منهم بحجة أنهم ينشرون الإلحاد بين الشباب!..

فأنا كمفكر لن أفعل مثلما فعل رجال الدين، بل أنني قد حللت وقيمت وبدأت في البحث والكتابة الفكرية من أجل معالجة القضايا التي يُثيرها الشباب المعترضون على الدين بسبب ما يعرضه رجال الدين من فكر ديني تقليدي قد يعارض العلم الحديث..

ومن أهم هذه الموضوعات هو موضوع "نظرية التطور"؛ وقد كتبت في كتاب سابق[1] عن هذا الموضوع ولكن من المنظور العلمي البحت ولم أتطرق كثيراً للنصوص الدينية..

ولكن في هذا الكتاب سوف يكون كل التركيز على النص القرآني؛ لطرح مفاهيم قرآنية جديدة لها علاقة بـ "قصة آدم في النص القرآني"..

وسوف نرى هل يوجد أي تعارض بين النص القرآني وبين النظريات العلمية الحديثة؟!

وأنا في هذا الكتاب لن أُلفق بين النص القرآني والعلم الحديث؛ بل على العكس تماماً. سوف ابدأ من النص القرآني ذاته محاولاً فهم النصوص القرآنية التي أتت على ذكر موضوع واحد وهي "قصة آدم"..

وفي سياق هذا الكلام؛ أتذكر إنني كنت في لقاء في برنامج شبابي على اليوتيوب ، وسألني المحاور بعض الأسئلة المهمة كان أهمها:

---

(١) للمؤلف كتاب بعنوان: قصة نظرية التطور، سينشر قريباً..

- ما الفرق بين الاعتراف بالأنبياء في المسار الديني والاعتراف بهم في المسار العلمي الأكاديمي ؟!

كان جوابي عليه هو ما قلته وسأقوله الآن للإجابة على هذا التساؤل الهام جداً؛ قلت له: أن الوجود التاريخي للأنبياء يأتي بقوة وبشدة في المسار الديني، حيث أن النصوص الدينية – ومنها التوراة والإنجيل والقرآن – تأتي على ذكر أسماء الأنبياء بكل وضوح وتفصيل.

أما المسار العلمي الأكاديمية فيشكك وبقوة من وجود الأنبياء في التاريخ.. ويرجع سبب ذلك؛ لأن الأدلة الآثارية لم تؤكد وجود الأنبياء في التاريخ، وبذلك يتم إنكار وجودهم على المستوي العلمي.

ومن هنا تأتي الإشكالية والسؤال الهام؛ وهو: كيف تتعامل الناس مع مثل هذه الإشكالية المطروحة أمامنا ؟!

وللإجابة على هذا التساؤل فأنني قد قسمت المتعامل مع هذه الإشكالية الكبيرة إلى ثلاثة شرائح مهمة وهما كالتالي:

النوع الأول: الفرقة السلفية.

هذا النوع من الناس يصطدم مع الحقائق والنظريات العلمية المُثبتة على أرض الواقع، ويقول لنا: أنني لا أعترف بهذا العلم، فالدين عندي أهم وأعلى من أي علم قد يخرق القدسية التي أراها في هذا الدين.

النوع الثاني: الفرقة الإلحادية.

هذا النوع سيصدق العلم وبقوة ويصطدم مع الدين ويشتبك معه غالباً؛ لأن ما سيقوله العلم سيكون هو المعيار الذي من خلاله سيحاكم به العالم من حوله.

وبالتالي سيعلن عن إلحاده ويترك هذا الدين لأنه ينافي ما قاله العلم الحديث.

النوع الثالث: الفرقة التأويلية.

أما هذا النوع فيمكن تقسيميه إلى نوعين آخرين؛ وهما:

١- التأويلية الرمزية:

فهذا النوع يقول لنا أنه مؤمن بالله تعالى ويصدق العلم في ذات الوقت ، ولا يرى بينهم أي تعارض وسيحاول أن يوفق بين ما قاله الدين وبين ما يقوله العلم المعاصر.

فمثلاً في موضوع هذا الكتاب عن قصة آدم؛ سيقول لنا نعم أنا مؤمن بهذه القصة لأنها وردت في النص القرآني ، ولكن هناك تأويل رمزي لها. أي أنه يقول أن قصة آدم تحكي رمزياً عن الصراع بين الخير والشر ، وبذلك تم تأويل النص على مقياس العلم وما يقوله العلم.

٢- التأويلية الواقعية:

وهذا النوع يقول لنا أيضاً أنه مؤمن بالله تعالى ويصدق العلم في ذات الوقت ، ولا يرى بينهم أي تعارض وسيحاول أن يوفق بين ما قاله الدين وبين ما يقوله العلم المعاصر.

فمثلاً في موضوع قصة آدم؛ سيقول لك نعم أنا مؤمن بهذه القصة لأنها وردت في النص القرآني، ولكن هناك تأويل لها.

هذا التأويل قد يتوافق مع التأويل الرمزي؛ ولكنه يؤمن بواقعيه الأحداث ولا يقول برمزيتها، أي أنه يقول أن آدم كان موجود في التاريخ، على الرغم من قول العلم عكس ذلك ورغم أنه يصدق ما يقوله العلم أيضاً !..

فهو هنا سيحاول تأويل النص الديني بمنهج علمي بما لا يتعارض مع المنطق والعقل ولا يتعارض مع ما يقوله العلم الحديث.

*****

ولعلي أستشهد هنا بما قاله الدكتور "عمرو شريف"[1] في هذا الإطار، عندما قيل له: ما تقول في آدم؟ ؛ فقال: "أن العلم لا يعرف آدم... ولا التاريخ يعرف آدم... إن آدم شخصيةٌ دينيةٌ نعرفها من نصوصنا المقدسة، ونؤمن بها تبعاً لما في النصوص على مراد الله (أي تبعاً لمعاني النص التي يقصدها الله عز وجل). إنها قضية إيمانية غيبية بحتة، ليس للعلم كلمة فيها.

أما العلم فيهتم بنشأة الإنسان، دون أن يأخذ شخصية آدم في الاعتبار، والعلم في بحثه يهتم بـ (الآلية How)، ويَتَّبع منهجاً علميّاً تعارف عليه علماء الدنيا، وليس من هذا المنهج تحكيم أفهامِنا الدينية المتباينة في المفاهيم العلمية. أما الدين، فيهتم بـ (الحكمة والغاية Why)، ويَتَّبع منهج الفهم عن النصوص المقدسة.

فلنؤمن بما نفهم من نصوصنا المقدسة، وليتوصل العلم إلى ما شاء الله أن يكشفه لنا من معارف. والقاعدة الأساسية في الطرحين ألا نضرب أحدهما بالآخر، وإلا فالدين هو الخاسر؛ فقد خسر بسبب ذلك مئات الملايين من المتدينين عبر التاريخ وعبر الجغرافيا بعد الثورة العلمية في أوروبا".[2]

وقد يرتاب البعض من أقوالي هذه ويعتقد أنني أنتمي إلى التيار الإلحادي ، وأن غرضي هو هدم الدين من داخله ، أو أنني مدفوع الأجر من قوى أجنبية تعمل على هدم ثوابت الدين!..

وفي الحقيقة هذه أوهام لدى البعض؛ فأنا رجل مؤمن بالله تعالى ، مسلم حنيف، لا أفرق بين أحد من رُسل الله جميعاً ، أؤمن بالغيب (اليوم الأخر ، والملأ الأعلى "الملائكة").

---

(١) من مواليد بورسعيد – مصر، عام ١٩٥٠ م ؛ أستاذ ورئيس أقسام الجراحة الأسبق – كلية الطب – جامعة عين شمس. عضو مؤسس للجمعية الدولية للجراحة، والجمعية الدولية لجراحة الكبد والبنكرياس والجهاز المراري – بسويسرا.

(٢) د.عمرو شريف، أصداءٌ وظِلال: سيرة ذاتية، ط ١، القاهرة – مصر، نيو بوك للنشر والتوزيع، ٢٠١٦ م، ص ٣٦١ – ٣٦٢ .

وبهذه الكلمات الواضحة الشافية أوضح إنني لستُ من الملحدين!.. ☺

أما بالنسبة لقضية أنني شخص مأجور من قوى أجنبية؛ ففي الحقيقة كل ما أقدمه هو من مجهودي الشخصي ، لا توجد أي جهة أجنبية أو عربية ترعاني أو توجهني.. فما أكتبه وأقدمه للناس هو عن اقتناع شخصي مني أن المجتمع يحتاج إلى مثل هذه الأفكار الجديدة ، لذلك أجتهد ونيتي كلها لله وحده.

فما أطرحه لكم في هذا الكتاب هو تدبري الخاص للتنزيل الحكيم – النص القرآني – فكل ما أطرحه هو بالدليل والمنطق القرآني، وأنا لا ألزم به أحداً على الإطلاق.

بل أيها القارئ إذا كنت تؤمن بالقرآن كما تقول فنفذ ما قاله لك في هذه الآية؛ قال تعالى: { الَّذِينَ **يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ** ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ } (الزمر: ١٨).

*****

وقد يأتي سؤال يقول لي: وهل أنت فريد عصرك لكي تأتي بقول لم يأتي به السابقين؟ وهل أنت الوحيد الذي أجتهد في هذا الموضوع أم هناك من سبقك من العلماء الموثوق بهم؟ وماذا يقول الأزهر فيما تقوله أنت ووصلت له من اجتهاد كما تقول عما تقدمه لنا ؟..

إجابتي هي: لا ؛ لستُ أول من يجتهد في هذا الموضوع من السلف أو المفكرين المعاصرين. فهناك كتب كثيرة حاولت التوفيق بين ما هو ديني وما هو علمي في هذا الموضوع..

ولعلي ابدأ بالإشارة إلى الكاتبة المشهورة بلقب "بنت الشاطئ"؛ هي الدكتورة "عائشة عبد الرحمن" ، والتي سطّرت كتابها (عام ١٩٦٩ م) تحت عنوان: "مقَالٌ في

الإنسَان"[١]؛ والتي سطّرت في بدايته فقرة بعنوان: "الإنسان، والإنس، والبشر"، للتفريق بين هذه الألفاظ قرآنياً.

ومن أشهر مَن كتب أيضاً في هذا الموضوع، من منطلق قرآني، هو الدكتور "محمد شحرور"، عام ١٩٩٠م، في كتابه: "الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة"[٢]؛ فقد تكلم ولو بشكل غير مفصل عن خلق آدم، وعلاقة التطور باللغة.

ثم في عام ٢٠١٠ م؛ طور أفكاره أكثر وقدم عن موضوع آدم بشكل مفصل بعض الشيء، في كتابه: "القصص القرآني"[٣]، وقد أحدثت أفكار (شحرور) صدى كبير بين الناس على مستوى العالم العربي إلى اليوم.

تبعه في هذا المسار (عام ١٩٩٨ م)، الدكتور "عبد الصبور شاهين"، في كتابه الشهير: "أبي آدم: قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة"[٤].

ولعله كتاب الدكتور "عبد الصبور شاهين"، قد أخذ هذه الشهرة الواسعة بعد رفع قضايا عليه، بسبب ما كتبه ونشره في هذا الكتاب.

ويأتي من الحقل الشيعي، في هذا الإطار الفكري القرآني؛ ما قدمه الدكتور "عالم سبيط النيلي"، في كتابه: "أصل الخلق وأمر السجود"[٥].

---

(١) د.عائشة عبد الرحمن، مقالٌ في الإنسَان: دراسة قرآنية، ط ٢، القاهرة – مصر، دار المعارف، ١٩٦٩ م.

(٢) د.محمد شحرور، الكتاب والقرآن: قرَاءة مُعَاصرة، ط ١، دمشق – سورية، دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٠ م.

(٣) د.محمد شحرور، القصص القرآني: قراءة معاصرة، المجلد الأول: مدخل إلى القصص وقصة آدم، ط ١، دمشق – سورية، دار الساقي بالاشتراك مع مؤسسة الدراسات الفكرية المعاصرة، ٢٠١٠ م.

(٤) د.عبد الصبور شاهين، أبي آدم: قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة، ط ٢، القاهرة – مصر، دار أخبار اليوم، ١٩٩٨ م.

(٥) د.عالم سبيط النيلي، أصل الخلق وأمر السجود: بين الأنا وبين الولاية والتوحيد، ط ١، قم، دار ذوي القربي، ١٤٣٧ هـ.

وأيضاً؛ ما قدمته لنا "جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية"، من ثلاثة كتب حول هذا الموضوع:

١- الخلق الأول: كما بدأكم تعودون.[١]

٢- وعصى آدم: الحقيقة دون قناع.[٢]

٣- بين آدمين: آدم الإنسان وآدم الرسول.[٣]

لذا؛ لن أدعي إنني أول من تكلم أو سيتكلم عن هذا الموضوع من منظور قرآني ، ولكني أدعي أني سأضيف لك ما لم تقرأه من قبل ، وسأنظم لك الموضوع في إطار علمي واحد ، حتى تكون الفكرة واضحة لديك ، وتكون النظرية مكتملة في هذا الموضوع الذي لم يكتمل بعد من جوانب كثيرة عند كل من طرح هذا الموضوع.

أما بالنسبة لموضوع رأي شيوخ الأزهر فيما سأطرحه في هذا الكتاب؟ وهل ما سأطرحه يتعارض مع ثوابت الدين والشريعة؟

لعلي سأرى بالتأكيد الكثير ممن يعترضون على ما أطرحه من فكر جديد ؛ ولكن في هذا الأطار بالتحديد سأنقل لكم ما قاله بعد علماء الأزهر من ما كتبوه عن الأعمال السابقة المشار إليها في هذا الموضوع.

يقول "سامي محمد متولي الشعراوي"[٤]: "هذا الموضوع دقيقاً يصعب على الباحث أن يصل فيه إلى رأي قاطع، أو قول فصل، يوافق عليه سائر الباحثين، وهو

(١) قسم الدراسات والبحوث في جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، الخلق الأول: كما بدأكم تعودون، ط ١، سلسلة: عندما نطق السراة ج٤، داركيوان – الحلبوني – دمشق، ٢٠٠٩م.

(٢) قسم الدراسات والبحوث في جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، وعصى آدم: الحقيقة دون قناع، ط ١، سلسلة: عندما نطق السراة ج٥، داركيوان – الحلبوني – دمشق، ٢٠٠٩م.

(٣) قسم الدراسات والبحوث في جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية،بين آدمين: آدم الإنسان وآدم الرسول، ط ١، سلسلة: عندما نطق السراة ج٦، داركيوان – الحلبوني – دمشق، ٢٠٠٩م.

(٤) كان هو (الأمين العالم لمجمع البحوث الإسلامية) حين كتب هذا الكلام؛ فهذا الكلام من: تقرير برأي اللجنة العلمية التي شكلها مجمع البحوث الإسلامية للنظر في كتاب: "أبي آدم" للدكتور: عبد الصبور شاهين، تحريراً: ٧ / ٨ / ١٩٩٩ م.

موضوع بدء خلق الإنسان، ومكان آدم – عليه السلام – في سلسلة الخلق الإلهي ، وما كان قبله وما كان بعده .. وذلك أن مشهد خلق الإنسان بعيد الغور في أعماق التاريخ.. وقد وقع حين وقع قبل عصر التدوين والتوثيق.

والنصوص القرآنية في شأنه – على كثرتها – لا تعالج التي تبين كيفية الخلق، كما لا تحدد المسافات الزمنية التي أحاطت بمراحل ذلك الخلق .. لذلك لا يمكن لباحث قديم أو حديث أن يقطع فيه برأي حاسم". [1]

وعلى هذا المنوال أضيف قول الدكتور "عبد المعطي محمد بيومي"[2]: "منذ نزل القرآن الكريم كان كل عصر يرى في القرآن رؤية جديدة بما يحصله من ثقافة وما يعينه على فهم الآيات من آفاق العلم والمعرفة السائدة ، وكل إنسان يقرأ القرآن فيفهم منه بما وهبه الله من قدرة على الفهم وبما أسبغه عليه من علوم وثقافة وبما اتسع به أفقه من دراية بالحياة وشئونها، فيستخرج كلٌ من القرآن ما يهديه أو يهتدي إليه.

القرآن مع ذلك يسع الجميع، بعموم ألفاظه، وثراء معانيه". [3]

وفي أطار تعليقه على (نظرية التطور) وكل من حاول التوفيق بينا وبين العلم بطرح نظرية فكرية جديدة تضمن تفسير القرآن بمنظور جديد؛ يقول التالي:

"ينبغي أن يكون موقفنا من هذه النظرية وغيرها من الاجتهادات لا تشنجاً ولا فزعاً أو مصادرة ، بل فحصاً بالموضوعية ، مقارعة بالحجة وجدالاً بالتي هي أحسن ، ولا ضرر ولا ضرار على الدين لأنه بمثل هذا الجدال يقوى في القلوب وتشتد به العقول ولا ينال منه رأي أخطأ صاحبه أو أصاب". [4]

---

(١) د.عبد الصبور شاهين، أبي آدم: قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة، ص ١٩٥ .

(٢) ولد في كفر الشيخ بمصر يوم (٢١ / ٧ / ١٩٤٠ م)، و توفي في القاهرة يوم (٣٠/ ٧ / ٢٠١٢ م)؛ كان عضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، وعميد كلية أصول الدين (سابقاً) – جامعة الأزهر.

(٣) د.حسن حامد عطية، قضية الخلق: من الوحي إلى دارون، ط ١، دار الخيال، يناير ١٩٩٩ م، ص ١٠ .

(٤) نفس المرجع؛ ص ١٣ .

وفي ختام هذه المقدمة، أقول مثلما قال "أبى حنيفة النعمان":

"قولنا هذا رأي ، وهو أحسن ما قدرنا عليه ، فمن جاءنا بأحسن من قولنا ، فهو أولى بالصواب منا".

محمد خلاوي

مصر – القاهرة – المعادي

السبت: (٧ يوليو ٢٠١٨ م – ٢٣ شوال ١٤٣٩ هـ)

الباب الأول

تاريخنا في الميزان

الفصل الأول

منهجية كتابة التاريخ



ما هو التاريخ ؟!

أصبحنا في أمس الحاجة اليوم إلى إعادة قراءة وكتابة تاريخنا من جديد ووضعه في ميزان الحقيقة، لنقول أن (تاريخنا في الميزان). وهذا الميزان هو الذي سيجعلنا ننظر للتاريخ بعيون جديدة لم ننتبه لها من قبل.

ولكن يأتي الخطر دائماً من أصحاب العقول المنغلقة التي رغم وضوح الحقيقة أمامهم والتدليل عليها بكل وضوح؛ إلا أنهم يجعلون الحقيقة غائبة وصعبة في الوصول إليها ونشرها لكل الناس!..

وتكمن أهمية التاريخ بأنه ذاكرة الأمم والشعوب التي تختزن ماضيها العريق لينقلها إلينا، عبر العديد من الوسائل أهمها: الآثار والنقوش القديمة. فهي السجل المسطور والأرِشيف الناطق والشاهد الحي على الأحداث التاريخية القديمة.

وعلى الرغم من ذلك تسمعون أحياناً من يقول أن التاريخ ما هو إلا وجهة نظر!..

- فهل التاريخ علم؟! وما هو المنهج العلمي؟
- وهل هناك حقيقة تاريخية؟! ومن الذي يُحدد تلك الحقيقة التاريخية؟!
- وإلى ماذا يجب أن يستند علم التاريخ؟ وبالتالي على ماذا سأستند في هذا "الكتاب" لكتابة هذا التاريخ؟

كل هذه الأسئلة المطروحة أمامكم سأحاول الإجابة عنها من خلال هذا الفصل الذي سأتحدث فيه عن المنهجية العلمية لفهم التاريخ.

التاريخ علم:

المؤرخين الفرنسيين "سينوبوس و لانجلوا"، في كتابهم "المدخل إلى الدراسات التاريخية"؛ يقولان: "التاريخ علم ما في ذلك ريب، لأننا نستطيع أن نطلق كلمة علم على كل مجموعة من المعارف المحصلة عن طريق منهج وثيق للبحث في نوع واحد

معين من الوقائع. فهو علم الوقائع التي تتصل بالأحياء من الناس في "مجتمع" خلال توالي الأزمنة في "الماضي". ويدخل في عداد العلوم الوصفية وهي تختلف عن العلـوم العامة اختلافاً بيناً. فهذه العلوم (الميكانيكا، والفيزيـاء، والكيميـاء، وعلـم الأحيـاء) تعمل لاكتشاف القوانين، أعني متوالية ثابتة من الظواهر التي من نوع واحـد ضـاربة صفحاً عن الأحوال الواقعية الزمانية والمكانية لأن هدفها ليس تقرير الواقع، بل التنبؤ بما سيكون في أحوال معلومة.

والعلوم الوصفية تسعى لمعرفة وقائع جزئية، فتبحث كيف تتـوزع: إمـا في المكـان وحده (علم الكون، علم الجغرافيا، علم المعادن، علم النبـات، علـم الحيـوان)، أو في المكان وتوالي الأزمنة معاً؛ وإلى هذا النوع الأخير (الجيولوجيا، علم العصور التاريخية العتيقة "paleontologic") ينتسب التاريخ أيضاً.

ومن الخصائص التي يتميز بها علم التاريخ عـن بقيـة العلـوم أن جميـع العلـوم لا تعمل إلاّ في نوع واحد من الظواهر. بينما نجد أن التاريخ يدرس في آن واحـد نـوعين من الوقائع المختلفة كل الاختلاف:

١- وقائع مادية تعرف بالحواس (أحوال مادية وأفعال بني الإنسان).
٢- ووقائع من طبيعة نفسانية (عواطف، أفكار، دوافع) لا يُدْرِكها إلاّ الشـعور، ولا سبيل إلى الإضراب عنها لأنها توحي للنـاس بسـلوكهم وتقتـاد أفعـالهم الحقيقية".[١]

فالتاريخ ليس علم تجربة واختبار ومعاينة، كما هي حقيقة العلوم الطبيعية. إنه وكما يقول معظم المؤرخين المعاصرين علم نقد وتحقيق، لا يهـدف اكتشـاف قـوانين ثابتـه، وإنما ترجيح احتمالات في عملية السعي للاقتراب من "الحقيقـة التاريخيـة". وإنـه إذا

---

(١) النقد التاريخي، يشمل: لانجلوا و سينوبوس: المدخل إلى الدراسات التاريخية، بول ماس: نقد النص، امانويل كانت: التاريخ العام، ترجمها عن الفرنسية والإلمانية: عبد الرحمن بدوي، ط ٤، الكويت: وكالة المطبوعات، ١٩٨١ م، ص أ – ب .

كان لا بد من إجراء مقارنـة بـين التـاريخ وبـين منـاهج العلـوم الطبيعيـة كـان علـم الجيولوجيا هو الأقرب إلى إجراء هذه المقارنة.(١)

وفي ذلك يقول "هرنشو"(٢) معبراً عن الفكرة: "أقرب العلـوم الطبيعيـة شـبهاً بـه (بالتاريخ) هي الجيولوجيا. فكما أن الجيولوجي يدرس الأرض كما هي الآن ليعـرف، إذا أمكنه ذلك، كيف صـارت إلى حالهـا الحـاضرة، فكـذلك المـؤرخ يـدرس الآثـار المختلفـة عـن المـاضي ليفسّر بواسـطتها وبقـدر إمكانـه ظـاهرة الحـاضر. وكـما أن الجيولوجي يجد مادته الأساسية في سلم نفايات الطبيعة من أدلة قليلة تثبت التطورات الجيولوجية القديمة، فكذلك المؤرخ يعتمد في معرفة الوقائع الماضية على آثار مادية أو سجلات أو تقاليد، سلمت مصادفة واتفاقاً من عوادي الزمن".(٣)

ويضيف قائلاً: "هذه الآثـار، والسـجلات، والتقاليـد، هـي الحقـائق المحسوسـة الحاضرة التي ينصب عليها عمل المؤرخ. هي مادة عمله، وهـي ليسـت قيمـة وهامـة لذاتها، ولكن لمجرد دلالتها على الوقائع الماضية". (٤)

فالتاريخ ليس وجهة نظر، بل هو حقائق تتألف من أحداث تاريخيـة جـرت، ولهـا ثلاثة حوامل رئيسية هي:

١- الحامل الزمني: متى حدثت؟

---

(١) وجيه كوثراني، تاريخ التأريخ: اتجاهات – مدارس – مناهج، ط ٢، الدوحة – قطر، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، يونيو ٢٠١٣ م، ص ٣٩٣ .

(٢) (Fossey John Cobb (F. J. C.) Hearnshaw): ولد في برمنغهام (٣١ يوليو ١٨٦٩)؛ وتوفي في (١٠مارس ١٩٤٦)؛ هو كان أستاذ تاريخ العصور الوسطى في كلية كينغز لندن من عام ١٩١٢ إلى عام ١٩٣٤؛ وزميل كلية كينغز لندن عام ١٩٢٦.. كما شغل منصب السكرتير الفخري للجمعية التاريخية الملكية من عام ١٩٣١ إلى عام ١٩٣٤؛ ورئيس الجمعية التاريخية من عام ١٩٣٦ إلى ١٩٣٨...

(٣) هرنشو، علم التاريخ، ترجمة: عبد الحميد العبادي، سلسلة المعارف العامة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٧ م، ص ١٢ .

(٤) نفس المرجع، ص ١٢ .

٢- الحامل المكاني: أين حدثت؟

٣- الحامل السكاني: من قام بهذه الأحداث؟ وعلى من أنعكس هذا الحدث؟

فالحدث التاريخي هو حقيقة تاريخية، مذكورة في المدونات والوثائق لكن تفسيرها وتعليلها يخضع لوجهات النظر.

تعريف التاريخ:

(التاريخ)؛ هو: حركة تطور الإنسان والمجتمع عبر الزمان في أبعاده الثلاثة من الماضي عبر الحاضر وإلى المستقبل.

إي أن كل فرد أو مجتمع هو بالضرورة خاضع لهذا التاريخ لأنه يصنعه وبالتالي فإن كل تطور "فردي، مجتمعي، اقتصادي، سياسي، اجتماعي، ثقافي، فكري، علمي، تقني، فني" هو نتاج تراكمي متصل متواصل. إذن تراكم المعرفة عبر الزمن هو ما يقال له بالذاكرة التاريخية.

أما "علم التاريخ": هو العلم الشمولي الموسوعي الذي يوثق ويدرس ويحلل الأحداث التاريخية مستخدماً كل أنواع العلوم بما فيها المنطق.

أما "التأريخ": هو تدوين وتوثيق كل نشاطات الإنسان عبر العصور.

إن علم التاريخ علم مُركَّب، والمؤرخون ليسوا جماعة واحدة. فهم يتناولون مادتهم من زوايا مختلفة فيما بينهم. ويُفسّرون الأحداث بطرق مختلفة.[1]

يمارس المؤرخون عملهم بفضول عميق نحو الماضي، ولإشباع ذلك الفضول فهم يسألون بعض الأسئلة التي يسألها المحققون: من ؟ ماذا ؟ متى ؟ أين ؟ لماذا ؟ بعض

---

(١) ماري لين رامبولا، دليل الكتابة التاريخية، ترجمة: د.تركي بن فهد آل سعود و د.محمد بن عبدالله الفريح، الرياض – السعودية، دار الملك عبد العزيز، ١٤٣٤ هـ، ص ١٨ .

هذه الأسئلة مُصَمّم لاستخراج "الحقائق" وهي سهلة الإجابة نسبياً... ومن المطلوب أيضاً من المؤرخين أن يحلّلوا العلاقة بين الحقائق التاريخية.[1]

ولا يتفحَّص المؤرخون الأحداث بمعزل عن الظروف المحيطة بها، بل يحاولون فهم البشر وأحداث الماضي ضمن المجريات التاريخية الخاصة التي ساعدت على تشكيل ذلك كله.[2]

وبينما يستكشف المؤرخون العلاقات فيما بين أحداث الماضي، يتفحّصون كذلك أسباب الأحداث. إن الأحداث التاريخية التي ستدرسها، وتكتب عنها، لا يمكن غالباً إرجعاها إلى سبب واحد، والمؤرخون حرصيون على تجنُّب تبسيط العلاقة بين المسبب وأثره لتفسير الأحداث.[3]

---

(١) المرجع السابق، ص ١٩ .

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠ .

(٣) المرجع السابق، ص ٢٠ .

المنهج العلمي التجريبي

- ماذا أقصد بالمنهج العلمي التجريبي؟

سأشرح خطوات المنهج العلمي من خلال مثال عملي مصغر ...

١- ملاحظة الظاهرة:

تخيل أنك في يوم من الأيام كنت جالساً تقرأ هذا الكتاب وذهبت للمطبخ لكي تُحضر لك كوب شاي ساخن لكي تركز وتنتبه لكل كلمات هذا الكتاب.

وبالفعل ملئت براد الشاي ماء وتركته يغلي على النار لكي تسخن الماء وأنت في انتظار الماء تغلي ومع هذا الانتظار بدأت الماء تغلي وكان براد الشاي محكم الغطاء فبدأ غطاء هذا البراد يرتفع ويتحرك فبدأت " تلاحظ " تحرك غطاء البراد وتندهش لأنك غير متعود على دخول المطبخ وتحضير كوب الشاي هذا فأول مرة تلاحظ تحرك غطاء الشاي وقد يكون غليته كثيراً من قبل ولكن أول مرة تلاحظ بهذا التركيز وتندهش فبدأت تلاحظ بقوة تحرك غطاء البراد.

فسألت نفسك لماذا يتحرك غطاء البراد بهذه القوة وهذا الاندفاع القوي؟!

فأنت لم تفوت عليك هذه الملاحظة فرصدتها ودونتها في كشكول لك وكتبت "أنك لاحظت عند تحضير كوب شاي لي وجدت بعد مرور ١٠ دقائق من غليان الماء أن غطاء البراد يتحرك ويندفع بقوة للأعلى".. وبهذا تكون قد لاحظت هذه الحادثة ودونتها.

٢- وصف الظاهرة:

بعد الملاحظة والتدوين بدأت في التفكير وتسأل نفسك كثيراً لماذا تحدث هذه الظاهرة؟

فبدأت في وضع فرضيات تصف بها ما حدث أمامك من حدث ولاحظته.

إذن (فالفرضية) هي: إجابات مؤقتة يضعها الباحث – الراصد للظاهرة التي هي موضع البحث – فهي محاولة تحليل المعلومات المجموعة حول الظاهرة الخاضعة للدراسة والبحث للوصول إلى أبسط تفسير ممكن لهذه المعلومات، وجمعها في إطار نظري واحد وبالتالي تستطيع التحول بها إلى نظرية شاملة.

وهذا ما حدث معك حول ظاهرة ارتفاع غطاء البراد فمن خلال ملاحظتك الأولية وجدت أن غطاء براد الماء يرتفع بعد ١٠ دقائق من غليان الماء داخل البراد على النار. فكانت فرضيتك كالتالي تقول فيها "أن غطاء براد الماء يرتفع بقوة من خلال غليان الماء وصعود بخار الماء أذن قوة البخار تجعل الأشياء تتحرك عندما تُضع فوقه"..

٣- التحليل والتفسير:

فبعد وضع فرضيتك حول هذه الظاهرة بدأت في أجراء التجارب حول هذه الظاهرة وتكرارها كثيراً وفي كل مرة ترصد الظاهرة وتكتب ما ظهر أمامك، فبدأت تكون لديك معلومات حول هذه الظاهرة وبدأت تسأل خارج هذه الظاهرة وترجع إلى ما إذا كان أحد أخر قد كتب حول هذه الظاهرة أو شيء شبيه أو إي شيء عن كلمات الفرضية مثل البحث عن بخار الماء أو قوة الدفع أو قوانين الجاذبية وهكذا ومن خلال كل هذه المعلومات تبدأ تُحللها وتحاول تفسيرها مرة أخرى وتجد هل هي بالفعل توافق فرضيتك أم لا.

٤- التنبؤ بالمستقبل:

فمن خلال هذه الظاهرة الصغيرة التي حدثت معك بدأت في تعميم الظاهرة على أشياء أكبر وتحاول التنبؤ بما هو قادم.

ومن ثم كيف تستفيد من هذه الظاهرة الصغيرة في عمليات أكبر لها تأثير على أشياء أخرى؛ فقمت بطرح فكرة أكبر مستخدماً هذه الظاهرة التي حدثت معك ورصدتها وحللتها فقلت التالي ماذا لو قمنا بعمل مُحرك بخاري ؟ فبدأت في كتابة وشرح فكرتك وقولت التالي:

المحرك البخاري هو: محرك يستفيد من بخار الماء المضغوط ذي درجة الحرارة العالية لتحويل الطاقة الحرارية إلى عمل ميكانيكي وطاقة حركة. وقولت أن طريقة عمل المحرك البخاري الثلاثي كالتالي: يدخل البخار الساخن من اليسار ثم يُوجه إلى الاسطوانة الثانية ومنها إلى الاسطوانة الثالثة ليخرج منها وقد فقد طاقته.

وبذلك بدأت في صياغة نظرية كاملة من خلال فرضيتك الأولى التي أوجدتها من خلال ملاحظتها ورصدك لهذه الظاهرة.

أذن فالنظرية : هي تعني مجموعة ضخمة من المعلومات التي تصمد أمام العديد من الاختبارات ومن المحتمل أنها تحوي على عدد مختلف من الفرضيات وعديد من خطوط الأدلة المختلفة.

النظرية شيء تم اختباره مراراً وتكراراً وتمت صياغته ومراجعته يتم إعادة العمل بها وإعادة النظر بها. ولا توجد نظرية في العلم تم اعتبارها كحقيقة مطلقة. بل نعتبر أن النظريات تفسيرات مدعومة بالأدلة وقابلة للاختبار والتي تمنحنا التفسيرات الطبيعية للظواهر الطبيعية. يجب أن نعتبر كل التفسيرات العلمية مؤقتة، فالعلم هو اكتشاف المجهول.

٥- **التحكم بالمستقبل:**

فمن خلال هذه النظرية التي وضعتها وكتبتها في شكل إطار نظري متكامل ومتماسك في بحث كامل أصبحت بذلك نظرية علمية تحاول أن تطبقها على أرض الواقع وتستفيد من نتائجها.

وبالفعل بدأت في نشر نظريتك على الأوساط العلمية والمجلات العلمية الموثوق فيها وطرحتها على أقرانك في العلم والمعرفة لينتقدوها ويحللوها وتأخذ رأيهم العلمي.

ثم بعد كل ذلك بدأت شركة من الشركات الصناعية في تبني فكرتك النظرية ومحاولة تنفيذ نماذج لعمل هذا المحرك وبهذا تكون قد استفادت البشرية من تفكيرك العلمي.

*****

هنا يأتي السؤال الهام بعد كل ما طرحته عن أسلوب عمل المنهج العلمي التجريبي؛ هل "علم التاريخ" يعمل بنفس المنهجية المطروحة أم له منهجية خاصة؟..

للإجابة على ذلك السؤال علينا أن نطلع على ما نسميه اليوم بـ "طبيعة علوم البدايات"..

طبيعة علوم البدايات

إن علم التاريخ علم حيوي وفعّال؛ ولن نعرف أبداً كل شيء حصل في الماضي.[١]

لذلك يأتي السؤال الهام الذي علينا أن نطرحه نحن الباحثين في التاريخ على أنفسنا وهو: هل هناك طريقة واضحة للبحث العلمي التاريخي؟!

أن العلماء الذين يبحثون في الماضي يفكرون غالباً بطريقة تشبه كثيراً طريقة المحققين الذين يبحثون عن المجرم، يأخذ المحققون عدداً من المشتبهين بعين الاعتبار ليحددوا هوية الجاني عند محاولة إعادة بناء مسرح الجريمة، وبطريقة مشابهة، يقيم علماء التاريخ الطبيعي – أمثال علماء الجيولوجيا والآثار والأحافير والكونيات والبيولوجيا التطورية – وزن وقيمة التفسيرات المتنافسة في محاولة لاكتشاف سبب وقوع حدث محدد في الماضي، أو ظهور بنية، أو ظهور دليل ما، ويستخدم علماء التاريخ الطبيعي لذلك منهجاً علميّاً يسمى **"منهج الفرضيات المتعددة المؤثرة".**[٢]

لذلك علينا أن نُدرك أن هناك أنواعاً مختلفة من البحث العلمي، فهناك نوع هو المعني بالبحث في الماضي والتحقيق فيه وشروحه. لذا؛ علينا أن نميز بين "علم النشأة أو البدايات" و "علم العمليات أو التجريبي".

وفي هذه الفقرة سأحاول الإجابة عن هذه الأسئلة الهامة:

- ما هي الكيفية التي تحرى بها العلماء عن الماضي؟
- هل هناك منهجية علمية مخصوصة لدراسة الماضي السحيق؟
- هل هناك أسلوب مميز للبحث العلمي التاريخي؟

---

(١) ماري لين رامبولا، دليل الكتابة التاريخية، ص ٢١ .

(٢) د.ستيفن ماير، التوقيع في الخلية: الدنا وأدلة التصميم الذكي، ط ١، ترجمة: د.آلاء حسكي ومهند التومي وآخرون، القاهرة – مصر، مركز براهين للأبحاث والدراسات، يناير ٢٠١٧م، ص ٨٥ .

- هل تقبل تلك الاستنتاجات الخضوع للاختبار؟ وكيف تُختبر؟

نعم؛ هناك منهج خاص للاستدلال على الأحداث غير القابلة للتكرار ولا التجريب، والتي تشمل علوم التاريخ والتاريخ الطبيعي (البيولوجية)، ونشأة الكون والحياة والإنسان والتي تُعرف بعلوم البدايات، ويعرف هذا المنهج بـ **"اللجوء إلى أفضل التفسيرات Inference to the best explanation"**. واللجوء إلى أفضل التفسيرات ليس بعيداً عن المنهج التجريبي؛ فالعلماء يبحثون عن أفضل التفسيرات لنتائج تجاربهم.

وهذا المنهج يعني أن يقارن علماء التاريخ الطبيعي الفرضيات المختلفة ليعرفوا التفسير الأمثل لنشأة حدث أو بنية في الماضي من بين تلك التفسيرات، ثم يقرون مؤقتاً الفرضية المفسرة للبيانات تفسيراً أمثل بكونها أصح الفرضيات فيما يغلب الظن.[(١)]

ولكن يأتي السؤال الهام هنا: ما الذي يجعل التفسير لحدث ماضٍ هو الأمثل؟

إن التفسير الجيد (أو الأمثل) يستشهد بحدث أدى إلى "اختلاف سببي" في النتائج. وأن يفسر أيضاً العديد من الأدلة الأخرى؛ وبهذا يكون ذو قدرة تفسيرية كبيرة.[(٢)]

ولكن يبقى السؤال: ما هي المعايير التي تحدد أيّ الأسباب الماضية من بين مجموعة الأسباب الماضية المحتملة هو الذي يمثل التفسير الأمثل في مثل هذه الحالات؟!

أنه في مثل هذه الحالات – حيث يوجد أكثر من تفسير سببي واحد – يستخدم العلماء منهجيةً للتقييم المقارن وطريقةَ استبعادٍ لتقييم الفرضيات السببية المحتملة المتنافسة.

---

(١) د.ستيفن ماير، التوقيع في الخلية: الدنا وأدلة التصميم الذكي، ص ٢٠٨ .

(٢) نفس المرجع، ص ٢١٢ – ٢١٣ .

معيار الكفاية السببية

طور علماء التاريخ الطبيعي معيارين أساسين لتحديد – من بين مجموعة من الأسباب المحتملة المتنافسة – السبب الذي يوفر التفسير الأمثل للأدلة، ويدعى أهمهما بـ **"الكفاية السببية casual adequacy"**، وهو يطالب علماء التاريخ الطبيعي بتحديد الأسباب التي تُعرف بقدرتها على إنتاج هذا الأثر أو السمة أو الحدث المطلوب تفسيره، كشرط لنجاح التفسير، وبذلك يُقَيم علماء التاريخ الطبيعي الفرضيات في ضوء معرفتهم الحالية بالسبب والأثر، والأسباب التي يُعرف أنها تنتج الأثر الذي تتم دراسته يُحكم عليها بأنها أفضل من تلك الأسباب التي لا تنتج هذا الأثر.[١]

ولكن يأتي السؤال هنا: ما الذي يجعل إعادة تركيب الماضي سهلاً أو صعباً؟

أن مهمة استنتاج الماضي قد تكون سهلة أو صعبة (أو حتى مستحيلة) بناءً على عدد الأسباب التي تنتج الأثر المدروس: هل هو سبب واحد أم أسباب كثيرة؟

أي؛ أن استطاع العلماء اكتشاف أثرٍ عائدٍ لسبب واحد مقنع فقط، فبإمكانهم وبثقة كبيرة استنتاجُ وجود ذلك السبب في الماضي أو وجود عمله، ولكن إن لم يستطيعوا اكتشاف ذلك فسيصبح إثبات وجود السبب الماضي أصعب بكثير جدّاً.[٢]

ولكن إن لم يستطيع الباحثون في الماضي العثور على حقيقة واحدة يمكن تفسيرها جيداً بطريقة وحيدة فريدة (من خلال الإشارة إلى السبب الوحيد المعروف بإنتاجه لذلك النمط من الحقائق فقط)، فسيحاولون العثور على مجموعة أوسع من الحقائق يكون لها تفسير وحيد كافٍ.[٣]

---

(١) د.ستيفن ماير، التوقيع في الخلية: الدنا وأدلة التصميم الذكي، ص ٢١٥ .

(٢) نفس المرجع؛ ص ٢١٨ – ٢١٩ .

(٣) د.ستيفن ماير، التوقيع في الخلية: الدنا وأدلة التصميم الذكي، ص ٢٢٠ – ٢٢١ .

مثال الطريق المبلل: [1]

تخيل أنني استيقظت من قيلولة، ورأيت ممر السيارة في حديقة منزلي يتلألأ بالماء، والسيارة في الممر مبتلة أيضاً، ما الذي يمكنني استنتاجه من هاتين الحقيقتين، أو الدليلين؟

هناك بالفعل العديد من التفسيرات "الكافية سبباً"، إذ ربما أمطرت السماء بينما كنت نائماً، أو ربما اشتغلت رشاشات الماء الأوتوماتيكية، أو أن شخصاً رش السيارة والممر بخرطوم مياه، ومن البيانات المأخوذة من الممر والسيارة فحسب، فإن جميع تلك التفسيرات محتملة معقولة، وكل سبب من الأسباب المذكورة معروف بقدرته على إنتاج ذاك الأثر.

فكيف أقرر أيّ هذه التفسيرات ذات "الكفاية السببية" هي التي تفسر البيانات أمثل تفسير؟

فمن الواضح أنني أحتاج إلى البحث عن أدلة أخرى؛ وأنا أبحث عن الأدلة اكتشفت جفاف الشارع والعشب تماماً، والسماء صافية، الآن فيم أفكر؟ بالرغم من أن نظرية رشاش المياه والعاصفة الممطرة لا تزالان محتملتين، إلا أنهما الآن أصبحتا ضعيفتي الاحتمال في ضوء الدليل الجديد.

تخيل أنني بحثت أكثر، فوجدت دلواً من الماء والصابون مع إسفنجة بجانب السيارة، عندها يتضح التفسير الأمثل لمجموعة الملاحظات كلها بهذه المعلومة الإضافية: ربما غسل أحدهم السيارة، ثم رش الدرب بخرطوم المياه، فقدمت لنا فرضية غسيل السيارة التفسير الوحيد "الكافي سببياً" لمجموعة الحقائق كلها، وذلك يتوفر تفسير كافٍ (فقط) لبعض الحقائق (البلل على السيارة والدرب) وتفسيراً كافياً وحيداً فريداً للأدلة الأخرى (دلو الماء والصابون).

---

(١) نفس المرجع، ص ٢٢١ – ٢٢٣ .

يظهر لنا هذا المثال البسيط كثرة استخدامنا منهجية "اللجوء إلى أفضل التفسيرات" لتحديد سببٍ ماضٍ لأحداثٍ معينة عندما يكون هناك أكثر من سببٍ قادر على تفسير الدليل ذاته.

فإن تحديد التفسير الأمثل يتضمن غالباً توليد قائمة من الفرضيات المحتملة، ثم مقارنة قدراتها السببية المعروفة (أو المعقولة نظرياً) بإحداث الأدلة ذات الصلة، ثم البحث عن حقائق أخرى إن دعت الحاجة، ثم استبعاد التفسيرات المحتملة غير الكافية باستمرار كما يفعل المحقق، حتى يبقى عندنا في النهاية تفسير واحد كاف سببيّاً لمجموعة الأدلة.

معيار الوجود السببي

توجد طريقة أخرى للتفكير في معضلة إعادة بناء الماضي عند وجود عدة أسباب محتملة للتأثير ذاته، فإن كان هناك أكثر من تفسير واحد كافٍ سببياً للدليل ذاته، فسيحتاج العلماء عندئذ لتحديد الأسباب الكافية التي كانت **موجودةً بالفعل،** وهل هي مسؤوله حقّاً عن الحدث المدروس؛ ولهذا السبب رأى بعض فلاسفة العلوم أن التفسيرات "المثلى" لأحداث الماضي يجب أن تحقق معيارين: الكفاية السببية و **"الوجود السببي causal existence".** [1]

*****

استخدمت هذه الإستراتيجية الأخيرة في مثال الطريق المبلل، فلما كان هناك العديد من الأسباب التي يحتمل أن تبلل الطريق، استلزم تحديد السبب المسؤول **مقارنة القدرة التفسيرية للفرضيات المختلفة،** بناءً على **مجموعة من الحقائق المرتبطة ببعضها،** أثبت هذا التقييم أن واحداً فقط من كل التفسيرات الكافية سببياً لتبلل الطريق قدم تفسيراً لكل الحقائق الأخرى ذات الصلة، ولذا فهو **يثبت أن أحدهم**

(١) د.ستيفن ماير، التوقيع في الخلية: الدنا وأدلة التصميم الذكي، ص ٢٢٣ .

غسل السيارة، وأن تلك العوامل السببية المضمنة في تلك الفرضية (خرطوم المياه ودلو الماء) كانت موجودة في الماضي، وعليه، حققت فرضية غسل السيارة معيار الوجود السببي (ولكونها حققت من قبل معيار الكفاية السببية، فقد تأهلت لتصبح التفسير الأمثل).[1]

يعتمد تحقيق أحدِ المعيارين (الوجود السببي) على حسن تحقيق الفرضية للمعيار الآخر (الكفاية السببية) سواءً بالنسبة لحقيقة واحدة أو لمجموعة من الحقائق؛ ولذا فالمعياران مرتبطان – عمليّاً – ارتباطاً وثيقاً.

إذاً؛ فلكي يثبت عالم التاريخ زعماً سببياً، فإنه يحتاج إلى:

١- دليلٍ على أن "السبب الذي يرشحه" كان موجوداً.

٢- دليل على أنه قد أظهر في مناسبات أخرى قدرته على إنتاج ذلك الأثر.

٣- غياب الدليل (بالرغم من البحث المعمق)؛ على وجود أسباب أخرى محتملة.

معيار التفرد السببي [2]

بعد كل ما سردته من معايير لتحقيق "التفسير الأفضل"؛ بقى لنا المعيار الأخير وهو: **"التفرد السببي causal uniqueness".**

أن تحقيق الشرط الثالث (التفرد السببي) يضمن عملياً أن الشرط الثاني (الوجود السببي) سيتحقق أيضاً، ولهذا السبب، هناط طريقة أبسط للتفكير في معضلة إعادة البناء التاريخي ألا وهي: لكي يستحق التفسير التاريخي أن يكون **التفسير الأفضل** فعليه أن يعتمد على سبب فريد كاف، وهو سبب أثبت قدرته على إنتاج الدليل المدروس **بمفرده،** وفي تلك الحالة حيث يوجد سبب واحد فقط معلوم لأثر ما أو مجموعة أدلة، يثبت وجودُ الأثرِ أو الدليلِ فعلَ السبب (ووجوده) في الماضي.

---

(١) نفس المرجع، ص ٢٢٥ .

(٢) د.ستيفن ماير، التوقيع في الخلية: الدنا وأدلة التصميم الذكي، ص ٤٣٣ .

الفصل الثاني

منهج تدبر النص القرآني

فكرة ختم القرآن في رمضان !

عندما كنت مراهقاً كنت أسمع من الشيوخ على التلفاز فضل قراءة القرآن في رمضان. وكان أحد الدعاة الجدد قد أطلق مسابقة للشباب في شهر رمضان في الأعوام السابقة من الزمن؛ والمسابقة كانت عن أكثر شخص يستطيع أن يحقق أكبر عدد ممكن من ختامات القرآن الكريم! وكأنها مسابقة جري رياضية! غير مسابقات الأزهر لحفظ القرآن وتجويده وهذه المسابقة تقام كل عام في شهر رمضان!..

ولا أعلم لماذا كل هذه المسابقات العجيبة؟! ولماذا لم أسمع عن مسابقة لتدبر القرآن مثلاً ؟ وكأن التدبر ليس مطلوب منا كما أمرنا الله تعالى؟!

في النهاية وفي ظل كل هذا الخطاب الديني المتناثر بكثرة في السوق الديني، أُعجبت كشاب لا يفهم كثيراً في أمور الدين وقررت أن أختم القرآن في شهر رمضان وأنا في سن المراهقة، قد تكون هذه المحاولات ما بين الأعوام التالية من عمري (ما بين ١٥ إلى ١٩ سنة).

وفي كل عام أقرر أن أختم فيه القرآن لم أستطع أن أفعل ذلك! وشعرت أن بي عيب أو أن الله لا يقبل ما أفعله لأني من المغضوب عليهم!..

وفي النهاية عندما كنت اتلوا القرآن شعرت وكأنني اتلوا كتاب المدرسة الذي سوف أُمتحن فيه فاتلوه سريعاً دون تمعن ودقة لكي أنهيه سريعاً وأحقق أكبر عدد ممكن من الختامات للقرآن!.

وفي النهاية فطرتي الربانية جعلتني أتوقف عما أفعله من فعل مستنكر لفطرتي هذه؛ وشعرت أن هناك شيء خاطئ أفعله وبالفعل كل عام في شهر رمضان كنت أغير فكرتي عن النص القرآني. وقررت في نهاية الأمر أنني أسوف أحاول أن أتلو القرآن ليس لمجرد التلاوة فقط أو لتحقيق أكبر عدد ممكن من خاتمة للقرآن، ولكن سوف أحاول أن أفهم ما اقرأه.

وبالفعل عند قرأت كل سطر من النص القرآني كنت اسأل نفسي: ماذا تعني هذه الكلمة أو كل هذه الكلمات الموجودة في النص القرآني الذي أحاول قرأته ؟

وكثيراً ما كنت لا أفهم معاني هذه الكلمات. وأخذت عهد على نفسي أنني سوف أقتحم هذا المجال الديني الكبير حتى لو لم أكن داعية ولكن سوف أفهم ما هو الدين لكي أفهم ماذا يعني النص القرآني في كل ما يقوله وكل ما يطلبه مني من أوامر دينية.

وبدأت الرحلة في السؤال عن أفضل الكتب لفهم ومعرفة النص القرآني، فقالوا لي عليك وعلى كتب التفاسير ودلوني على تفسير الشيخ الشعراوي فهو رجل معاصر وقريب من زماني. وبالفعل بدأت أنتظر كل عام شهر رمضان لأشاهد برنامج التفسير للشيخ الشعراوي، ولكني أيضاً لم أكن أفهم من كلامه شيئاً ! وشعرت أن العلماء مثل الشعراوي يجب أن يقولوا كلام غير مفهوم حتى يكون كلام ذات قيمة كبيرة ! وأني لست مؤهل لأفهم هذا الكلام الغير مفهوم ! وكأنها معادلات رياضية لأينشتاين !!

وعند بداية مرحلة الشباب مع بداية سن العشرين؛ بدأت أتوغل أكثر في الدين والسيرة النبوية وغيرها من هذه الأمور. وقلت في النهاية ليس لي حل إلا التعلم من شيوخ الأزهر فهم رجال الدين الذين يفهمون الدين بشكل صحيح وهم الأحق أن أتبعهم وأفهم ما يقولون لعلي أكون مثلهم يوماً !..

وكان موقع اليوتيوب (Youtube) هو المكان الوحيد في هذا الوقت لأفهم من شيوخ الأزهر كيف أفهم القرآن جيداً. فبحثت وبحثت وبحثت وبحثت حتى وجدت قناة رسمية للأزهر فدخلت وشاهدت ما يقولون وفهمت أنني لكي أفهم النص القرآني علي أن أفهم علم تراثي يسمى (علوم القرآن).

وسألت نفسي حينها كيف هو علم وأسمه (علوم القرآن)؛ أليس هذا تناقض في الاسم ؟!

وقلت لنفسي لعلها عدة علوم في علم واحد (don't mix) !!

وفهمت منهم أنها حقاً عدة علوم جُمعت لكي نفهم النص القرآني. فقالوا عليك أن تفهم متى نزل القرآن والفرق بين النصوص المكية والنصوص المدنية وعليك معرفة أسباب النزول.

وبعدها تعلم الناسخ والمنسوخ؛ فقلت وما هو؟ فقالوا باختصار: أنه علم يقول لك ماذا حُذف من النص القرآني بعد نزوله !

فتعجبت وقولت: ألم يقل لي القرآن أنه محفوظ.

قالوا: وما المانع في ذلك؟! أنه نعم محفوظ ولكن حُذفت منه بعض الآيات بعد نزولها.

فقال لي عقلي: ما هذه العلوم المتناقضة؟ هو أنا اللي غبي ولا هما ؟! فتعجبت كثيراً وقولت لنفسي: كيف يمكن أن ينزل نص من عند الله ثم يرجع الإله في كلامه مرة أخرى ويحذفه ويعدله! أليس هذا من التناقضات لو كان هذا الكلام صحيحاً سوف أقرر أنني لن أعبد هذا الإله المتناقض!..

ولكن فطرتي قالت: لا يمكن أن يكون الإله الذي تعبده يكون كذلك وإنما بالتأكيد العيب فيمن نسب هذه العلوم للإله! فبدأت في رفض ما أسمعه من شيوخ الأزهر ومن أمثالهم شيوخ السلفية وقولت والله الذي لا إله إلا هو لن أسلم عقلي إلا للمنطق ولفطرتي وسوف تهديني يا رحيم.

ولم يكتفوا بكل هذا ولكن وضعوا الكثير من العراقيل أمام طالب العلم وقالوا له هذه العلوم هي ما تسمى (علوم القرآن) وهذا ما قدمه لنا الأقدمين من العلماء الأفاضل وعلينا أن نتبع ما قدموه لنا؛ وليس في الإمكان أبدع مما كان.

لذلك قررت البحث عن وسائل جديدة ومعارف جديدة عصرية تساعدني في فهم النص القرآني وهذا ما سوف أعرضه لكم في هذا البحث القصير.

مدخل للمنهجية

أننا اليوم عندما نُريد أن نتدبر القرآن – نفسره – فأننا نستخدم فهم السلف القدماء فيما قالوه هم في تفسير القرآن. ونستخدمه مرة أخرى ولكن بطريقة عصرية يمكن فهمها لغير المختص!..

وهذا عمل لا أفهمه حيث أننا لدينا عقول خلقها الله تعالى لنا كي نتحرر بفكرنا بعيداً عن مبدأ التبعيه للأخر (هذا ما وجدنا عليه آباءنا)؛ الذي يقول لك في الكثير من الأوضاع أغمض عينيك وأتبعني!..

الله يقول لنا: "أفلا يتدبرون القرآن"؛ وهم يقولون لنا: "ما ترك السلف للخلف من شيء، فأتبعوا ما قاله السلف ولا تفعلوا البدع في كلام الله لأن كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار"..

نحن نحتاج اليوم إلى منهجية متكاملة نستطيع أن نستعملها لتدبر النص القرآني. فنحن يمكننا أن نتعامل مع النص القرآني كظاهرة، والظاهرة القرآنية ظاهرة فريدة. تحتاج في التعامل معها إلى نحت منهج معرفي خاص وجديد، للتعامل معها بشكل علمي.

مفهوم المنهج:

قال تعالى: { لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً **وَمِنْهَاجًا** } (المائدة: ٤٨).

أتت هذه اللفظة (مِنْهَاجًا)، من الجذر اللساني العربي؛ الثلاثي (نهج).

وهذا الجذر ورد في التنزيل الحكيم – المصحف – مرة واحدة فقط؛ في سورة (المائدة: ٤٨).

دعونا نلقي نظرة على المعنى المقصود للفظة في بعضِ المعاجم اللغوية لهذا الجـذر – نهج – ونرى ماذا قالوا عنه.

(نهج): النهج، الطريق. ونهج لي الأمر: أوضحه. [1]

المِنهاجُ: الطريقُ الواضِحُ. ونَهَجتُ الطريقَ: سَلَكتُه. [2]

نأتي الآن لتحليل لفظة (ن – ه – ج) فيزيائياً:

(ن): صوت يدل على ستر أو اختباء أو سكون.

(ه): صوت يدل على تأرجح خفيف منضبط.

(ج): صوت يدل على جهد أو شدة.

(نهج): لفظة تدل على السكون، يعقبها تأرجح خفيـف منضـبط، ينتهـي بالجهـد الشديد.

وإذا أضفنا حرفي (م) و (آ)؛ يكون المعنى كتالي:

(م): صوت يدل على جمع متصل ينضم ويتداخل ويتكامل في أطار واحد.

(آ): صوت يدل على إثارة وامتداد في الزمان والمكان.

(منهاجا): لفظة تدل على الجمع المتصل المتكامل في إطار واحد، يعقبـه السـكون، ثم التأرجح الخفيف المنضبط، فيتوقف بإثارة وامتـداد في الزمكـان، ثـم يعقبـه جهـد شديد، منتهي مرة أخرى بإثارة وامتداد في الزمان والمكان.

ومما تقدم من المعنى الفيزيائي للفظة (منهاجا)؛ نستطيع القول بأن هذا ما تقدمه لنا اللفظة من معنى واقعي.

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩ م، الجزء الخامس، ص ٣٦١ .

(٢) محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، دار صادر – بيروت، الجزء الثاني، ص ٣٨٣ .

حيث أننا نرى أن (المنهج) يفعل ذلك للباحث؛ فهو يجعله يجمع المعلومات بشكل متصل لتتداخل في إطار واحد متكامل، ثم يسكن ويهدأ لـيرى كيـف أن تخدمـه هـذه المعلومات في منظومته المعرفية الذي يعمل من خلالها، فيكون متأرجح ولكن بشـكل منضبط لأنه يحاول تنظيم هذه المعلومات بشكل جيد ومنظم، فيبـذل في ذلـك الجهـد والتعب الشديد حتى تنتظم هـذه المعلومـات في الإطـار الصـحيح، وبـذلك تحـدث الإثارة بهذه المعلومات في الزمان والمكان الذي ينتمي لهم الباحث.

وفي تعريف "المـنهج Method"؛ تقـول الـدكتورة "يمنـى طريـف الخـولي"[١] التالي:"بصفة عامـة هـو الطريقـة، بمعنـى الطريـق الواضـح الـذي يفضيـ إلى غايـة مقصودة، فيكون المنهج طريقاً محدداً لتنظيم النشاط من أجل تحقيـق الهـدف المنشـود. والمنهج العلمي هو طريقة تنظيم عملية اكتساب المعرفة العلمية، إنه المبادئ التنظيميـة الكامنة في الممارسات الفعلية للعلماء الذين انخرطوا بنجاح في إنتـاج المعرفـة العلميـة والإضافة لنسق العلم".[٢]

فـ (المنهج): هو مجموعة من الإجراءات والخطوات والاختبارات والقواعد المتبعة في مجال معيّن للوصول إلى نتيجة.

وعلينا القول بأن المنهج كسائر المناهج العلميَّة المكتشفة، عبارة عـن نتـاج تكـاملي لجهود مشتركة بين الدّارسين والباحثين عبر السنين.

مفهوم التدبر:

قال تعالى: { أَفَلَا **يَتَدَبَّرُونَ** الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } (محمد: ٢٤).

---

(١) ولـدت في مصـر، بتـاريخ : (٣١ أغسـطس ١٩٥٥)؛ هي أسـتاذةُ فلسـفةِ العلـوم ورئـيس قسـم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة.

(٢) أ.د.يمنى طريـف الخـولي، فلسـفة العلـم في القـرن العشـرين: الأصـول – الحصـاد – الآفـاق المستقبلية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٤ م، ص ١٢٨ .

أتت هذه اللفظة (يَتَدَبَّرُونَ)، من الجذر اللساني العربي؛ الثلاثي (دبر).

وهذا الجذر ورد في التنزيل الحكيم حصراً (٤٤) مرة فقط؛ وهم كالتالي بالعدد: أَدْبَارَهُم (١) أَدْبَارِكُم (١) أَدْبَارِهَا (١) أَدْبَارِهِم (٢) أَدْبَرَ (٤) الأَدْبَارَ (٥) الدُّبُرَ (١) دَابِرَ (٣) دَابِرُ (١) دُبُرٍ (٣) دُبُرَهُ (١) فَالْمُدَبِّرَاتِ (١) لِيَدَّبَّرُوا (١) مُدْبِرًا (٢) مُدْبِرِينَ (٦) وَأَدْبَارَ (١) وَأَدْبَارَهُم (٢) وَإِدْبَارَ (١) يَتَدَبَّرُونَ (٢) يَدَّبَّرُوا (١) يُدَبِّرُ (٤)

دعونا نلقي نظرة على المعنى المقصود للفظة في بعضِ المعاجم اللغوية لهذا الجذر (دبر) ونرى ماذا قالوا عنه.

(دبر): هو آخِر الشَّيء وخَلْفُه خلافُ قَبُلِه.[1]

نأتي الآن لتحليل لفظة (د – ب – ر) فيزيائياً:

(د): صوت يدل على دفع شديد متوقف.

(ب): صوت يدل على الانتقال من شيء لنقيضه.

(ر): صوت يدل على حركة سريعة متكررة منتظمة أو مرتبطة ومتصلة.

(دبر): لفظة تدل على دفع شديد متوقف، ينتقل إلى نقيض ما كان عليه في بداية الأمر، وينتهي بحركة سريعة ومتكررة بشكل منتظم ومتصل.

وإذا دخل حرف التاء في بداية اللفظة فإنها تدل على الجهد والطاقة المبذولة في هذا الفعل.

(ت): صوت يدل على دفع خفيف متوقف لاجتذاب واجتماع الحركات.

(تدبر): لفظة تدل على اجتذاب واجتماع الحركات بجهد، يعقبه دفع شديد يتوقف، لينتقل إلى نقيض الحالة التي كان عليها في بداية أمره، وينتهي بحركة سريعة متكررة بشكل منتظم ومتصل.

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، ج ٢، ص ٣٢٤ .

فالشخص المتدبر يحاول بذل كل طاقته وكل ما في وسعه حيث أنه كان في حالة سكون، ولكن مع استخدام المنهج بدأ يُعمل عقله ليدفع بعقله إلى فهم الشيء المطلوب فهمه، فيدفع عقله بشكل شديد ويتوقف، ثم ينتهي بنقل حركته إلى شكل سريع متكرر، حيث أنه يحاول أن يأتي بأخر ما عنده من طاقه لفهم ما يريد فهمه، ثم يجمعه في شكل متصل ومنتظم.

المنهج اللفظي الترتيلي

وقد يسأل سائل أن هذا المنهج التجريبي لا يطبّق على العلوم الإنسانية؟!

فيُجيب في ذلك الدكتور "محمد بهجت قبيسي"[(١)] ويقول لنا:

"أننا في فقه العربيات نتعامل مع (٢٩) تسعة وعشرين حرفاً بكافة احتمالات تركيباتها، فنحن لا نتعامل في هذا البحث مع نص أدبي بل نتعامل مع الكلمة المختارة من ٢٩ حرفاً.

والمنهج التجريبي بدايته الملاحظة الدقيقة ووسيلته التجريب والضبط وأن يتجلى في البحث ونتائجه الموضوعية الكاملة، حسب قانون الاحتمالات. وهكذا فإن وجدنا دليلاً واحداً قلنا (نظن)، وإن وجدنا دليلن قلنا (نرجِّح)، وإن وجدنا ثلاثة أدلّة فما فوق حق لنا أن نقول (نقّرر)". [(٢)]

وكما قال "ابن حزم الظاهري" : "التجاربَ لا تكون إلا بتكرير الحال مراراً كثيرةً جداً على صفة واحدة لا تستحيلُ أبداً"[(٣)] ؛ "أن التجربة لا تصح إلا بتكرُّرٍ كثير موثوق بدوامه تضطر النفوس إلى الإقرار به"[(٤)] .

---

(١) من مواليد دمشق – سوريا، عام (١٩٤٠ م). هو أستاذ الكنعانية والآرامية واللهجات العروبية والتاريخ القديم في جامعات حلب وتشرين والقاهرة سابقاً. وهو المنسق العام لاتحاد الآثاريين العرب، وعضو مجلس أمناء مؤسسة القدس الدولية (سورية).

(٢) د.محمد بهجت قبيسي، ملامح في فقه اللهجات العربيات: من الأكادية والكنعانية وحتى السبئية والعدنانية، دار الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق – سوريا، ط١، ٢٠٠١ م، ص ٢٩ – ٣٠ .

(٣) ابن حزم، رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق:احسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٧ م، الجزء الرابع، ص ٧٠ .

(٤) ابن حزم الظاهري، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق: د.محمد إبراهيم نصر و د.عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٩٦ م، الجزء الخامس، ص ١٤٩ .

يقول الدكتور "نصر حامد أبو زيد"[1] : "القرآن نص لغوي يمكن أن نصـفه بأنـه يمثل في تاريخ الثقافة العربية نصاً محورياً. وليس من قبيل التبسيط أن نصف الحضارة العربية الإسلامية بأنها حضارة (النص)، بمعنى أنها حضارة أنبنـت أسسـها وقامـت علومها وثقافتها عـلى أسـاس لا يمكـن تجاهـل مركـز "الـنص" فيـه... وللقـرآن في حضارتنا دور ثقافي لا يمكن تجاهله في تشكيل ملامح هذه الحضارة وفي تحديد طبيعة علومها".[2]

ويضيف قائلاً: "إن البحث عن مفهوم "الـنص" لـيس في حقيقتـه إلا بحثـاً عـن ماهية "القرآن" وطبيعته بوصفه نصاً لغوياً".[3]

ولذلك سأقدم لكم منهج علمي جديد كما قلنا للتعامل مع النص القرآني بأعتباره نص لغوي يعتمد على الألفاظ العربية.

مفهوم اللفظ:

قال تعالى: { مَّا **يَلْفِظُ** مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } (ق: ١٨).

أتى هذا المفهوم (يَلْفِظُ)، من الجذر اللساني العربي؛ الثلاثي (لفـظ). وهـذا الجـذر ورد في التنزيل الحكيم مرة واحدة فقط؛ في سورة (ق: ١٨).

---

(١) من مواليد محافظة طنطا – مصر؛ بتاريخ: (١٠ يوليو ١٩٤٣ م)، وتوفي ودفن في طنطا بتاريخ: (٥ يوليو ٢٠١٠ م). حصل على الدكتوراة في الدراسات الأسلامية من قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب جامعة القاهرة عام (١٩٧٩ م). كان أستاذ بكلية الآداب جامعة القاهرة عام (١٩٩٥ م). له العديد من المؤلفات في الدراسات القرآنية الحديثة. حصل على جائزة عبد العزيز الأهواني للعلوم الإنسانية من جامعة القاهرة عام (١٩٨٢ م). كان أستاذ زائر بجامعة أوساكا للغات الأجنبية باليابان من عام (١٩٨٥ م) إلى (١٩٨٩ م).

(٢) نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي و مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الدار البيضاء – المغرب، ط١، ٢٠١٤ م، ص ٩ .

(٣) نفس المرجع، ص ١٠ .

دعونا نلقي نظرة على المعنى المقصود للفظة في بعضِ المعاجم اللغوية لهذا الجذر (لفظ) ونرى ماذا قالوا عنه.

(لفظ): تدلُّ على طرح الشَّيء؛ وغالب ذلك أن يكون من الفم. [1]

اللفظ: أن ترمي بشيء كان في فِيكَ. [2]

نأتي الآن لتحليل لفظة (ل – ف – ظ) فيزيائياً:

(ل): صوت يدل على حركة ثقيلة متصلة لازمة.

(ف): صوت يدل على تفرق الحركة في كافة الاتجاهات.

(ظ): صوت يدل على دفع شديد ملتصق.

(لفظ): لفظة تدل على حركة ثقيلة متصلة لازمة، يعقبها تفرق للحركة في كافة الاتجاهات، تنتهي بدفع شديد ملتصق.

حيث أن دلالة هذه اللفظة تتسق مع ما تم ذكره في المعاجم من أنها شيء يتم طرحه ورميه، فهذا ما يحدث لحركة كانت في بدايتها ثقيلة ومتصلة لازمة في مكان محدد، ثم بدأت في التفرق في كل الاتجاهات من خلال دفعها الشديد من خارج الفم.

أنَّنا أعتمدنا المفردة "لفظ" ولم نعتمد المفردة "كلمة"، وذلك لكون المادّة التي سنتناولها في بحثنا ودراستنا منحضرة فقط بما تمَّ لفظهُ وإثباتهُ بطريقةٍ محدّدة في ما بين دفتي القرآن الكريم. فالكلام قد ينكشف لنا دلالات ومعان أخرى، كما ثبت لنا من خلال بحثنا في النصّ القرآني بأدوات **المنهج اللفظي الترتيلي**.

أنَّنا نقيم فهمنا ونمارس عمليَّة الفهم بالمنهجيَّة التي أشرنا إليها على ما هو موجود داخل النصّ القرآني من ألفاظ. ونحاول أنْ نبني فهمنا على ما هو متعارف عليه من

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، ج ٥، ص ٢٥٩ .

(٢) محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، ج٧، ص ٤٦١ .

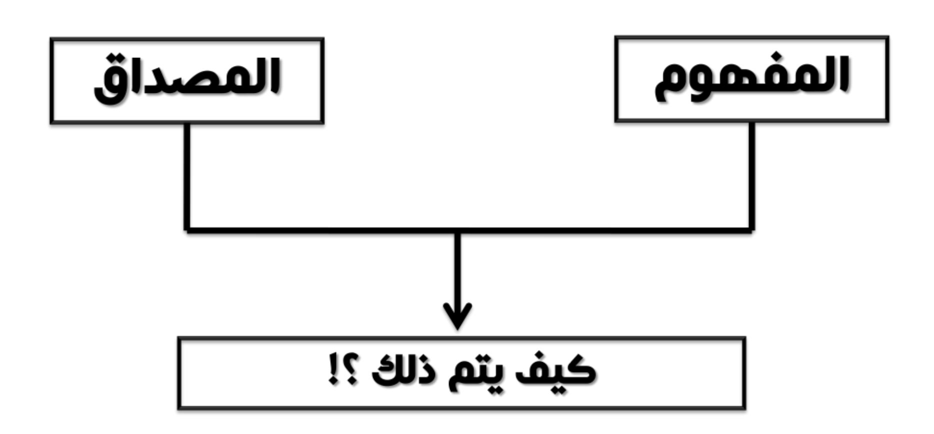
معانٍ تلك الألفـاظ؛ ملفتـين إلى أنَّ المـنهج – ونتيجـة لمـا فيـه مـن أدوات أخـرى – سيساعدنا تلقائياً على كشف التناقضات الموجودة – أحياناً – في المعاني أو التعريفـات السائدة عن الألفاظ، والناجمة عن الاستعانة بالمعاني العرفيَّة والتاريخيَّـة، أو بمحاولـة تطبيق النصّ القرآني على معان متداولة من قبـل أربـاب المعـاجم، لا تمـتُّ إلى المعنـى المفهومي للفظ بأيّةِ صلة؛ ولكنَّها قـد تكـون دخلـت عـلى المعـاني الأصـليَّة للألفـاظ لأسباب مختلفة. [1]

أنَّ منهجنا في التدبر هو أن نأخذ الألفاظ القرآنية ونرجـع بهـا إلى أصـلها اللسـاني العربي (الجذر)، فكل لفظة في اللسان العربي المبين تتكون من حروف وهذه الحـروف كونت بنية متكاملة أقلها هو حرفين وأكثرها هو ثلاثة حـروف. فالجـذر العـربي هـو هكذا أصله إما من حرفين أو ثلاثة حروف فقط؛ ومن هذا الجذر تتشكل كل الكلمات لدينا في العربية.

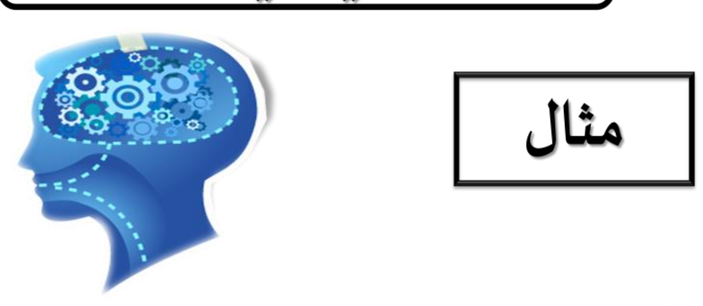
(١) قصي هاشم فاخر، المنهج اللفظي الترتيلي في فهم النص: المحاولة والنتائج، مجلة مسارات – السنة الثالثة، العدد ٨، تونس، خريف ٢٠١٦م، ص ١٦٨ .

المفهوم والمصداق

منهجي في التدبر







(ل) =
(ف) =
(ظ) =

مجموع دلالة هذه الحروف فيزيائياً = المفهوم المجرد في الذهن

فكل حرف من هذه الحروف له دلالة فيزيائية تعطي له معنى ومن جمع الدلالة لهذه الحروف يخرج لنا المعنى النهائي لهذا الجذر.

فالكتاب (التنزيل الحكيم) كله مفاهيم أي أن اللفظة الواحدة فيه هي (مفهوم) وعاء يحمل الكثير من المعاني والمصاديق في الواقع.

ويقوم المنهج اللفظي أيضاً على فكرة أساسية مفادها أنّ الألفاظ تشير دوماً إلى المعاني المفهومية، ما لم ترد قرينة على أنّها تشير إلى معنىً مصداقيٍّ والقرارُ في ذلك يعود إلى السياق.

(المفهوم)؛ هو: أفكار مجردة تأتي دلالتها من دلالة الحروف الرمزية المكتوبة.

(المصداق)؛ هو: تنزيل هذا المفهوم على الواقع في هيئة مسميات تُعبر عن صفات ما تم تسميته في الواقع.

مفهوم الترتيل

قال تعالى: { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ **وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا** } (الفرقان: ٣٢).

قال تعالى: { **وَرَتِّلِ** الْقُرْآنَ **تَرْتِيلًا** } (المزمل: ٤).

هذا الجذر الثلاثي (رتل) ورد في التنزيل الحكيم حصراً (٤) مرات فقط؛ فدعونا نلقي نظرة على المعنى المقصود للفظة في بعضِ المعاجم اللغوية لهذا الجذر (رتل) ونرى ماذا قالوا عنه.

(رتل): الرَّتَلُ: **حُسْن تّناسُق الشيء.** ورَتَّلَ الكلامَ: أَحسن تأليفه وأَبانَه وتمَهَّلَ فيه.

وفي التنزيل العزيز: { وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا }؛ قال أبو العباس: ما أَعلم الترتيل إِلا التحقيق والتبيين والتمكين. وقال ابن عباس: بَيِّنْه تبييناً. [1]

(الرَّتَلُ): اتِّساقُ الشيءِ وانْتِظامُه على اسْتِقامَةٍ. [2]

نأتي الآن لتحليل لفظة (ر – ت – ل) فيزيائياً:

(ر): صوت يدل على حركة سريعة متكررة منتظمة أو مرتبطة ومتصلة.

(ت): صوت يدل على دفع خفيف متوقف لاجتذاب واجتماع الحركات.

(ل): صوت يدل على حركة ثقيلة متصلة لازمة.

(رتل): لفظة تدل على حركة سريعة متكررة منتظمة ومتصلة، يعقبها دفع خفيف متوقف لاجتذاب واجتماع الحركات، منتهي بثقل في الحركة بشكل متصل متلازم.

ونحن هنا نعني أنَّ الفهم المقصود إنّما يتحصَّل عبر عمليَّةٍ منهجيَّةٍ تقوم على ترتيب الجمل القرآنية وإعادة ترتيبها لأكثر من مرّة ودون مراعاة شروط النزول أو الترتيب التوقيفي، واقتناص المعاني ومتابعتها من خلال ورود عدد اللفظ في الآيات المختلفة للوقوف على المعاني الدقيقة لكلِّ لفظٍ ومن ثم محاولة فهم الألفاظ القريبة من معنى اللفظ المبحوث.

وأنقل لكم في ذلك قول "ابن كثير" في تفسيره الشهير المعروف باسم "تفسير ابن كثير" فقد قال التالي:

"فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن **يُفَسَّر القرآن بالقرآن، فما أُجْمِل في مكان فإنه قد فُسِّر في موضع آخر**"[3].

---

(١) محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، ج ١١، ص ٢٦٥ .

(٢) الراغب الإصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط٤، دار القلم – دمشق، ٢٠٠٩م، ص ٣٤١ .

(٣) أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، ط ٢، دار طيبة للنشر والتوزيع – الرياض، ١٩٩٩ م، ج ١، ص ٧.

وأنا أتفق مع ابن كثير في هذا الموضوع جداً؛ حيث أنني سوف أتدبر القرآن بالقرآن وسيكون منهجنا قرآني بامتياز.

حيث يقوم المنهج على فكرةِ أولوية فهم معاني الألفاظ مفردةً من خلال دراسة جذورها ومشتقاتها عبر عمليات ترتيلية للآيات التي وردت فيها ومن خلال الربط بين الجمل والفقرات المختلفة التي وردت فيها الألفاظ بهدف فهم المعنى والتأكد منه.

والمنهج اللفظي الترتيلي هو محاولة لوضع طريقة واضحة المعالم لها أدوات وآليات محددة قابلة للعمل في مختلف الظروف وذلك في مسعى لفهم النصِّ القرآني بطريقة علمية، بحيث يتمكن ايَّاً كان من الإستفادة من هذه الأدوات والآليات لفهم النصِّ بمفرده.

مفاهيم قرآنية عن التاريخ

في هذه الفقرة سندرس بعض الألفاظ التي وردت في النص القرآني ولها علاقة بموضوع هذا الباب عن **"منهجية كتابة التاريخ"**.

مفهوم لفظة (نبأ):

قال تعالى: { أَلَمْ يَأْتِكُمْ **نَبَأُ** الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ } (إبراهيم: ٩).

قد أتت لفظة **(نَبَأُ)** المراد دراستها ، من الجذر اللساني العربي **(ن – ب – ء)**؛ وقد أتت هذه اللفظة **(١٦٠ مرة)** في التنزيل الحكيم.

ولقد بحثت عن معنى دلالي لها في المعاجم ولم أجد فقد تم مرادفة المعنى مع لفظة (خبر)؛ ولذلك سأكتفي بعرض التحليل الفيزيائي للفظة مع إستقراء النصوص القرآنية لنصل إلى المعنى الدلالي لها.

- نأتي لتحليل لفظة **(ن – ب – ء)** فيزيائياً:

(ن): صوت يدل على ستر أو اختباء أو سكون.

(ب): صوت يدل على الانتقال من شيء لنقيضه.

(ء): صوت خفيف يدل على ظهور مفاجئ في الزمان والمكان.

(نبأ): لفظة تدل على الستر والسكون ، يعقبها إنتقال الحركة ، لتنتهي بظهور مفاجئ في الزمان والمكان.

والنبأ هو **أمر غيبي لم يحضره الإنسان عند حدوث الواقعة؛** ويكون قصير في عرضه.

قال تعالى: { ذَٰلِكَ مِنْ **أَنبَاءِ الْغَيْبِ** نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ **وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ** إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ } (يوسف: ١٠٢)

قال تعالى: { ذَٰلِكَ مِنْ **أَنبَاءِ الْغَيْبِ** نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ **وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ** إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ **وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ** إِذْ يَخْتَصِمُونَ } (آل عمران: ٤٤)

ففي الآيات السابقة؛ تتحدث عن أنها: **(أَنبَاءِ الْغَيْبِ)** ، ويتبع معها في القول: **(وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ)** ، أي أنها أمور قد حدثت ولم نشهدها.

والأنباء أمور قد حدثت في الماضي ، أو ستحدث في المستقبل ، لكننا لم نشهدها ، لذلك عن الحديث عنها تكون أنباء لا أخبار.

قال تعالى: { تِلْكَ مِنْ **أَنبَاءِ الْغَيْبِ** نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ **مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ** هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ } (هود: ٤٩).

ففي هذه الآية تتحدث عن وقائع قد حدثت في الماضي ولم يعرفها النبي.

قال تعالى: { عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ **النَّبَإِ الْعَظِيمِ** (٢) } (النبأ).

ففي هذه الآية تحدث عن أمور في المستقل عن **(النَّبَإِ الْعَظِيمِ)** ، وحتى الآية تم تسميتها بسورة (النبأ) ، لأنها تتحدث عن أمور في الغيب لم نشهدها.

مفهوم لفظة (خبر):

قال تعالى: { فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ **خَبِيرًا** } (النساء: ١٣٥).

قد أتت لفظة **(خَبِيرًا)** المراد دراستها ، من الجذر اللساني العربي **(خ – ب – ر)**؛ وقد أتت هذه اللفظة **(٥٢ مرة)** في التنزيل الحكيم.

فدعونا ننظر إلى المعنى ودلالة اللفظة داخل معاجم اللغة العربية..

(خبر): الخاء والباء والراء أصلان: فالأول **العِلم** ، والثاني يدل على **لـينٍ ورَخـاوة وغُزْرٍ.** فالأول الخُبْر: **العِلْم بالشَّيءِ.** والله تعالى، الخبير: أي العالم بكلِّ شيء. والأصل الثاني: الخَبْراء ، **الأرض الليِّنة.**[١]

(خبر): خَبُرْتُ بالأمر أي **علمته.** وخَبَرْتُ الأَمرَ أَخْبُرُهُ إذا **علمته على حقيقته.**[٢]

(خبر): الخُبْرُ: **العِلْمُ بالأشياء المَعْلُومَةِ من جهـة الخـبر** ، وأخـبرتُ: أعلمـتُ بـما حصل لي من الخبر ، وقيل الخبرةُ **المعرفةُ ببواطن الأمور.**[٣]

- ونأتي لتحليل لفظة **(خ – ب – ر)** فيزيائياً:

(خ): صوت يدل على إخماد الحركات في مكانها وكبت جماحها فيحدث توقف عند هذا الحد.

(ب): صوت يدل على الانتقال من شيء لنقيضه.

(ر): صوت يدل على حركة سريعة منتظمة أو مرتبطة ومتصلة ومتكررة.

(خبر): لفظة تدل على حركة خامدة في مكانها ، تنتقل إلى نقيض ما كانـت عليـه ، فتنتهي حركتها بشكل سريع ومتكرر وتكون متصلة ومرتبطة ببعضها.

والخبر هنا عكس النبأ فهو **أمـر حضـوري؛** أي ليكـون خـبراً بالنسـبة لي عـلي أن أحضره ، وليكون خبراً بالنسبة للآخرين عليهم أن يحضروا هذه الواقعة.

قال تعالى: { فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَـارًا قَـالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي **آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ** أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} (القصص: ٢٩).

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الثاني، ص ٢٣٩ .

(٢) محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، الجزء الرابع، ص ٢٢٦ .

(٣) الراغب الإصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٢٧٣ .

فقد أتت لفظة **(خبر)** هنا في واقعة النبي موسى ، لأنه **سيحضر** النار فستكون خبر بالنسبة له.

قال تعالى: { إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) **يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا** (٤) } (الزلزلة).

وقد يسأل سائل: لماذا قال أخبارها ولم يقل أنباءها ، مع أن الحدث غيبي سيقع في المستقبل؟!

أقول: هذا صحيح على أنه مستقبل؛ ولكن هناك إنسان حضرها ويقول ما لها ، لذلك كان هذا حضور للإنسان ، والأرض ستُحدث أخبارها له هو ، لمن حضر.

وفي يومنا هذا نحن نقول: وكالات الأنباء ونقول إدارة المخابرات. لأن وكالات الأنباء تغطي خبراً قد يحدث في ثلاثة أيام وله تفاصيل كثيرة ، ولكنها تنقله لنا في عدة سطور ، أما إدارة المخابرات التي تحضر الحدث بكل تفاصيله فتعد تقريراً عن هذه الأحداث في عشرات الصفحات.

ونحن نقول اليوم على من يراقب الناس ويعمل في البوليس ، بالمخبر ، لأنه يحضر أحداث الشخص الذي يراقبه كل يوم ويعرف تفاصيله ، ثم ينقلها للقسم بشكل مفصل.

لذلك نقول: أن النبأ هو أمر غيبي قد يكون في الماضي أو المستقبل ولم نراه ، أما الخبر فهو أمر حضوري ، والنبأ يُنقل لنا بإختصار ، أما الخبر لأننا نحضره فنعرف كل تفاصيله.

مفهوم لفظة (أثر):

قال تعالى: { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً **وَآثَارًا** فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ } (غافر:٨٢).

قد أتت لفظة **(آثَارًا)** المراد دراستها ، من الجذر اللساني العربي **(ء – ث – ر)**؛ وقد أتت هذه اللفظة **(٢٢ مرة)** في التنزيل الحكيم.

فدعونا ننظر إلى المعنى ودلالة اللفظة داخل معاجم اللغة العربية..

(أثر): الهمزة والثاء والراء ، له ثلاثة أصول: **تقديم الشيء ، وذكر الشيء ، ورسم الشيء الباقي.** وقال الخليل: والأَثَر **بقيّة ما يُرَى من كلِّ شيء وما لا يرى بعد أن تبقى فيه علقة.** والأَثَارة: البقية من الشيء.[١]

(أثر): أثرُ الشيء: **حصول ما يدلُّ على وجوده** ، يقال: أَثَر وإِثْرٌ ، والجمع: الآثار. ومن هذا يقال للطريق المستدَل به على من تقدم: آثار.[٢]

- ونأتي لتحليل لفظة **(ء – ث – ر)** فيزيائياً:

(ء): صوت خفيف يدل على ظهور مفاجئ في الزمان والمكان.

(ث): صوت يدل على حركة إبطاء وتسكين لأجل الثبات.

(ر): صوت يدل على حركة سريعة منتظمة أو مرتبطة ومتصلة ومتكررة.

(ءثر): لفظة تدل على ظهور مفاجئ في الزمان والمكان ، يعقبه حركة إبطاء وتسكين للثبات ، ينتهي بتكرار وإتصال منتظم.

ومما تقدم يمكننا القول بأن (الأثر): يظهر بشكل مفاجئ في الزمان والمكان ، فهذا بالفعل يحدث فعلماء الآثار اليوم عندما يقومون بالحفر في أماكن محددة ، تظهر لهم أشياء بشكل مفاجئ في زمان ومكان محدد ، يكون هذا الأثر ساكن وثابت في مكانه المكتشف فيه ، ويكون متصل مع بعض ومتكرر.

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الأول، ص ٥٣ – ٥٥ .

(٢) الراغب الإصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٦٢ .

وفي ذلك يقول الأستاذ "جارونر E. A. Gardner": "يبحث علم الآثار في المنظور والملموس من تراث العصور الغابرة.. وهناك في بعض الحالات – ولا سيما فيما يخص مصر وبلاد ما بين النهرين – وثائق تاريخية كثيرة محفورة في الصخر أو مطبوعة على الطين، وكان ضرورياً تفسير هذه الوثائق وحل رموزها إذا أردنا أن نظفر منها بأي معلومات قيمة. وتفسير هذه النقوش يعتبر في الغالب فرعاً من علم الآثار، فواجب عالم الآثار في مثل هذه الحالات أن يعد المادة التي يستطيع المؤرخ أن يؤلف منها سجلات الحوادث وأن يكتب عن حياة الشعوب". [١]

مفهوم لفظة (قص):

قال تعالى: { نَحْنُ **نَقُصُّ** عَلَيْكَ **أَحْسَنَ الْقَصَصِ** بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ } (يوسف: ٣).

قد أتت لفظة **(الْقَصَصِ)** المراد دراستها ، من الجذر اللساني العربي **(ق – ص)**؛ وقد أتت هذه اللفظة **(٢٩ مرة)** في التنزيل الحكيم.

فدعونا ننظر إلى المعنى ودلالة اللفظة داخل معاجم اللغة العربية..

(قص): القاف والصاد أصلٌ يدلُّ على **تتبُّع الشَّيء**. من ذلك قولهم: اقتصَصْتُ الأثر ، إذ تتبَّعتَه. ومن ذلك القِصاص في الجِراح ، وذلك أنه يفعل به مثلُ فِعله بالأول، فكأنه اقتصَّ أثره. ومن الباب القِصَّة والقَصَص ، كل ذلك **يُتَتَّبع فيذكر.** [٢]

ومن الباب: قَصَت الشعر ، وذلك أنك إذا قصصته فقد سويت بين كل شعرةٍ وأختها ، فصارت الواحدة كأنها تابعةٌ للأخرى مُسَاويةٌ لها في طريقها.

---

(١) جارونر، علم الآثار، مترجم من كتاب: خلاصة العلم الحديث – الرسالة الرابعة، ترجمة: د.زكي محمد حسن ومحمود حمزه، سلسلة: المعارف العامة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٦ م، ص ٥ .

(٢) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الخامس، ص ١١ .

(قص): القَصُّ: **تَتَبُّعُ الأثَر**. والقَصَصُ: **الأخبارُ المُتَتَّبعةُ.**[1]

- ونأتي لتحليل لفظة **(ق – ص)** فيزيائياً:

(ق): صوت يدل على قطع أو وقف شديد.

(ص): صوت يدل على حركة متصلة محددة ومغلقة.

(قص): لفظة تدل على قطع ووقف شديد، ينتهي بحركة متصلة ومحددة ومغلقة على نفسها.

قال تعالى: { وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ **قُصِّيهِ** ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) } (القصص).

وهنا تطلب أم موسى من أخت موسى أن تتبع أثار موسى إلى أين سيذهب، وهي هنا ليست فاعلة في الأحداث فهي تشهدها من خارج دائرة الفعل، فتتبع الأثر هذا بالنسبة لها سيكون خبر، ولكن عندما تقول لأمها ما شاهدته سيكون نبأ.

ولكن تتبع الأثر من داخل دائرة الأحداث فهو كما ورد في قوله تعالى: { فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَاءَهُ **وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ** قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } (القصص:٢٥).

فعندما يقص موسى – أي يتتبع الآثار – القصص على الشيخ والد الفتاتين، فأنه هنا هو حاضر وفاعل في الأحداث التي يقصها. وهذ ه الأحداث بالنسبة إلى موسى هي أخبار أما بالنسبة إلى الشيخ (المتلقي) فهي أنباء.

---

(١) الراغب الإصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٦٧١ .

قال تعالى: { قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ **فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا** (٦٤) } (الكهف).

- لماذا في هذه الآية قال: "**فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا** ". لماذا يذكر الأثر ومعه القص، إن يقصد بالقص هو تتبع الأثر فقط؟!

لأن الأثر هو الشيء الدال على الفاعل ، وقد يكون شيء مادي أو معنوي ، أما القص فهو تتبع الأثر مع إدراكه – أي ربط الأحداث بعضها ببعض – وهنا يتدخل وعي القاصُّ المتتبع للأثر ، وفهمه في كيفية الربط.

وهذه الفروق قد أدركها الفيلسوف الكبير "هيجل" حين تكلم عن فلسفته في التاريخ؛ ويبدأ هيجل بفحص المناهج المختلفة التي يمكن أن يكتب بها التاريخ وحصرها في ثلاثة هي: **التاريخ الأصلي ، والتاريخ النظري ، والتاريخ الفلسفي.**

أولاً: التاريخ الأصلي:

المقصود بالتاريخ الأصلي ذلك التاريخ الذي يكتبه المؤرخ وهو يعيش "أصل" الأحداث ومنبعها ، فهو ينقل ما يراه أمامه أو ما سمعه من الآخرين كما هو ، وهو حين يقوم بنقل الأحداث فإنه يحملها إلى عالم التصور العقلي فتحوّل بذلك من إطارها الخاص إلى إطار داخلي هو تصور عقلي تماماً كما يستوحي الشاعر من الصور المادية التي ينفعل بها صوراً ذهنية.

ويمكن أن نوجز أهم خصائص هذا اللون من التاريخ على النحو التالي:

١- المؤرخ يعيش الأحداث التي يرويها وبالتالي فإن روح العصر التي شكلت الأحداث هي نفسها التي شكلت المؤرخ.

٢- تكون الفترة التي يكتبها المؤرخ عادة فترة قصيرة نسبياً.

٣- المؤرخ يهتم برواية أشكال فردية من الأحداث والأشخاص وأمور غير ممحصة.

٤- الهدف من روايته أحداث نفس الوضوح الذي كان لها عنده بفضل ملاحظاته الشخصية أو الروايات الحية التي سمعها. (١)

ثانياً: التاريخ النظري:

وهو اللون الثاني من الكتابة التاريخية ، والسمة الأساسية التي تميزه هي أن المؤرخ لا يعيش الأحداث التي يرويها وإنما هو يجاوز العصر الذي يعيش فيه لكي يؤرخ لعصر آخر.

وتتفرع هذه الطريقة الثانية في كتابة التاريخ، إلى أربعة أنواع أساسية تتسم كلها بسمة واحدة هي تجاوز المؤرخ لحدود عصره.

١- **النوع الأول:** وهو يقترب كثيراً من التاريخ الأصلي – أي من الطريقة الأولى في الكتابة التاريخية – خاصة إذا أقتصر غرض المؤرخ على سرد الأخبار التاريخية لبلد ما أو لشعب من الشعوب، أعني أنه يصبح قريباً من التاريخ الأصلي حين يصبح عرضاً لحوليات كاملة أو رواية لأحداث خلت، يحاول فيها المؤرخ أن يبرز الماضي في صورة واضحة كما لو أنه عاش الأحداث التي يرويها بالفعل.

٢- **النوع الثاني:** هو ما يسميه هيجل بالتاريخ العملي أو البرجماتي الذي يهتم أساساً باستخلاص العبر والعظة، والمبادئ والقيم، والدروس الأخلاقية من أحداث الماضي، فهو يدرس التاريخ لا بقصد تفسيره أو عرضه أو فهم أحداثه أو الكشف عن العوامل التي تتحكم في سير الأحداث إنما الهدف

---

(١) هيجل، محاضرات في فلسفة التاريخ، الجزء الأول: العقل في التاريخ، ترجمة: د.إمام عبد الفتاح، ط ٣، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ٢٠٠٧ م، ص ٣٢ – ٣٣ .

الرئيسي هو استخلاص الدروس الماضية التي يمكن الاستفادة منها في العصر الحاضر.

٣- **النوع الثالث:** هو التاريخ النقدي الذي لا يعرض وقائع التاريخ نفسه وإنما يعرض الروايات التاريخية المختلفة لكي يقوم بفحصها ودراستها ونقدها، وبيان مدى حقيقتها، ومعقوليتها.

٤- **النوع الرابع:** هذا النوع يحمل خاصيتين متعارضتين هما الجزئية والعمومية، فهو جزئي لأنه لا يتحدث عن تاريخ الإنسان بما هو إنسان وإنما عن "جزء" من هذا التاريخ، أعني أنه يهتم بشريحة واحدة من شرائح التاريخ هي: القانون، أو الفن، أو الدين .. الخ. لكنه يحمل أيضاً صفة العمومية من حيث أنه لا يتحدث عن القانون عند الرومان، أو الفن المصري القديم أو الدين في العصر الوسيط – وإنما يتحدث عن القانون بصفة عامة. [١]

ثالثاً: التاريخ الفلسفي:

يعني دراسة التاريخ من خلال الفكر. فالطريقتان السالفتان يمكن اعتبارهما "مادة" لكتابة التاريخ الفلسفي.

فالدراسة الفلسفية للتاريخ تعني، دراسة التاريخ من خلال الفكر لأن التاريخ هو تاريخ الإنسان، والفكر جوهري بالنسبة إليه فهو الخاصية التي تميزه عن الحيوان.

فإذا ما نظرنا إلى أعمال الإنسان طوال التاريخ على أنها كلها مجرد أحداث، فسوف يتعذر على المؤرخ فهمها، وذلك لأن تصورها سوف يكون عسيراً على المؤرخ ما لم ينظر إلى هذه الأعمال على أنه مظهر خارجي للتفكير. [٢]

---

(١) هيجل، محاضرات في فلسفة التاريخ، الجزء الأول: العقل في التاريخ، ص ٣٦ – ٤٠ .

(٢) نفس المرجع، ص ٤٠ – ٤١ .

مفهوم لفظة (عبر):

قال تعالى: { لَقَدْ كَانَ فِي **قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ** لِّأُولِي الْأَلْبَابِ } (يوسف: ١١١).

قد أتت لفظة **(عِبْرَةٌ)** المراد دراستها ، من الجذر اللساني العربي **(ع – ب – ر)**؛ وقد أتت هذه اللفظة **(٩ مرات)** في التنزيل الحكيم.

فدعونا ننظر إلى المعنى ودلالة اللفظة داخل معاجم اللغة العربية..

(عبر): العين والباء والراء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على **النفوذ والمضيِّ في الشيء.** (1)

(عبر): أصلُ العَبْرِ: **تجاوُزٌ من حَالٍ إلى حَال.** (2)

- ونأتي لتحليل لفظة **(ع – ب – ر)** فيزيائياً:

(ع): صوت يدل على عمق أو بُعد في الشيء.

(ب): صوت يدل على الانتقال من شيء لنقيضه.

(ر): صوت يدل على حركة سريعة منتظمة أو مرتبطة ومتصلة ومتكررة.

(عبر): لفظة تدل على عمق وبُعد ، يعقبها تنقل في الحركة لنقيضها، وتنتهي بحركة متكررة ومتصلة مع بعضها بشكل منتظم ومترابط.

إذن؛ مما تقدم يمكن القول بأن لفظة (العِبْرة) ، هي: **الدروس والنتائج المستخلصة من الشيء عن طريق النظر بعمق لها ، والتفكر فيها.**

ففي البداية يبدأ الإنسان بعيد عن الشيء ، وعندما يحاول الاقتراب منها بالنظر بعمق شديد، يبدأ ينتقل من حالة هذه إلى حالة جديدة ، حالة بها قُرب بشكل متكرر ومنتظم ومتصل مع الشيء.

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الرابع، ص ٢٠٧ .

(٢) الراغب الإصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٥٤٣ .

فالعِبَر المذكورة في القصص القرآني إنما هي سُنَن تعبر القرون والسنين من جيل إلى جيل، وعلينا استخلاص هذه السُّنن واستنتاجها. وبالتالي فهي ليست أحكاماً شرعية بقدر ما هي سُنن ، وهذه غير تلك.[1]

وفي ذلك يقول الإمام "محمد عبده" في "تفسير المنار"؛ التالي: "إن القصص جاءت في القرآن **لأجل الموعظة والاعتبار، لا لبيان التاريخ،** ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين. وإنه ليحكي من عقائدهم الحق والباطل، ومن تقاليدهم الصادق والكاذب، ومن عاداتهم النافع والضار، **لأجل الموعظة والاعتبار".**[2]

مفهوم لفظة (سن):

قال تعالى: { **سُنَّةَ اللَّهِ** الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ **لِسُنَّةِ اللَّهِ** تَبْدِيلًا } (الفتح:٢٣).

قد أتت لفظة **(سُنَّة)** المراد دراستها ، من الجذر اللساني العربي **(س – ن)**؛ وقد أتت هذه اللفظة **(٢٢ مرة)** في التنزيل الحكيم.

فدعونا ننظر إلى المعنى ودلالة اللفظة داخل معاجم اللغة العربية..

(سن): السين والنون أصلٌ واحد مطرد، وهو **جريَان الشيء وإطرادُه في سهولة.**[3]

(سن): السُّنَنُ: جمعُ سُنَّةٍ، وسُنَّةُ الوجْهِ: **طَريقتُهُ.** وسُنَّةُ الله تعالى: قد تقال **لطَرِيقَةِ حِكْمَتِهِ، وطريقة طاعته.**[4]

---

(١) د.محمد شحرور، القصص القرآني: قراءة معاصرة، المجلد الأول، ص ١٩٥ .

(٢) محمد عبده ومحمد رشيد رضا، تفسير المنار، الجزء الأول، ط ٢، القاهرة – مصر، دار المنار، ١٩٤٧ م، ص ٣٩٩ .

(٣) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الثالث، ص ٦٠ .

(٤) الراغب الإصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٤٢٩ .

(سن): السَّنَنُ: **الطريقةُ.** [1]

- ونأتي لتحليل لفظة **(س – ن)** فيزيائياً:

(س): صوت يدل على حركة بشكل غير واضح وغير عميق أولي.

(ن): صوت يدل على ستر أو اختباء أو سكون.

ونضيف للجذر الأصلي حرف (التاء المربوطة) في نهاية اللفظة.

(ت): صوت يدل على اجتذاب واجتماع الحركات.

(سنة): لفظة تدل على حركة غير واضحة وغير عميقة أولية، يعقبها سكون وستر، وتنتهي باجتذاب الحركات واجتماعها.

ومما سبق ذكره؛ يمكننا القول بأن النص القرآني قد استعمل هذا الجذر اللساني في السنن الكونية وفي السنن الاجتماعية ، التي تكررت وتماثلت حتى صارت مشمولة بقانون واحد. وبهذا تجري بسهولة ، وتكون حركتها ساكنة، مجتمعة في تكرارها المستمر.

---

(١) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، دائرة المعاجم – مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٦ م، ص ١٣٣ .

الفصل الثالث

مصادر كتابة التاريخ

العلوم المساعدة لعلم التاريخ

لما كان علم التأريخ يختص بدراسة فعاليات الإنسان بكل أشكالها، سواء أكانت اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية أو ثقافية أو فكرية أو قانونية أو عسكرية، لذا فإن الدارس أو الباحث في التأريخ لا بد وأن يكون له إلمام ومعرفة بعلوم أخرى تتعلق بعلم التأريخ، فضلاً عن ضرورة تمتع الباحث في مجال التأريخ بالأدوات والمهارات الأساسية التي تُمَكِّن الباحث من الإلمام بمتطلبات البحث الذي يروم دراسته.[1]

فإن مهنة المؤرخ تشبه، في هذا، معظم المهن: فمن المستحيل ممارستها دون أن تكون لدى المرء بضاعة خاصة من المعلومات الفنية لا تغني عنها المواهب الطبيعية ولا المنهج.[2]

وتقول "ماري لين رامبولا": "أن التاريخ غالباً ما يأخذ دارسيه إلى جميع فروع التخصصات ذات الصله به: النقد الآدبي، وتاريخ الفنون، وعلم الآثار، والعلوم السياسية، والاقتصاد، وعلم الاجتماع.

فيُقيِّم المؤرخون مجموعة متنوعة من المصادر ويُصنِّفونها ويُفسِّرونها ليستطيعوا الإجابة عن تساؤلاتهم". [3]

فإن مصادر التاريخ هي إما آثارية مادية أو وثائق مدونة، والوثائق هذه تشمل كل ما هو مدون كتابة من الأسطورة، إلى القصيدة إلى النصوص الدينية، إلى السجلات الحكومية، والتجارية، إلى القصة والرواية وغيرها.. إن كلاً منها تعكس جانباً أو

---

(١) قيس حاتم هاني الجنابي، فلسفة التأريخ، ط ١، الدار المنهجية للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، ٢٠١٦م، ص ٦٩ .

(٢) النقد التاريخي، يشمل: لانجلوا و سينوبوس: المدخل إلى الدراسات التاريخية، بول ماس: نقد النص، امانويل كانت: التاريخ العام، ترجمها عن الفرنسية والإلمانية: عبد الرحمن بدوي، ط ٤، الكويت: وكالة المطبوعات، ١٩٨١ م، ص ٢٧ .

(٣) ماري لين رامبولا، دليل الكتابة التاريخية، ص ٢٥ .

جوانب من حياة هذا المجتمع أو ذاك في فترة تاريخية معينـة سـواء أكانـت لغويـة، أو سياسية، أو دينية، أو اجتماعيـة، أو اقتصـادية، أو فكريـة أو غيرهـا. وكـل مـن تلـك المدونات هي في حد ذاتها وثيقة تاريخية.[1]

إذا كان توافر الوثيقة يعتبر خطوة في عملية التاريخ، فإن التعامل مع هـذه الوثيقـة تعاملاً موضوعياً هو الخطوة الثانية التي بدونها لا تتم عملية التـاريخ، وهـذه الخطـوة الثانية مهمة المؤرخ، وهي التي تميز المؤرخ عن غيره من النـاس الأخـرين. إذ أن عـلى المؤرخ أن يخضع كل وثيقة بين يديه للدراسة التاريخية العلمية الموضوعية، مخضعاً إياها لكل العلوم المساعدة الأخرى من علم المنطق بشتى انواعه وتفرعاته، إلى علم الأقوام واللغات والسكان، والجغرافيا، والمناخ، وغيرها من العلوم المساعدة الأخرى.[2]

وسأستعرض لكم الآن أهم العلوم المساعدة في عملية التأريخ؛ ومنها التالي:

أولاً: علم الأنثروبولوجيا (Anthropology):

- ما هي الأنثروبولوجيا ؟ وما هو موضوعها ؟

ربما تكون أفضل طريقة لتعريف الأنثروبولوجيا هي أن نقـدم للقـارئ فكـرة عـما يفعله الأنثروبولوجين. وفي هذا الصدد، كتبت الباحثـة الأنثروبولوجيـة الأمريكيـة، الشهيرة، "مارجريت ميد Margret Mead"[3] تقول: "نحن نصف الخصـائص الإنسانية، البيولوجية، والثقافية، للنـوع البشرـي عـبر الأزمـان وفي سـائر الأمـاكن.

(١) أحمـد داوود، العـرب والسـاميون والعبرانيـون وبنـو إسـرائيل واليهـود، ط ١، دار المسـتقبل – دمشق، ١٩٩١ م، ص ٩٣ .

(٢) نفس المرجع، ص ٩٣ – ٩٤ .

(٣) وُلدت في مدينة فيلادلفيا في الولايات المتحدة الأمريكية؛ بتاريخ: (١٦ ديسمبر ١٩٠١). وتوفيت بتاريخ: (١٥ نوفمبر ١٩٧٨). هي عالمة اجتماع ذات شهرة عالية ، حاصلة على درجة البكالوريس من كلية برنارد في مدينة نيويورك ودرجتي الماجستير والدكتوراة من جامعة كولومبيا. وحصلت على جائزة كالينغا لتبسيط العلوم من منظمة اليونسكو عام (١٩٧٠).

ونحلل الصفات البيولوجية والثقافية المحلية، كأنساق مترابطة ومتغيرة، وذلـك عـن طريق نماذج ومقاييس ومناهج متطورة. كما نهتم بوصـف وتحليـل الـنظم الإجتماعيـة والتكنولوجيا، ونعني أيضاً ببحث الإدراك العقـلي للإنسـان، وابتكاراتـه ومعتقداتـه ووسائل اتصالاته. وبصفه عامة، فنحن الأنثروبولوجيين نسعى لربط وتفسـير نتـائج دراستنا في إطار نظريات التطور، أو مفهوم الوحدة النفسية المشـتركة بـين البشرـ. إن التخصصات الأنثروبولوجية التي قد تتضارب مع بعضها، هي في ذاتها مبعث الحركة والتطور في هذا العلم الجديد ، وهي التي تثير الانتباه ، وتعمل على الإبداع والتجديد ، هذا وتجدر الإشارة إلى أن جزءا لا بأس به من عمـل الأنثروبولـوجيين يوجـه نحـو القضايا العملية في مجـالات الصـحة والإدارة والتنميـة الاقتصـادية ومجـالات الحيـاة الأخرى". [١]

إذن؛ فالأنثروبولوجيا تجمع في علم واحد بين نظرتي كل مـن العلـوم البيولوجيـة والعلوم الاجتماعية، فتركز مشكلاتها – من ناحية – على الإنسـان كعضـو في المملكـة الحيوانية ، وعلى سلوك الإنسان كعضو في مجتمع، من ناحية أخرى. [٢]

فروع علم الأنثروبولوجيا:

١- "الأنثروبولوجيـا البيولوجيـة Biological Anthropology":

وهي التي تدرس الجانب العضوي أو الحيوي للإنسان. [٣]

أصبحت اليـوم الأنثروبولوجيـا البيولوجيـة – إزاء اهتمامهـا بـبعض المشـكلات المتخصصة – تعتمد اعتماداً كبيراً عـلى البيولوجيـا الجزئيـة ، وعـلى بعـض الأسـاليب

(١) د.حسين مؤنس، قصة الأنثروبولوجيا: فصول في تاريخ علم الإنسان، العدد ٩٨ ، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت، فبراير ١٩٨٦ م، ص ١٣ – ١٤ .

(٢) محمد الجوهري وعلياء شكري وأخرون، مقدمة في دراسة الأنثروبولوجيا، (بدون ناشر) – القاهرة، ٢٠٠٧ م، ص ١٤ .

(٣) د.حسين مؤنس، قصة الأنثروبولوجيا: فصول في تاريخ علم الإنسان، ص ١٤ .

الحديثة مثل الهجرة الكهربية (للدقائق المعلقة) "Electro Phoresis"، ودراسة الهيموجلوبين، والمعالجة الرياضية المعقدة لعلم الوراثة.(١)

٢- **"الأنثروبولوجيا الثقافية Cultural Anthropology"**: وهي تعني مجموع التخصصات التي تدرس النواحي الاجتماعية والثقافية لحياة الإنسان. ويدخل في ذلك الدراسات التي تتعلق بحياة الإنسان القديم (أو حضارات ما قبل التاريخ)، والتي يشار إليها بعلم "الأركيولوجيا Archaeology". وتتناول الأنثروبولوجيا الثقافية كذلك دراسة لغات الشعوب البدائية، واللهجات المحلية، والتأثيرات المتبادلة بين اللغة والثقافة بصفة عامة، وذلك في إطار ما يعرف بعلم "اللغويات Linguistics". علاوة على ذلك، يوجد مجالان دراسيان آخران ذوا أهمية كبيرة، وهما "الأثنولوجيا Ethnology" و "الأثنوجرافيا Ethnography".(٢)

ثانياً: الأثنوجرافيا (Ethnography):

يقول الكاتبان "برومليه وبودولني" التالي:

"حتى لو بدا للكثيرين اليوم أن الفيزياء والرياضيات هما أعقد العلوم ، فإن العلوم التي تدرس الإنسان ليست، في الواقع، أقل تعقيداً أبداً. والقضايا التي تواجهنا ليست، بالطبع، أقل جدية أبداً. إن اكتشافات علم التاريخ إجمالاً ، والاثنوغرافيا جزء هام منه ، يتمتع بكامل الحقوق ، تمارس في حياة البشرية تأثيراً جباراً لا يقل أبداً عن اكتشافات العلوم الدقيقة.

ومعروف منذ زمن بعيد أنه بدون دراسة الخاص يستحيل فهم العام والمبدئي.

---

(١) محمد الجوهري وعلياء شكري وأخرون، مقدمة في دراسة الأنثروبولوجيا، ص ٢٠ – ٢١ .

(٢) د.حسين مؤنس، قصة الأنثروبولوجيا: فصول في تاريخ علم الإنسان، ص ١٤ .

وإذ يدرس علمنا الخاصية السلالية لهذا الشعب أو ذاك ، يـؤدي قسـطه الـذي لا يستغني عنه في معرفة الإنسان والبشرية والتاريخ".[1]

وتتصف الاثنوجرافيا التي تمثل فرعا من البحث الأنثروبولوجي بالدراسة المباشرة للمجتمعات الصغيرة أو المجتمعات العرقية. وتجمع هـذه الدراسات بـدرجات متفاوتة بين عناصر وصفية وأخرى تحليلية، ولكن السمة الأساسية للإثنوجرافيا التقليدية تتمثل في أنها تركز على **ثقافة** أو **مجتمع** معين، وتبحث عن تعميمات نظرية أو مقارنة من وجهة نظر المثال الإثنوجرافي. [2]

وقد ظهر داخل الانثروبولوجيا المعرفية نوع جديد من نقد الإثنوجرافيا التقليدية. وظهر ما يعـرف باسـم "الإثنوجرافيـا الجديـدة New Ethnogrphy" والتـي تأثرت بالمناهج اللغوية كثيرا – وعملت على تطوير أساليب متقدمة ودقيقـة لدراسـة **نظم التصنيف.** [3]

ويعرفها "الدكتور: حسين مؤنس": "بإنها يعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد ، والعادات والقيم، والأدوات والفنون، والمأثورات الشعبية لـدى جماعات معينة، أو مجتمع معين، خلال فترة زمنية محددة". [4]

ويقول المؤلفـان "برومليـه وبـودولني" التـالي: "يعـود إلى شـيروكوغوروف أول وصف مسهب للاثنوس في مراجعنا الروسية، وبناء على تعريفه ، فإن الاثنـوس هـو: مجموعة من الناس الذين يتكلمون بلغة واحدة، ويعترفون بأصلهم الواحد، ويملكون

---

(١) برومليه وبودولني، الأثنوس والتاريخ، ترجمة: طارق معصراني، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٨م، ص ٨ .

(٢) شارلوت سيمور – سميث، موسوعة علم الإنسان: المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجيا، ترجمة: مجموعة من أساتذة علم الاجتماع، العدد ٦١، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ١٩٩٨ م، ص ٦٤ .

(٣) نفس المرجع، ص ٦٥ .

(٤) د.حسين مؤنس، قصة الأنثروبولوجيا: فصول في تاريخ علم الإنسان، ص ١٤ – ١٥ .

جملة من العادات ونمط العيش تحفظه وتكرسه التقاليد التي تميز هذه المجموعة عن المجموعات الأخرى المماثلة.

وبعض المؤلفين، مثلاً، يعتبرون رابطة اللغة والثقافة سمة الاثنوس الرئيسية، ويضيف بعضهم إلى هذا رابطة الأرض والوعي السلالي ، ويشير بعضهم، علاوة على ذلك، إلى خصائص التكوين النفسي، وينوه أحياناً في إطار التصنيف نفسه بالخصائص الانتروبولوجية ، وتضاف أيضاً إلى عداد السمات السلالية رابطة الأصل، وكذلك الجنس". [١]

وما هي روابط الناس التي يمكن عزوها إلى الاثنوسات – الشعوب ؟ وما هي صفاتها المميزة ؟

"إن إحدى هذه الصفات ، والتي ربما كانت أكثرها وضوحاً هو ما يلي: كل من الاثنوسات يملك سمة جلية وأكيدة هي التسمية التي يطلقها على نفسه وما يرافقها من اسم خاص به..". [٢]

أما بالنسبة إلى للأجناس الكبرى "فإن كلاً من الأجناس الكبرى يملك مناطق شاسعة جداً تشمل عادة عدداً كبيراً من الاثنوسات ذات القربى من وجهة نظر جذورها التاريخية". [٣]

ثالثاً: الإثنولوجيا (Ethnology):

هي الدراسة التاريخية والمقارنة للثقافات أو للشعوب ، تمثل **السلالة** وحدة الدراسة الأساسية فيها. وهكذا تجمع الإثنولوجيا بين الدراسة التاريخية والميدانية

---

(١) بروملية وبودولني، الأثنوس والتاريخ، ص ٩ .

(٢) نفس المرجع؛ ص ١٠ .

(٣) نفس المرجع؛ ص ١٤ .

للثقافات الجماهيرية – والشعبية والقبلية وبين المقارنة الثقافية والتعميم بين الثقافات المتباينة.[١]

وهي الدراسة المقارنة لاوجه الاختلاف والاتفاق بين الحضارات، لاستنباط تعمميات حول أصولها وتطورها وتنوعها. [٢]

رابعاً: عِلْم الآثار (Archaeology):

يمكن تقسيم على الآثار إلى قسمين أساسيين: **علم الآثار الكلاسيكي وعلم آثار ما قبل التاريخ.** يهتم علم الآثار الكلاسيكي أساساً بدراسة الحضارات اليونانية والرومانية القديمة[٣] ، بينما يتناول علم آثار ما قبل التاريخ مجالاً أوسع من الناحيتين الزمنية والجغرافية، نظراً لأنه يعيد تركيب أساليب حياة الشعوب في كل أرجاء العالم منذ ظهور الإنسان وحتى حلول التاريخ المكتوب. ويعد علم آثار ما قبل التاريخ علماً اجتماعياً في المقام الأول، ذلك لأن عالم الآثار لا يسعى لفهم البقايا الفيزيقية التي يدرسها فحسب ، بقدر ما يسعى لفهم التراث الاجتماعي والثقافي الذي أنتج هذه البقايا، وبذلك يحاول عالم الآثار إعادة تركيب العمليات الاجتماعية التي تقود التغير في المجتمع من حال إلى حال. ثمة روابط عديدة على المستوى النظري والمنهجي بين علم آثار ما قبل التاريخ والدراسات الأنثروبولوجية.[٤]

إن التقنيات العلمية الجديدة في تأريخ البقايا الأثرية تمكَن عالم آثار ما قبل التاريخ من تحديد عمر مكتشفاته بأكبر قدر من الدقة (ربما تعد طريقة التأريخ بالكربون المشع من أشهر التقنيات الجديدة). كما أدت دراية عالم الآثار الواسعة بالنماذج الرياضية

---

(١) شارلوت سيمور – سميث، موسوعة علم الإنسان، ص ٦٧ .

(٢) د.شاكر مصطفى سليم، قاموس الأنثروبولوجيا، ص ٣١٤ – ٣١٥ .

(٣) هناك تعسف في هذا الجزء من التعريف، حيث أن الحضارات ليست فقط ما أشارت المؤلفة في هذا التعريف ، ولكن أين ذهبت حضارة وادي النيل (مصر حالياً) والحضارة الآشورية وغيرها من الحضارات العربية القديمة.

(٤) شارلوت سيمور – سميث، موسوعة علم الإنسان، ص ٥١٥ .

واستخدام الحاسب الآلي وتحليل النظم والتقنيات التحليلية المبتكرة إلى دعـم مقدرتـه على استخلاص المعلومات مما في حوزته من بيانات محدودة.[١]

خامساً: فقه اللغة (Philology):

إن نقل معلومات الثقافة السلالية ، شأن المعلومات الأخرى في المجتمع البشري ، يجري بأشكال مختلفة.. ولكن الشكل الرئيسي لهذا النقل هو **اللغة – الاعلام الكلامي (الشفوي أو الكتابي).**[٢]

وتربط الاثنوغرافيا بفقة اللغة دراسة القربى اللغويـة بـين الشـعوب ، والظـواهر والاقتباسات اللغوية المتبادلـة ، وتفاعـل العمليـات اللغويـة والسـلالية (فقـه اللغـة السلالي).[٣]

فإن **صلة الاثنوغرافيا بفقه اللغة صلة وثيقة بشكل خـاص.** فـاللغويون، الـذين يميلون إلى الابحاث التاريخية ، يتتبعون منشأ اللغة وتطورها على امتداد آلاف السنين، ويجدون فيها كلمات وتراكيب نحوية مـن اللغـات الأخـرى، ويحـددون أيـن ألتقـت الشعوب ومتى.

"اللغة ، اللغة ! إنها روح الشعوب ، وفيهـا يقـرأ مصـيرها" – هـذا مـا يقولـه الشاعر الفرنسي العظيم (جان بييرجان بيرانجيـه) في سـيرته الذاتيـه. وفي هـذا يتفـق الشاعر والعالم: فقد أصر الفيلولوجي الألماني الشهير من القرن التاسع عشر (يـاكوب غريم) على أن **لغتنا هي تاريخنا في الوقت نفسه.**[٤]

أمـا (الـدكتور: أحمـد داوود) يقـول لنـا: "يجمـع المؤرخـون اليـوم عـلى أن علـم الألسنيات هو أصلح الأشياء لمعرفة الأصـول السـكانية والأعـراق ، ومركـز نشـوء

---

(١) شارلوت سيمور – سميث، موسوعة علم الإنسان، ص ٥١٦ .

(٢) برومليه وبودولني، الأثنوس والتاريخ، ص ٢٥ .

(٣) نفس المرجع؛ ص ١٠٢ .

(٤) نفس المرجع؛ ص ١٠٦ .

الحضارة الذي منه انتقل الإشعاع إلى غيره من الأنحاء. فاللغة هي وحدها القادرة على تحديد الهوية القومية لهذا الشعب أو ذاك". [1]

ويُعرف (الدكتور: محمد بهجت قبيسي)، فقه اللغة؛ بأنه: منهج استقرائي وصفي يُعرف به موطن اللغة الأول وفصيلتها وعلاقتها باللغات المجاورة أو البعيدة؛ الشقيقة أو الأجنبية. [2]

ولا بد من معرفة **أسس فقه اللغة للكتابات القديمة**، وهي: [3]

١- لا لغة بدون معرفة التاريخ.
٢- إن اختلاف نمط الخط لا يدل على اختلاف اللغة.

كما لا بد أيضاً من معرفة **أقسام فقه اللغة للكتابات القديمة**، وهي: [4]

١- فقه الصوت: (الفونيم)، وما يضمنه من إبدال الأحرف والقلب المكاني والإدغامي.

٢- فقه الدلالة: أي مدلول الكلمة واختلافها من مكان لمكان، أو من زمان لزمان.

٣- فقه الإملاء: للكتابات القديمة كالكتابة الموصولة دون تفريق بين الكلمات. والكتابة في أكثرها كانت (عروضية) تَكْتُب ما تَلْفُظ. وكانت الكتابات القديمة لا تكرّر الحرف، حيث يُكتب أحياناً حرفاً واحداً مثل: [أمم مملكة] تُكتب [أ م ل ك ت]. كما كان يوجد أيضاً أخطاء إملائية من قِبل الكاتب.

---

(١) د.أحمد داوود، تاريخ سوريا الحضاري القديم ١- « المركَز »، ط ٣، دار الصفدي – دمشق، ٢٠٠٤ م، ص ٥٣ – ٥٤ .

(٢) د.محمد بهجت قبيسي، فقه اللهجات العربيات، ص ١٩ .

(٣) نفس المرجع، ص ج .

(٤) نفس المرجع، ص ج .

٤- **فقه اللفظ:** حيث لدينا (في الكتابات القديمة) الرؤيا فقط. واللفظ يحتاج للسماع في الأذن ثم الإعادة باللسان، أما الكتابة فهي تمثّل عامل (الرؤيا) وهي واهنة في إعطاء اللفظ السليم.

سادساً: الجغرافيا التاريخية:

أن الجغرافيا التاريخية يختلف مضمونها اختلافاً كلياً وجزئياً عن (التاريخ)، وأن كلمة (تاريخية) تدفع الجغرافية نحو التاريخ لتنهل منه ما تشاء ولكن إلى حد يتفق مع المفهوم لدراسة تغير المظهر الحضاري أو المظهر الطبيعي للمنطقة في فترة زمنية معينة. وبعبارة أخرى هناك فرق جوهري بين التاريخ الذي يهتم بتتابع الأحداث وتاريخها كهدف في حد ذاته وبين الجغرافيا التاريخية التي تهتم بالربط بين البيئة والأحداث التي تأخذ دورها على المسرح الجغرافي لتغير في مظهره الطبيعي أو البشري بالأضافة أو النقصان وذلك في فترة محدودة ومعروفة. [١]

تدرس الجغرافيا مظاهر سطح الأرض ونشاط الإنسان في البيئة. وهذا النشاط البشري عملية ملاءمة وتطوير دائمة ، بدأت منذ ظهر هذا الكائن على سطح الأرض.[٢]

ويقول الكاتبان " د.محمد السيد غلاب و د.يسري الجوهري " التالي: [٣]

ودراسة الجغرافيا بأبعادها الثلاثة: المكان والإنسان والزمان تتضمن أربعة موضوعات أساسية هي:

---

(١) د. يسري عبد الرزاق الجوهري، شمال إفريقية: دراسة في الجغرافيا التاريخية، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية – مصر ١٩٧٠م، ص ٩ .

(٢) د.محمد السيد غلاب و د.يسري الجوهري، الجغرافيا التاريخية: عصر ما قبل التاريخ وفجره، ط ٢، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٥ م، ص أ .

(٣) نفس المرجع؛ ص أ ، د .

أولاً: تطور الأرض والحياة منذ نشأتها. وهذا موضوع عالجته الجيولوجيا التاريخية، كما عالجه علماء التطور.

ثانياً: تطور المسرح الجغرافي الحالي ، ويقصر هذا على دراسة الزمن الرابع ، الذي شهد آخر تطور للمسرح الجغرافي حتى استقر على وضعه الحالي، فزيوغرافياً ومناخياً.

ثالثاً: بزوغ الإنسان من العالم الحيواني وتطوره كائناً متكلماً عاقلاً صانعاً للحضارة.

رابعاً: تفاعل الإنسان مع البيئة. بأوسع معاني هذا العبارة وما تتضمنه من مظهرمادي حضاري.

الأسطورة كمصدر تاريخي

- ما هي علاقة الأسطورة بالتاريخ ؟
- كيف نشأت الأسطورة ؟ وما الفرق بين الأسطورة والخرافة ؟
- هل يمكن اعتبار الأسطورة مصدراً معتمداً من مصادر التاريخ ؟

سأحاول الإجابة عن كل هذه الأسئلة وغيرها من خلال هذه الفقرة..

- لماذا الأساطير؟ ولماذا علينا أن نهتم بالأساطير؟ فما هي علاقتها بحياتي الخاصة؟

يُجيب على هذا التساؤل ، الدكتور: (جوزيف كامبل)[1]؛ قائلاً: "امض إذن وعش حياتك ، إنها حياة جيدة وأنت لا تحتاج للأساطير ، فأنا لا أؤمن بأهمية الاهتمام بموضوع ما لأنه يقال عنه إنه مهم ، ولكني أؤمن بأن **يمسك بك الموضوع على نحو أو آخر،** ولكنك قد تجد أن موضوع الأساطير إذا قدم إليك التقديم السليم فإنها سوف تمسك بك ، وعلى هذا فالسؤال هو ماذا يمكن للموضوع أن يفعل بك إذا أمسك بك ؟".[2]

ويضيف قائلاً: "يقول الناس إن ما نبحث عنه هو معنى للحياة ، ولكني لا أعتقد أن هذا هو ما نبحث عنه حقاً ، إنني أعتقد أن ما نبحث عنه هو تجربة أن نكون أحياء وبهذا تصبح تجارب حياتنا على المستوى الفيزيقي لها أصداء داخل أعماق وجودنا

---

(١) ولد في وايت بلينس، نيويورك ، الولايات المتحدة؛ بتاريخ: (٢٦ مارس ١٩٠٤م). وتوفي في هونولولو ، هاواي ، الولايات المتحدة؛ بتاريخ: (٢٠ أكتوبر١٩٨٧م). هو ميثولوجي أمريكي، وكاتب ومحاضر ومحرر للعديد من الكتب عن الأساطير، أشتهر لأعماله في الميثولوجيا المقارنة وعلم الأديان،

(٢) جوزيف كامبل مع بيل مويرز، سلطان الأسطورة، تحرير: إيجي سوفلاورز، ترجمة: بدر الديب، المشروع القومي للترجمة – المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة – مصر، ٢٠٠٢م، ص ٢٧ .

وواقعنا فأشعر حقاً بنشوة أن نكون أحياء ، وهذا هو كل ما في الأمر في النهاية وهذا ما تساعدنا هذه المفاتيح أن نكتشفه في داخلنا.

فالأساطير مفاتيح للإمكانيات الروحية في الحياة البشرية. أعني ما نحن قادرون على معرفته وتجربته داخلنا". [١]

ويضيف أيضاً؛ قائلاً: "اقرأ الأساطير؛ فهي تعلمك أنه يمكنك أن تلتفت إلى الداخل بحيث تبدأ في تلقي رسالة الرموز ، فالأساطير تعينك على أن تجعل ذهنك على صلة بتجربة أن تكون حيا ، بل هي تخبرك ما هي التجربة". [٢]

وفي إطار الحديث عن أهمية الأسطورة في حياتنا ، يقول لنا المفكر العربي (فاضل الربيعي)[٣]؛ التالي: "أن الفرد اليوم، سواء كان ينتمي إلى النخبة الثقافية أو فردا عاديا، يعجز عن فهم مجتمعه ما لم يتمكن من التعرف على الراسب الثقافي القديم المستمر باستمرار المجتمع. هذا الراسب الثقافي الهائل الذي يمتد في الزمن إلى آلاف السنين هو الخزان الثقافي الهائل الذي يتضمن كثيرا مما هو مفتاحي وأساسي في فهم المجتمع المعاصر. فالإنسان لا يستطيع اليوم فهم سلوك المجتمعات العربية المعاصرة في كثير من الميادين دون العودة إلى الثقافة القديمة التي تشكلت هذه المجتمعات في إطارها". [٤]

---

(١) جوزيف كامبل، سلطان الأسطورة، ص ٣٠ .

(٢) نفس المرجع، ص ٣١ .

(٣) ولد في بغداد عام ١٩٥٢م، هو مفكر وباحث ومؤرخ عراقي متخصص في الميثولوجيا (علم الأساطير) ودراسات الكتاب المقدس واللغة العبرية. نشر عدداً من المؤلفات في القصة والرواية والأدب والتاريخ الاجتماعي والسياسي العراقي والعربي والأنثروبولوجيا. وهو عضو اتحاد الأدباء العراقيين واتحاد الكتّاب الهولنديين.

(٤) فاضل الربيعي، علم الأساطير أو الميثولوجيا هو جزء من منظومة علوم متقاربة ومتشابكة في المناهج، نُشر في الملحق الثقافي لجريدة " الوطن" العمانية، بتاريخ: ٢٢ يوليو ٢٠١٨ م.

- http://alwatan.com/details/273799

أولاً: مفهوم الأسطورة:

قال تعالى: { حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا **أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** } (الأنعام: ٢٥).

قال تعالى: { وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ۙ إِنْ هَٰذَا إِلَّا **أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** } (الأنفال: ٣١).

قال تعالى: { وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا **أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** } (النحل: ٢٤).

قال تعالى: { وَقَالُوا **أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا } (الفرقان:٥).

قد أتت لفظة **(أَسَاطِيرُ)** المراد دراستها ، من الجذر اللساني العربي **(س – ط – ر)**؛ وقد أتى هذا الجذر حوالي **(١٥ مرة)** في التنزيل الحكيم .

(سطر): السين والطاء والراء أصلٌ مطّرد يدلّ على **اصطفافِ الشيء** ، كالكتاب والشجر، **وكل شيء اصطَفَّ.** فأما الأساطير فكأنها أشياء كُتبت من الباطل فصار ذلك اسماً لها ، مخصوصاً بها. يقال سَطَّر فلانٌ علينا تسطيراً ، إذ جاء بالأباطيل.[١]

(سطر): السَّطْرُ والسَّطَرُ: **الصَّفُّ من الكتابة**.. وجمع السَّطْرِ أَسْطُرٌ ، وَسُطُورٌ ، وأَسْطَارٌ. وأما قوله: { **أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** } (الأنعام: ٢٥)؛ فقد قال المَبرَّدُ: هي **جمع أُسْطُورَةٍ ، نحو: أرجوحةٍ وأراجيح ، وأحدوثةٍ وأحاديث.**[٢]

وفي معجم (محيط المحيط): الإسْطَار والأُسْطَار والأُسْطُور والإِسْطِير وبالهاء في الكل ما يُسطَر أي يُكتَب. **وتُستعمَل في الحديث لا نظام لهُ والحكايات.**[٣]

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الثالث، ص ٧٢ – ٧٣ .

(٢) الراغب الإصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٤٠٩ – ٤١٠ .

(٣) بطرس بستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان – بيروت، ١٩٨٧م، ص ٤١٠.

ومنها "السَطر الذي يعني الخط والكتابة، ومنها أسطُر وسطور وهـو الصـف مـن الشيء كالكلمات والشجر منها السُطُر وتعني **الأقاويل المنمّقة المزخرفة**..الخ".[1]

- نأتي لتحليل لفظة **(س – ط – ر)** فيزيائياً:

(س): صوت يدل على حركة بشكل غير واضح وغير عميق أولي.

(ط): صوت يدل على اتجاه الحركة بعيداً عن المركز.

(ر): صوت يدل على حركة سريعة منتظمة أو مرتبطة ومتصلة ومتكررة.

(سطر): لفظة تدل على حركـة غـير واضـحة وغـير عميقـة ، تبـدأ في البعـد عـن مركزها، وتنتهي بتكرار حركتها بشكل سريع ومرتبط مع بعضه.

*****

إذاً؛ فإنّ أصل الفعل **الصف مـن الشيـء**، ومنهـا السـاطور الـذي يقطـع اللحـم ويصففه في شرائح، ومنها سيطر ومُسيطر وتقال في حال هيمن أحد على آخر وتمكّـن من سلبه اختياراته فصار كأنّه موجّها في قالب أو في صف واحد لا يتمكّن من الحيـاد عنه.

فالأسطورة في اللغة العربية من سـطر وهـو بمعنـى **تقسـيم وتصـفيف الأشـياء،** فالأسطورة تعني **الكلام المسطور المصـفوف،** ولا يشـترط فيهـا أن تكـون مدوّنـة أو مكتوبة، ولكن بالضرورة هي **الكـلام المنظـور سـطر وراء سـطر،** فتظهـر مصـفوفة كقصائد الشعر وما يسهل حفظها وتداولها ويحافظ على بنيانها وكلماتهـا، وعـلى ذلـك يقول المعاندون للقرآن "ما هذا إلا أساطير"، ولم يروا الأساطير مكتوبة، وإن أغلـبهم ليس لهم علم بتدوينها بل هو علم تناقلوه شفوياً بسطورها المحفوظة.[2]

---

(١) لـويس معلـوف، المنجـد في اللغـة والأدب والعلـوم، ط ١٩، المطبعـة الكاثوليكيـة – بيروت، ص ٣٣٢ – ٣٣٣.

(٢) قسم الدراسات والبحوث في جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، الأسطورة: توثيق حضاري، ط ١، سلسلة: عندما نطق السراة ج٣، داركيوان – الحلبوني – دمشق، ٢٠٠٩م، ص ٢١ .

فالكلمة عربية في أصلها عبرت إلى شبه الجزيرة اليونانية مع حركة القدماء العـرب وهجرتهم، وبالتحديد على يد الفينيقيين الـذين اسـتوطنوا سـواحل البحـر المتوسـط وانتقلوا مع لغتهم وتراثهم وكنوزهم إليها، هذه الكلمة كغيرها من الكلـمات العربيـة شكّلت جذور اللغة اليونانية التي نسب إليها واضعو التاريخ في عصرنا الحـديث كـل الأصول العريقة للمصطلحات والألفاظ، وغضوا الطرف عن أصولها العربية وهو ما أفقدهم في كثير من الأحيان الموضوعية والمقدرة على إدراك الحقيقة والصواب.[١]

وقد انتقلت الكلمة إلى اللغات الأجنبية وتطورت لتصبح **"هـ - ستوريا"،** والهاء حرف تعريف في اللهجة العربية الفينيقية، ثمّ صارت تعني فيما بعـد بــ "التـاريخ" في عدة لغات، مع قليل من الاختلافات، فعنـد اليونـان **"إسـتورا Istora"،** وتعنـي حكاية أو قصة كما تعني "تاريخ"، وفي الإنجليزية نجد كلمة **"History"** بمعنـى تاريخ، وفي الفرنسية **"إيستوار L'histoire"،** وفي الروسية "استوريا **Istoria**"، وهي كلّها مشتقة من الكلمة العربية أسطورة التي تعني بكتابة التاريخ وتدوينه.[٢]

وفي تعريف الأسطورة، يقـول الـدكتور "مرسـيا اليـاد Mircea Eliade"[٣]: "شخصياً، التعريف الذي يبدو لي اقل التعريفات نقصاً، لأنه أوسعها، هـو التعريـف التالي: الأسطورة تروي تاريخاً مقدساً؛ تروي حدثاً جـرى في الـزمن البـدئي، الـزمن الخيالي، هو زمن (البدايات). بعبارة أخرى، تحكي لنا الأسطورة كيف جاءت حقيقـة ما إلى الوجود، بفضل مآثر اجترحتها الكائنـات العليـا، لا فـرق بـين أن تكـون هـذه الحقيقة كلية كـ "الكون Cosmos" مثلاً، أو جزئية كأن تكون جزيرة أو نوعـاً مـن

---

(١) جمعية التجديد، الأسطورة: توثيق حضاري، ص ٢٢ .

(٢) نفس المرجع، ص ٢٢ – ٢٣ .

- وأنظر: د.أحمد داوود، تاريخ سوريا الحضاري القديم ١- « المركز»، ص ٨٧ – ٨٨ .

(٣) ولد ١٣ مارس ١٩٠٧م، في بوخارست، رومانيا. وتوفي ٢٢ أبريل ١٩٨٦م، في شيكاغو، أمريكا. هو كاتب ومؤرخ أديان وفيلسوف وروائي روماني، شغل كرسي أستاذ تاريخ الأديان في جامعة شيكاغو، وله مؤلفات في أدب الخيال وأدب الرحلات والسير الذاتية، وتاريخ الأديان وفلسفة الأديان.

نبات أو مسلكاً يسلكه الإنسان أو مؤسسة. إذن هي دائماً تحكي سرْدً لحكاية (خلـق): تحكي لنا كيف كان إنتاج شيء، كيف بدأ وجوده. لا تتحـدث الأسـطورة إلا عـما قـد حدث فعلاً، عما قد ظهر في كل امتلائه".[١]

ويضيف قائلاً: "تعتبر الأسطورة تاريخاً مقدساً، وبالتـالي (تاريخـاً حقيقيـاً)، لأنهـا ترجع دائماً إلى حقائق".[٢]؛ "إن الأسطورة تتضامن مع الانتولوجيا: إنها لا تقـول إلا حقائق ، إلا ما حدث فعلا ، إلا ما ظهر تماما".[٣]

ويرى الدكتور (أحمد كمال زكي) أنّ: "الأساطير علم قـديم ، وهـو أقـدم مصـدر لجميع المعارف الإنسانية ، فإنّ الكلمة ترتبط دائماً ببداية الناس".[٤]

ويضيف (د.أحمد كمال زكي)[٥] قائلاً: "وتبدو الأسطورة حركة حضارية مؤكّدة ، ومتّصلة الحلقات ، كانت في طورها الأول جزءاً من العبادة يتم أداؤه داخل المعبد".[٦]

*****

في القرن التاسع عشر ظهر علم جديد عُني بدراسة الأساطير وتفسيرها عُرِف بـــ (الميثولوجيا Muthology).

---

(١) مرسيا الياد، مظاهر الأسطورة، ط ١، ترجمة: نهاد خياطة، داركنعان للدراسات والنشر – دمشق، ١٩٩١م، ص ١٠ .

(٢) نفس المرجع، ص ١٠ .

(٣) مرسيا الياد، المقدس والعادي، ترجمة عادل العوا، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٩م، ص ١٢٦ .

(٤) أحمد كمال زكي، الأساطير: دراسة حضارية مقارنة، ط ٢، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة – مصر، ٢٠٠٠م، ص ٤٢ .

(٥) ولد في الاسكندرية عام ١٩٢٧م، وتوفي في القاهرة عام ٢٠٠٨م. وتخرج من قسم اللغة العربية بكلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٤٨م. ويعتبر هو أحد رواد قصيدة التفعيلة، وقد نال جائزة الدولة التشجيعية عن كتابه "الاصمعي" عام ١٩٦٣م.

(٦) أحمد كمال زكي، الأساطير: دراسة حضارية مقارنة، ص ٥٠ .

والميثولوجيا؛ تعني: العلم الذي يعني بمجموعة الأساطير الخاصة بشعب من الشعوب.

وفي ذلك (جوزيف كامبل)؛ يقول: "إن الموضوعات الأساسية للأساطير هي دائماً واحدة، وكانت دائماً نفس الشيء، وإذا أردت أن تعرف أساطيرك فالمفتاح إلى هذا هو أن تعرف المجتمع الذي تنتمي إليه؛ فكل الأساطير قد نبتت في مجتمع معين في مجال محدود، ثم بعد ذلك تتقادم وتدخل مع بعضها في علاقات، ثم تتجمع، وإذا بك أمام أساطير أكثر تعقيداً وتركيبا". [١]

وكثيراً ما يخلط الناس بين مفهوم (الخرافة) ومفهوم (الأسطورة)؛ على الرغم من وجود اختلافات شاسعة بينهما.

وفي ذلك "مرسيا الياد"؛ يقول: "تدل الأسطورة على تاريخ حقيقي جرت أحداثه في بداية الزمان".[٢]؛ "وأن الأسطورة تؤلف نمطاً من التفكير يختلف عن تفكيرنا".[٣]

ويفرق (فاضل الربيعي)، بين الأسطورة والخرافة؛ فيقول: " الأسطورة هي جهاز رمزي أو جهاز سردي يقوم بإرسال رسالة رمزية مشحونة بكثير من الدلالات، وهذا الجهاز له وظائف وأشكال من التشغيل قد لا يعرفها حتى كثير من المثقفين والكتاب الذين لا يهتمون بهذا العلم مثلهم مثل عامة الناس، وهذا طبيعي لأنه علم حديث.

فالأسطورة لها أبجدية تبدو منسية، أو أننا نسيناها، أو نسينا تعلمها، وعندما نتمكن من تعلم أبجدية الأسطورة فستتمكن من فك فحوى الرسالة الرمزية التي ترسلها.

---

(١) جوزيف كامبل، سلطان الأسطورة، ص ٥٢ .

(٢) ميرسيا إلياد، الأساطير والأحلام والأسرار، ترجمة: حسيب كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة السورية – دمشق، ٢٠٠٤م، ص ٢٢ .

(٣) نفس المرجع، ص ٢٣ .

أما الخرافة؛ هي حكاية ليس فيها أي مدلول ولا تتضمن رسالة محددة، وهي أقرب إلى أدب التسلية، والفارق الجوهري بينهما أن الأسطورة هي التاريخ.

إذًا الفارق بين الأسطورة والخرافة هو أن الأسطورة كجهاز سردي تتضمن شيئا من التاريخ فضلا عن الرسالة الرمزية المشفرة التي تريد إرسالها، ولها وظيفة محددة لها طابع اجتماعي وأخلاقي وديني، بينما الخرافة هي مادة تسلية لا وظيفة محددة لها". [١]

ويقدم "فراس السواح"، في كتابه "الأسطورة والمعنى" مقدّمة مهمّة قبل طرح تعريف الأسطورة عيّن فيها المعايير الدقيقة التي تميّز النص الأسطوري عن غيره من النصوص، وهو يرى أنّ تحديد المعايير يعتبر أمرا بعيد التحقّق في ضوء الوضعية الراهنة للبحث الميثولوجي. وهو يخلص إلى عدّة نقاط أقتبس منها التالي [٢]:

١- من حيث الشكل، الأسطورة هي قصة بما تحويه من حبكة وعقدة وشخصيات مصاغة في قالب شعري يساعد على سرعة تداولها وحفظها ويزودها بأثر على العواطف والقلب.
٢- يحافظ النص الأسطوري على ثباته عبر فترة طويلة من الزمن، وتتناقله الأجيال طالما حافظ على طاقته الإيحائية بالنسبة إلى الجماعة دون أن يعني ذلك الجمود أو التحجر، فالفكر الأسطوري قادر على خلق أساطير جديدة أو تجديد الأساطير نفسها أو تعديلها.
٣- تتميّز موضوعات الأساطير بالجدية والشمولية، مثل مواضيع التكوين والأصول والموت والعالم الآخر ومعنى الحياة وسرّ الوجود، وهي تشترك في موضوعاتها مع الفلسفة إلا أنّ الفلسفة تلجأ إلى المحاكمة العقلية للمفاهيم والعلوم بينما تلجأ الأساطير إلى الخيال والعاطفة والترميز.

---

(١) فاضل الربيعي، علم الأساطير أو الميثولوجيا؛ جريدة " الوطن" العمانية، ٢٠١٨ م.

(٢) فراس السواح، الأسطورة والمعنى: دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، ط ٢، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة – دمشق، ٢٠٠١م. ص ١٢ – ١٤ .

٤- تبعث الأسطورة رسالة غير زمنية وغير مرتبطة بفترة ما، بل إنها رسالة سرمدية خالدة تنطق من وراء تقلّبات الزمن الإنساني تجعلها أكثر صدقاً وحقيقة عند المؤمن بها من أي مضامين تاريخية أو روائية أخرى.
٥- ترتبط الأساطير ارتباطا وثيقا بنظام ديني معيّن وتعمل على توضيح معتقداته وتدخل في صلب طقوسه، بحيث أنّها تفقد كل مقوماتها إذا انفصلت عن هذا النظام وتتحول إلى شيء آخر ليس بالأسطورة.
٦- تتمتع الأساطير بقدسية وبسلطة عظيمة على عقول الناس ونفوسهم، وقد آمن الإنسان القديم بكل العوالم التي نقلتها الأساطير كقيمة أساسية تمتلك السطوة على العقل والقلب.

وبهذه المقدمة يخلص الباحث إلى التعريف التالي للأساطير فيقول: "إنّ الأسطورة هي **حكاية مقدّسة،** ذات مضمون عميق يشفّ عن معاني ذات صلة بالكون والوجود وحياة الإنسان". (١)

ثم يفرق (فراس السواح) (٢)، بين الأسطورة والخرافة؛ قائلاً: "تقوم الخرافة على عنصر الإدهاش وتمتلئ بالمبالغات والتهويلات، وتجري أحداثها بعيداً عن الواقع حيث تتحرك الشخصيات بسهولة بين المستوى الطبيعاني المنظور والمستوى فوق الطبيعاني ، وتتشابك علائقها مع كائنات ما ورائية متنوعة مثل الجن والعفاريت والأرواح الهائمة. من هنا ، فإن الحدود بين الخرافة والأسطورة ليست دائماً على ما

---

(١) فراس السواح، الأسطورة والمعنى، ص ١٤ .

(٢) ولد ١ يناير ١٩٤١م، في حمص، سورية. هو باحث ومفكر في الميثيولوجيا وتاريخ الأديان. نال شهادة البكالوريوس في الاقتصاد عام ١٩٦٥ م من جامعة دمشق، استهوته الميثولوجيا وتاريخ الأديان باكرا فكتب في الصحف والمجلات منذ عام ١٩٥٨م ونشر أبحاثه الأولى في مجلة الآداب اللبنانية عام ١٩٦٠، عمل في مركز تطوير الأدارة التابع لمنظمة العمل الدولية في دمشق بين عامي ١٩٦٩- ١٩٧٨، اصدر كتابه التأسيسي مغامرة العقل الأولى عام ١٩٧٦ م. دخلت البعض من مؤلفاته في المناهج التعليمية في الجامعة الزيتونة بـ تونس والجامعة الأردنية بـ عمّان.

نشتهي من الوضوح. وقد يشبه بعض الخرافات الأساطير في الشكل والمضمون إلى درجة تثير الالتباس والحيرة ، فلا نستطيع التمييز بينهما إلا باستخدام المعيار الرئيسي الحاسم الذي أثبتناه في تعريفنا للأسطورة ، وهو معيار القداسة.

فالأسطورة هي حكاية مقدسة يؤمن بها أهل الثقافة التي أنتجتها بصدق روايتها أيماناً لا يتزعزع ، ويرون في مضمونها رسالة سرمدية موجهة لبني البشر. فهي تبين عن حقائق خالدة وتؤسس لصلة دائمة بين العالم الدنيوي والعوالم القدسية.

أما الخرافة، فإن راويها ومستمعها على حد سواء يعرفان منذ البداية إنها تقص أحداثاً لا تلزم أحداً بتصديقها أو الإيمان برسالتها". [١]

وفي ذلك يقول (أحمد كمال زكي): "إن الحكاية الخرافية **لا تعتمد الحدث أساساً لها، وإنّما تعتمد البطل.** وهي تختار من الأحداث ما يلقي الضوء على شخصيته ويؤثر في حركته، هذا مع امتلائها بالأمور التي لا تقع في عالمنا. ومن هذه النقطة دخلت أقاصيص الحيوان مجال الحكايات الخرافية، وكان الأساس فيها مغزاها العميق برغم تفككها وبعدها عن المنطق المعروف". [٢]

ويضيف قائلاً: "ويجب أن تؤلف الخرافة بحيث تكون درامية ، وتدور حول فعل واحد تام كله ، ولا تكون مشابهة للقصص التاريخية التي لا يراعي فيها فعل واحد، وهكذا...". [٣]

إذاً؛ الخرافة، هي سردٌ من نسيج الخيال، ولا علاقة لها بالواقع ولا بأيّ حدث واقعي، لأنّها مؤلّف قائم على الخيال سواء كان فرديا أو جماعيا.

---

(١) فراس السواح، الأسطورة والمعنى، ص ١٥ – ١٦ .

(٢) أحمد كمال زكي، الأساطير: دراسة حضارية مقارنة، ص ٥٧ .

(٣) نفس المرجع، ص ٦٠ .

والخرافة قد تنسج لغايات أخلاقية أو توجيهية كالحثّ على التزام الخلق الطيب والنفور من المساوئ وقد تتضمّن رسائل من مثل تمجيد القوي وصاحب السلطان، أو قد تروى لمجرّد التسلية والترفيه إلا أنّها تعتمد على مبدأ نسب الخوارق والبطولات لعناصر الخرافة وشخصياتها الرئيسة. شخصيات الخرافة هم من البشر أو الحيوانات أو الجنّ والعفاريت، وفي جميع الأحوال فإنّ الخرافة هي نسيج لا يحمل أصلاً واقعياً بغض النظر عن موضوعه النافع الحامل للمواعظ والعبر.(١)

ومن خلال التعريفات والآراء السابقة، وبالتحليل الدقيق للأساطير، باعتبارها جزءا من التراث القديم المعبّر عن نتاجات الأوّلين وأفكارهم وانعكاس تعليم القوى الربّانية لهم، نخلص إلى القول بأنّ: **"الأسطورة هي القصّة الشعرية المصفوفة زجلاً أو شعراً بحيث تحوي موضوعاً دينياً يتعلّق بالقوى العلويّة والخفيّة، وتعبّر عن معارف الإنسان الأول وأخلاقه ومستويات علومه وتأملاته، وهي موضوعة في قالب ذي إيقاع شعري موسيقي يتضمن الحدث المراد تأريخه سواء كان من صنع الإنسان أو الطبيعة أو الربّ، لأجل أن يتلى ويُتداول ويؤدي دوره في تثقيف العقول وتحريك المشاعر"**.(٢)

ثانياً: نشأة الأسطورة:

تبلورت نظريات أربع في أصل الأسطورة لخصها لنا "توماس بولفينش" في كتابه "ميثولوجية اليونان وروما"؛ وهذه النظريات هي:(٣)

---

(١) جمعية التجديد، الأسطورة: توثيق حضاري، ص ٤٢ – ٤٣ .

(٢) جمعية التجديد، الأسطورة: توثيق حضاري، ص ٢٥ – ٢٦ .

(٣) أحمد كمال زكي، الأساطير: دراسة حضارية مقارنة، ص ٥٣ ؛ نقلاً عن:

- Thomas Bulfinch, Mythology of Greece & Roman, U. S. A. PP. 286 – 288 .

١- **النظرية الدينية:** ترى أن جميع الأساطير تعود في أصولها الأولى إلى الكتب السماوية المنزلة، أما الوقائع الصحيحة فقد تبدلت واختفت معالمها.

٢- **النظرية التاريخية:** تؤكد على أن الآلهة وأبطال الأساطير ما هم إلا كائنات بشرية حقيقية، ومع تعاقب الأجيال أضيفت إليها الكثير من الزيادات حتى ارتقى هؤلاء الأبطال إلى مصاف الآلهة.

٣- **النظرية المجازية – الرمزية:** ترى الأسطورة ما هي إلا رموز ومجازات ذات مغزى أدبي أو هدف ديني أو معنى فلسفي، أو حقائق تاريخية تحولت مع الزمن إلى مادة أدبية خالصة.

٤- **النظرية الطبيعية:** تؤكد على أن العناصر الأربعة (التراب والماء والهواء والنار) هي أصل العبادات الأولى، وأن الآلهة الرئيسة لم تكن إلا رموزاً للظواهر الطبيعية.

ثالثاً: أنواع الأساطير:

ليست كلّ الأساطير تشير إلى موضوع واحد، أو تقصد هدفا واحدا، وعلى الرغم من اختلاف موطن الأساطير وأزمنتها إلا أنّه يمكن تصنيفها حسب موضوعها وغرضها ووظيفتها الأساسية بغضّ النظر عن مصدرها، وليس يخفى أنّ لتصنيف الأساطير دوراً كبيراً في فهمها وإدراك معانيها، وتصنّف الأساطير حسب وظيفتها كالتالي:[1]

١- الأساطير التعليمية:

لقد ارتبطت الأساطير بسلّم التطوّر الحضاري الإنساني، وتحمل الأساطير من هذا النوع مضامين ذات غايات تعليمية، فقد كانت الأساطير وسيلة استعملها الإنسان الأول بسبب ما تمتلكه من طابع مقدس وصفات تعين سامعيها على تصديقها

(١) جمعية التجديد، الأسطورة: توثيق حضاري، ص ٥٠ – ٨٢ .

والتفاعل معها للمساهمة في تعليم وتركيز مبادئ إيل[1] في مرحلة الانتقال من الزواج العشوائي إلى الأسرة والاستقرار والمثل والأخلاق، إلى جانب ذلك اهتمّت الأساطير التعليمية بتعليم مبادئ الزراعة وفنونها، والزراعة كما نعلم مرتبطة بالأسرة وحياة الاستقرار.

٢- الأساطير الوعظية:

هناك من الأساطير ما يدور موضوعها حول الحثّ على التزام الحكمة وبناء القيم، وتأصيل علاقة سليمة بين الإنسان وبين الرب، وتحذّر من مغبة عصيانه أو التمرد عليه أو منازعته في دوره ومقامه وقدراته، والمتأمّل في هذه الأساطير يدرك مدى علاقة العرب القدماء بالخالق، وهم الذين حضوا بالرعاية الإلهية الخاصة، فقد شهدت أرضهم عملية الخلق الأول للأرض والكائنات والإنسان، وعلى أرضهم عاش آدم الإنسان الأول حافظا لعهده مع ربّه طاويا صفحات الماضي سائرا في درب الهداية وحمل الأمانة، فيفهم من خلال أساطيرهم أنّ توحيد الله كان له بقية أثر لا أقل عند حكماء القوم، ولا عجب في ذلك فقد ظهر أنّ على هذه الأرض بُعِث كل أنبياء الله بلا استثناء، ومن هذه الأرض جاب الأنبياء وأصحاب الأنبياء حاملين شعلة التوحيد شرق الأرض وغربها، وأنّه مهما حاول الباحثون الغربيون التأكيد على أنّ سكان المنطقة العربية كانوا يعبدون الآلاف المؤلّفة من الآلهة، فإنّ ذلك ادّعاء ناجم عن خطأ الترجمات والتفسيرات التي تدحضها تلك الأساطير الزاخرة بعبارات التمجيد والثناء للخالق.

٣- الأساطير العلمية:

---

(١) إيل في الأساطير هو الله ، ومبادئ إيل المقصود بها شريعة الله التي حملها الأنبياء التي سعت نحو تكريس شريعة القيم والأسرة ، مقابل شريعة الهمج والإباحية.

الأسطورة العلمية تتحدّث عن قضايا علمية كالخلق والتكوين وأصول الأشـياء، وهي من الأساطير التي تبهر العقل وتدهشه لتضمّنها معان عظيمة عن خلق الكـون، وخلق السماء والأرض، وخلق النبات وخلـق الحيـوان والإنسـان، وتعتـبر أسـطورة التكوين البابلية من أهم أساطير الخلق، وقد دُوّنت قبل سفر التكوين في التوراة بعـدة قرون، وإذا كان ثمّة تشابه كبير بـين القصـتين الـواردتين في كـلّ مـن الـرُقُم البابليـة والتوراة فإن ذلـك مـردّه إلى أنّ التـوراة قـد أخـذت كثـيرا عـن الميثولوجيـا البابليـة والكنعانية .

٤- أساطير الأبطال:

تدور أساطير الأبطال حول شخصيات صالحة تركـت بصـمات بـارزة في التـاريخ القديم كالأنبياء والملوك، ويمكننا مـن خـلال هـذه الأسـاطير التعـرّف عـلى مفهـوم البطولة عند الشعوب القديمة وطبيعتها وارتباطها بالعالم الفوقي والقـوة الربّانيـة، إذ البطولة تؤثّر في الحضارة بشكل كبير بل إنّها في القديم صانعة الحضارة والمدافعـة عـن القضايا الإنسانية ولها اليد الطولي في تكريس المبادئ السامية.

*****

يتبيّن لنا أنّ الأساطير رغم اختلاف مواقعهـا الجغرافيـة إلا أنّهـا تشـترك في كونهـا **تتكوّن من ظاهر يغلب عليه استخدام المحسّنات الشعرية و الصور البديعية والرموز والكنايات،** ولكنه يختزن في سطوره معـاني عميقـة ومضـامين راقيـة، وقـد تناولـت الأساطير في كلّ الحضارات القديمة ذات الموضوعات الهامة والكبيرة عن نشأة الكون وخلق الإنسان الأول وبداية تكليفه وحياته الأولى والأخرى، هذه الوحدة في الشكل والمضمون تدل على وحدة مصدرها، فالشعوب في تلك المرحلة التاريخية كانت تنـزح وتنتشر وتعمّر الأراضي حاملة معها عقيدتها وفكرها وأدواتها وعلومها.

وبالنظر إلى الدلالات والغايات التي تكمن في الأساطير أيضا نستدل على أنّها كانت أداة لنشر الثقافة والعلوم والمكتشفات التي ساعدت في بناء حضارة الإنسان ورقيه في سلم التطوّر في مختلف المجالات، وهي ليست كالخرافات، بل هي مادة تاريخية تحوي معارف الإنسان الأول وعلومه وعقائده، غرضها العامّ هو الحفاظ على روح التديّن والخير والارتباط بقوى السماء وتوجيه الإنسان نحو القيم والفضائل ودفعه نحو تحقيق دوره على هذه الأرض، ونقل العلوم الصحيحة له.

الباب الثاني

من أنا ؟!

الفصل الأول

إبليس والشيطان والجن



(الملأ الأعلى) و (الملائكة)

قال تعالى: { مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ **بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ** إِذْ يَخْتَصِمُونَ } (ص: ٦٩).

قال تعالى: { وَإِذْ قُلْنَا **لِلْمَلَائِكَةِ** اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ } (البقرة: ٣٤).

أنني سوف أُفرق بين لفظة (الملأ الأعلى) ولفظة (الملائكة) في النص القرآني؛ حيث أنه يوجد هناك فرق بين اللفظتين لذلك وجب التوضيح وتدبر آيات النص القرآني التي تدلنا لهذا الفرق..

فدعونا نلقي نظرة على جذور هذه الكلمات لنفهم دلالتها من لسان القرآن؛ اللسان العربي المبين. فقد أتت لفظة **(الملأ)**، من الجذر اللساني العربي **(م – ل – ء)**.

(ملىء): الميم واللام والحرف المعتل. كلمة وهي **الزمن الطويل.** وأقام مليئاً، أي دهراً طويلاً. وتمليتُ الشيء، إذ أقام معك زماناً طويلا. وإذ هُمِز دل على **المساواة والكمال في الشيء.** وملأتُ الشيء. أملؤُه ملئاً. والملء : الاسم للمقدار الذي يُملأ؛ وسمى لأنه مساوٍ لوعائه في قدره. ومنه المَلأ: **الأشراف من الناس، لأنهم مِلئُوا كرما.** جاء في الحديث (أحسنوا أملاءكم) والمعنى فيه أن حسن الخُلُقُ من سجايا الملأ، وهم الشراف الكرام. [1]

(ملأ): الملأُ: **جماعة يجتمعون على رأي ،** فيملؤون العيون رواءً ومنظراً ، والنفوس بهاءً وجلالاً. [2]

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الخامس، ص ٣٤٦ .

(٢) الراغب الإصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٧٧٦ .

(ملأ): مَلأَ الشيء يملؤه ملأً، هو مملوُء، وملأه فامتلأ، وتملأ، وإنه لحسن الملأة أي الملء، لا التملؤِ. والملَأُ: **الرؤساء،** سموا بذلك لأنهم **ملاءُ بما يحتاج اليه.** والملأ: مهموز مقصور: **الجماعة، وقيل أشراف القوم ووجوههم ورؤساؤهم ومقدموهم، الذين يرجع إلى قولهم.** ويقال فلان أملأُ لعيني من فلان، أي أتمُ في كل شيء منظراً وحسناً. وكذلك الملأُ إنما هم **القوم ذووُ الشارة والتجمع للإدارة.** (1)

- نأتي لتحليل لفظة **(م – ل – ء)** فيزيائياً:

(م): صوت يدل على جمع متصل ينضم ويتداخل ويتكامل في أطار واحد.

(ل): صوت يدل على حركة ثقيلة متصلة لازمة.

(ء): صوت خفيف يدل على ظهور مفاجئ في الزمان والمكان.

(ملء): لفظة تدل على تجميع شيء واحد أو أشياء متصلة ومتكاملة في قالب واحد، ويظهر بشكل مفاجئ في الزمان والمكان.

ومنها جاءت كلمة **(المَلأُ):** التي تدل على مجموعة – قد تكون من الناس أو من كائنات أخرى – اجتمعوا بشكل متصل لأنهم يتداخلوا في صفات شبيهه ببعضها البعض فاجتمعوا عليها وتميزوا بها فأصبحوا من الصفوة المختارة من بين نوعهم الواحد.

قال تعالى: { قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ } (الأعراف: ١٠٩).

قال تعالى: { فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ } (هود: ٢٧).

نرى هنا أن الآيتان تتكلم عن مجموعة تتصف بصفات اجتمعت عليها وظهرت بها فبذلك حدث لها امتلاء بهذه الصفات، **(فالملأُ)** هو أسم صفة لمجموعة أما

---

(1) محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، الجزء الأول، ص ١٥٨ – ١٦٠ .

اجتمعت على الخير أو الشر. ففي عصرنا هذا يمكن أن نطلق مثلاً على رئاسة الـوزراء أنهم الملأ من الشعب في بلد محددة وهم ملء لـرئيس الجمهوريـة فهـو الحـاكم الـذي يعطي الأوامر ويرئسهم.

*****

ولنكمل الألفاظ من السورة موضع التـدبر (ص:٦٩)؛ بقـي لنـا أن نتـدبر لفظـة **(الأعلى)** وهي اشتقت من الجذر اللساني العربي **(ع – ل – و).**

(علو): العين واللام والحرف المعتل ياءً أو واواً أو ألفاً، أصـل واحـد يـدل عـلى: **السمو والارتفاع،** لا يشذ عنه شيء. ومـن ذلـك: العـلاء والعلـو. ويقولـون: تعـالى النهار، أي ارتفع. قال الخليل: أصل هذا البناء العلو. فأما العلاء **فالرفعة.** وأما العلـو **فالعظمة والتجبر.** يقولون: علا الملك في الأرض علوا كبيراً..[1]

قال تعالى: { إِنَّ فِرْعَوْنَ **عَلَا** فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } (القصص: ٤).

(علا): عُلو كل شيء وعلوهُ وعلاوته وعاليه وعاليته: **أرفعه.** ويقـال: عـلا فـلان الجبل إذ رَقيه يعلوه عُلواً، وعلا فلان فلاناً إذ قهره. والعلي: **الرفيـع.** وتعـالى: ترفـع. والأعلى: هو الله الذي هو أعلى من كل عالٍ واسمه الأعلى أي صفته أعـلى الصـفات. والعلو: ارتفاع أصل البناء.[2]

- نأتي لتحليل لفظة **(ع – ل – و)** فيزيائياً:

(ع): صوت يدل على عمق أو بُعد في الشيء.

(ل): صوت يدل على حركة ثقيلة متصلة لازمة.

(و): صوت يدل على ضم وتموضع الحركة في المكان.

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الرابع، ص ١١٢ – ١٢٠ .

(٢) محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، ج ١٥، ص ٨٣ – ٩٥ .

(علو): كلمة تدل على تموضع الحركة في مكان بعيد مرتفع.

فنحن نقول على الشخص المغرور هو متعالي على الناس لأنه بفعل الغرور قد ارتفع وأنعزل عن الناس معنوياً فأصبحت نفسيته متموضعة في مكان عالي عن التواصل مع الناس من حوله

فكلمة **(الملأ الأعلى)** تعني: هم مجموعة تتمركز في مكانٍ ما بعيداً عنا نحن البشر، في عالم الأمر الغيبي عنا المختص بالإله خالق هذا الكون وهم يتواصلون به مباشرة، يحملون كلمته منه ويُفَعِلونها في عالم الخلق المشاهد لنا.

*****

أما عن لفظة **(الملائكة)** فهي اشتقت من الجذر اللساني العربي **(ء – ل – ك)؛** فدعونا ننظر إلى المعنى ودلالة اللفظة داخل معاجم اللغة العربية..

(ألك): الهمزة واللام والكاف أصل واحد، وهي تَحَمُّلُ الرسالة. قال الخليل: الأُلُوكُ الرسالة، وهي المَألَكُةَ على مَفْعَلُةَ. وقول العرب: (ألكني إلى فلان)، لمعنى تحمل رسالتي إليه. استلأك فلان لفلان: أي ذهب برسالته.(١)

(ألك): قال الليث: الألوك **الرسالة** وهي المَأْلُكة، على مَفْعَلُةَ. قلت: ألكني إليها برسالة، إذ المعنى **كُن رسولي إليها بهذه الرسالة.** ألكني إليها بسلام: أي بلغها سلامي وكن رسولي إليها. الملائكة: جمع ملأكة ثم ترك الهمز فقيل مَلَك في الوحدان، وأصله ملأك. ويقال: **جاء فلان قد استألك مألكته أي حمل رسالته.**(٢)

- نأتي لتحليل لفظة **(ء – ل – ك)** فيزيائياً:

(ء): صوت خفيف يدل على ظهور مفاجئ في الزمان والمكان.

(ل): صوت يدل على حركة ثقيلة متصلة لازمة.

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الأول، ص ١٣٢ – ١٣٣ .

(٢) محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، الجزء العاشر، ص ٣٩٢ – ٣٩٤ .

(ك): صوت يدل على وقف، أو ضغط خفيف.

(ألك): كلمة تدل على ظهور حركة مفاجئة في زمان ومكان محدد، وتستمر هذه الحركة في اتصال متلازم بشكل ثقيل، لينتهي في زمكان أخر محدد تماماً.

فكلمة (الملائكة) هي مشتقة جاءت من ذلك الجذر اللساني (ألك)؛ وأضيف إليها في أولها حرف الميم وفي نهايتها حرف التاء المربوطة، فدلالة كلاً منهما هي:

(م): صوت يدل على جمع متصل ينضم ويتداخل ويتكامل في أطار واحد.
(ت): صوت يدل على اجتذاب واجتماع الحركات.

فكلمة **(ملائكة)** تدل على: تجميع شيء واحد أو أشياء متصلة ومتكاملة في قالب واحد، ثم يظهر هذا الشيء بعد تجميعه بحركة مفاجئة في زمان ومكان محدد، ويستمر في حركته بشكل متلازم وثقيل، لينتهي هذا التجمع الحركي في زمان ومكان آخر محدد.

أذن؛ **(الملائكة)** هي كائنات تتلقى أوامرها من الله تعالى مباشرة وهي حينها تسمى بـ **(الملأ الأعلى)** – فهم يسموا كذلك والذي منهم **(جبريل وميكال)** – فهم ملائكة الرحمن العليا وهم (الملأ) لأنهم يسجدوا لله تعالى فقط ولا لأحد غيره فهم الملأ الخاص به إذا أراد الله شيئاً أمرهم به فهم (كن) التي تنفذ أوامر الله تعالى فتعطي أوامرها (للملائكة الدنيا).

فـ (الملائكة) هم نظام يحمل معلومات ربانية ليطبقها فالملأ الأعلى حين يحمل هذه المعلومات المشفرة في عالم الأمر فيُصبح أسمهم حينها ملائكة ولكن عليا يُرسلها الله تعالى إلى الملائكة الدنيا التي بدورها تحملها هي الأخرى للإنسان في عالم الشهادة والخلق فيتحقق أمر الله تعالى.

فالملائكة التي سجدت لآدم ليست هي ملائكة الرحمن (الملأ الأعلى) إنما هي (ملائكة الدنيا) وقد جعل الله تعالى تطويعها لإرادة الإنسان، فهي النظام المعلوماتي

الموجود في الكون مثل: (الذرة والنواة والجينات) فهذه (رسل) كيميائية وفيزيائية هي التي تحدد خواص كل موجود وقدراته وتتحكم فيه، وهذه هي التي أُمرت بالخضوع لآدم كـ (جنس بشري كامل)..

طرق اتصال الملائكة بالبشر:

قد لا نحيط علماً كاملاً بأساليب اتصال الملائكة بالإنسان، ولكن يمكن الإشارة إلى أثنين منها، وهي:

١- الاتصال المتمثّل:

وذلك حينما تكون الملائكة على هيئة البشر عند التواصل مع الإنسان؛ فيكون التواصل بين الطرفين كأي تواصل بين اثنين من الناس تعليماً وحواراً.

قال تعالى: { فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا } (مريم: ١٧).

٢- الاتصال عن طريق الوحي:

يتم الاتصال في هذه الحالة عن طريق الدخول على قلب النبي؛ ويتم التنزيل على القلب بالحروف.

قال تعالى: { وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) **عَلَىٰ قَلْبِكَ** لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) } (الشعراء).

قال تعالى: { حم (١) عسق (٢) كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) } (الشورى).

فالـ **"حرف"** في اللغة إمّا ما يتركب منه اللفظ ويسمّى حرف التهجي، وإمّا أن يعني الكلمة، وإمّا أن يعني الحدّ أو الوجه، وإمّا أن يعني اللغة. والحرف في علم

"الجفر" (وهو علم آل بيت محمد) هو **بناء مفرد مستقل بالدلالة، وتسمّى دلالة الحروف دلالة أولية، ودلالة الكلمة دلالة ثانوية.**[1]

إن القرآن هو، في حقيقته، علم إلهي تتلقاه الروح وتعيه بأمر ربها، وهذا ما يدعى بالوحي، وإن هذا العلم الرباني الموحي ليس لغة وكلمات عربية أو غير عربية، لأن الله منزه عن الكلام كالإنسان. وإن أقرب ما يمكن أن نعبرّ عنه بلغتنا اليوم هو أن نقول: إنه **"برنامج"** مبني، مرتب، ومصفوف، وهذا ما قُصد به **"بناء مفرد مستقل بالدلالة هي الدلالة الأولية"**. ثم ما أن تتلقاه الروح حتى تبدأ عملية **"الترجمة"** وذلك بأن تصطفّ مقابل **"الأحرف"**، الموحاة (التي هي صورة الوعي بترميزها السماوي) ما يناسبها من الكلمات المخزونة في العقل، فيخرج الوعي في ترجمته، أو نسخته الثانية كلاماً عربياً، قال تعالى: { وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا } (الشورى: ٧). وهذا ما دعي بـ **"دلالة الكلمة، دلالة ثانوية"**.

إن هذه الآيات تبين لنا كيف أن الوحي ينزل على القلب الذي باطنه الروح بواسطة الرسول الملاك بدلالته وصيغته الربانية الأولية. ثم ما أن يمرّ ما بين الروح والعقل أو النفس الناطقة عند النبي حتى تبدأ عملية **"ترجمته"** بواسطة الكلام المناسب له من اللغة المحفوظة لدى العقل في الذاكرة، فيخرج كلاماً من الذي يتكلمه ويحفظه الموحي إليه (النبي)، مشابهاً، مماثلاً، مشاكلاً، لكنه، في حقيقته وجوهره ليس هو تماماً. إنه صورته اللغوية التي تمكننا قدراتنا من إدراكها والتعرف عليها. إنها دلالته الثانوية، دلالة الكلمة، فهي، في حد قدراتنا ووعينا، هو، لكنه، في جوهره، غير هذا الكلام العربي الذي لا نقدر على إدراكه إلا من خلاله.

وبهذا أكون قد أوضحت الكثير من المفاهيم في هذه النقطة التي ستخدمنا كثيراً عند التعرض لقصة آدم في الفقرات والفصول القادمة أيضاً..

---

(١) بطرس البستاني، محيط المحيط، ص ١٦٢ .

مفهوم لفظة (أبليس)

قررت أن أبحث في تلك المفاهيم القرآنية مثل مفهـوم **(أبليس)**، و **(الشـيطان)**، و **(الجن)**، و **(الإنس)**، و **(العفريت)**؛ كل تلك المفاهيم في النص القرآني مـن أجـل أن أُثبت للناس حقيقة ما نعيش فيه ، في عالمنا العربي من قصص وعجائب حول كائنـات خفية لا نُدركها تؤثر هي فينا ونحن لا نؤثر فيها ، وقصـص وحكايـات قـد ظهـرت حول شيء واحد له عدة مسميات وله صفات محددة في ذهن كثير من الناس في عالمنـا العربي وهو (الجن أو العفريت أو الشيطان أو إبليس) كل تلك الأسماء لكائن هُلامـي خفي له قوة خارقة نحن لا نُدركها فنحن نقصد بهذه المسميات الأشباح التي تظهر في أفلام الغرب التي تسمى بأفلام الرعب وهي التي تسكن أحياناً البيوت التي لم يـذكر فيها اسم الله أو حتى التي يذكر اسم الله فيها **!!**..

فعالمنا العربي مسكون بكل تلك الأشياء وتتداول هذه القصص عن هذه المسميات جيل بعد جيل حتى ترّسخت بداخلنا مفاهيم مغلوطة عن هذه المفاهيم وجاء القـرآن الكريم ليتكلم عن هذه المسميات ولكننا حملنا مفاهيمنا المسبقة عليه وقلنـا أن القـرآن يتكلم عما نحن نعتقده دون أن نتدبر القرآن ونفهم الآيـات التـي تكلمـت عـن هـذه الكلمات التي ذكرتها، فقط تسرعنا وألقينا بالحكم وقلنا أنها مـذكورة في القـرآن وكـل من يحاول أن يفهم يقول لك الناس هل تنكر ما قيل في كتاب الله **!!**..

فنحن لا ننكر ما قيل في كتاب الله ولكن نحاول أن نفهمه كما أمرنا الله تعـالى دون أن نلقي بمعتقادتنا عليه، وظلت هذه الخرافات تُلازمنا منذ القـرن الثـاني الهجـري في كتب الفقه حتى يومنا هذا **!!**..

فجاء الوقت الآن أن نُعيد قراءة وتدبر هذه المفاهيم من جديد مـن داخـل القـرآن الكريم وليس من خارجه بلسانه هو وليس بالفهم الخرافي الهُلامي، فنحن الآن أسهل

كلمة يمكن أن نطلقها على أي شخص نستعجب من تصرفاته أنه ملبوس وراكبه جني شيطاني !!..

فدعونا نتدبر هذه المفاهيم بعمق شديد من كتاب الله تعالى..

قال تعالى: { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا **إِبْلِيسَ** أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ } (البقرة: ٣٤).

جاءت لفظة (إبليس) مشتقة من الجذر اللساني **(بَلَسَ)؛** وقد أتى هذا الجذر في النص القرآني ما يقارب حوالي (١٦) مرة بمختلف مشتقاته، ووردت لفظة (إبليس) **إحدى عشرة مرة** منها ثمان مرات مكررةً لنفس الحقيقة وهي عدم سجود إبليس لآدم، ومرة واحدة نقلت الآية سؤالا طُرِحَ على إبليس حول السبب الذي حال بينه وبين السجود، ومرة أُشير أن إبليس صدّق ظنَّه على بعض الناس، ومرة أُشير إلى جنود إبليس. فدعونا ننظر لهذا الجذر في المعاجم وفي دلالة أصواته الفيزيائية من القرآن لنفهم ما المقصود منه بالضبط..

(بلس): الباء واللام والسين أصلٌ واحد، وما بَعْدَه فلا معول عليه. فالأصلُ **اليَأْسُ،** يقال أَبْلَسَ إذا يَئِسَ. قالوا: ومن ذلك اشتُقّ اسم إبليس، كأنه يَئِس من رحمة الله.[1]

(بلس): أَبْلَسَ الرجلُ: **قُطِعَ به.** وأَبْلَس: **سكت.** وأَبْلَس من رحمة الله أي **يَئِسَ ونَدِم.** والمُبْلِسُ: **الساكت من الحزن أو الخوف.** والإبْلاسُ: **الحَيْرة.**[2]

- نأتي لتحليل لفظة **(ء – ل – ك)** فيزيائياً:

(ب): يدل على الانتقال من الشيء لنقيضه.

(ل): يدل على حركة ثقيلة متصلة لازمة.

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الأول، ص ٢٩٩ – ٣٠٠ .

(٢) محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، الجزء السادس، ص ٢٩ .

(س): يدل على ظهور حركة بشكل غير واضح وغير عميق أولي.

(بَلَسَ): كلمة تدل على انتقال الحركة بصورة إلى صورة أخرى نقيض لها، بشكل ثقيل متصل، ليظهر في نهايته بشكل غير واضح ومشتت.

فإذا أضفنا على هذا الجذر **(بَلَسَ)** حرفي الهمزة في أولها والياء قبل السين، تُصبح الكلمة (إبليس)، فدعونا نعرف ما دلالة هذه الحروف.

(ء): يدل على ظهور مفاجئ في الزمان والمكان.

(ي): يدل على خروج ووضوح شيء.

فتكون دلالة المفهوم **(إبليس)؛ هي:** كلمة تدل على ظهور حركة مفاجئة في زمان ومكان (زمكان) محدد، وتنتقل من صورتها الأصلية إلى صورة أخرى نقيض لها، بشكل ثقيل متصل، لتخرج وتظهر في نهايتها بشكل غير واضح ومشتت.

لو أننا قارنا كلمة (إبليس) مع بعض الكلمات المنحوتة على هذا التفعيل من قبيل: **"إكليل / إسفين / إزميل / إكسير / إدريس.."** سنجد أنَّ (إبليس) قد يكون **اسم أداة أو شيئ أو اسم مفعول وقع عليه الفعل** بينما المتعارف عليه في كتب الصرف واللغة أنَّه **اسم فاعل** وهو أمر غريب، لأنَّ المعنى هو أن يقوم هو بفعل البلس.

أن (إبليس) تصريف على وزن (إفعيل) ينتج اسم آله أو اسم مفعول وليس اسم فاعل. إن الفعل (بَلَسَ) فعل متعدي مثل (كَلَلَ / حَلَلَ) وتصريفه على وزن (إفعيل)؛ لا يؤدي إلى ظهور اسم فاعل منه وإنما اسم آلة أو على الأكثر اسم مفعول، من قبيل (إكليل / إحليل / إكسير / إزميل / إدريس).. فهو تعرض إلى وقوع الفعل عليه ولا يتوقع منه فعل.

عليه فإنَّ (إبليس)؛ تعني: **الأداة التي تؤدي دور البلس أو الشيء الذي يقع عليه فعل البلس.**

مقارنة مع تصريفات مشابهة:

لنتأمل قليلاً في بعض التصريفات المشابهة ونحاول أن نتعرف على معانيها حتى يتبين لنا عدم دقة القول بأن التصريف على وزن (إفعيل) هو تصريف لاشتقاق اسم الفاعل.

فلفظة (إحليل)؛ في لسان العرب: (الإِحْلِيلُ: مَخْرَج البول من الإنسان ومَخْرج اللبن من الثدي. والإِحْلِيل: يقع على ذَكَرِ الرجل وفَرْج المرأة). فهو اسم آلة، ولا يناسبه أن يكون اسم فاعل.[1]

ولفظة (إزميل)؛ في لسان العرب: (والإِزْمِيل شَفْرة الحَذَّاء).[2]

فالنتيجة هي أن هذا التصريف يكون في الغالب لإنتاج اسم آلة أو اسم مفعول.

نصوص للتدبر:

لنعد إلى النصوص القرآنية لتكوين فكرة عن (إبليس)، ولنتأمل النص التالي:

قال تعالى: { وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ **مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ** ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) } (الأعراف).

وحتى نعرف خصوصية هذا النص لنقارنه مع النص التالي:

قال تعالى: { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) **إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ** وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ **مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) } (ص).

---

(١) محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، ج ١١، ص ١٧٠ – ١٧١ .

(٢) نفس المرجع، ص ٣١١ .

هناك **(أَلَّا)** في النص الأول – من سورة الأعراف – غير موجود في النص الثاني – من سورة ص – والتفاسير الموجودة تعتبر النصين متساويين في المعنى وهو أمر غريب.

ما هو المعنى إذن ؟ دعونا نقارن الآيتين التاليتين اللتين بُنيتا على نفس التركيب:

قال تعالى: { قَالَ **مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ** ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ } (الأعراف: ١٢).

قال تعالى: { **أَلَّا تَتَّبِعَنِ** ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) } (طه).

أولاً علينا أن نلاحظ أن الجملة في الآية الأولى – من سورة الأعراف – متصلة وفي الثانية – من سورة طه – منفصلة لأن الأولى أمر ربوبي واجب التنفيذ بينما الثانية إستمزاج رأي وليس فيها أمر وقضية تحتاج إلى نظر وتأمل.

الفرق يمكن فهمه إذا فهمنا حركة الفعل **(مَنَعَ)** وهو ما سنحاول القيام به حتى نحل هذه المشكلة التي استعصت على الحل زمناً طويلاً. فبمراجعة التفسيرات المعروفة نجد أنَّهم ركزوا جهدهم على الأداة **(أَلَّا)** وحاولوا حلَّ القضية بإحدى الطرقتين: إما القول بوجود **(لا)** زائدة في الأداة **(أَلَّا)** أو محاولة إيجاد ما يؤدي إلى افتراض أن السؤال هو عن السبب الذي حال بينه وبين السجود ودون توضيح، لماذا يكون هذا القول مساوي للقول الأصلي ؟!..

- **كيف سنحلُّ الإشكال ؟**

الفعل **(مَنَعَ)** يحمل السرَّ الذي سيفتح الطريق أمامنا لحلَّ هذا المشكل وكما يلي:

الفعل **(مَنَعَ)** فعل متعدَّي[1] لكنَّ اتجاهه يؤثر كثيراً في رسم المعنى فهو إذا:

---

(١) لتوضيح الفرق بين الفعل المتعدي والفعل اللازم؛ هو كالتالي:

- **صفات الفعل اللازم:**

١- أنه فعل ذاتي يقع في داخل الفاعل لذلك هو لا يحتاج إلى مفعول به لأن الفاعل نفسه سيكون محلاً لوقوع الفعل.

٢- أنه يتميز بدرجة واحدة من الوضوح بالنسبة إلى المتلقي الذي يعيش في الواقع الخارجي، فهو أمر وقع في داخل الفاعل لذا اعتبرناه فعلاً لازماً محدود بحدود واحدة.

فحينما نقول: مات المريضُ. نوحي بأنَّ الموت في نظرنا هو فعل واحد له حدٌّ واحد ! ولا نعرف أعماقه، فنحن نعتقد بأنه قضيه واحدة ليست لها مساحة كبيرة.

٣- إن اكتفاء المتحدث بالإشارة إلى الفاعل عِبرَ استخدام فعل لازم تعني اعتقاده بعدم حاجة المتلقي للمزيد من التوضيح.

٤- معنى الفعل اللازم يعتمد على محددات فطرية موجودة في النفس البشرية للمتلقين عموما وهي محددات بسيطة وعليها شبه اتفاق وقبول عام.

فحينما نقول: "سافر فلان" فهذا يعني للمتلقين قدرا متشابها من المعنى وان تفاوتت أفكارهم حول الطريقة والوقت وما أصاب الفاعل وغير ذلك مما لا يعتبر أمراً مهماً للتأثير على معنى "السفر".

- <u>صفات الفعل المتعدي:</u>

١- فعل موضوعي خارجي يقع خارج ذات الفاعل لذا فالمتلقي يتوقع أن يجد في كلام المتحدث أثراً للمفعول به الذي يقع الفعل عليه، وسيرغب في معرفة مكان وقوع الفعل وأثره في الواقع وحدود ذلك الأثر.

٢- يتميز بمساحة واسعة يتحرك فيها وتتفاوت فيها درجات وقوع ذلك الفعل.

مثلاً لو قلنا: ضربَ الولدُ. فإن المتلقي لا يكتفي بهذا القول ويبقى منصتاً للمتحدث، لأنه يريد أنْ يعرف تفاصيل أوفى عن الفعل، بمعنى أن المفعول مهم للغاية عند المتلقي؛ حتى يفهم المقصود من الكلام عندما يستعمل المتحدث فعلاً متعدياً فإن عليه أن يوضح للمتلقي حدود ذلك الفعل وآثاره وطريقة وقوعه وما إلى ذلك، حتى لا يترك المتلقي أو السامع في حيرة من أمره سَيما إذا كان الكلام سيصبح أساساً تنبني عليه مواقف واجبة التنفيذ تقع على عاتق المتلقي أو السامع.

٣- ويزداد هذا الأمر إلحاحاً كلما كان موضوع الحديث هاماً، كما هو الحال مع النص القرآني الذي يُنظر إليه على أنه تشريعات – أو أصول لتشريعات – واجبة التطبيق من قبل طيف واسع من المسلمين. فكل ما كان الحديث عن مسألة تشريعية تتعلق بها أرواح وأعراض وأموال أناس تطلب الأمر وجود تفصيل ووضوح أكبر.

٤- المتلقي حينما يسمع موضوعاً معتمداً على فعل متعدٍ فإنه يذهب مباشرة إلى أكثر المعاني شيوعاً وإلى أكثرها ارتباطاً بالسياق وإلى أقل درجات الفعل تأثيراً كلما كان هناك غموض في حركة الفعل.

فمثلاً: لو قال أحدهم: ضربَ الولد ابنه. فإن السامع لن يتبادر إلى ذهنه أن والداً قد ضرب ابنهُ بأداة قاتلة أو بمسدس وإنما سيكون شبه واثقٍ أنه سيميل وبشكل تلقائي إلى تصور درجة واطئة من أثر الفعل.

كان ذاتياً: فإنَّه سيقع من قبل الفاعل على نفسه فيقوم بالمنع عن الإعطاء أو الاستجابة إلى جهة خارجية في الواقع المحيط به.

وأما إذا كان خارجياً (موضوعياً): سيكون المنع من قبل الفاعل أمام أمر خارجي يتوجه نحوه ويستهدفه.

المهم في كلِّ ذلك هو أنَّ المنع ليس دائماً منعاً للنفس وإنَّما هو تارة منع للنفس من إعطاء شيء للخارج وتارة منع النفس وتقويتها أمام شيء خارجي يتوجه نحوها.

- <u>**عليه سيتضح الفرق بين الآيتين:**</u>

قال تعالى: { قَالَ يَا إِبْلِيسُ **<u>مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ</u>** ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) } (ص).

السؤال هنا عن أمر متعلق بذات المسؤول وهو (إبليس) فقد جاء السؤال عن السبب الذاتي المانع من السجود بصيغة الإثبات باعتبار أن السبب متعلق بذاته وليس بأمر خارجي.

ونعرف أن الأمر متعلق بذاته وداخل نفسه وصفاته الذاتية من خلال العبارة (أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ) يعني يطالبه بإعطاء سبب مرتبط بذاته ونفسه.

يعني السؤال كالتالي: ما هو السبب الذاتي الذي جعلك منيعاً أمام الاستجابة و (السجود) رغم أنَّ المواصفات الخاصة بك تقتضي أن تكون أنت طيعاً أمام ما صنعته أنا بيدي كما صنعتك أنت بيدي وطبقاً لنفس المواصفات ؟..

فيأتي الجواب بأن السبب ناجم عن طبيعة المادة التي خُلِقَ منها (إبليس)، بمعنى أن الطاقة التي تمَّ تزويده بها كانت كبيرة لا تتناسب؛ وطاقة الشيء المراد منه السجود له وهي طاقة أضعف.

- **والآن نأتي لمناقشة الآية الثانية:**

قال تعالى: { قَالَ **مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ** ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ } (الأعراف: ١٢).

هنا نلاحظ أن الحديث عمّا أتاح لإبليس المنعة أمام العنصر الخارجي والقوة التي أمرته أن يسجد بمعنى (أن يستجيب) للضغط المسلط عليه.. تماماً كمن يتساءل عن السبب وراء اشتغال جهاز يعمل على الكهرباء رغم أنَّه لم يتمَّ تزويده بالكهرباء ؟

فيقال للجهاز: ما الذي أعطاك المناعة والقوة للعمل مع العلم أننا قطعنا التيار الكهربائي عنك ؟!

فيأتي الجواب من الجهاز: أنَّ عدم تزويدي بالكهرباء لا يهم لأن ما يراد الحيلولة بيني وبين التأثير عليه لا يحتاج مني للتزود بكل الكهرباء التي تمَّ قطعها عني.

ولكن لماذا لم يقل: ما منعك أن تتوقف عن العمل ؟ العلّة في الفعل **(مَنَعَ)**. دعونا نأخذ مثالاً يعطينا المعنى لهذا الفعل حتى نفهم:

قال تعالى: { الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ **وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ** ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا } (النساء: ١٤١).

واضح أن الفعل **(مَنَعَ)** ليس معناه هنا أنهم منعوا الكافرين من الوصول إلى المؤمنين وإنَّما المعنى هو أننا بموقفنا معكم جعلناكم منيعين أمام المؤمنين.

قال تعالى: { هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم **مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ** فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ } (الحشر: ٢).

وهنا ليس المعنى هو أن الحصون جلبتهم لها وشدتهم وجعلتهم لا يذهبون إلى الله، بل إنما المعنى هو أنها جعلتهم منيعين أمام قوانين الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: { قَالَ **مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ** ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ } (الأعراف: ١٢).

الآن لنفهم الآية، فالمعنى إذن هو: ما الـذي (منَّعَـكَ) أن لا تسـجد – أي جعلـك منيعاً أمام أمر السجود ؟

ويأتي الجواب مشابهة للحالة الأولى ولكن الآن الأمر مختلف فهو لا ينسـب الأمـر إلى قوته الذاتية وإنّما إلى ضعف ما يفترض أن يؤدي إلى سجوده ومطاوعته وكأنه يقول بأنَّ قطع التيار الكهربائي لم يكن حائلاً كافيـاً لمنـع تشـغيل الجهـاز أو الاسـتفادة منـه بطريقة مختلفة. فالقصور في عملية المنع ذاتها التي لم تراعِ قوة الجهاز الذاتية أو اختلاف الظرف. كأن تُقطع الكهرباء عن جهاز اللابتوب من أجل أن لا يكون فعالا في الحماية من المطر ! بينما هو كمادة صلبة يمكن أن يقي من المطر دون الحاجة إلى الكهرباء.

بينما في الحالة الأخرى كان الأمر مرتبطاً بالجهاز نفسه فجـرى سـؤاله لِمَ لم يتوقـف عن العمل مع العلم أن التصميم الصادر من نفس الجهة كان يقتضي أن يتوقـف هـذا الجهاز ويعمل بدله الجهاز الجديد فجاء الجواب بأنَّ الجهاز بقيت فيه فعالية ناشئة عـن طبيعة مادته تجعله يعمل مع وجود الجهاز البديل الجديد. كما لو نصبنا نسخة جديـدة من (الويندوز Windows) ولكن بقيت تطبيقات (الأوفـيس Office) القديمـة تعمل على النسخة القديمة.

- ماذا ينفعنا هذا التفريق ؟

التفريق بين الحالتين ومجيئ الجواب واحدا في الحالتين يعني أنَّ القضيتين مختلفتـان وكون أنَّ الجواب جاء في الحالتين واحـداً يشـير إلى أنَّ الأمـر غـير متعلـق لا بـالربَّ وقوانينه ولا بالمسجود له وإنَّما هو متعلق بكون أنَّ السجود غير قابـل للتحقـق نتيجـة

وجود اختلاف طبيعي بين الأمرين الساجد والمسجود له. وهذا الأمر يحتاج إلى أخذه في الاعتبار.

الآن بالعودة إلى معنى **(البلس)** الذي اتفقنا عليه نـرى أن عمليـة الـبلس المتعلقـة **بإبليس** هي عملية خلقية متعلقة بعملية تطوير **(آدم)** كجيل من البشر العاقل المتحضر والحديث كُلّه يدور حول عملية إنتاج جيل جديد من الأوادم يُهدَفُ فيه إلى السـيطرة على بعض الصفات الوراثية السلبية عبر بلسها ودفعها إلى الخمول النسبي وعم التأثير – بالمعنى المعاصر يراد تنحيتها – وتنشيط صفات إنسية جديدة أو إضعاف الصـفات المُبلسة.

إلا أنَّ الأمر كان يواجه صعوبات حيث أنَّ هـذه الصـفات كانـت تظهـر بقـوة في الأجيال اللاحقة مجدداً ما يعني أنَّ الأمر بحاجـة إلى مزيـد مـن الوقـت والمزيـد مـن التحديد أو إلى قرارات سيادية كبرى.

(إبليس) إذن هو: **تلك المجموعة من الصفات الوراثية المـراد تخلـيص الإنسـان بنسخته الجديدة (الآدمية) منها بشكل مستمر ومتواصل – سواء كانت هذه الصفات بدنية مادية مباشرة في شكله وقوامه أو غير مباشرة تؤثر على سلوكه لاحقاً – وذلك للارتقاء به إلى درجة العبودية التامة. وهي حالة الانطباق التام مع قوانين الله تعـالى بشكل طوعي كما كان الهدف أصلاً من خلقه.**

مفهوم لفظة (الشيطان)

بعد الحديث عن مفهوم **(إبليس)** نأتي الآن لنتدبر معاً مفهوم **(الشيطان)** الذي يعتقد كثيراً من الناس أنهم شيئاً واحد وهذا غير صحيح، فكما قلت لكم أن القرآن لا توجد فيه كلمه مثل الأخرى فكل كلمة مفهوم مستقل بذاتها يجب أن يُدرس ونتدبر فيه، وهذا ما نفعله في هذا الكتاب.

جاءت لفظة (الشيطان) مشتقة من الجذر اللساني **(شَطَنَ)؛** أتت مشتقات هذا الجذر في القرآن الكريم وقد بلغت حوالي **(٨٨)** مشتقة.

(شيطان) بصيغة النكرة (٦) مرات. (الشيطان) بصيغة المعرفة (٦٣) مرة. (شياطين) مقترنة بضمير ظاهر (مرة واحدة). (الشياطين) معرفة (١٨) مرة.

فدعونا ننظر لهذا الجذر في المعاجم وفي دلالة أصواته من القرآن لنفهم ما المقصود منه بالضبط..

(شطن): الشين والطاء والنون أصلُ مطرد صحيح يدل على **البُعد.** يقال شطنت الدار تشطن شطوناً إذا غربت. ويقال بئر شَطون، أي بعيدة القعر. والشطن: الحبل. وهو القياس، لأنه بعيدُ ما بين الطرفين. وأما الشيطان فقال قوم: هو من هذا الباب، والنون فيه أصلية، فسمي بذلك لبعده عن الحق وتمرده. وذلك أن كل عاتٍ متمردٍ من الجن والإنس والدواب شيطان. وأن الحية تسمى شيطاناً. **والشيطان على وزن فَيْعال.**[1]

(شطن): الشطن: الحبل، وقيل: الحبل الطويل الشديد الفتل يُستقى به وتشد به الخيل، والجمع أشطان. وبئر شطون: ملتوية عوجاء. وحرب شطون: عسرة شديدة.

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الثالث، ص ١٨٣ – ١٨٥ .

ورمح شطون: طويل أعوج. والشطن: مصدر شطنه يشطنه شطناً: أي **خالفه عن وجهه ونيته.** والشيطان: حية له عُرفُ. والشاطن: الخبيث. وقد تسمى الحية الدقيقة الخفيفة: شيطاناً وجاناً على التشبيه.(١)

- نأتي لتحليل لفظة **(ش – ط – ن)** فيزيائياً:

(ش): صوت يدل على حركة تشعب وانتشار.

(ط): صوت يدل على اتجاه الحركة بعيداً عن المركز.

(ن): صوت يدل على ستر أو اختباء أو سكون.

(شَطَنَ): كلمة تدل على حركة منتشرة ومتشعبة، تبعد عن مركزها الأصلي، وتحاول الاختباء والتستر.

كما رأينا في المعاجم وفي دلالة حروف هذا الجذر أن (شَطَنَ) هي صفة للأشياء التي تحاول الابتعاد عن مركزها الأصلي.

أذن؛ كلمة (الشيطان) هو أسم صفة وليس أسم لجنس محدد، يتحقق هذا الاسم في أي شيء حاول أن يطبق فعل (شَطَنَ) وهو محاولة الابتعاد عن مركزها الأصلي.

فجذر **(شَطَنَ)** عندما أضيف له حرف **الياء** وحرف **ألف** المد أصبح الاسم **(شيطان)،** فدلالة أصوات الحرفين هما:

(ي): صوت يدل على خروج ووضوح شيء.

(آ): صوت يدل على إثارة وامتداد في الزمان والمكان.

وهذا مما يدل ويضيف على الجذر **(شَطَنَ)** بكثرة البعد والانتشار في الزمان والمكان.

أوصاف الشيطان في القرآن:

(١) محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، ج ١٣، ص ٢٣٧ – ٢٣٩ .

وصف الشيطان بأنه: مريد / مارد / رجيم / عدو للإنسان / عدو مبين / كيده ضعيف / عمله رجس / له رجز / عنده قبيل / ينزع / يمسُّ الناس بطائف / يعدُ ويخلف / كفور لربه / عصيٌّ للرحمن / يدعو إلى عذاب السعير / له حزب / يصد الناس / يستحوذ على البعض / ينسى ذكر الله.

وصف أيضاً: له خطوات / يتخبط الإنسان / يعدُ بالفقر / يُزِلُ الإنسان / يُخَوَّفُ أوليائه / قرينٌ سيئ / له أولياء / له كيد / يُضِلُ الناس ويمنيهم / متوليه يخسر خسرانا مبيناً / يأمر الناس أن يبتكوا آذان الأنعام / يريد أن يوقع العداوة والبغضاء بين الناس / يزين بعض الأعمال / يُنسي الناس / يوسوس للناس / يصيب الناس بالغرور / يفتن الناس / ينزع عن أبوي بني آدم لباسهما / من يتبعه الشيطان يكن من الغاوين / يُنسي الناس ذكر ربهم / يستفزز الناس بخيله ورجله / يُلقي في أمنيه الرسل والأنبياء إذا تمنوا / يُلقي / بعض أعمال الناس من عمل الشيطان / يمسُ الناس بنصب وعذاب / حزبه خاسرون / يقول للإنسان أكفر ثم يتبرأ منه / الشيطان يخاف الله رب العالمين.

وفي كل هذا شبه إشارة إلى أنَّ الشيطان مرتبط بكل موضوعات الحياة التي يعيشها الإنسان.

يتبين معنا بأنَّ **(الشطن)** هو: **الخروج عن الإطار المحدد مع بقاء أثر معين يتعلق بذلك الإطار سواء سلباً أو إيجاباً.**

المهم أن يكون الشطن في الغالب هو خروج غير منظم وغير مرغوب فيه. وقد يكون نافعاً أحياناً لتفوقه على الحركات الروتينية المعتادة.

عليه ولمّا كان الشيطان مشتقُ من الشَطَن يكون مشيراً إلى: ذلك الأثر الناجم عن صعوبة السيطرة على الصفات الملبسة فيظهر منها ما يبتعد عن الإطار المراد البقاء ضمنه بالصفات الأخرى الحسنة أو المروّضة وذلك بشكل متكرر. هذا الخروج قد

يؤدي أحياناً إلى تكوين برامج جديدة غير أصليّة وغير منسجمة مع مجمل قوانين الله تعالى.

أمثلة لفهم معنى الشَّطنُ:

المثال الأول: ولفهم هذا الأمر دعونا نتصور عربة تجرها مجموعة من الأحصنة، طبعاً ومن أجل الاستفادة من تلك الأحصنة ومن قوتها في سحب العربة من ناحية والحفاظ عليها من ناحية ثانية يُصارُ إلى ربطها بنوع من الأحزمة الجلدية بشكل متتالي بعضها إلى بعض وإلى العربة بطريقة تسمح لتلك الأحصنة بجرَّ تلك العربة ولكن دون أن تكون تلك الأحزمة مشدودة بقوة بحيث تؤدي إلى خنق الأحصنة ولا أن تكون مرخية تؤدي إلى انفلاتها عن العربة أو عن بعضها البعض.

الآن لو تخيلنا أنَّ الأحصنة كانت تجري بأقصى طاقتها نتيجة لحثَّ قائد العربة وهي منسجمة في حركتها غاية الانسجام وكلٌّ واحدٍ منها يحاول أن تكون حركته منسجمة مع سائر الأحصنة ومع توجيهات قائد العربة في السرعة والإبطاء.

وفجأة ينقطع أحد الأحزمة الرابطة لأحد الأحصنة ما يؤدي إلى إرباك حركة البقية وتدهورها وسقوط العربة أو انفلات أحد الأحصنة وفقدان العربة له ولطاقته في جرَّ تلك العربة، ما قد يؤدي إلى زيادة الضغط على بقية الأحصنة من جهة وفسح المجال أمام حرية حركتها نسبياً من جهة ثانية فتكون النتيجة إما تسارع العربة لفترة أقل وإصابة الأحصنة بالإعياء أو تباطؤها واضطرابها.

ما حدث هذا يمكن وصفه لغوياً بأنّه عملية **(شَطَن)** لأحد الأحصنة.

المثال الثاني: في الحواسيب الحالية (Computer) التي تعمل في داخلها برامج مختلفة ونتيجة تجاور البرامج في الذاكرة الرئيسية، يحصل أن تنفلت بعض التكوينات الجزئية من البرامج بمعنى أوضح **(تَشْطَنُ)** عن إطاراتها المحددة، ما يؤدي إلى خلل بسيط وأثر على كفاءة عمل البرامج إمّا منفصلة أو مجتمعة.

هذه الأجزاء المنفلتة قد ترتبط مع بعضها البعض بشكل عشوائي لتكـوين بـرامج عشوائية جديدة تتحرك بشـكل غـير منـتظم وتكـوين نـوع مـن أنـواع الفيروسـات (virus). فتبدأ بالتأثير على عمل البرامج الأصلية في الحاسـوب وتحـدُّ مـن قـدرتها وكفاءتها ومن قدرة وكفاءة الحاسوب بالنتيجة.

فإذا أُصيب الحاسوب بعدد أكبر من عمليـات الانفـلات وتكونـت نتيجـة ذلـك برامج عشوائية عديدة، فإنَّ الأمر قد يؤدي إلى تعطيـل الحاسـوب بالكامـل وهـو مـا يمكن أن نسميه عملية (استحواذ الفيروسات) على الحاسوب ما قد يؤدي إلى توقـف الحاسوب تماماً عن العمل أو إصابته بحالة من فقدان الـوعي والغيبوبـة فـتلاحظ أنَّ الحاسوب لا يتمكن من القيام بأيّة فعالية عندما يتم تشغيله مثلاً.

النتيجة العامة:

عليه نفترض أنَّ معنى لفظة (الشيطان) تشير إلى: **خروج ذلك التكوين الأسـاسي في بناء أيِّ تكوين أكبر من الحدود المقيَّدة له بحيث لا تكون فعاليّـة ذلـك التكـوين الأصغر مطابقة للبرنامج الموضوع له. ما يؤدي إلى ظهور أثر سلبي متعلق بالتكوين الأكبر.**

ويكون الشيطان المشار إليه فيما يتعلق بالإنسان وتحذيره منه بمختلـف النصـوص القرآنية هو:

ما ينتج عن خروج ذلك التكوين عن قيوده وعدم العمل بطريقة قياسية مـا ينـتج عنه خروج بعض التصورات والأفكار والمشاعر والنوازع والدوافع وما إلى ذلك عـن الأُطر المحددة لها في داخل النفس والتراكب مع بعضها البعض في تكوين جديد يـؤثر بدوره على النفس وعلى البرامج الأصليّة فيها.

استجابة النفس الإنسانية:

دعونا نتخيل إنسان مولود على الفطرة الربانية فهو بذلك ما زال قريب جداً من المركزية والمصدر الرئيس لكل هذا الوجود وهو **(الله)،** فهذا الإنسان مع تطوره وحبه أكثر للحياة الدنيا ومتاعها الذي يغريه بمغريات الحياة المادية التي تجعلك تدخل في دوامة من التيه والبعد عن المركزية الإلهية، فتأخذك الحياة فتتعرف على أصدقاء السوء فتُجرب معهم نوع من المخدرات وتبدأ في التعود على مثل تلك الأشياء الضارة وهي **(فيروسات)** دخلت في جيناتك وأثرت على عقلك لتجعلك **(تشطن)** عن المركزية (الله) فتنزل من المستوى الأدامي الإنساني إلى المستوى الهمجي الفوضوي الشيطاني فتصبح بذلك أنت **(الشيطان)** الذي بعد وسيبعد إن لم يتقي ويتوب – يُنزل برنامج الحماية الذي يطرد تلك الفيروسات الضارة التي أصبحت قريناً له لا تفارقه – فتحتاج جيناته إلى أعادة تأهيل نفسي- وبدني ورجوعها إلى المركزية (الله سبحانه وتعالى)..

مفهوم لفظة (الجن)

جاءت كلمة (الجن) مشتقة من الجذر اللساني **(جَـنَ)؛** وقـد أتـت مشـتقات هـذا الجذر في القرآن ما يقارب حوالي **(٢٠٣)** مشتقة، فدعونا ننظر لهذا الجـذر في المعـاجم وفي دلالة أصواته من القرآن لنفهم ما المقصود منه بالضبط..

(جن): الجيم والنون أصل واحد، وهو **(السَّـتْرُ) التسـتر.** فالجنـة مـا يصـير إليـه المسلمون في الآخرة، وهو ثواب مستور عنهم اليوم. **والجنة البسـتان،** وهـو ذاك **لأن الشجر بورقه يستر.** والجنين: الولد في بطن أمه. والمِجَنُ: الترس. وكل ما استتر به من السلاح فهو جنة. وجنان الليل: سواده وستره الأشياء. فأما الحية الذي يسمى الجـان فهو تشبيه له بالواحد من الجان. **والجن سموا بذلك لأنهم متسترون عن أعين الخلق.** والجناجن: عظام الصدر.[1]

(جنن): جن الشيء يجنه جناً: **ستره. وكل شيء سُتر عنك فقد جن عنـك.** وجنـه الليل يجنه جناً وجنوناً وجن عليه يجن، بالضم، جنوناً وأجنه: ستره. جن عليـه الليـل أي ستره، وبه **سمي الجن لاستتارهم واختفائهم عن الأبصـار،** ومنـه سـمي الجنـين لاستتاره في بطن أمه. والجنة: الحديقة ذات الشجر والنخل، وجمعها جنان.[2]

- نأتي لتحليل لفظة **(ج – ن)** فيزيائياً:

(ج): صوت يدل على جهد أو شدة.

(ن): صوت يدل على ستر أو اختباء أو سكون.

(جَـنَ): كلمة تدل على **طاقة قوية وشديدة مستترة وساكنة.**

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الأول، ص ٤٢١ – ٤٢٢ .

(٢) محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، ج ١٣، ص ٩٢ – ١٠١ .

صور استخدامها في القرآن:

كما رأينا في المعاجم وفي دلالة حروف هذا الجذر أن (جَـنَ) هـي صـفة للأشـياء تدل على قوة طاقية شديدة تكون مستترة وساكنة، تنتظـر للظهـور بفعلهـا.. وينطبـق ذلك على تلك الآيات:

١- أتت كلمة (الجن) تدل على نوع من الأفاعي السريعة في حركتها.

قال تعالى: { وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا **جَانٌّ** وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ } (النمل: ١٠).

تكلم النص القرآني عن عصا سيدنا موسى التي تحولت إلى ثعبان – وهذه آية مـن آيات الله تعالى – وصفها أنها **كالجان،** أذن أخذت العصا هذه الصفة بأنهـا قـوة طاقيـة تجري بسرعة لدرجة أنها تستطيع الاختفـاء ولا تلمحهـا بعينـك وهـذا سـلوك أكثـر الثعابين التي نراها اليوم في حياتنا.

٢- أتت كلمة (الجن) تدل على الكائن البشري في بطن أمه، كونه غائباً عن الأعين.

قال تعالى: { هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ **أَجِنَّةٌ** فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ } (النجم: ٣٢).

(الجنين) مشتقة أتت من هذا الجذر لتدل على الكائن البشري الذي يكـون داخـل بطن الأم أثناء فترة حملها له فهو من جنس البشر الإنساني ولكن أخـذ صـفة **(جَـنَ)** وأصبح (جنين) لأنه قوة شديدة جـاءت مـن تلاقـي الحيـوان المنـوي في الـذكر مـع البويضة في الأنثى فجمعت هذه الطاقة الخفية – في غرفة النوم التي لا يراها أحد مـن الناس بشكل سري جدا – التي نشأت من نطفة صغيرة لتسكن وتسـتتر داخـل بطـن الأم خلال فترة الحمل – تسعة أشهر في الغالب – وتظهر في النهاية بعد هذه الفترة .

٣- أتت كلمة (الجن) تدل على الملائكة؛ كونها مخلوقات غائبة عن الأعين.

قال تعالى: { وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ **الْجِنَّةِ** نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ **الْجِنَّةُ** إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ } (الصافات: ١٥٨).

وذلك عندما قال الكافرون: إن الملائكة هي إناث، وهي بنات الله، راجع سياق الآية.

٤- أتت كلمة (الجن) تدل على شدة اسوداد اللّيل، وحجبه للأشياء.

قال تعالى: { فَلَمَّا **جَنَّ** عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ } (الأنعام: ٧٦).

أستخدم النص القرآني هنا كلمة جن لليل ليدل على أن الليل فيه سُترة للأشياء وسكونها فجاءت الكلمة لتصف هذه الحالة باستخدام ذلك المفهوم .

٥- أتت كلمة (الجن) تدل على غياب العقل والإدراك.

قال تعالى: { إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ **جِنَّةٌ** فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ } (المؤمنون: ٢٥).

٦- أتت كلمة (الجن) تدل على المكان المليء بالأشجار الكبيرة، التي تظلل الأرض وتخفيها.

قال تعالى: { فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ **جَنَّاتٍ** مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ } (المؤمنون: ١٩).

٧- أتت كلمة (الجن) تدل على مكان الثواب؛ الذي أعده الله في اليوم الآخر للمؤمنين.

قال تعالى: { يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ **جَنَّاتٌ** تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } (الحديد: ١٢).

(الجُنَّةَ): هو المكان الذي أعده الله تعالى في الآخرة لكل من عمل صالحاً في الحياة الدنيا، فأشتق من جذر (جَنَ) لأنه به طاقة عالية مختفية عنا اليوم ولا نراها تُوجد في عالم الأمر فبذلك تم سترها عنا لأننا لا نستطيع رؤيتها الآن في الوقت الحالي.

٨- أتت كلمة (الجن) تدل على الاحتجاب، والاختباء، والتّحصن وراء الشّيءْ.

قال تعالى: { اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ **جُنَّةً** فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (المنافقون: ٢).

الله يتحدث عن المنافقون ووصف اتخاذهم للأيمان (بالجُنَّةً) بمعنى أنه ستارة لنفاقهم على الرسول والمؤمنون وأن داخلهم طاقة شريرة مستترة لم تظهر وإنما تظهر بنفاقهم هذا، فأتت أيضاً من هذا الجذر (جن) ليصف حالة طاقية أخرى مستترة.

٩- أتت كلمة (الجن) تدل على القوم الغرباء المجهولي الهوية، أو سادة الناس.

قال تعالى: { قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا } (الجن: ١).

في كل ما عرضته لكم من آيات نرى أن استخدام هذا الجذر جاء ليدل على صفة في حالات كثيرة لأشياء مادية نعرفها، دل على أنه طاقة قوية شديدة تكون مستترة وساكنة وتترقب للظهور في الخفاء.

مثل الجماعات التي تعمل في الخفاء لتدمير الدول والمجتمعات فهؤلاء هم (الجن)، يخططون للتدمير وللشر وبداخلهم طاقة كبيرة تسعى للدمار وتنتظر لتضرب ضربتها في الخفاء حتى لا يشعر بها أحد. وهم في الواقع مثل الماسونية والصهيونية العالمية !..

بهذه الفقرة أكون قد أوضحت أجزاء كبيرة جداً من مفهوم كلمة (الجن) وعلى ماذا تدل وهذا يدعنا أن نفهم الآيات القادمة التي جاءت فيها هذه الكلمة بمنظور أخر عن أنها كائن شبحي لا نراه ولكن هي صفة لأشياء، وبهذه الفقرة أكون قد أزلت بعض من اللبس حول هذا المفهوم.

الفرق بين (الجن) و (الإنس)

قال تعالى: { وَمَا خَلَقْتُ **الْجِنَّ وَالْإِنسَ** إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } (الذاريات: ٥٦).

تحدثت عن مفهوم (الجن) واتفقنا على أنه يعني؛ جذر **(جَنَ): صفة للأشياء تدل على قوة طاقية شديدة تكون مستترة وساكنة، تنتظر للظهور بفعلها.**

دعونا ننظر في لفظة **(الإنس)** فهي مشتقة من الجذر اللساني العربي **(أنس)،** سننظر في المعاجم العربية لنفهم معناها ثم سنحلل دلالة حروفها فيزيائياً.

(أنس): الجيم والنون والسين أصل واحد، وهو **ظهور الشيء، وكل شيء خالف طريقة التوحش.** قالوا: الإنس خلاف الجن، وسموا لظهورهم. يقال آنست الشيء إذا رأيته. قال تعالى: "فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا" (النساء: ٦). والأنس: أنس الإنسان بالشيء إذا لم يستوحش منه.[1]

(أنس): الإنسان: الجمع الناس. والأنس: خلاف الوحشة، وهو مصدر قولك أنست به. والأنس والاستئناس هو التأنس.[2]

- نأتي لتحليل لفظة **(ء – ن – س)** فيزيائياً:

(ء): صوت خفيف يدل على ظهور مفاجئ في الزمان والمكان.

(ن): صوت يدل على ستر أو اختباء أو سكون.

(س): صوت يدل على حركة بشكل غير واضح وغير عميق آولي.

(أَنَسَ): كلمة تدل على ظهور حركة مفاجئة في زمان ومكان محدد، وتظهر هذه الحركة بشكل ساكن وهادئ.

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الأول، ص ١٤٥ .

(٢) محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، الجزء السادس، ص ١٠ – ١٧ .

إذن هما صفتان (جينات وراثية أو مكتسبة من الاختلاط بالواقع المحيط) قد خلقها الله تعالى، ليتصف بها البعض، فـ (الجان): هو الذي نَشطت فيه هذه الصفة (جَنَ) فيكون قوة طاقية كبيرة جداً، و(الإنس): هو الذي نَشطت فيه صفة (أنس) بمعنى الهدوء والسكينة.

فالإنس والجن صفتان لبني آدم من الناس، أحياناً ينفصلوا فيكون هناك (شخص) فيه صفة (أنس) الهدوء والسكينة وهذا نراه كثيراً في حياتنا اليومية، فكم من شخص رأيته في حياتك كان هادئ جداً جداً ! فأنا رأيت وأعرف منهم أشخاصاً، فهذه الصفة إذا زادت عن حدها كانت مضرة وغير مفيدة. وأحياناً يكون هناك (شخص) فيه صفة (جَنَ) القوة والطاقة الزائدة ونسميه أحياناً في حياتنا (إنسان Hyper) ونرى أطفالاً كثيرة من هذا النوع، كثيرين النشاط الحركي ! .. وإذا زادت هذه الصفة عن حدها كانت غير مفيدة وضارة جداً، فعندما تزيد (صفة الجن) يُصبح حينها أسمه (شيطان) لأنه خرج عن النظام الرباني الموضوع له.

فنحن في كل ذلك نتكلم عن صفتين يُكتسبوا إما عن طريق (الجينات الوراثية) ونولد بها وإما عن طريق (سلوك مكتسب من الواقع المحيط بيننا) والأفضل أن يُصبح صفتك (إنسان آدمي) يجمع بين (الجن) و (الإنس) وبذلك تكون متوازن .

معشر (الجن) و (الإنس)

لنتأمل النصوص التالية التي تتحدث عن عشرة الجن والإنس معاً:

قال تعالى: { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ** ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا **اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ** وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ** آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠) ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ **مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ** (١٣١) } (الأنعام).

نحتاج هنا أن نتعرف على معنى لفظة (معشر) فهي كلمة مفتاحية ستساعدنا على استيضاح معنى توجيه الخطاب إلى الجن و الإنس معاً.

فالآيات تُشير إلى أن هناك تعاشر بين الاثنين؛ والتعاشر مما يصعب تصوره بين جنسين مختلفين.

فكيف يمكن أن يكون هناك اختلاط بين جنسين مختلفين ؟ هذا ما ينبغي الإجابة عنه بطريقة مختلفة عما توارثناه.

(المعشر)؛ يعني: تلك المجموعة من النوع الواحد أو الجنس الواحد والتي تعيش مختلطة مع بعضها البعض وفي العادة تستقوي ببعضها البعض وتعتمد على بعضها البعض.

وقفة مع معنى (عَشَرَ):

جاءت كلمة (معشر) مشتقة من الجذر اللساني العربي **(عَشَرَ)**؛ وقد أتى هذا الجذر في النص القرآني ما يقارب حوالي (٢٧) مرة بمختلف مشتقاته. فدعونا ننظر لهذا الجذر في المعاجم وفي دلالة أصواته الفيزيائية من القرآن لنفهم ما المقصود منه بالضبط..

(عشر): العين والشين والراء أصلانِ صحيحان: أحدهما في عددٍ معلوم ثم يحمل عليه غيرُه، والآخَر يدلُّ على **مداخَلةٍ ومُخالَطة.** وأضاف: فأما الأصل الآخَر الدَّالُّ على **المخالطة والمداخَلة** فالعشْرة والمعاشَرة. وعَشِيرُك: الذي يعاشرُك. قال: **وإنَّما سمِّيت عَشِيرة الرّجُل لمعاشرةِ بعضهم بعضاً،** حتّى الزّوجُ عشيرُ امرأتِه.

قال: والمَعْشَر: **كلُّ جماعة أمرُهم واحد،** نحو **معشرـ المسلمين، والإنس معشرٌ والجنُّ مَعشر،** والجمع مَعاشِر. والعُشَر نَبْت.[1]

- نأتي لتحليل لفظة **(ع – ش – ر)** فيزيائياً:

(ع): صوت يدل على عمق أو بُعد في الشيء.

(ش): صوت يدل على حركة تشعب وانتشار.

(ر): صوت يدل على حركة سريعة منتظمة أو مرتبطة ومتصلة.

(عَشَرَ): كلمة تدل على حركة عميقة متشعبة ومنتشرة لتظهر في نهايتها بشكل سريع ومتصل.

وإذا أضفنا حرف (الميم) على الكلمة الذي دلالته الفيزيائية هي:

(م): صوت يدل على جمع متصل ينضم ويتداخل ويتكامل في أطار واحد.

(معشر): كلمة تدل على **جمع متصل ومتداخل ويتكامل في أطار واحد، بشكل عميق ومتشعب ومنتشر لتظهر في نهايتها بشكل سريع ومنتظم.**

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الرابع، ص ٣٢٤ – ٣٢٧ .

الملاحظ أنَّ **المخالطة والمداخلة** أصل ثابت لمعنى العَشر ولا يتحقق العَشْرُ إلا بالاتصال المستمر المتواصل فالعدد عشرة لا يبقى (عشرَةً) إذا تفرقت أفراده ! أو نقص منها أحدهم.

وعلى أساس ذلك سميت المجموعة التي يكون الإنسان جزءاً مستمراً منها (عشيرته) وسميت المرأة – كما أوردنا عن ابن فارس – (عشيرة) للرجل. وأرباب اللغة يرون **الاختلاط المستمر والمتواصل** أصلاً في تحقيق مفهوم المعاشرة.

إلى ذلك يكون؛ يمكننا الآن أن نفترض معنىً جديداً للآيات التالية فتكون أوضح وأسهل للفهم:

قال تعالى: { إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) **وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ** (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ (١٤) } (التكوير).

العِشار المعطلة:

أنَّ (العشار) هو: **العلاقات القائمة على المخالطة القوية والطويلة.**

فيكون معنى تعطيل العلاقات الحميمية، أن الإنسان لا يمتلك في تلك الساعة أية إمكانية للارتباط بأهله ونسله أو توظيف تلك العلاقات لمصلحته، فهذه العلاقات تتعطل تماماً كما هو المشار إليه في النص الآخر:

قال تعالى: { مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) **فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ** (٥٠) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) } (يس).

فالآيات في السورتين تتحدث عن آيات كونية كبرى؛ فتنقطع العلاقات الإنسانية وتتعطل وتنتهي المحسوبية والمنسوبية وينتهي تأثير الملوك والقادة والكبراء ويختفي تأثيرهم بالكامل ولن يتمكن أيُّ إنسان حينها من الاستنجاد بهم أو اللوذ بحماهم. ويتم القضاء على الوحوش وتتم إزالتها. ثم يجري تصنيف الأنفس بناءاً على معايير معينة وتبدأ المحاكمات للناس ويجري سؤالهم عما دفعهم إلى وأد أنفسهم بالعبودية لغير الله تعالى.

لاحظوا النص التالي؛ قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ** ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩) } (النساء).

من استخدام هذه المشتقة للتعبير عن طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة واستخدام لفظة العشيرة للتعبير عن قبيلة الرجل الذي ينتمي إليها في النص التالي:

قال تعالى: { قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ **وَعَشِيرَتُكُمْ** وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} (التوبة: ٢٤).

يتبين لنا بأن المعاشرة تعني **مخالطة شديدة وطويلة وذات محددات كثيرة**. لذا نقول بأن العبارة { **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ** } أو { **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ** } ؛ لا يمكن أن تعني علاقة غير مفهومة وغر واضحة المعالم ولا بين جنسين أو نوعين مختلفين وإنَّما علاقة حميمة وقوية وفيها مخالطة شديدة.

نحتاج هنا لفهم النص الخاص بأقطار السموات والأرض، أن نأخذ النص ضمن سياقه كما تعودنا:

قال تعالى: { **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ** إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) **يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ** فَلَا تَنتَصِرَانِ (٣٥) } (الرحمن).

فنلاحظ ما يلي: إنَّ الشمول في عدم القدرة للنفوذ من السموات والأرض للنوعين يشير إلى أنهم من جنس واحد سيَّما حينما يشملهما معاً، فيقول: { **يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ** فَلَا تَنتَصِرَانِ } ، ما يعني شمولهما بالتحدي معاً وبنفس الأسلوب وهو أسلوب شواظ من نار ونحاس فلا ينتصران.

الإنس و الجن والتحدي بالقرآن

قال تعالى: { قُل لَّئِنِ **اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ** عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } (الإسراء: ٨٨).

لو كان الإنس والجن غير قادرين على الاتصال والتنسيق فإنَّ هذا يعني بأن الله تعالى تحدى بما هو ممتنع أصلاً !، بينما الواضح من النص أنَّ التعاضد والتظاهر بينهما أمر ممكن وهذا يعزز الاعتقاد بأنهما من جنس واحدٍ.

يبدو أن التحدي ليس لجنسين مختلفين ولا هو تحدي للإتيان بقرآن مكتوب فقط. ونذكر بأننا قلنا – في بداية هذا الكتاب – بأنَّ القرآن الكريم نوعان: **القرآن التكويني (المنشور)، والقرآن التدويني (المسطور).**

عليه فإن التحدي – على ما يبدو – هو بأنْ يتمكنوا من خلق كائنات ذات علاقات متشعبة كما هو حال المخلوقات في هذا القرآن التكويني والربط بينها بطريقة لا تخلق تناقضاً بل تؤدي إلى تسيير حياتها جميعاً بانسجام وكفاءة. والأمر ينسحب على القرآن التدويني طبعاً فهو النص الذي تحدى بكونه خالي من الاختلاف والتضارب.

وبالنتيجة فإنَّ المعشر المشار إليه هو معشر من جنسٍ واحد مع اختلافات معينة فالزوج والزوجة معشر والعلاقة بينهما نوعٌ من (العِشار) والقبيلة بكل أفرادها (عشيرة) والإنس معشر والجن معشر والإنس والجن معشر، والعلاقات بين أفراد تلك المجموعات هي (عِشار).

ملاحظات:

ونلاحظ من سياق الآيات السابقة: أنَّ هناك نوع من التلازم من أجل النفوذ من أقطار السموات والأرض. والذي أظنُّهُ هو أن الجنَّ لما كانوا يعبرون عن الصفات القوية الفعالة النشطة المتميزة في الإنسان فهم دوماً – كأشخاص يحملون هذه الصفات الجنيّة – لهم الريادة والقيادة والتخطيط والابتكار. إلا أنَّهم لا يتمكنون من القيام بعمل أي شيء دون وجود أعداد كبيرة من الطيعين المنفذين الذي لا يملون من العمل الرتيب وهم الإنس. وعلى هذا الأساس يكون التحدي لهما معاً أو لكل واحدٍ منهما على حدة وهو ما يتحمله المعنى العام للنص.

فلا الجن يتمكنون لوحدهم ورغم قابليتهم العالية من القيام بشيء ولا الإنس يتمكنون من شيء رغم كثرتهم وإمكانياتهم في تنفيذ وإعادة تنفيذ ما تمَّ تخطيطه من غيرهم. فضلاً عن أنَّ النوعين لا يتمكنان من القيام بالأمر المشار إليه في الآية وإنْ تعاضدا.

قد يتصور المتأمل في النص أنَّ القضية مرتبطة بصواريخ أو أقمار صناعية أو ما شابه ذلك للنفاذ من أقطار السموات والأرض. وأن مقولة: { **يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ** } ، تشير إلى أن الله تعالى جنود يدافعون عن سمائه فيطلقون صواريخ نحاسية وشواظ من نار.

هذا التصور يبدو ساذجاً إذا عرفنا بان الله تعالى لديه القدرة الكافية على تعطيل كل ما في الكون دون هذه الأسلحة ودون هذه الطريقة { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } (يس: ٨٢).

أظنُّ وطبقاً لما أوصلنا إليه (منهج لسان القرءان) – وهو المرجح عندي بقـوة – أنَّ الحديث عن سماء الكروموسومات والجينـات والمورثـات والحمـض النـووي الـذي تجتمع فيه الصفات الجنيّة والصفات الإنسية. والتحـدي المشـار إليـه هـو في الحـدود النهائية الموضوعة لتلك المورثات أو الصفات بحالتها الماديّة على تجـاوز القـوانين لهـا {أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} ؛ فهي رغم قوتها – النسبية – أحياناً إلا أنها لا تتمكن من تجاوز القوانين الكونية العامة.

ماذا تشبه هذه الآية ؟ هذا التصور الذي نعتقد أن الآية توحيه يشبه إلى حـدًّ بعيـد التعابير التي أوردناها عن إبليس والتي تعطيه فرصة الخروج على الأطـر المحـددة لـه ولكن تتوعده بالمزيد من التضييق والحصار والدحر كما في النصوص التالية:

قال تعالى: { قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا **فَإِنَّكَ رَجِيمٌ** } (الحجر: ٣٤).

قال تعالى: { قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا **مَذْءُومًا مَّدْحُورًا** ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ } (الأعراف: ١٨).

قال تعالى: { وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ **يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا** } (الجن: ٩).

قال تعالى: { وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ **شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ** (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ **شِهَابٌ مُّبِينٌ** (١٨) } (الحجر).

قال تعالى: { لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ **وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ** (٨) **دُحُورًا** ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ **فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ** (١٠) } (الصافات).

الشواظ والنار والنحاس

وعلى أساس الفرضية أعلاه يكون الشواظ هي تلك التي تسلطها الملائكة لإجـراء عملية التطوير والتحديد للصفات الجينية وتعزيز السيطرة عليهـا وعـدم السـماح لهـا بالانفلات من القوانين (الأقطار).

وهذا الشواظ يعتمد على قضيتين أساسيتين:

١ - طاقة قوية تقوم بالتطوير والتعديل لما هو موجود وإضافة مواد جديدة لأحداث ذلك التطوير.

٢ - أو تعديل البرنامج من أجـل السـماح بانتقـال الصـفات المطلوبـة إلى الأجيـال اللاحقة.

فحتى التطور الطبيعي وظهور بعض الصفات الجنيَّة والإنسيَّة المـراد تنحيتهـا إنـما يتم على أساس قوانين خاصة بهذا الأمر ولا تتم بشكل عشوائي.

بمعنى أننا يمكن وبناءاً على هـذه الأفكـار الأوليـة أن نقـرر بـأن عمليـة الانتقـاء الطبيعي إنما تتم على قوانين ثابتة ولا يمكن لها أن تخرج عن سيطرة تلك القوانين. أمـا الطفرات الوراثية التي تساعد في تطوير الخلق فلها قـوانين أخـرى تسـتند إلى بـرامج خاصة بها للتطوير.

العلاقة بين النص والعلم

صدرت دراسة حديثة نشرها موقع (Scientific American)[1]، تشـير إلى أنَّ ظهور مورثات جديدة لدى الإنسان تتم بطريقتين:

الأولى: ثبات الظروف المحيطة بالإنسان لفترة لا تقـل عـن ٥٠٠٠ سـنة أي ٢٠٠ جيل متتالي حتى تتغير نسبة وجود المورثة المسؤولة عن قضية معينة من نسـبة ١ ٪ إلى ٩٩ ٪ وتتحول إلى صفة ثابتة لدى الناس.

---

(1) How We Are Evolving, By: Jonathan K. Pritchard, on: 1 October, 2010.

الثانية: أن تحدث طفرة جينية سريعة لا تحتاج إلى أكثر من ٣٠٠٠ سنة وهو قريب نصف المدة التي يحتاجها قانون التطور لإدخال صفة جديدة للمورثات الإنسانية وتحويلها إلى صفة ثابتة في مجموعات بشرية معينة.

المثال الذي أوردته الدراسة هو التالي: في عام ٢٠١٠ توصلت دراسات عدة إلى اكتشاف نسخة لمورثة لدى (التبتيون)[١]، غير موجودة عند باقي الشعوب، هذه المورثة تضبط إنتاج الخلايا الحمراء مفسرة، كيف استطاع التبتيون العيش في هذه الظروف القاسية؟..

نحن طبعاً ندَّعي بأنَّ النص القرآني هنا يتحدث عن آلية إحداث التغييرات الجينية وتطوير المورثات في داخل الحمض النووي الإنساني. بينما الدراسة تتحدث عن أثر ذلك التغيير الجيني على الإنسان والأجيال القادمة المتعاقبة وكيف يؤدي التطور إلى تطوير الأجيال اللاحقة ورفع مستوى تلاؤمها مع المحيط.

مواصلة السعي لفهم معنى (المعشر)

قال تعالى: {**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ** أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ} (الأنعام: ١٣٠).

- **نلاحظ الملاحظات التالية:**

الخطاب مشترك للجنِّ والإنس. الإرسال إليهما وليس كلاً على حِدة لأنَّ النص يقول: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا}، ولو كان المقصود أن يكون لكلٍ منهما رسلهم الخاصة لقال النص: (ألم يأتكما رسل منكما).

---

(١) هم شعب آسيوي موطنهم الأصلي بمنطقة التبت الواقعة غرب الصين، والتي تعلو سطح البحر بـ ١٤ ألف قدم.

إذا عدنا إلى النص الذي بدأنا به لفهم معنى المعشر سنجد أن المقطع القرآني ينتهي بالآية التالية: { ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ } (الأنعام:١٣١). فيتكلم عن قرى موحدة لها أهل يتأهلون بها ومعها ويعيشون فيها بأمان وسكينة ودون أن يميز بين نوعين أو جنسين من الخلق. وعليه تكون الأمور التي تدفعنا إلى الاعتقاد بوحدة المعشر هي التالية:

١- استكثار الجن من الإنس.

٢- استمتاع الجن والإنس بعضهم ببعض.

٣- بلوغهم معاً أجلا واحد أجله الله تعالى لهم.

٤- لهم رسلٌ منهم يأتونهم ويقصون عليهم آيات الله.

٥- ورود تحديين للجن والإنس معاً بالنفاذ من أقطار السماوات والأرض وبالإتيان بمثل هذا القرآن.

٦- وأخيراً أن الآيات تتحدث عن عملية إهلاك موحدة لأهل القرى الذين يعيشون معاً إذا ما ظلموا.

٧- كذلك نلاحظ بأنَّهم – كجنسين – كانوا يشهدون على أنفسهم بشكل مشترك ويقرون بالكفر بشكل مشترك وتشير الآية إلى أن الحياة الدنيا قد غرَّتهم بشكل مشترك وواضح للجنسين. وهذا كلُّه يتناقض مع فهمنا التراثي التقليدي عن (الجنَّ) وكونهم جنسٌ آخر شبحي مغيّب عن أعيننا.

إلى كل ما تقدَّم يكون معنى (المعشر) هو: **المجموعة المختلط أفرادها اختلاطاً شديداً** – نسبياً – بحيث يمكن اعتبارهم نسيجاً واحداً يمكن توجيه الخطاب إليه بشكل موّحد. على أن يعي أفراد تلك المجموعة الخطاب لا أن تعي فقط مجموعة من الأفراد منهم ذلك.

وهذا ما يؤكد لنا بأنَّ الجنَّ والإنس هما نوعين من الأصول التي بُني عليهما التكوين الإنساني الحالي. وقد يكون كلا النوعين منقسماً داخلياً إلى أكثر من فصيلة. وعلى هذا الأساس نلاحظ اليوم وجود أجناس بشرية مختلفة لها صفات عامة مشتركة ومختلفة عن عموم الصفات في الفصيلة الأخرى.

مفهوم لفظة (عفريت)

جاءت لفظة **(عِفرِيتٌ)** في النص القرآني مشتقة من الجذر اللساني العربي **(عَفَـرَ)؛** وقد أتى هذا الجذر مرة واحدة فقط ومشتق منه هذه الكلمة التي نبحث فيها، فدعونا ننظر لهذا الجذر ومعناه في المعاجم ثم نحلل دلالة أصواته فيزيائياً لـنفهم مـا المقصـود منه.

(عفر): العين والفاء والراء أصل صحيح، وله معانٍ. فالأول: **لون مـن الألـوان،** والثاني: **نبت،** والثالث: **شدّة وقُوّة،** والرابع: **زَمان،** والخامس: **شيء من خَلقْ الحيوان.**

فالأول: **العُفرة في الألوان،** وهو أن يَضرِب إلى غُبْرَة في حمرة؛ ولذلك سمي التراب العَفَر. يقال: عفَّرت الشيءَ في التراب تعفيرا. واعتَفَر الشيء؛ سقَط في العَفَر. وقال ابنُ الأعرابيّ: إن ذلك مشتق من عَفّرَه، أي صرعه ومرَّغه في التراب. أن العّفْر: بذر الناس الحبوب، فيقولون عَفَروا أي بذروا؛ لأن ذلك يلقى في التراب. فالعَفـار، وهـو شـجرُ كثير النّار تُتخذ منه الزناد، الواحدة عَفارة.

والأصل الثالث: **الشدة والقوة.** قال الخليل: رجـل عِفْـرُ بـين العفـارة، يوصـف بالشيطنة، ويقال: شيطان عِفرِيَة وعفريت، وهم العفارية والعفاريت. فعِفْر وأعفـارُ، وهو **المتمرد. وإنما أُخِذ من الشدة والبسالة.** يقال للأسد عِفِرٌّ وعَفرنَى. **ويقال للخبيث عِفِرِّينُ، وهم العِفِرُّون.**

والأصل الرابع من الزمان، قولهم: لقيته عن مُعفْر: أي بعد شهر. ويقـال في عَفـار النخل: إن النخل كان يُترك بعد التلقيح أربعين يوماً لا يُسقى.

وأما الخامس فيقولون: إن العِفرِية والعفراة واحـدة، وهـي شَـعَر وسـط الـرأس. ويقولون على التشبيه لعرف الديك: عِفرَية.[1]

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الرابع، ص ٦٢ – ٦٨ .

- نأتي لتحليل لفظة **(ع – ف – ر)** فيزيائياً:

(ع): صوت يدل على عمق أو بُعد في الشيء.

(ف): صوت يدل على تفرق الحركة في كافة الاتجاهات.

(ر): صوت يدل على حركة سريعة منتظمة أو مرتبطة ومتصلة.

(عَفَرَ): كلمة تدل على حركة عميقة وسريعة في كافة الاتجاهات لتظهر في نهايتها بشكل منتظم.

وإذا أضفنا حرفي (الياء) و (التاء) لتُصبح اللفظة (عفريت) فدعونا نعرف دلالة الحرفين.

(ي): صوت يدل على خروج ووضوح شيء.

(ت): صوت يدل على اجتذاب واجتماع الحركات.

فتكون دلالة كلمة **(عفريت)؛** هي: **حركة عميقة وسريعة في كافة الاتجاهات لتظهر بشكل منتظم وواضح، لتجذب أي حركة من حولها.**

فكلمة (عفريت) تدل على **قوة الإنسان بشيء وإتقانه له.**

نحو قولنا: إن زيداً عفريت في البناء، وهذه الصفة يمكن أن يتصف بها الإنسي أو الجني.

العفريت في النص القرآني السابق – من سورة النمل – كان من الجن، بمعنى أنه من السادة الغرباء الذين أسرهم النبي سليمان، وكلمة عفريت تدل على أنه كان من الماهرين في النجارة أو ما يلزم لصنع العرش، ولم يقصد العفريت أن يسرقه!..

فبذلك أكون قد فككت دلالة هذه الكلمات مفهوم **(الجن)**، ومفهوم **(الشيطان)**، ومفهوم **(إبليس)**، ومفهوم **(الإنس)**، ومفهوم **(العفريت)**، التي يعتقد الناس حالياً أنها كائنات مثل الأشباح تُرعب الناس وتتحكم فيهم!..

سجود إبليس

قال تعالى: { وَلَقَدْ **خَلَقْنَاكُمْ** ثُمَّ **صَوَّرْنَاكُمْ** ثُمَّ **قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا** لِآدَمَ **فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ** لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ **مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ** إِذْ **أَمَرْتُكَ** ۖ قَالَ **أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ** (١٢) قَالَ **فَاهْبِطْ مِنْهَا** فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن **تَتَكَبَّرَ فِيهَا** فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) } (الأعراف).

لنُعِد تدبر النص الآن بهدوء وبناءً على المعنى الأصلي للبَلَسْ ولنلاحظ كيف سيكون المعنى منسجما رغم أنَّه سيقلب المعنى المتعارف عليه لهذه المجموعة من الآيات رأسا على عقب.

أولاً: إنَّ القول في بداية النص { وَلَقَدْ **خَلَقْنَاكُمْ** ثُمَّ **صَوَّرْنَاكُمْ** ثُمَّ **قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا** لِآدَمَ } يعني أنَّ الحديث ليس عن شخص واحد اسمه (آدم) وإنَّما عن نسخة بشرية جديدة تُمثل جيلاً كاملاً اسمه آدم تمَّ فيه (أدمُ) – أيْ خلط – نوعين أو أكثر من الأصول البشرية لإنتاج جيل جديد. وذلك خلافاً لما تعلمناه جميعاً من أن الله تعالى خلق بشكل مباشر شخصاً واحداً منذ حوالي ١٠٠٠٠ سنة فقط أسمه (آدم) وطالب الملائكة بالسجود له بينما الآية هنا تتحدث عن عملية خلق جماعي وتصوير جماعي نتج عنه آدم ثم قيل للملائكة أن يسجدوا له.

نعتقد ذلك لوجود أداة التراخي **(ثُمَّ)** التي تشير في العادة إلى فترة زمنية طويلة نسبياً بين أمرين منفصلين فالخلق مرحلة والتصوير مرحلة أخرى وخلق آدم مرحلة ثالثة وأمر السجود لآدم مرحلة رابعة.

المتحدث هنا جماعة (**خَلَقْنَا / صَوَّرْنَا / قُلْنَا**) ولا مجال أمامنا إلا القول أنَّهم الملائكة العلويون الذين ينفذون أوامر الله تعالى في الخلق والتصوير.

في القول { **وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ** } يبدو لدينا مجموعتين من الملائكة – ولقد أوضحت هذا التفريق من قبل – الأولى: **الملائكة العلوية** التي أشرنا إلى أنَّها تقوم **بعملية الخلق والتصوير**، والثانية: هي مجموعة **الملائكة الأدنى**، والتي تدخل في تركيب الخلق المشار إليه هنا وهو (آدم) وهنا هي – طبقاً للفهم الناتج عن منهجيتنا – **تلك المكونات الدقيقة المكونة لهذا الخلق الجديد والتي قد تكون الصفات الوراثية أو الجينومات أو أنواع البروتينات الوراثية الموجودة في الحمض النووي، والتي يراد منها القيام بأعمال نمطية معينة في تشكيل هذا الإنسان مادة ونفساً.**

والذي يمكن استنتاجه من هذا النص هو أنَّ القول (اسْجُدُواْ لآدَمَ) إشارة إلى عملية التطوير التي تعني تزويد الملائكة الدنيا ببرامج جديدة تلتزم بالبرنامج العام للنسخة الجديدة من (آدم) وإلى أنَّ العملية قد تمت بنجاح كامل لأنَّ الملائكة الأدنى (سَجَدُوا) إلا أنَّ بعض الصفات التي أُريد إزالتها من النسخة الجديدة بقيت تظهر في الأجيال اللاحقة، وهو ما تمَّت الإشارة له في ما تلا من الكلام من الآية..

مفهوم (السجود) في القرآن

وقبل أن نواصل، لا بدَّ أن نوضح المقصود من (السجود) كمفهوم قرآني. أتت هذه الكلمة من الجذر اللساني الثلاثي **(سَجَدَ)**. وجاءت مشتقات هذا الجذر في النص القرآني حوالي (٩٢) مرة. فدعونا نتعرف على معنى هذا الجذر اللساني من خلال المعاجم ودلالة أصواته الفيزيائية من القرآن الكريم.

(سجد): السين والجيم والدال أصلٌ واحدٌ مطّرد يدّل على **تطامُن وذلّ**. يقال سجد، إذا تطَامَنَ.[1]

(سجد): الساجد: **المنتصب في لغة طيّء.** سَجَدَ، يَسْجُدُ، سجوداً: وضع جبهته بالأَرض. وقوله عز وجل: وخروا له سجداً؛ هذا سجود إِعظام لا سجود عبادة. قال الزجاج: إنه كان من سنة التعظيم في ذلك الوقت أَن يُسْجَد للمعظم.

وقوله تعالى: وإِذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم؛ قال أَبو إِسحق: السجود عبادة لله لا عبادة لآدم لأَن الله، عز وجل، إِنما يخلق ما يعقل لعبادته. والمسجَد والمسجِد: الذي يسجد فيه، وفي الصحاح: واحد المساجد.[2]

عليه يمكن القول بأنَّ الجمع بين المعاني المتفرقة بين المعاجم يقضي- بنا إلى وضع تعريف جامع شامل للفعل (سَجَدَ) كما يلي:

(السجود)؛ هو: **تعطيل الإرادة من قبل القائم بفعل السجود أمام جهة ثانية يتم السجود لها والقبول أو الاستعداد للقبول بما تقرره إرادة تلك الجهة المُتَذَلَّل لها أو الخضوع لها.**

وهو كما سنرى قريب للغاية من المعنى الذي توحيه الحروف المكوَّنة للجذر (سَجَدَ) عند الجمع بين معاني الأصوات التي تمثلها.

- دلالة أصوات الجذر **(س – ج – د):**

(س): يدل على ظهور حركة بشكل غير واضح وغير عميق أولي.

(ج): يدل على جهد أو شدة.

(د): يدل على دفع شديد متوقف.

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الثالث، ص ١٣٣ .

(٢) محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، الجزء الثالث، ٢٠٤ .

(سجد): كلمة تدل على ظهور حركة أولية بشكل غير واضح، وبجهد شديد، وتنتهي بدفع شديد متوقف.

(سجد): **هو تعطل إرادة معّينة أمام إرادة أخرى استجابةً لحافز معّين حتى وإن تعارضت سلوكيات الإرادة الأخرى مع الإرادة الأولى.**

أنَّ المهم الذي لا ينبغي الغفلة عنه هو أن فعل السجود هو **فعل لازم** وفعل ذاتي وداخلي يعبر عن حالة داخلية لدى الفاعل لفعل السجود. بمعنى أنَّنا لا نحتاج إلى ممارسة خارجية لإظهار فعل السجود كما هو الحال مع الفعل المتعدي، وإن كنا سنلمس آثار تلك الحالة النفسية على الفاعل دون أن يقع الفعل علينا أو على جهة خارجية.

فالساجد: هو ذلك **الشخص الذي يعطل إرادته أمام إرادة أخرى** وليس من الضروري أن يكون واقفاً أو قاعداً أو قائماً بطريقة معينة للتعبير عن ذلك السجود، بل ليس بالضرورة أن يكون إنساناً عاقلاً فبمجرد عدم تعارض إرادته مع الإرادة الأخرى يكون هو ساجدٌ مهما كان جمادا أو نباتا أو حيوانا أو إنسانا. وإن كان يمكن له أن يُعبَّر عن حالة السجود تلك بوضعية معينة كما نفعل نحن المسلمون في حالة السجود في الصلاة اليومية التمرينية.

وعلى هذا الأساس يمكننا فهم المشتقات والتصريفات المختلفة للجذر (سَجَدَ) وكما سنرى لاحقاً.

دعونا نستعرض وبشكل عام معاني الصياغات المختلفة بناءً على المعنى الذي توصلنا إليه جاعلين منه (فرضية) ربما تثبت معنا ضمن شروط منهج لسان القرءان فنرتقي بها إلى مستوى (نظرية) يمكن تثبيتها بعد التأكد من خلال التطبيق المستمر على أمثلة مختلفة حتى من خارج القرآن.

تطبيقات وأمثلة من الآيات القرآنية للتأكد من المعنى:

المثال الأول: (سُجَّداً).

قال تعالى: { وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا **وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا** وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ } (البقرة: ٥٨).

سُجَّدا: هو جمع قلة أو جمع تكسير لاسم الفاعل (ساجد).

نلاحظ بأنَّ (الباب) معرفة بمعنى أنَّهم مأمورون بالتوجه نحو باب يعرفونه.

فدخول الباب بطريقة السجود التي نعرفها وهي (التطامن إلى الأرض) كما يقول أرباب اللغة، أمر غير ممكن سواء كان الباب باباً مما نعرف أو باباً معنوياً. ولكن لو كان **تنفيذ الأمر بالتخلي عن الإرادة سيكون معقولاً.** فالطلب إليهم بالسجود لم يكن مقترناً بحال الدخول وإنَّما بعد أن يدخلوا القرية ويأكلوا منها حيث شاءوا رغدا ويحرصوا مع ذلك على أن يكون دخولهم (الباب) بنوع من الإذعان لأمرٍ معين هم يعرفونه.

إنَّ المعنى الشامل الذي قدمناه للجذر (سَجَدَ) يتمكن من حلّ الإشكال بسهوله لأنَّه لا يفترض وضعاً خارجياً وإنَّما يفترض حالة نفسية داخلية يتعهد فيها الإنسان بالتخلي عن إرادته في مقابل الأمر الإلهي.

المثال الثاني: في قصة موسى مع السحرة نقرأ التالي:

قال تعالى: { **فَأُلْقِيَ** السَّحَرَةُ **سُجَّدًا** قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ } (طه: ٧٠).

قال تعالى: { **فَأُلْقِيَ** السَّحَرَةُ **سَاجِدِينَ** (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) } (الشعراء).

قال تعالى: { **وَأُلْقِيَ** السَّحَرَةُ **سَاجِدِينَ** (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) } (الأعراف).

يبدو أن السجود الذي تتحدث عنه المجموعات الثلاثة من الآيات ليس هو السجود الذي يتبادر إلى أذهاننا بمعنى (التطامن إلى الأرض) كما يقول المفسرون.

والأمر الأخر هو أنَّه في كل الحالات قال النصُّ **(أُلْقِيَ)** بصيغة المبنى للمجهول وليس للمعلوم بمعنى أنَّ الفاعل هو جهة خارجية أخرى. أي أنَّ السحرة **سُلبِوا الإرادة ولم يقوموا بالسجود كفعل إرادي من أنفسهم !** فقد قامت قوةٌ أخرى بإلقائهم لحالة السجود. ولو كان النص يريد أن يقول أنهم تطامنوا طواعية إلى الأرض لقال (فسجد السحرة) ولكنه قال أنهم (أُلقُوا) ساجدين بمعنى أنَّه أسقط ما في أيديهم وتعطلت إرادتهم أمام إرادة موسى. وهذا يؤيد المعنى الذي نذهب إليه حول السجود وهو تعطل أو تعطيل الإرادة.

وهنا لا بدَّ أن نميز بين النصيَّن في الحالة الأولى وصف النص سجودهم كما يلي:

{فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا[1] } ولم يفصل عبارة الإيمان بالله في آية لحالها بمعنى أنه يتحدث عما جرى في ميدان المنازلة بالسحر.

بينما في النص الثاني والثالث قال: { فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ } ليشير إلى أنهم ظلوا لفترة طويلة متخلين عن إرادتهم وأنهم لم يغيروا موقفهم وأن فرعون طالبهم بذلك أكثر من مرة ولكنهم رفضوا. لذا فصل مقولة الإيمان بالله في آية منفصلة.

لم يُستأنف الحديث بالواو أو الفاء بل جاءت البقيّة من الآيات تقول: (قَالُوا)، دون مقدمات ما يعني أنهم تفاجأوا بسلب إرادتهم من خلال إذعانهم بأنْ ما جاء به موسى أقوى من سحرهم بكثير ما أدَّى إلى أن يُسْقَط ما في أيديهم ويُبهَتوا ويتفاجأوا بالأمر.

المثال الثالث: (يَسْجُدُ).

قال تعالى: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ **يَسْجُدُ** لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ } (الحج: ١٨).

هنا المعضلة الكبرى التي لا يمكن حلّها بالمعنى التقليدي وهو التطامن إلى الأرض. فكيف ستسجد الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب؟!.. يكاد المشهد يكون أقرب إلى أفلام الرسوم المتحركة لو أنَّنا تصورنا الأمر بالمعنى الحرفي التقليدي وهو (التطامن نحو الأرض). بينما لو طبقنا المعنى المفهومي المقترح والعام والأشمل من المعنى المصداقي المادي، سنرى أنَّنا لسنا بحاجة إلى لّي عنق الآيات أو التمسك بما يسمى المجاز، فكل هذه الكائنات تسجدُ لله تعالى بمجرد **تخليها عن إرادتها وحرمانها من أن تكون لها إرادة مستقلة أو مواجهة لإرادة الله تعالى كقانون محيط بالكون والوجود.**

المثال الرابع: وفي قصة يوسف نقرأ أيضاً التالي:

قال تعالى: { إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ **رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ** } (يوسف: ٤).

قال تعالى: { وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ **وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا** ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا } (يوسف: ١٠٠).

أنَّ معنى (العرش) هنا لا يشير إلى سرير أو منصة أو كرسي – بمعناه الحالي – وإنَّما هو يشير إلى **(المكان المادي وما يرتبط به من أوامر وعلاقات معنوية تبدأ من مركزٍ في الأعلى نزولاً للتحكم في مجموعة من الأعيان وملاحقة ردود الأفعال على تلك الأوامر صعوداً إلى الأعلى)**، وبذا يكون عرش الملك هو المكان الذي يقود منه مملكته فهو مكتبه سواءً كان هذا المكتب في البيت أو في مقر الحكومة.

ويكون الرفع على العرش هنا في قصة يوسف هي مجموعة من الأوامر التي أصدرها يوسف تفوَّضُ أبويه حالة خاصة وإذنٌ للمرور والتجول في القصر مكفولةٌ بالقانون وبما له هو من إمكانية ومكانة في نظام العرش الحاكم آنذاك.

وهنا نلاحظ أمر مختلف فإخوة يوسف لم تقم جهة ثانية بتجريدهم من إرادتهم وإنَّما هم تلقائياً خروا ليوسف سُجَّداً بمعنى أنَّهم تخلوا عن إرادتهم في محضره واحترموا كونه وزيرا أول في تلك المملكة. كما أن النص قال أنهم خروا في تلك الواقعة سُجَّداً فوراً فقال: { وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا } ؛ أما في حالة الرؤيا التي قصَّا يوسف لوالده فقد قال إنَّه رأى والده ووالدته وأخوته يسجدون له طويلاً فقال: { رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ } ، وهو لم يتحدث عن مرة واحدة وإنما عن أمر متكرر.

نلاحظ بأنَّ التطامن إلى الأرض والهبوط إليها، لا يناسب الأمور التي أوردناها بينما اختيار المعنى الأصلي للسجود وهو المعنى المفهومي والذي هو أوسع من المعنى المصداقي الذي نتخيله كشكل السجود في الصلاة، سيسهل علينا الأمر ويوضح لنا معنى السجود.

سجود إبليس

تواصل الآية من سورة الأعراف فتقول: { **إِلَّا إِبْلِيسَ** لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ } (الأعراف: ١١). أيَّ أنَّ إبليس أختلف موقفه فلم يكن مع الساجدين إشارة إلى تلك الصفات التي أُريد تنحيتها عبر بلسها – بمحاصرتها ودفعها للاختفاء في آدم أو في نسخة مطوَّرة منه – إلا أنَّها بقيت تظهر في الجيل اللاحق وكأنَّه لم يجر عليها حصار كافي أو أنَّها كانت قوية بما يكفي للبقاء ومعاودة الظهور لاحقاً.

وهذه من الأمور التي يمكن لنا اليوم فهمها عن طريق **فهم الطفرات الوراثية الارتدادية التي تنتج أفراداً يعانون من التخلف أو العوق الذهني أو حمل صفات جينية هي أقرب إلى صفات الغابة منها إلى الصفات الإنسانية.**

كذلك – وطبقاً لما نستنتجه بأدوات منهج لسان القرءان – يمكن تصور أن بعض صفات العنف المطلوب توافرها في حيوانات الغابة للدفاع عن أنفسها تظهر هي الأخرى في بعض الناس من الأجيال الحالية فتدفعهم للعنف والقتل واستباحة الدماء رغم أن الإرادة لا يجري تعطيلها وإنما هذه الأمور تنشط فقط ويستجيب لها الإنسان الضعيف أو الذي يتعرض للعدوان من العائلة أو المجتمع.

تذكير بمعنى (ألاّ تَسْجُدَ)

لقد أوضحنا معنى هذه العبارة من قبل، وحتى نطمئن دعونا نوضح هذه العبارة المفتاحية بطريقة أخرى.

نحن نعلم أنَّ (أَلَّا) تساوي = (أنْ + لا). كذلك نحن نعلم بأنَّ (أنْ) تعني أو تساوي تقريباً = فاء السببيّة. وإنَّ (مَنَعَ) تساوي ما نعرفه اليوم على أنَّه (مَنَّعَ). عليه يكون المعنى المتراكم هكذا: **قَالَ مَا هو الأمر الذي مَنَّعَكَ فأصبحت به منيعاً فجعلك لا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ.**

عدم السجود هو أثر جانبي

وفي الجواب على ذلك السؤال أورد النصُّ القول: { **أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ** } (الأعراف: ١٢). إشارة إلى السبب الذي حال دون تمكن عملية التطوير من تجاوز تلك المرحلة بنجاح تام فالنسخة الجديدة تحتاج إلى تلك الصفات أن تكون موجودة بدرجة معينة من القوة حتى يواصل هذا الإنسان بنسخته الجديدة تطوير حياته والدفاع عن نفسه والتنافس من أجل البناء والخلاقية ومقاومة الشر، إلا أن لوجود هذه القوة النارية آثار لا يمكن تجاوزها وهي بروز هذه الصفات العنيفة والقوية بطريقة غير مسيطر عليها أحياناً في محاولة لتدمير الجانب المتحضر من الإنسان.

وهو أمر لا بدَّ من قبوله في مجال تطوير أي منتج فمثلاً لو تذكرون طائرة (الكونكورد concord) الأوروبية التي أُريد لها في السبعينات أن تكون حافلة كبيرة لنقل آلاف الناس بالمرة الواحدة فتم تزويدها بمحركات قوية بل جبارة وهائلة ولكن تلك القوة كانت السبب في فشلها فقد أدت تلك القوة إلى آثار جانبية لا يمكن تلافيها فتم التخلي عن الطائرة ولكن بقيت المساعي حثيثة لتطوير الطائرات حتى بلغ الأمر الآن قريباً من إمكانيات الكونكورد ولكن بآثار جانبية أقل.

على أساس ذلك تأتي الترتيبات الساعية إلى خلق التوازن في النسخة الجديدة فيأتي القول: { **فَاهْبِطْ مِنْهَا** فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن **تَتَكَبَّرَ فِيهَا** فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ }..

الهبوط يعني وضع برنامج جديد لتقليل أثر هذه الصفات إلى الدرجة التي تبقى الصفات الإيجابية هي المتفوقة في العموم و(مِنْهَا) تشير إلى النار (كطاقة) وليس إلى الجنة. بمعنى أن الأوامر الجديدة صدرت بالتخفيف أكثر من حدَّة تلك الصفات ومن فعاليتها عبر التقليل من طاقتها وهو القول (فَاهْبِطْ مِنْهَا) والخطاب إلى إبليس – كاسم جنس وليس كشخص – فليس مطلوباً أن تبقى هذه الصفات أو هذه المورثات أو البروتينات الجينية على هذا القدر من الفعالية بحيث تؤدي إلى ظهور الصفات غير المرغوب فيها مجدداً وهو القول (فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا).

ثم تصدر أوامر تطويرية أخرى أهمها (فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ) وفيه يتم السماح لهذه الصفات بالظهور المجدد والبقاء في الأجيال الأحدث ولكن بما يبقيها ضمن السيطرة فحتى إذا ظهرت الصفات السلبية بين الفنية والأخرى فإنَّها ستكون من الصواغر.

ماديات السماح بالبقاء

ولكن إلى أيّ درجة سيتم التقليل من دور هذه الصفات وإلى أيّ حدّ يجب تقليل تأثيرها ؟

يأتي الجواب في القول: { قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) } ؛ ليشير إلى أنَّ هذه الصفات ضرورية البقاء في التكوين الإنساني بنسخته الجديدة إلى آخر نسخة يمكن إنتاجها من الإنسان لتعذر تفويض هذا الإنسان، الخيار بين عدة خيارات، دون تزويده بقوتين دافعتين متعارضتين ومتناقضتين تمثلانهما في النص (النار) و (الطين) حتى تستمر الحياة ويتمكن هذا الإنسان من مواصلتها بقوة وشغف وتحدي. والذي سيؤدي بالنتيجة إلى تعريض الجميع إلى تحديات تؤدي إلى التمييز بين العناصر الجيدة والعناصر غير الجيدة.

وهو ما يشير إليه القول: { قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) } (الأعراف).

الغواية من **(غَوي)** تعني: **(تسلط لجهة على جهة أخرى وتوجيهها نحو وجهة معينة واستمرار الحال على هذه الشاكلة مع تفويض لتلك الجهة إمكانية المقاومة وإمكانية الانسياق مع الضغط الخارجي)**. فالإغواء من جهة الربَّ المشار إليه بالقول (فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي) هو محاولة تنحية هذه الصفات مع الإبقاء على قوة تسمح بالظهور. تماماً كما لو أنك قلت لأبنك لا تنفق كثيراً ولكنك في الوقت نفسه وضعت في جيبه مقداراً مهماً من المال، حينها لن تكفي التوصيات فإذا أُتيحت له ظروف واقعيه دافعه نحو الأنفاق كالجوع وتشجيع الزملاء وإغراء المواد المعروضة ونسيانه للوصايا فإنَّه سينفق لا محالة من ذلك المال.

أثر المحيط في إبراز تلك القوة المحاصرة

والظروف الواقعية التي أشرنا إليها في مثال الولد والمصروف هي نفسها تحديات الحياة فهي تظهر متفرقة بسبب تلك الجينومات أو القوى الخفية الموجودة في داخل الإنسان والمرشحة للظهور بدرجة أقوى وبنوع مختلف لدى أنواع مختلفة من البشر تعيش في مجموعات، ستجعل الأمر واسعاً وفيه احتمالات كثيرة ومتعددة وهو ما يشير

إليه القول: { لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) } (الأعراف).

فضعف من نوع معين يظهر من هذا الإنسان وضعف آخر من إنسان آخر حتى يتحول الواقع الاجتماعي إلى لوحة زاخرة بالمغريات والمشجعات على ظهور تلك الصفات القوية المحاصرة إذا وجدت لها المحيط المناسب. وهو ما نراه اليوم في أمثال حركة (داعش) الإرهابية و (القاعدة) اللتان أُربد لهما أن تكونا سلاحاً بيد البعض فأسيئت السيطرة عليهما فانفلتتا من عقالهما.

فالحديث إذن عن تنحية ولكن ليس إلى درجة الإلغاء وإنَّما بحيث يمكن الاستفادة منها وهي محاصرة. الأمر الذي يؤدي إل بقائها نشطة تضع أمام الناس خيارات متعارضة دوما عبر ليّ الصراط المستقيم وتصويره بطريقة معقدة غير مستقيمة.

السماح ببقاء بعض الصفات بشروط

بعد أن أشار المقطع السابق إلى النتيجة المتوقعة وهي أن ينساق عدد كبير وراء تلك التقعيدات في الصراط تمَّ تأكيد أنَّ النتيجة مهما كانت فإنَّ عملية لتقييم المنتج ستتم في النهاية لذا فإنَّ القرار اتُخِذَ بمواصلة الإنتاج ضمن الشروط الحالية مع تسليط نوعين من القوى على تلك الصفات أو العوامل المراد تنحيتها وهما: **عامل (الذأم) وعامل (الدحر) وهما عاملي (داخلي) وعامل (خارجي).**

وهو ما يشير إليه القول: { قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا } ؛ وذلك **بالسماح لهذه الصفات المراد تنحيتها بالبقاء ضمن الشيفرة الوراثية والحمض النووي ولكن بحدود ضيقة مسيطر عليها** فسمح لها بالخروج والظهور ولكن ضمن التقييدات الجديدة. وهما كما أشرنا: ١- **الذأم. ٢- الدحر.**

وحتى يكتمل المعنى ظهورا وتجليّا دعونا نفهم (الذأمَ) و (الدحر).

وفي المعجم **(ذأم)**: الذال والهمزة والميم أصلٌ يدلُّ على **كراهَةٍ وعَيب.** يقال أَذْأَمْتَنِي على كذا، أي **أكرَهْتَني عليه.** ويقولون ذأمْتُه، أي **حَقَرْتُه،** والذّأْم: **العَيب،** وهو مذءومٌ.[1]

ومادة **(دحر)**: الدال والحاء والراء أصلٌ واحد، وهو **الطَّرد والإبعاد.**[2]

فالصفات سُمِحَ لها بالخروج ولكن ضمن حالةٍ من المحاصرة والطرد ومحاولة التنحية المستمرة والتي تشير الآية إلى أنها ستنجح باعتبار أنَّها أشارت إلى أنها ستندحر في النتيجة بعد أن تستمر محاولات طردها وإعادتها إلى محبسها. وهذا المعنى ينسجم تماماً ومعنى (الرجم) الذي يُهدف منه إلى الطرد أيضاً وإلغاء الأثر، أو الإثقال بها لا يسمح بالحركة أو الضياع مع المحيط لذلك سمي القبر المغطى بالحجارة رجما لأنه سيتحدد عن محيطه.

وأما (الدحر): فهو اختفاء الأثر من الواقع الخارجي بمعنى أن الملاحقة الداخلية لتلك الصفات ومحاولة مواصلة تنحيتها سيؤدي بالنتيجة إلى ضعف آثارها في الخارج ما سيمثل محيطاً أنقى وأصفى لظهور الصفات الإيجابية الأخرى واختفاء هذه الصفات أو على الأقل عدم سماح المجتمع بظهورها فتندحر بذلك.

السماح بالخروج والمطاردة

والنتيجة أنَّ ما ستؤدي إليه هذه الصفات المراد تنحيتها من آثار على المنتج ستعتبر عملية إيجابية في العموم باعتبار أنها ستكشف عن العناصر المصابة بعيوب أكبر وستسمح بمراجعة شاملة لمعرفة العوامل المساعدة على تفجر وانفلات هذه الصفات وخروجها من عقالها ما سيساعد في تطوير أوسع وأشمل.

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الثاني، ص ٣٦٨ .

(٢) نفس المرجع، ص ٣٣١ .

تماماً كما نفعل نحن البشر في عملية تقليد في الحقيقة لما يقوم به الملائكة من عمليات تطوير فحتى هندسة الجينات التي نجريها نحن البشر على النباتات والحيوانات فإنَّنا نسمح بخروجها ودخولها في الأسواق لرؤية أثارها ثم تطوير المنتج أكثر وأكثر للوصول إلى منتج مناسب لا يلتفت بسرعة ولا لا يحمل صفات سلبية كثيرة.

وهذا ما تُعبر عنه بقية الآية حينما تقول أن هذه الصفات يجب أن استبعادها من مجمل المنتج وتطوير الباقي نحو نسخة جديدة فجاء القول: { قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) } (الأعراف).

فالإرسال إلى جهنم يعني أمرين:

الأول: هو محاولة تحقيق المزيد من الاستبعاد لتلك الصفات وتنقية الأجيال اللاحقة عبر المزيد من المحاصرة.

والثاني: هو إتلاف العناصر المعيبة التي استحوذت عليها تلك الطاقات بانفلاتها من عقالها.

وبهذا نكون قد طبقنا منهج (لسان القرءان) وتدبرنا الآيات القرآنية من سورة الأعراف. الخاصة بموضوعنا الذي نعرضه لكم وهو تطوير الجنس البشري إلى آدم.

الفصل الثاني

الروح والنفس

مفهوم لفظة (الروح)

كثيراً ما أختلط في الأذهان عند الناس بين مفهوم (الروح) ومفهوم (النفس). وأعتقد الكثيرين أنهما شيئاً واحد لا خلاف بينهم ولكن هذا أمر عجيب. فهناك قاعدة نتبعها تقول: إذا أختلف المبنى أختلف المعنى. فكيف تكون كلمة (الروح) هي هي كلمة (النفس)، فهذا كلام لا يقول به عاقل.

وهناك الكثير من العلماء من أعتقد أن (الروح) أو (النفس) هما شيئين لا يمكن دراستهما علمياً ! وأنهما من أمور الغيب التي لا يعلمها إلا الله تعالى..

فنحن هنا سنحاول أن نتعدى ذلك الفهم إلى فهم جديد يمكننا من خلاله دراسة كلاً من كلمتي (الروح) و (النفس) من النص القرآني.

جاءت لفظة (الروح) مشتقة من الجذر اللساني العربي (رَوَحَ)، وقد أتى هذا الجذر في النص القرآني ما يقارب حوالي (٥٧) مرة بمختلف مشتقاته، فدعونا ننظر لهذا الجذر في المعاجم وفي دلالة أصواته الفيزيائية من القرآن لنفهم ما المقصود منه بالضبط..

(روح): الراء والواو والحاء أصلٌ كبير مطّرد، يدلُّ على **سَعَةٍ وفُسْحَةٍ واطّراد.** وأصل [ذلك] كلَّه الرَّيح. وأصل الياء في الريح الواو، وإنّما قلبت ياءً لكسرة ما قبلها. فالرُّوح رُوح الإنسان، وإنّما هو مشتق من الرَّيح. والرَّوْح: نسيم الرَّيح. ويقال أراحَ الإنسانُ، إذا تنفَّسَ. [١]

وعندما عُدت إلى مادة (رح)؛ من هذا المعجم وجدتها تعني الأتي: الراء والحاء أصلٌ يدلُّ على **السّعَة والانبساط.** يقال هم في عيشٍ رَحْرَاحٍ، أي واسع. [٢]

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الثاني، ص ٤٥٤ .

(٢) نفس المرجع، ص ٣٨٥ – ٣٨٦ .

فأنا أميل إلى إرجاع كلمة (روح) إلى الجذر الثنائي اللساني العربي (رح) بدون حرف الواو؛ فالواو زائدة على الكلمة.

- **دلالة أصوات الجذر (ر – ح) فيزيائياً:**

(ر): صوت يدل على حركة سريعة منتظمة أو مرتبطة ومتصلة ومتكررة.

(ح): صوت يدل على تأرجح شديد أو سعة محددة.

(رح): كلمة تدل على حركة سريعة منتظمة ومتصلة ومتكررة، وتتسع بشكل محدد.

فإذا أردنا أن نفهم دلالة الكلمة أكثر في شيء مادي ملموس نُضيف حرف (الميم) في نهاية كلمة (رح)، فتصبح الكلمة كالتالي: (رحم). وهذا المفهوم نسمعه في الحياة اليومية بمعناه المادي على (رحم الأم)، والمعنى المعنوي على (صلة الرحم بين الأقارب).

فـ "رحم الأم"[1]: مفهوم تحقق فيزيائياً – مادياً – في جسد المرأة. فهو يبدأ بحركة سريعة منتظمة ومتصلة ومتكررة، وتتأرجح فتتسع بشكل محدد، وتنتهي بجمع متصل ينضم ويتداخل ويتكامل في أطار واحد.

وإذا أُضيف حرف (الواو) بين حرفي كلمة (رح)، تصير (روح)، وتكون دلالة الكلمة كالتالي:

(و): صوت يدل على ضم وتموضع الحركة في المكان.

---

(١) الرَّحِم عضو تناسلي في معظم الثدييات ومن ضمنها الإنسان، يكون شكله كمثري في الإنسان. في الإنسان الرحم عبارة عن عضو عضلي مجوف ذو جدار سميك يتصل من أعلى بقناة فالوب، ويشبه الرحم ثمرة الكمثرى المقلوبة في الشكل والحجم ويبلغ طوله حوالي ٧ سم وعرضه حوالي ٥ سم. ويتمدد الرحم خلال فترة الحمل ويتضاعف ٢٢ مرة من ٥٠ جراماً قبل الحمل وحتى ١١٠٠ جرام عند الولادة ليتسع للجنين الذي ينمو بداخله.

فتكون لفظة (روح)؛ هي: تدل على **حركة سريعـة منتظمـة ومتصـلة ومتكـررة، تموضعت في مكان، وانتهت الحركة باتساع في شكل محدد.**

فتحقق ذلك في استخدامها الاجتماعي، عندما أطلقناها على الأشياء، فنقول: **روح النّص، روح الإنسان...**

وقصد العرب بذلك، مجموعة الأمور التي تحكم حركة الشّيـء، بصُـورة دائمـة لا تختلف أبداً (النظام).

فـ **"روح النّص"**: نقصد به مآل النّص ومقصده، والباعث عليه، القـانون الـرابط بين النصوص.

ويُلاحَظ من دلالة كلمة (روح النّص) أن ذلك غـير ظـاهر بالألفـاظ والأجـزاء، وإنَّما هو أمر مخفي يضبط حركة دلالات الـنّص، حيـث يصـير هـو الطّاقـة الرّوحيـة للنّص، وإذا سُلب من النّص روحه، انتفت صفة الفاعليـة عـن الـنّص، وصـار نصـاً عقيماً.

أما كلمة الرّوح في الواقع، فهي لا تخرج عـن دلالتهـا اللسـانية؛ لأنَّ **اللسـان هـو صُورة صوتية، أو وظيفية للواقع؛** فلو نظرنا إلى الذَّرة، لوجدناها قائمـة عـلى حركـة سريعة، متصلة، متكررة، منضمة إلى بعضها، محققة حالة التّأرجح، والاتسـاع، تقـوم بوظيفتها مُرتبطة مع غيرها؛ لتحقيق غاية، وهذا واضح من خلال بنيـة الـذرة، كنـواة وإلكترون وبروتون.

وما ينطبق على الذرة، يشمل الوُجُود كله من الذرة إلى المجرة، إذ الـذرة هـي لبنـة الكون الأولى، فماذا يعني هذا الكلام ؟

إنه يعني أنَّ الذرة لها روح، وروحها هي النّظام الـذي يحكمهـا، ويسـيطر عليهـا، ويوجهها نحو غاية معينة، وكذلك المجرة لها روح، وهي النّظام الذي يحكـم المجـرة، من أجزائها إلى كلياتها، والعلاقة القائمة بينهم.

فالكون من الذرة إلى المجرة، له روح تحكمه، يسير بحسبها، لا يملـك أن ينفـك عنها، فهي ملازمة له، وهي الجانب المخفي في بنية الكون.

إذن، الكون مؤلف من جانب مادِّي حسي، وآخر روحي سنني يُسيطر على الجانب المادي. حيث صارا كلاهما كائناً واحداً، **روح ومادَّة (رحمادي).**(١)

الروح في النص القرآني

نأتي الآن إلى كلمة الرّوح في الاستخدام القرآني؛ لنـرى كيـف اسـتخدمها، وبـأي دلالة؟

قال تعالى: { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ **الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي** وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْـمِ إِلَّا قَلِيلًا } (الإسراء: ٨٥).

هذه الآية، هي أشهر نص في الاستخدام القرآني، التي يستدل بها بعض من يـزعم أنَّ الرّوح مسألة غير قابلة للدّراسة، وهي سر غيبيّ، وهي أصل سر الحياة، وما شـابه ذلك من أقوال.

والمدقق في نّص الآية، يلاحـظ أنهـا جـواب عـلى سـؤال، وُجِّـه إلى النّبـي محمـد، والسّؤال لم يذكر لا من قريب، ولا من بعيد أن مدلول الرّوح في ذهن السّائلين هو سر الحياة !..

---

(١) سامر إسلامبولي، دراسة إنسانية في الرّوح والنّفس والتّفكير، (نسخة إلكترونية)؛ ٢٠٠٩م، ص ٣٦ – ٣٧.

وأيضاً، ليس من أسلوب القرآن، أن لا يُعطي جواباً عن السؤال، ويمنع التّعلم والدّراسة، وهو الذي يطالب بالعلم والتّفكير والتّعقل!..

انظر قوله تعالى: { **يَسْأَلُونَكَ** عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ **قُلْ** فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ } (البقرة: ٢١٩).

وقوله تعالى: { **يَسْأَلُونَكَ** عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ **قُلْ** هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ } (البقرة: ١٨٩).

وقوله تعالى: { **وَيَسْأَلُونَكَ** عَنِ الْمَحِيضِ ۖ **قُلْ** هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ } (البقرة: ٢٢٢).

ونّصُّ الآية المعنيُّ بالدراسة هو من هذا القبيل، **سؤالٌ صريحٌ، وجوابٌ كافٍ شافٍ،** ليس فيه نهي عن الخوض، في مادَّة السّؤال، أو هو سر غيبي لا يمكن أن يعلمه أحد، اقرأ النّص من جديد بنظرة أخرى؟ ألا تجده على نمط الأسئلة السّابقة، فهذا النّمط من الأسئلة، والجواب عليها، ليس مثل قوله تعالى: { **يَسْأَلُونَكَ** عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ **قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي** ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ **يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ** وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } (الأعراف: ١٨٧).

لاحظ صراحة السّؤال، والعناية بالجواب، وتشجيع النّاس على أن يوجهوا أسئلتهم دون خوف أو خجل؛ لأن مفتاح العلم والمعرفة، هو السّؤال: لذلك ينبغي أخذ السّؤال بصُورة جدية، والقيام بالإجابة العلمية عليه؛ فنلاحظ أن الجواب أتى – في النص المعني بالدّراسة – بصيغة { **قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي** وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } ، بينما أتى جواب السّؤال عن وقت السّاعة بصيغة { **قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي** } ، وهناك فرق كبير في الدّلالة بين جملة { **مِنْ أَمْرِ رَبِّي** } ، وجملة { **عِندَ رَبِّي** } ، فالأولى لم

تنف العلم، وإمكانيته عن النّاس، بل أخبرت أن ما تَسألون عنه هو من أمر الرّب القابل للدّراسة والاكتشاف؛ لذلك أنهى الجواب بقوله: { **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** } ، إشارة إلى طلب الاستمرار في رحلة التّعلم والدّراسة؛ لكشف أمر الرّب في الأشياء.

وما نصل إليه من عُلُوم، واكتشافات يبقى قليلاً بالنّسبة لما هو غر معلوم من أمر الرّب في الوُجُود لأننا نعيش في **دائرة عالَم الشهادة التي هي في داخل عالَم الغيب الواسع المتنامي.**

بينما جواب السّؤال عن السّاعة؛ فقد أتى بنفي إمكانية العلم بوقتها صراحة، وأن ذلك موجود عند الرّب حصراً.

ولقد أتى أمر الرّب في الاستخدام القرآني على حالتين:[1]

الأولى: الأوامر الشّرعية:

قال تعالى: { قُلْ **أَمَرَ رَبِّي** بِالْقِسْطِ } (الأعراف: ٢٩).

قال تعالى: { إِنِ **الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ** ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ } (يوسف: ٤٠).

قال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ **يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ** ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } (النحل: ٩٠).

الثّانية: الأوامر الكونية:

هي الأحداث التي تجري في الواقع، على صعيد الآفاق والأنفس، ضمن سنن الله عز وجل.

(١) سامر إسلامبولي، دراسة إنسانية في الرّوح والنّفس والتّفكير، ص ٥١ – ٥٣ .

قال تعالى: { حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ } (التوبة: ٤٨).

قال تعالى: { قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ } (هود: ٤٣).

قال تعالى: { يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ } (هود: ٧٦).

قال تعالى: { أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } (الأعراف: ٥٤).

فأوامر الرّب على وجهين: **كوني، وشرعي.**

الأمر الكوني: يخضع النّاس له قهراً.

الأمر الشرعي: يخضع النّاس له إيماناً واختياراً.

والنّص المعني بالدّراسة – سورة الإسراء: ٨٥ – ذكر أنَّ **(الرّوح)** كلمة تدل على أمر الرّب، وفي الواقع، **هي مجموعة السنن والقوانين التي تحكم الوجود كله (الروح الكونية)؛** وتدل على **أمر الرب الشرعي؛ الذي تمثل برسالته للناس،** اقرأ قوله تعالى: {وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا} (الشورى: ٥٢). ليصيرا روحاً واحدة منسجمتان مع بعضهما بعضاً – الروح الكونية، والروح الشرعية –، و يجب على الإنسان أن يلتزم بهما معاً.

أذن الرّوح، هي الجانب العلمي السّنني للشّيء، لأن أمر الرّب – في الواقع – له جانبان:

الأول: **الجانب النّظري (العلمي والتشريعي) عالَم الأمر.**

والآخر: **حصوله في الواقع بصُورة موضوعية عالَم الخلق.**

وهذا واضح في قوله تعالى: { أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ } ، **فالخلق هو الجانب المادِّي، والأمر هو الجانب المخفي؛ الذي يحكم المادَّة، فعملية الخلق مُرتبطة بالأمر؛** أنظر قوله تعالى: { وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ } (البقرة: ١١٧).

فيكون الجانب العلمي المتعلق بأمر الله، هو المقصود بكلمة الرّوح، حيث أتت في النّص بصيغة من أمر الرّب، و (من) دلالتها التبعيض، وبقية أمر الرّب هو الجانب المادِّي للأمر الإلهي؛ فيكون المقصود من السّؤال: { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ } ، سؤال عن الجانب المخفي، الذي يحكم الأحداث والأشياء، فكان الجواب: { الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي } ، المُرتبط بالوُجُود المادِّي، فإذا درستم هذا الجانب المادِّي تصلون إلى الرّوح التي تتحكم في حركة المادَّة وبُنيتها، فتكتمل عندكم صّورة الشّيء المدروس، مادَّة وروحاً، وبذلك تكونون قد وصلتم إلى معرفة أمر من أوامر الرّب، في الوُجُود الرّحمادي.

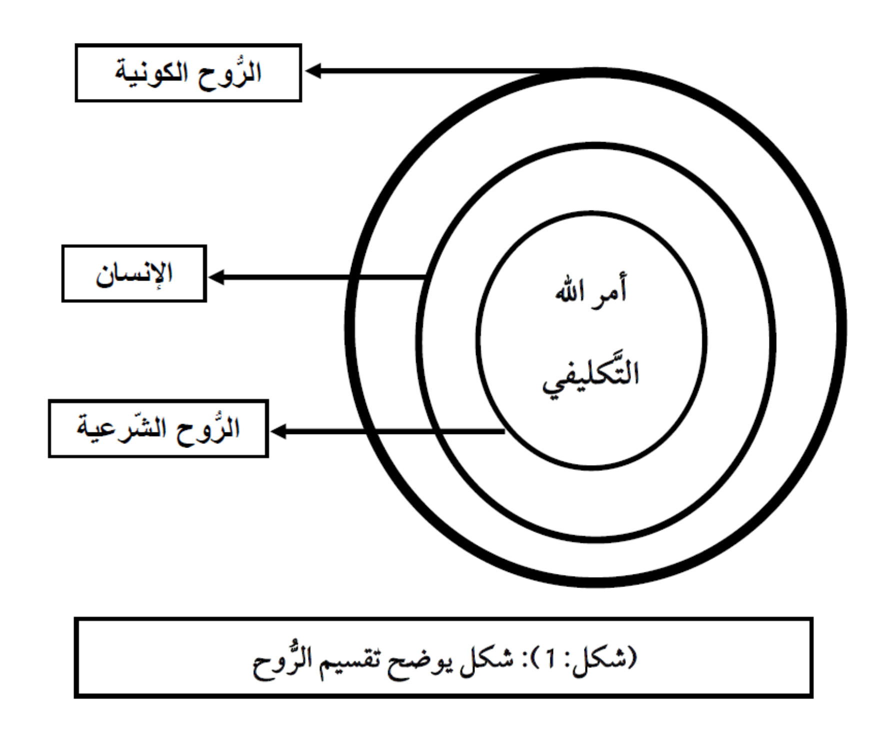
ولنتابع النظر في استخدام النّص القرآني لكلمة (الرّوح).

قال تعالى: { وَكَذَٰلِكَ **أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا** ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } (الشورى: ٥٢).

قال تعالى: { رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ **يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ** عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ } (غافر: ١٥).

الملاحظ في النّصين، أن كلمة الرّوح أتت مُرتبطة بأمر الرّب، والمقصود به، هو مادَّة الوحي التي نزلت على النّبي؛ وليست هي إلا القرآن الذي جعله الله نوراً وهدى، ووصفه بالرّوح؛ لأنه يحتوي على مجموعة من الأوامر الإلهية، المتعلقة بتنظيم حياة الفرد والمجتمع، التي يجب على الإنسان أن يُسَيِّر نفسه بها، وكذلك يحتوي على أوامر، متعلقةٍ بالآفاق والأنفس التي تُسَيِّرُ الإنسان، حيث يصير عنده روحان؛ الأولى يُسَيِّر نفسه بها إيماناً واختياراً، والثانية تُسَيِّره نظاماً.

فالروح في القرآن، **هي سنن الله التي تحكم المادَّة، وهـي أيضـاً مجموعـة الأوامـر الشّرعية التي أنزلها الخالق للنّاس؛ ليُسَيّروا أنفسهم بحسبها إيماناً واختياراً.**



(شكل: 1): شكل يوضح تقسيم الرُّوح

أذن؛ **"روح الإنسان"**: هي بمعنى **القوانين التي تحكم حياة الإنسان، وهي نظام الحياة.** فعندما نقول: إن هذا الإنسان روحاني؛ نقصد بذلك أنه يُسيّر نفسه بشرـع الله، وعندما ننفي عنه صفة الرّوحانية، يكون إنساناً متمرداً خارجاً عن شرع الله، وكـذلك الإنسان الذي يدرس عُلُوم الآفاق والأنفس، تكون دراسته روحيـة، إذ هـي متعلقـة بالواقع الرّحمادي.

الإنسان الكائن الرّوحي [(١)]

(١) سامر إسلامبولي، دراسة إنسانية في الرّوح والنّفس والتّفكير، ص ٥٩ – ٦٦ .

أنَّ البشر هو كائن رحمادي حي مثل الكائنات الحية الأخرى ظهر على وجه الأرض منذ ملايين السّنين، ويعتمد في حياته على أكل اللّحوم النّيئة، والثّمار من الغابات مُباشرة، فكان مفسداً في الأرض، من جراء تعامله – مع الغابات – بصُورة غير واعية، يقطع الأشجار ويكسر الأغصان، مثله مثل أي جنس حيواني آخر، ويسفك الدّماء، نتيجة تناوله لحم الحيوانات، واستمر على هذا النهج إلى ما شاء الله له من الحياة، التي تعرّض خلالها إلى تطور في دماغه، وجسمه، وحركته؛ حسب المشروع الإلهي؛ إلى أن وصل إلى المستوى المراد؛ على سُلّم التّطور.

وعندما وصل هذا الكائن البشري على سُلم التّطور إلى عملية التّسوية، والتّعديل، والانتصاب على قدميه، وتسوية ظهره، وإطلاق يديه؛ قال الرب للملائكة: { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } (البقرة: ٣٠).

تنبَّه – أيها القارئ الكريم – إلى كلمة (جاعل)، ولم يقل: خالق؛ **فعملية الجعل، هي عملية لاحقة لعملية الخلق، وهي تغير في الصّيرورة؛** فالكائن المقصود بالكلام، موجود على الأرض، فقالت الملائكة: { قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ } (البقرة: ٣٠).
وهذا النّص يدل بشكل واضح، على أنَّ الرب قد حدد لمقام الخلافة كائناً يعيش على الأرض، مُشاهداً من قبل الملائكة؛ لذلك أظهرت استغرابها من جعل هذا الكائن الأرضي خليفة؛ وهم يشاهدونه يفسد ويسفك الدّماء؛ فمن أين تكون له الخلافة ؟

إنَّ الخلافة – مقاماً – يلزمها مؤهلات، لا يتصف بها هذا الكائن، وهذا دليل على أنَّ الملائكة لا تعلم بالمشروع الإلهي، إلا ما يظهر منه في الوُجُود تباعاً؛ ومن هنا، أشارت الملائكة إلى أنفسها بأنها مخلوقات راقية تُسبِّح بحمد الخالق، وتعظمه؛ لذلك، فهم رشحوا أنفسهم لأن يكونوا في مقام الخلافة؛ فقال لهم الرب: { قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } (البقرة: ٣٠)، ولم يطلعوا على مشروعه في كيفية جعل هذا الكائن البشري؛ خليفة في الأرض.

فماذا تغير في واقع هذا الكائن البشري ؟ وكيف سيصير في مقام الخلافة ؟

نجد جواب ذلك في قوله تعالى: { الَّـذِي أَحْسَـنَ كُـلَّ شَيْءٍ خَلَقَـهُ ۖ وَبَـدَأَ خَلْـقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) **ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَـخَ فِيـهِ مِن رُّوحِهِ** ۖ **وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَـارَ وَالْأَفْئِـدَةَ** ۚ قَلِـيلًا مَّـا تَشْـكُرُونَ (٩) } (السجدة).

لاحظ حرف (ثم) بين المراحل الثّلاثة، وهـو حـرف عطـف، يفيـد التّرتيـب مـع التّراخي، والفاصل الزّمني بين المراحل.

المرحلة الأولى: **بدء خلق الإنسان من طين.**

المرحلة الثانية: **جعل نسله من ماء مَهين.**

المرحلة الثالثة: فيها ثلاث صفات، تمت في الواقع تباعاً:

١- تسوية الكائن البشري.

٢- النّفخ فيه من روح الله.

٣- جعل السّمع والبصر والفؤاد للجنس كله، بصُورة تفاعل بعد النّفخ فيه من الرّوح.

فما هو الشّيء الذي نُفخ في جسم الكائن البشري الحي ؟

قد علمنا – آنفاً – أنَّ الكائن البشري، هو كائن رحمادي (روح ومادَّة) في الأصـل، وهو كائن حي، قبل النفخ فيه من الرّوح؛ ممَّا يُؤكَّد أنَّ هذا النّفخ – بعد عملية التّسوية – ليس هو من الرّوح الملازمة للمادَّة ابتداء؛ لأن هذه الرّوح مشتركة مع كل الكائنـات أصلاً، وكذلك، ليس هو من روح الحياة (الخلية)؛ لأنه كائن حي قبل الـنفخ فيـه مـن الروح.

إذن، ما هي هذه النّفخة الرّوحية، التي نُفخت في الكائن البشـري، وجعلتـه أهـلاً لمقام الخلافة في الأرض ؟

لنر ذلك، من خلال تحليل أصوات أحرف كلمة **(نَفَخَ):**

(ن): صوت يدل على ستر أو اختباء أو سكون.

(ف): صوت يدل على تفرق الحركة في كافة الاتجاهات.

(خ): صوت يدل على إخماد الحركات في مكانها وكبت جماحها فيحدث توقف عند هذا الحد.

(نَفَخَ): كلمة تدل على **حركة مستترة، متوسعة في كافة الاتجاهات، لتظهر في نهايتها بإخماد حركتها في مكانها بحد وكبت جماحها فيحدث توقف عند هذا الحد.**

نرى ذلك في حركة (نفخ) الهواء في الكرة، فيكون النفخ ساكن ومستتر في البداية داخل حركة الهواء الخارجة من المنفاخ، فيدخل داخل أطار الكرة ويبدأ في التوسع ليملئ كل المساحات الخالية بالهواء المنفوخ في كافة الاتجاهات، وعند الانتهاء يحدث إخماد للحركة في مكانها، ويكبت جماح التوسع لها مما يؤدي إلى توقفها عند هذا الحد من مساحة الكره.

إذن، يُوجد شيء قد نُفخ في الكائن البشري، ودخل فيه، وهذا الشّيء المنفوخ، هو الذي أعطى الكائنَ البشري القيمةَ من خلال امتلاكه الوعي، والاستقلالَ في وُجُوده كفرد ينتمي إلى جنس، وجعله كائناً يستحق مقام الخلافة، فالنّفخة من الرّوح – في الكائن البشري – لم تجعله كائناً حياً؛ لأنه – في الأصل – حي، بل جعلته كائناً واعياً، مُدركاً لذاته، وغيره، وترتب على ذلك تفعيل الدّماغ، والحواس الخمسة، التي قامت بنقل الإحساس بالواقع إلى هذا الشيّء المنفوخ في الكائن البشري، فتمت عملية التّواصل مع العالم الخارجي بصُورة واعية، وتَفعَّل السّمع، والبصر، والفؤاد.

هل علمتم ما هو هذا الشّيء المنفوخ من الرّوح فينا الذي بموجبه ارتقينا من عالم البشر، إلى عالم الإنسان ؟

إنها **النّفس الإنسانية؛ الكائن الرّوحي المنفوخ في الكائن البشري،** التي دخلت فيه، وسيطرت عليه، وتحكمت به من خلال تحكمها في الدّماغ والقلب، وصار بها كائناً إنسانياً. فالنفس، كائنة روحية تميز بها الكائن البشري دون الكائنات الأخرى، وصار هذا الكائن الإنساني محلاً للخطاب الإلهي، ومحلاً للمسؤولية والحساب، ومُؤهلاً لمقام الخلافة في الأرض.

أما عملية تفعيل السّمع، والبصر، والفؤاد؛ فهي عملية متروكة للإنسان حينما يلد في وسط اجتماعي؛ لذلك يقول الفلاسفة: الإنسان كائن اجتماعي؛ لأنَّ المجتمع، هو الذي يصنع شخصية الإنسان، ويُفَعَّل عنده السّمع، والبصر، والفؤاد؛ لذلك نلاحظ أنَّ النّص الإلهي قد انتقل من حالة الخبر في الصّياغة:

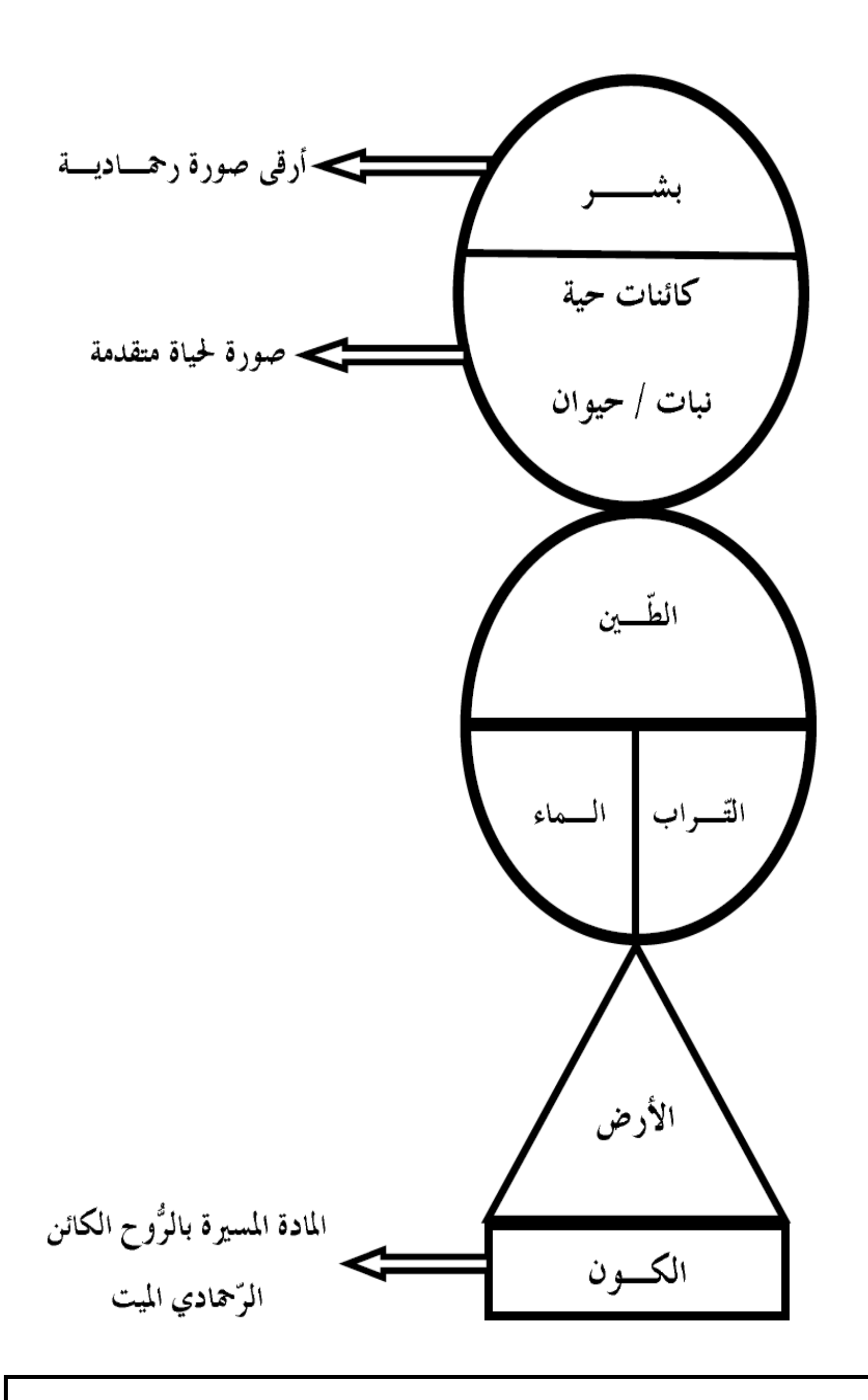
{ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ... (٩) } (السجدة)؛ إلى حالة الخطاب المباشر: { وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ } (السجدة: ٩).

فبدأ الكلام عن خلق جنس مستخدماً الحالة الفردية، إذ أن ما ينطبق على الفرد، ينطبق على الجنس كله، إلى الحالة الجماعية؛ لأن كل فرد مستقل في شخصيته عن الآخر، وهذه الاستقلالية لا تأتي مع الإنسان ولادة، بل؛ يصنعها المجتمع تربية، وثقافة؛ اقرأ النّص الإلهي، مرة ثانية، وثالثة:

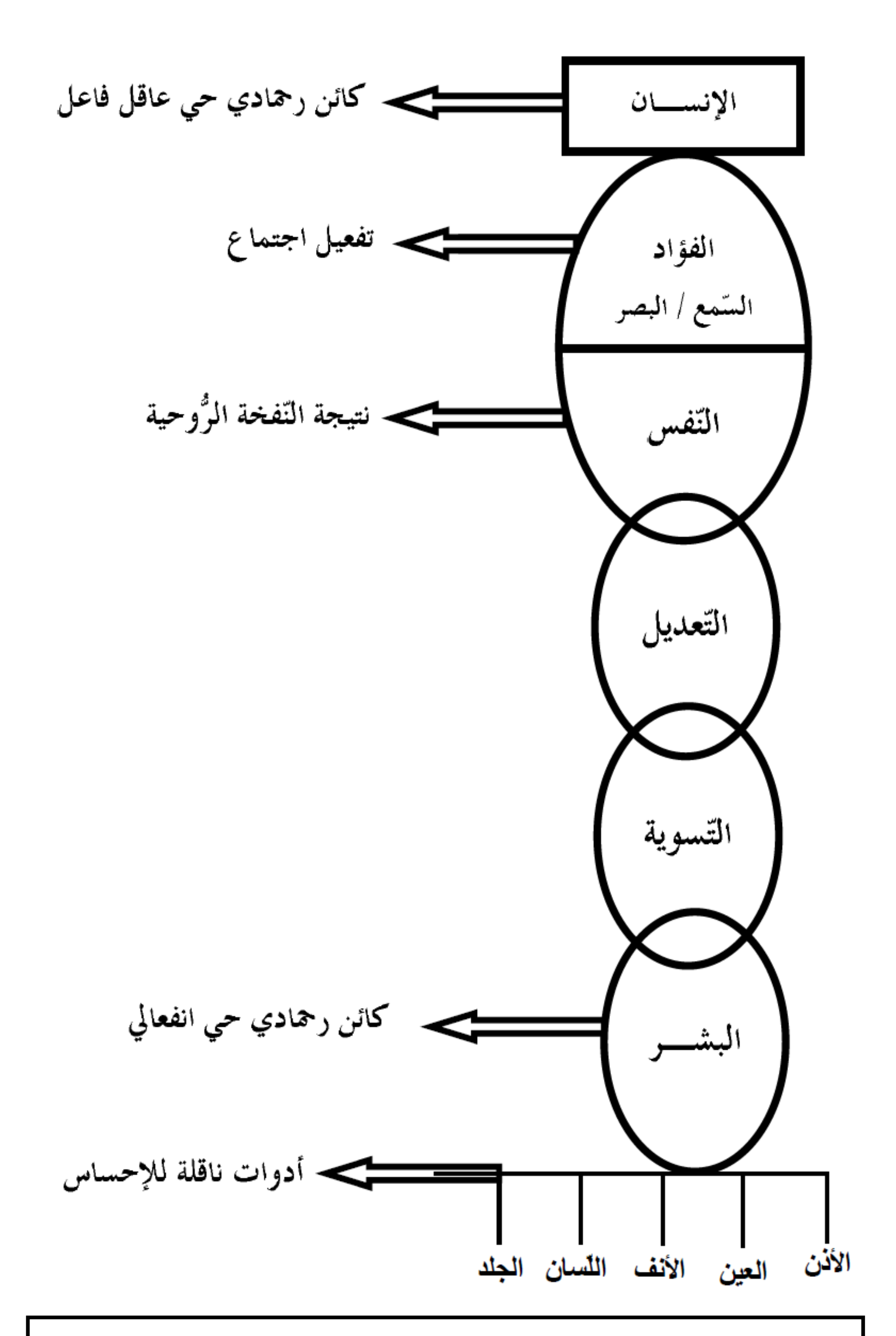
جسم + طاقة حياتية + روح (نظام) + صُورة = كائن بشري.

كائن بشري + روح (نظام) + نفس = إنسان.

- **فما هي النفس الإنسانية ؟**



(شكل: ٢): شكل يوضح حركة التطور من الكون إلى البشر.



(شكل: ٣): شكل يوضح حركة تطور الجنس البشري إلى الكائن الآدمي العاقل.

مفهوم لفظة (النفس)

جاءت لفظة (النفس) مشتقة من الجذر اللساني العربي (نَفَسَ)، وقد أتى هذا الجذر في النص القرآني ما يقارب حوالي (٢٩٨) مرة بمختلف مشتقاته، فدعونا ننظر لهذا الجذر في المعاجم وفي دلالة أصواته الفيزيائية من القرآن لنفهم ما المقصود منه بالضبط..

(نفس): النون والفاء والسين أصلٌ واحد يدلُّ على خُروج النَّسيم، كيف كان، من ريح أو غيرها، وإليه يُرجع فروعه. منه التَّنَفُّس: خُروج النَّسِيم من الجوف. والنَّفَس: كلُّ شيءٍ يفرَّجُ به عن مكروب. والنَّفْس: الدَّم، وذلك إنَّه إذا فُقِد الدّمُ من بَدَنِ الإنسان فَقَدَ نَفْسَه. والحائض تسَّمى النُّفَساءَ لخُرُوج دَمِها. والنَّفاس: وِلادُ المرأة، فإذا وَضَعت فهي نُفَساء.[1]

- دلالة أصوات الجذر **(ن – ف – س):**

(ن): صوت يدل على ستر أو اختباء أو سكون.

(ف): صوت يدل على تفرق الحركة في كافة الاتجاهات.

(س): يدل على ظهور حركة بشكل غير واضح وغير عميق أولي.

(نفس): كلمة تدل على حركة مستترة، متوسعة في كافة الاتجاهات، لتظهر في نهايتها بشكل غير واضح وغير عميق أولي.

النّفس غير الروح أو الجسم

النّفس، هي الكائن المنفوخ من الروح في الكائن البشري، التي جعلته كائناً واعياً، مستقلاً – في وُجُوده – عن جنسه، مدركاً لوُجُوده الواعي، ومدركاً لوُجُود غيره.

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الخامس، ص ٤٦٠ .

فالنّفس، هي التي تملك الوعي والإدراك، وهي التي تُحدد شخصية الإنسان، أما الجسم، فهو كائن رحمادي حيوي نهايته إلى التّحلل والرّجوع إلى عناصره الأولى، التي رُكِّبَ منها، بخلاف النّفس؛ فإنها تبقى موجودة بصُورة سرمدية لا تفنى؛ والنّفس خُلقت لتدوم بإرادة من الخالق تبارك وتعالى.

هناك دراسات علمية لإثبات وجود النفس ككائن مستقل عن الجسم. [١]

تسلسل مفهوم الدماغ والجسم والنفس:

- النظرة القديمة لما يحدث عند الموت، وطبيعة العقل البشري كانت تناقش فلسفياً فقط.
- الطريقة التي تلتها في السابق كانت وجهة النظر الأحادية لمشكلة العقل والدماغ إن العقل البشري والوعي والنفس ليست أكثر من المنتجات الثانوية للأنشطة الكهروكيميائية داخل الدماغ على الرغم من عدم وجود أي دليل علمي أو حتى شرح البيولوجية لكيفية عمل الدماغ.
- أما الدراسة العلمية الحديثة فد توصلت إلى وجهة نظر ثنائية لمشكلة العقل والدماغ، قالوا: إن العقل البشري والوعي يتشكل مستقلاً عن الدماغ.

أحدث الدراسات العلمية في العقل والجسم التي توصلت إلى أن النفس كائن مستقل:

اسم الدراسة: **(مشروع وعي الإنسان The Human Consciousness Project)** ، تهدف إلى كشف السر علمياً عن العلاقة الغامضة بين العقل والجسم.

---

(١) أنظر إلى هذه الدراسة من خلال موقع (مؤسسة نور Nour Foundation):

- **http://www.nourfoundation.com/events/Beyond-the-Mind-Body-Problem/The-Human-Consciousness-Project.html**
- **http://www.nourfoundation.com/events/Beyond-the-Mind-Body-Problem-New-Paradigms-in-the-Science-of-Consciousness.html**

هذه الدراسة **توصلت إلى أن النفس أو ظاهرة الوعي كائن مستقل عن الجسم المادي.** وهي دراسة دولية رئيسية من قبل مجموعة من المراكز الأمريكية والأوروبية ضمت فريقاً من الخبراء المشهورين من الأطباء وعلماء الأعصاب والعلماء الدوليين الذين انضموا للبحث في طبيعة الوعي وعلاقته مع الدماغ خلال الموت السريري والسكتة القلبية أي تجارب الخروج من الجسم والاقتراب من الموت بأحدث الأبحاث العلمية لكشف العلاقة المعقدة بين العقل والدماغ والوعي، وطريقة عمل العقل البشري.

هذا المشروع بقيادة الدكتور **"سام بارنيا Sam Parnia"**[1]، مع فريقه الذي كشف سر النفس وهو خبير ذو شهرة عالمية يقول: **"لعدة قرون كان العقل البشري أو النفس كيان لا يمكن تفسيره، النفس ذلك الكيان الذي يمنح كل واحد منا شخصياتنا الفريدة من نوعها يمنحنا الأفكار والصفات والعواطف في الوقت الذي تميزنا بالإرادة الحرة فقدراتنا تتجاوز قدرات أي مخلوق آخر على كوكبنا".**

الدراسة كانت دراسة (الوعي أثناء الإنعاش)، قال الدكتور "سام بارنيا": "الموت ليس لحظة محددة هو في الواقع عملية تبدأ عندما يتوقف القلب النابض والرئتين عن العمل والدماغ يتوقف عن العمل، ووصف حالة السكتة القلبية وهي بيولوجيا مرادفة للموت السريري. وخلال توقف القلب وجميع المعايير الثلاثة للوفاة موجودة. في وقت لاحق، هناك فترة من الزمن تتراوح بين بضع ثوان إلى ساعة أو أكثر، والتي

---

(١) هو أستاذ مساعد في الطب في جامعة ولاية نيويورك في (ستوني بروك Stony Brook). حصل على شهادة الطب من المستشفيات سانت توماس (UMDS) من جامعة لندن عام ١٩٩٥ وأكمل درجة الدكتوراه في البيولوجيا الخلوية من جامعة ساوثهامبتون في المملكة المتحدة عام ٢٠٠٦م. وحصل على الزمالة في أمراض الرئة و طب العناية الحرجة من جامعة لندن ومركز طب وايل كورنيل في نيويورك عام ٢٠١٠م. ومؤلف كتابين بعنوان:

- **What Happens When We Die?: A Groundbreaking Study into the Nature of Life and Death, (2006).**
- **Erasing Death: The Science That Is Rewriting the Boundaries Between Life and Death, (2013).**

قد تنجح الجهود الطبية الطارئة في إعادة تشغيل القلب وعكس عملية الموت. ما يشعر به الناس خلال هذه الفترة من السكتة القلبية يوضح لنا ما يحدث خلال عملية الموت ويكشف لنا وجود النفس. وقد تم استخدام أحدث التقنيات لدراسة الدماغ والوعي أثناء السكتة القلبية فكانت نتيجة التجارب أن الناس كانوا قادرين على السماع والرؤية أثناء السكتة القلبية. في حين أن هذه الدراسات والتجارب تمت عندما كان نشاط الدماغ متوقف تماماً ولا يمكن قياس أي شيء فيه، ومع ذلك أفادت التصورات التفصيلية أن الشخص كان على مستو عالٍ من الوعي في غياب نشاط الدماغ. وقد تأكد الفريق من ذلك من خلال استخدام الصور الخفية بشكل عشوائي بحيث تكون غير مرئية أي في جهة لا يمكن للمريض أن يراها إذا فتح عينيه ونظر لسقف الغرفة. فقد وضعت في جهة جانبية".

أجريت الاختبارات الفسيولوجية في مرضى السكتة القلبية وكذلك تقنيات الرصد الدماغي أجروا هذه التجارب لمدة ١٨ شهراً في مستشفيات مختارة في المملكة المتحدة وأوروبا وأمريكا الشمالية على أكثر من ١٥٠٠ حالة نجحت من السكتة القلبية وتوصل الأطباء إلى الأداء المعرفي وحالة العقل البشري أثناء وعقب توقف القلب على حد سواء. وأعلنوا **أن النفس كيان منفصل عن الجسم المادي وأنها تستمر في العمل عندما يتوقف نشاط الدماغ**. وقالوا نحن لسنا عقلنا ولسنا أدمغتنا، أفكارنا، تصرفاتنا، رغباتنا، خططنا، وأهدافنا، وإرادتنا الحرة، وما نحمل من أخلاقيات؛ **كل هذا هو نحن هو أنفسنا. نحن هذا الوعي الذي بدأ منذ ولدنا ولا يزال ينمو ويتطور من خلال تفاعلنا مع الكون. النفس هي كل ما نفعله بوعينا هي ظاهرة سحرية** لم نكن نعرف عنها إلا القليل جداً من وجهة النظر العلمية.

أما إذا درسنا الدماغ البشري فنحن لا نختلف كثيراً في أساسيته عن أي حيوان ضمن المملكة الحيوانية ونحن بيولوجيا متشابهون معها. أما النفس فهي التي تجعل الكائن الإنساني كائناً فريداً من نوعه له قدرة على التطوير اللانهائي. لا يمكن لهذه

الظاهرة المدهشة أن تنشأ من العمليات المادية الجسمية ونحن نعلم بأنه لا توجد خلايا وأجهزة تبين كيف تأتي الأفكار إلينا، ليست الكيمياء الكهربائية ولا الدماغ يولد الأفكار؛ قمنا بوضع الدماغ المدهش تحت المجهر، نعلم أسماء ووظيفة الخلايا، هذه خلية الجوع مثلاً ولكن التفكير ليس مصدره الدماغ، أنا جائع، أنا متعب، أنا سعيد، ليس مصدرها الدماغ. تأتي الأفكار من النفس وتتفاعل مع خلايا الدماغ. إنه شيء مدهش. نشاط الخلايا يرتبط بأفكارنا ولكن لا يخبرنا كيف تأتي الأفكار.

إذاً، فالجسم بالنّسبة للنّفس، أشبه ما يكون باللّباس، فإذا بَلي اللّباس، ولم يعد يصلح للاستخدام تركه الإنسان، وكذلك إذا بَلي الجسم، من خلال انتهاء عمره الافتراضي، أو بفعل فاعل، تقوم النّفس بمغادرة الجسم؛ إذ لم يعد صالحاً لاستمرارها فيه؛ لأنها تفقد عملية الاتّصال والتّواصل مع الواقع، ومن ثم لم يعد لوُجُودها في الجسد البالي، أي مبرر، فالنّفس مخلوق آخر – غير الجسم – لها صفات خاصَّة، وقد خُلقت من غير مادَّة الجسم.

النفس في النص القرآن

إنّ المتتبع لكلمة (نفس) في النّص القرآني، يجد أنها مستخدمة لتدل على **ذات الله؛** قال تعالى:

١- {وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ} (آل عمران: ٢٨).

٢- {فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} (الأنعام: ٥٤).

٣- {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ} (المائدة: ١١٦).

وأتت لتدل – أيضاً – على الإنسان (الكائن العاقل)؛ قال تعالى:

١- {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ} (المدثر: ٣٨).

٢- {لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} (البقرة: ٢٨٦).

٣- {وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً} (الأعراف: ٢٠٥).

بينما لا نجد في النّص القرآني، إطلاق كلمة (نفس) على الحيوانات أبداً، بل ثمة قرائن تدل على نفي وُجُود نفس لها؛ مثل قوله تعالى:

١- {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا} (الطلاق: ٧).
٢- {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ} (المدثر: ٣٨).
٣- {لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} (إبراهيم: ٥١).

نلاحظ من هذه الآيات، أنَّ النّفس محل للتّكليف، والخطاب الإلهي، فهي كائن عاقل، والنُّصُوص تخاطب كل النُفوس دون استثناء؛ نحو قوله تعالى: {يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} (النحل: ١١١).

والحيوانات لا تجادل عن ذاتها، ولا يُوجد لها عمل، حتَّى تُوفاه، وليست هي محلاً للتكليف، ما يُؤكَّد أنَّ الحيوانات لا نفوس لديها، والنّفوس، إنَّما هي للكائنات البشرية خاصَّة؛ لأنَّ النّفخة من الرّوح كانت لهم فقط.

والحيوانات أشبه ما تكون بكمبيوتر، وضعنا له مجسات، تنفعل بالواقع، من حيث الحرارة والبرودة، والصّوت والصّورة... الخ؛ بحيث إذا تعرض إلى برودة أو حرارة، تصدر منه حركة معينة، وإذا تعرض إلى صوت تصدر منه حركة معينة، وهكذا بالنّسبة إلى باقي الأمور، ونظام انفعالها مع الواقع متفاوت تقنيته فيما بينها قوة وضعفاً؛ فمثلاً: نظام انفعال الدلافين والكلاب والشمبانزي أقوى وأرقى من نظام انفعال الحمار، ومع ذلك يبقى انفعال غريزي غير واعي وغير قابل للارتقاء والتطور.

النفس كائن جني

إن القرآن قد أخبرنا عن أصل خلق النّفس، وحَدَّدَ المادَّة التي خُلقت منها. ولتحديد أصل خلق النفس لا بد من دراسة مفهوم الجن أولاً؛ وهذا ما قمنا به في الفصل السابق من هذا الكتاب.

فالنفس هي كائن جني موجود في الجسم البشري، وهي المسئولة عن قيـادة هـذا الجسم.

فأصل مادَّة خلق النّفس، هي مخلوقة من مارج من نـار (طاقـة)، أي مـن خلاصـة اختلاط واضطراب ألسنة النّار الصّاعدة الملتهبة، وصـفة الجنيـة لازمـة لهـا وليسـت عارضة مثلها مثل الملائكة تماماً.

وبذلك صار الإنسان كائناً ترابياً ونارياً بوقـت واحـد، أي جسـم ونفـس، وروح تحكمه.

فالنفس هي طاقة متحولة عن المادة مرتبطة بها، وتظهر من خلالها، لذا؛ أخـذت صفة الطاقة من حيث حركتها وبنيتها، واختلفت عنها بثباتها وعدم تحولهـا إلى مـادة خامدة مرة أخرى بأمر من الرب.

قال تعالى: { خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا } (النساء: ١).

تم خلق النّفس ابتداء من مارج من نار، ومن هذه النّفس الأولى تم خلق زوجهـا، وكلمة (زوج) تطلق على الفرد مـن الـزّوجين، فالواحـد مـنهما زوج؛ لأنـه لا يمكـن وُجُود أحـدهما دون الآخـر، ويشـترط الاخـتلاف في النـوع، فالـذكر والـذكر ليسـا زوجين، وكذا الأنثى والأنثى ليستا زوجين، وإنما هما اثنين، وتطلق أيضاً على الاثنـين المختلفين نوعاً والمتكاملين وظيفة وانسجاماً.

والمقصود من النص القرآني – السابق – هو أن النفس الواحدة خُلق منها الاثنـين المختلفين بالنوع (الزوجان) لا أسبقية لأحد على الآخر، أو تفضيل، والنفس لا تظهر إلا من خلال الجسم (ذكر أو أنثى)، ما يؤكد عـلى أن الـنفس عنـدما دخلـت الجسـم انحكمت بنوعه الذكري أو الأنثوي.

إن خلق النّفس، لم يمر بعملية التّطور، مثل الجسم، وإنَّما هو خلـق مُبـاشر لـنفس واحدة، ومنها تم نفخ النّفـوس في الأجنـة البشريـة، في بطـون أمهاتهـا، وذلـك عنـد

وُصُول الجنين، إلى مرحلة تسوية جسمه، وتعديله وتصييره كائناً بشرياً، عندئـذ تُـنفخ النّفس فيه؛ فيصير إنساناً. ومثل ذلك كمثل الشعلة من النار التـي تؤخـذ مـن شـعلة أخرى، فنستطيع أن نأخذ عدد لا متناهي من الشـعلات دون أن تتـأثر الأولى، وكـل شعلة هي صورة طبق الأصل عن الأولى.

طبيعة النفس هي ذاتها طبيعة النار

معرفة أن النفس خلقت ابتداءً من مارج من النار (الطاقـة)، والجسـم مـن تـراب وماء يساعدنا كثيراً على دراسة النفس وطبائعها، فهي لا تخـرج عـن خصـائص النـار كطاقة، وخصائص التراب والماء كمادة، وعلاقة النفس والجسـم علاقـة جدليـة مثـل علاقة الطاقة بالمادة.

انظر إلى صفات النار مثلا، وكيف تمثلت في طبيعة النفس ؟

١- النار لا تشبع مهما أوقدتها، وكذلك لا حدود لشهوات النفس.

٢- النار سريعة التقلب والتغير، وكذلك النفس فهي مزاجية.

٣- حركـة النـار في صـعود مسـتمر، وكـذلك الـنفس فهـي دائـماً تسـمو للأعـلى والأحسن.

٤- النار ضعيفة جداً، فإذا منعت وصول الهواء إليها تنطفئ بسرعة، بل وتختنـق إذا زاد سرعة الهواء الموجه إليهـا، وتـبرد بالمـاء وتنطفـئ، وكـذلك فـوران الـنفس وثورانها سرعان ما تنطفئ أو تهدأ إذا قام الإنسان بغسل جسمه أو بعضه بالمـاء، أو تعرض لتيار هواء قوي، أو إن قام أحد بتغطيته أو عزلـه عـن السـبب الـذي أثاره وأغضبه !..

٥- النار إذا لم تمدها بوقود تنكفئ تأكل بعضها، وكذلك النفس إذا لم تمدها بـالعلم والثقافة وتُشغلها بالعمل؛ تنكفئ على ذاتها، وتأكل نفسها، وتُعيد الماضي وتجتره إلى أن تُصاب بحالة اكتئاب شديدة تؤدي إلى موت صاحبها نفسـياً مـن خـلال فقدانه للفاعلية وللإيجابية والتقدم، وينعدم في نفسه مبرر الاسـتمرار في الحيـاة،

وقد يُقدم صاحبها على التخلص من الحياة بالانتحار، وذلك بتعطيل صلاحية الجسم فتضطر النفس لمغادرته.

٦- النار سريعة الالتئام والاتصال بين ألسنتها إن مرَّ شيء خلالها، وكذلك النفس فأي حدث سلبي سرعان ما تتجاوزه وتتابع تواصلها واستمرارها، إلاّ إن أوقف صاحبها هذا التفاعل الإيجابي وأرجعها إلى الخلف، وأوقف الزمن عند الحدث وعاش فيه، فتصير حركته ماضوية، وتبدأ الفيروسات النفسية بالتكاثر.

صفات النّفس [١]

(المجلدات الموجودة في نظام النّفس)

١- النفس قابلة لأن تُزكى أو تُدسَّى:

قال تعالى: { وَنَفْسٍ وَمَا **سَوَّاهَا** (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن **دَسَّاهَا** (١٠) } (الشمس).

إذاً، النفس فيها قابلية ثنائية، يمكن أن تكون نفساً صالحة، وذلك بتزكيتها، ويمكن أن تكون نفساً سيئة شريرة، وذلك بتدسيتها.

٢- النفس فيها شهوات وهوى:

حينما نستخدم كلمة النّفس؛ فلا يقصد بها النفس كلها، بل جانب قائم فيها، قال تعالى:

{ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ } (يوسف:٥٣).

{ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ } (المائدة: ٣٠).

---

(١) سامر إسلامبولي، دراسة إنسانية في الرّوح والنّفس والتّفكير، ص ١٠٣ – ١٠٩ .

{ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } (التغابن: ١٦).

{ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (الزخرف: ٧١).
لاحظ كيف تأتي الشّهوة للنّفس، واللّذة للأعين وهي عضو من الجسم.

{ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ} (النجم: ٢٣).

٣- النّفس هي محل الحياة، والموت، والقتل:

قال تعالى: { اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } (الزمر: ٤٢).

الوفاة للنفس تكون بحالتين: الأولى: حين الموت، ويتم إمساكها. والأخرى: حين المنام ويتم إرسالها. فمن المعلوم أنَّ النّوم هو كالموت، والإنسان النّائم هو حي ولكنه في حالة سُبات، ما يُؤكّد أنَّ الكلام هو على النّفس، فهذه النّفس عند رؤيتها للمنام وهذا لا يكون إلا في حالة نوم الجسد، تفقد تواصلها – مع الواقع – بصُورة جزئية، فتنكفئُ على الذّات، من خلال تذكر الأفعال السعيدة أو الشقية، ويمكن أن تغادر الجسم برهة من الزّمن دون انفصال عنه تماماً، ثمَّ تعود إليه.

فالخالق – سبحانه – هو الذي يجمع النّفوس، بعد أن تخرج من الأجسام في مكان معين إلى يوم القيامة، وموت النّفس؛ هو فصلها عن الجسم وليس فناءها.

قال تعالى: { وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } (الأنعام: ١٥١).

وتُقتل النّفس[1] ، بسبب إصابة الجسم بعطل قاتل، كفصل الرّأس عن الجسد، فتخرج النّفس بهذا السّبب؛ لانتفاء صلاحية الجسد من بقائها وتفاعلها مع الواقع، ومن ثمَّ، فقد أذهب القاتل فرصة حياة النّفس في الحياة الدنيا؛ لهذا يعاقب من نوع عمله، وهو إذهاب فرصته في الحياة، أو يُفرض عليه إحياء عدة نفوس ثقافياً وعلمياً، أو حمل مسؤولية أسرة القتيل، بمعنى آخر **ينبغي أن تُلغى فاعلية حياة القاتل لمصلحته، وتُحَوَّل لمصلحة المجتمع فقط.**

٤- النّفس قابلة للتّغيير (مجلد التّغيير):

قال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ } (الرعد: ١١).

إن النّفس، إذ تُشَبَّه بنظامٍ معلوماتي (أسس وقواعد) ما يعني أن ثمة قسماً ثابتاً، لا يستطيع الإنسان أن يُغيّره، وهو مجلدات النّظام الأساسية التي وضعها الخالق – سبحانه – في الإنسان، وثمة قسم آخرُ متغيرٌ؛ هو في إمكانية الإنسان وتصرفه، فيقوم باستخدام هذه البرامج، وتعبئتها بالمفاهيم، التي يريدها الإنسان ليُسيّر نفسه بحسبها، فمن وضع مفاهيم الشّر، يصدر منه سُلُوك شرير، ومن وضع فيها مفاهيم الخير، يصدر منه سُلُوكٌ صالحٌ (الرام والروم في جهاز الكمبيوتر).

إذاً، يستطيع الإنسان، أن يُعيد بناء نفسه من جديد (فرمتة Format)، ويحتفظ بالمفاهيم الجيدة والصّالحة، ويستبعد السّيئة، وهذا العمل غير مُرتبط بعمر الإنسان، من كونه صغيراً أو كبيراً، مع العلم؛ أن قِدم الخطأ واستمراره، يزيد الأمرَ صُعُوبة وإرباكاً، ما يقتضي طول المدة ومضاعفة الجهد في عملية التّزكية (فرمتة وتحديث) ثم – بعد ذلك – يُكيِّفُ سُلُوكه حسب المفاهيم الصواب، ومن الممكن أن تُصاب بمرض (فيروس) يؤثر في نظامه النّفسي فتتعطل نفسه، وتخبث.

---

(١) قتل النفس نوعان: مادي من خلال إهلاك الجسم، ومعنوي من خلال إهدار الكرامة أو تقييد الحرية.

قال تعالى: { فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ } (البقرة: ١٠).

٥- النّفس المجادلة (مجلد الإدراك):

قال تعالى: { اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا } (الإسراء: ١٤).

قال تعالى: { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } (النمل: ١٤).

٦- النّفس صاحبة الإرادة (مجلد الإرادة):

قال تعالى: { وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١) } (النازعات).

٧- النّفس المطمئنة (المتوازنة بين قواها):

قال تعالى: { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) } (الفجر).

وهذا التّوازن، يكون إذا صدر سُلُوك الإنسان، بصُورة منسجمة مع الإدراك، والإرادة، والشّهوات، والشعور، مسيرين كلهم بالمفاهيم الرّوحية (شرع الله، والعلم).

٨- النّفس هي محل التّكليف والخطاب:

قال تعالى: { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } (البقرة: ٢٨٦).

ووُسعُ الإنسان – في الواقع – له جانبان:

الأول: جانبٌ متعلق بالقدرات الفهمية، والشعور والإرادة (النّفس).

الثاني: جانبٌ متعلق بالمقدرة الجسمية.

٩- النّفس هي محل العلم (مجلد المعلومات):

قال تعالى: { تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ } (المائدة: ١١٦).

قال تعالى: { فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } (السجدة: ١٧).

١٠- النّفس هي محل الجهاد:

قال تعالى: { الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ } (التوبة: ٢٠).

إن الجهاد بالمال، هو بذله في سُبل الخير، وأعظمها؛ ما كان في سبيل تحرير الإنسان من الظّلم، والاستبداد، والجهل، والتّخلف، ونقله من حالة الانفعال؛ إلى حالة التّفاعل والفاعلية، والجهاد بالنّفس، هو تسيير النّفس بالرّوح (شرع الله، والعلم) وتزكيتها، وتعليمها، ونهيها عن الهوى، والوُصُول بها إلى مرحلة الاطمئنان، والقيام بفاعلية في توعية النّاس، ونشر الحق فيما بينهم، وحضهم على فعل الخير، والأخذ بيدهم نحو الحضارة، ومحاربة الفساد والرّذيلة والفحشاء...الخ، هذا الأصل العام في جهاد النّفس في الخطاب القرآني، أما الاستثناء فهو القتال (آخر الطّب الكي) فهو يشبه عملية جراحية؛ لاستئصال ورم خبيث لم تنجح معه محاولات العلاج، ورفضها، ووُجُوده يُؤديَّ إلى هلاك الجيم، وزهق الحياة؛ فمن منطلق المصلحة العامَّة والحفاظ على الحياة، يضطر الإنسان كمجتمع لأن يقبل القتال وهو كاره له، لأن الطرف الآخر المعتدي لم يترك له الخيار السلمي، ويكون على أضيق سبله وبأقل الأضرار الممكنة، وينبغي العلم **أن القتال ليس وجباً بذاته، وإنما هو واجب عارض وظرفي،** ومن هذا الوجه يقال: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) وليس هذا القول إعطاءَ أفضلية وقدسية لأحدهما دون الآخر، لأن كل صُور الجهاد فاضلة وجيدة في مكانها

ودورها، والمقصود بالقول السّابق، هو **أنَّ الصورة الأولى للجهاد، جهاد تزكية النّفس، وفاعليتها في المجتمع، هي الدّائرة الكبرى والأصل في الحياة، أما الصّورة الأخرى (القتال)**[1] **فهو عارض مؤقت، وليس أصلاً يستوعب الحياة، فسرعان ما تنتهي هذه الصّورة، ويعود الإنسان إلى الأصل (الجهاد الأكبر)؛ لأنَّ الأصل في علاقات النّاس هو السّلم، وليس الحرب.**

١١- النّفس اللّوامة (الضّمير):

قال تعالى: { وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ } (القيامة: ٢).

النّفس اللوامة، هي التي تلوم صاحبها – دائماً – على ما يعمل من أفعال غير منسجمة، مع مفاهيم الخير والحق، فيتدخل قسم الإدراك والمعلوماتية، والمفاهيم والعقل، يوبخون الإنسان، ويلومونه على فعله الشّنيع، وتركه للشّهوات والهوى، يتحكمان في النّفس، عوضاً عن الإدراك والعقل والمفاهيم، فهو في حالة لوم دائم؛ لا يعرف الاستقرار والاطمئنان النّفسي أبداً.

١٢- النّفس العاقلة (مجلد العقل):

قال تعالى: { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } (البقرة: ٤٤).

١٣- النّفس المفكرة (مجلد التّفكير):

قال تعالى: { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ } (الروم: ٨).

---

(١) أن كلمة (القتال) تدل على علاقة بين طرفين مثل العراك، والملاكمة، والمصارعة، ووجود الإرادة للقتال منهما شرط له، وإن انتفت عن أحدهما انتفى مفهوم القتال، وصار اعتداء من الجهة البادئة، ودفاعاً للجهة التي لم ترد القتال، مثل الاعتداء الصهيوني اليهودي، ودفاع الشعب الفلسطيني.

١٤- النّفس هي محل الكفر والإيمان:

قال تعالى: { هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ } (الأنعام: ١٥٨).

١٥- النّفس هي محل الجزاء (ثواب وعقاب):

قال تعالى: { وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } (الجاثية: ٢٢).

قال تعالى: { وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ } (الزمر: ٧٠).

والجزاء للنّفس الفاعلة، وهذا لا يمكن – في الواقع – إلا إذا كانت النّفس متموضعة في الجسم؛ لأنَّ النّفس – بواسطته – تتواصل وتعمل، وهذا يُؤكّد أنَّ الثّواب والعقاب (الجنة والنّار) في الآخرة للنّفس المتموضعة في الجسم (شهوة ولذة) أو (حرمان وألم)[1].

١٦- النّفس الأمّارة بالسوء:

قال تعالى: { وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ } (يوسف: ٥٣).

بما أنَّ النّفس مخلوقة نارية – من حيث الأصل – فلها صفات النّار، من حيث حركتها نحو الأعلى، واضطرابها وتداخلها في بعضها؛ فالنّفس تريد التّحليق عالياً، والانتقال من مكان إلى آخر دون مسؤولية أو رقيب، وأن تفعل ما يحلو لها دون توقف، ولكن وُجُودها اللازم في الجسم، يُكبل حركتها ويشدها إلى الأرض؛ لأنَّ

(١) الجسم في الآخرة يتناسب مع القوانين الجديدة.

الجسم مخلوق من تراب؛ فهو مُرتبط به، فتضطر النّفس أن تتحرك حسب قوانين الجسم، فتقوم باستخدامه وتحاول أن تحصل على شهواتها اللامتناهية، من خلال الجسم المحدود بقدراته، فيضعف الجسم، عن تحقيق هذا الإشباع اللامتناهي للشّهوات، فتنكفئ النّفس على ذاتها، تنتظر من الجسم أن يستعيد قواه المادِّيَّة.

أنَّ النفس أشبه ما تكون بفارس، يقود فرسه الذي هو الجسم، فإن هلك الفرس؛ فقد الفارس حركته وفاعليته.

وما تم ذِكره عن النّفس، ليس للحصر، وإنَّما ذكرت الصّفات الغالبة والمشهورة، لإيضاح النّفس ودورها مع الجسم.

هل الإنسان عبد جيناته ؟

هل الإنسان مُسَيَّر أم مُخَيَّر ؟ لا شك في أن ذلك السؤال يُمثل **معضلة حرية الإرادة الإنسانية.**

ومن أجل أن نفهم الطرح لحرية الإرادة ينبغي أن نفرق بين أنواع الأفعال الثلاثة:[1]

١- **الأفعال التلقائية:** تنشأ لا إرادياً من داخل الكائن، وليست عرضة للقهر والإجبار الخارجي، كالنمو ودقات القلب، وعادة لا نكون على وعي بها.

٢- **الأفعال الإرادية**: وهي التي تصدر من داخل الكائن ويمارسها بإرادته، ويشعر بأن لها نهاية، وتشمل الرغبات الفطرية الواعية، كعملية تناول الطعام.

٣- **الأفعال الإرادية المطلقة:** وتشمل الأفعال المختارة التي تقبل التنفيذ أو الامتناع، كشراء هذا العقار أو ذاك.

ومن ثم، فإن **السمة الأصلية للفعل الحر هي عنصر الاختيار؛** هل أفعل أو لا أفعل (أقاوم) ؟ هل أقوم بهذا الفعل أم أقوم بفعل آخر ؟ هل أقبل أم أرفض ؟

وقد يبدأ تسلسل ما من الأفكار أو الاختيارات كاختيار حر، ثم يستمر تلقائياً، مثل قيادة السيارة. إن هذا الفعل يظل في إطار الأفعال الحرة، ويصبح الإنسان مسئولاً عن الفعل جميعه، بالرغم من استمراره تلقائيّاً.

وعليه يمكن تعريف **(حرية الإرادة):** بأنها **قدرتي على الاختيار بين بدائل، في الوقت الذي يمكنني فيه أن أقوم باختيار آخر.**

---

(١) د.عمرو شريف، الإلحاد مشكلة نفسية: علم نفس الإلحاد، ط ١، نيو بوك للنشر والتوزيع – القاهرة، ٢٠١٦م، ص ٣٦٠ – ٣٦١ .

من ثَمَّ، يصبح السؤال المحوري حول حرية الإرادة هو:

إذا توافرت كل المقدمات والظروف المطلوبة للقيام بفعل ما، فهل سنقوم بهذا الفعل حتماً ؟

وهناك صياغة أخرى للسؤال:

هل كل اختياراتنا حتمية للأسباب والدوافع التي تؤثر فينا في لحظة ما ؟

يجيب **الجبريون والحتميون** عن السؤالين بـ **"نعم"**.

عقيدة الحتمية البيولوجية

إن **"الحتمية"** اصطلاح عام شامل، يستخدمه أنصاره **في جميع مناحي الحياة،** ويعني أن كل أحداث العالم تقع نتيجة لأحداث سابقة عليها، ومن ثم **لا جديد تحت الشمس.** وإذا كان هذا المفهوم صحيحاً، فإن ذلك يعني إمكانية التنبؤ بأحداث المستقبل، بل وتصبح تلك الأحداث معلومة كأحداث الماضي. ومن أهم انعكاسات هذه العقيدة **اعتبار أن الحرية الإنسانية مجرد توهمات،** ويستتبع ذلك تتابعات خطيرة على الأخلاق والقانون والدين.[1]

ويرى بعض البيولوجيين أن هناك **حتمية جينية،** أي أن سلوكي تفرضه جيناتي.

يقول الدكتور (جون ريتشارد كريبس John Richard Krebs)[2]: "الحتمية الجينية هي فكرة أن إذا كان هنالك جين للإيثار أو هنالك جين أخر لنوع أخر من

(١) د.عمرو شريف، الإلحاد مشكلة نفسية: علم نفس الإلحاد، ص ٣٦٦ .

(٢) (ولد في ١١ أبريل ١٩٤٥، شيفيلد، انجلترا) هو عالم الحيوان الإنكليزي والباحث في مجال علم البيئة السلوكية للطيور. وكان أول رئيس وكالة المعايير الغذائية البريطانية (٢٠٠٠-٢٠٠٥). وكان مدير كلية يسوع، أكسفورد من عام ٢٠٠٧ وحتى عام ٢٠١٥. وهو حاليا رئيس الجمعية العلمية البريطانية.

السلوك هذا يعني بطريقة ما أن تلك الجينات تحدد كل شيء داخل أجسامنا وطريقة سلوكنا، وليست لدينا الحرية لتغيير الأشياء، ليس هنالك إرادة حرة".[١]

وتقول الدكتور (هيلينا كرونين Helena Cronin)[٢]: "أنها فكرة أن الجينات هي من تتحكم بالمشهد، إذا كان لدينا الاستعداد الطبيعي لأن نكون أشرار عندها سنكون أشرار بطريقة ما ولا يوجد هنالك شيء يمكن أن نفعله. هذا سوء فهم كبير جداً ليس هنالك بالتأكيد أي سلوك ثابت حول سلوكنا، أنظر حولك يمكننا أن نرى أنه ليس ثابت أن نرى أننا نستجيب بطرق مختلفة".[٣]

لعل أكثر جوانب العلم ارتباطاً بمجادلة الحرية والحتمية هو مفهوم **"الحتمية الجينية"**[٤]، والتي تعني أن الجينات التي نرثها عن والدينا تحدد جميع صفاتنا. وإذا

---

(1) Documentary: Beautiful Minds, Richard Dawkins, BBC Four, 25th April 2012.

(٢) هي المدير المشارك لمركز فلسفة الطبيعية والعلوم الاجتماعية ومركز داروين في كلية لندن للاقتصاد.

(3) Documentary: Beautiful Minds, Richard Dawkins, BBC Four, 25th April 2012.

(٤) يتردد في مجال الدراسات الجينية اصطلاحان لهما علاقة بمجادلة الحرية والحتمية.

الاصطلاح الأول هو: "الثبات الجيني Genetic Fixity". ويعني أن الجينات تحدد نشأة الكائنات، فالفرق البيولوجي بين كائن وآخر هو فرق جيني، ومن ثم فإن معرفة جينوم الكائن تمكننا من معرفة نوعه (إنسان أم شمبانزي) والتنبؤ بسلوكه. وبالرغم من ذلك فإن معرفة جينوم الوالدين لا تمكننا من التنبؤ بصفات الأبناء، فهناك عوامل بيولوجية عديدة تُعجز عن الحصر (يطلق عليها الماديون اصطلاح الصدفة !) تلعب دوراً كبيراً في تشكيل الإنسان. ومن ثم فالثبات الجيني لا يفرض على نشأة الإنسان أية حتمية.

والاصطلاح الجيني الثاني هو: "السعة الخِلْقية Innate Capacity"، وتعني أن الناس كالأوعية التي تنتظر ملئها، فمن سعته كبيرة يستوعب أكثر من غيره، فنجد من الناس مَن هم معتدلي القوام ومَن هم أقل ومَن هم أكبر. ولا شك أن لإمكانيات الطبيعة الدور الأكبر في ملئ السعة الخِلقية، فإذا كانت الموارد قليلة كان الجميع فقراء ومن ثم ضعفاء، وإذا كانت الموارد غزيرة امتلأ كل وعاء تبعاً للسعة.

وتبعاً للعاملين السابقين (الثبات الجينية والسعة الخِلقية) تتحدد "الاختلافات الإحصائية". فنجد – مثلاً – أن معدل الذكاء تحدده عوامل وراثية بنسبة ٨٠ % وعوامل بيئية مكتسبة بنسبة ٢٠ % وكانعكاس للعوامل المكتسبة نجد – مثلاً – أن تلميذ المدرسة الابتدائية المعاصر أقدر على إجراء الحسابات الرياضية من أكثر علماء الرياضيات القدامى ذكاء ! فهؤلاء كانوا يتعاملون بالأرقام

كانت الحتمية الجينية صحيحة على مستوى بنية الجيم الإنساني ووظائفه، فالحتميون يوسعون استخدامها لتشمل أيضاً **منظومتنا الأخلاقية والسلوكية،** ويعتبرون أننا نرقص على أنغام شفراتنا الوراثية، ومن ثم فنحن **عبيد لجيناتنا.**[١]

وكان من العلماء الذي أثارت حولهم الشُبهات في قولهم أن الإنسان عبد لجيناته هو العالم البيولوجي – الشهير بنشره للإلحاد وعدم الاعتراف بوجود الإله – **"ريتشارد دوكنز"**. في نشره لكتابه الشهير المعنون باسم: **(الجين الأناني The Selfish Gene).**

يقول (ريتشارد دوكنز): "أسميت الكتاب "الجين الأناني" لأنه لو كان أي شيء ذو كيان أناني يسعى لزيادة فرص بقائه، فهو الجين؛ لا يمكنك أن تتحدث عن الكائن الأناني، المفرد الأناني، لأنه في أغلب الأوقات وفي كثير منها، تكون كائنات إيثارية؛ أنها منقادة لكي تكون ايثارية بواسطة الجين الأناني".[٢]

يقول (أرماند ماري روي Armand Marie Leroi)[٣]: "كانت رؤيته **أننا مجرد آلات لجيناتنا، أنها اهتمامات الجين هو ما يهم وليس نحن؛** وهذا كما أوضح هو له عواقب غير متوقعة، في طريقة تفكيرنا، نتائج جديدة فيما يتعلق بتفكيرنا عن السلوك البشري".[٤]

= اليونانية الصعبة (I II V IX) التي تخلو من الصفر. إن هذا المثال يجسد دور العوامل البيئية ويقلل من دور العوامل الجينية.

(١) د.عمرو شريف، الإلحاد مشكلة نفسية: علم نفس الإلحاد، ص ٣٦٧ – ٣٦٨ .

(2) Documentary: Beautiful Minds, Richard Dawkins, BBC Four, 25th April 2012.

(٣) (من مواليد ١٦ يوليو ١٩٦٤، ويلينغتون، نيوزيلندا)، مذيع، وأستاذ علم الأحياء التنموي التطوري في كلية امبريال في لندن.

(4) Documentary: Beautiful Minds, Richard Dawkins, BBC Four, 25th April 2012.

ويقول "ريتشارد دوكنز"[١]: "لم ولن أقل أبداً، عن وجود نوع من العلاقة الذرية، بين الجينات والهيئة الحقيقية للجسم، وسلوك الجسم وما يفعله. أنه هراء؛ لم أقل ذلك وبالتأكيد لا أعتقد بذلك ولم أفكر بذلك. **تأكيدي على الجينات هو تأكيد على الدور التطوري، على موقع الجين في سلم الحياة، والتي يتصرف فيها الانتخاب الطبيعي؛ أنه الجين من يبقى على قيد الحياة أو لا..** هذا هو تأكيدي على الجينات".[٢]

عندما سُئل "ريتشارد دوكنز" هذا السؤال: **لقد استغل الناس الكتاب واستخدموه كتبرير فلسفي لتيارات اليمين المتطرف، ما هو ردك على ذلك ؟**

رد قائلاً: "إلى حد كبير يعتبر الانتخاب الطبيعي غير مرغوب به سياسياً، وهو كذلك نوعا ما؛ أعنى، إذا كنت ستعيش حياتك كما لو كنت تسعى بصورة دائمة لنجاح هدف الداروينية، فإن العالم السياسي الذي سيكون من نتاج الداروينية، سيكون عالم بغيضا؛ يضطهد فيه الأقوياء الضعفاء. يمكننا أن نحرر أنفسنا سياسياً بالقول: أريد أن أعيش في مجتمع، بعيد كل البعد عن الداروينية والانتخاب الطبيعي. أنا دارويني شغوف، أؤمن **أن الانتخاب الطبيعي الذي اقترحه داروين، هو ما يمنحنا أجسامنا وعقولنا، لكني أؤمن أيضاً أن عقولنا أصبحت كبيرة بما فيه الكفاية، بحيث نستطيع أن نتمرد ضد ذلك!"..**[٣]

---

(١) (ولد في ٢٦ مارس ١٩٤١ في نيروبي، كينيا) هو عالم بيولوجيا تطورية وكاتب أدبيات علمية بريطاني. التحق دوكينز بجامعة أكسفورد عام ١٩٥٩ وتخرّج بشهادة البكالوريوس في علم الحيوان عام ١٩٦٢، وحصل من نفس الجامعة عام ١٩٦٦ على شهادتي الماجستير والدكتوراه تحت إشراف عالم الإيثولوجيا الحائز على جائزة نوبل في الطب (نيكولاس تينبيرغن)؛ في الفترة من ١٩٦٧ وحتى ١٩٦٩، عمل دوكينز كمحاضر مساعد في علم الحيوان في جامعة كاليفورنيا في بيركيلي بالولايات المتحدة. عاد دوكينز إلى جامعة أكسفورد عام ١٩٧٠ حيث عمل كمحاضر في علم الحيوان. إلى جانب أعماله في البيولوجيا التطورية، دوكنز يقدم نفسه على أنه ملحد، إنساني – علماني، شكوكي، وعقلاني علمي. وهو من أبرز منتقدي نظرية الخلق ونظرية التصميم الذكي. له الكثير من المقابلات في التلفزيون والراديو.

(2) Documentary: Beautiful Minds, Richard Dawkins, BBC Four, 25th April 2012.

(3) Documentary: Beautiful Minds, Richard Dawkins, BBC Four, 25th April 2012.

ويُضيف "ريتشارد" بقوله عن عنوان كتابه: **أفكر مع نفسي- أحياناً، ربما كان العنوان خاطئاً !..**

أكذوبة الجين الأناني

إذا أردنا أن نعرف وجهة نظر البيولوجيين المتخصصين فيما طرحه "ريتشارد دوكنز" في كتابه "الجين الأناني"، وأيضاً معرفة وجهة نظر العلم فيما طرحت من اعتراضات، فلنرجع إلى أحد العلماء المتخصصين في بحوث الخلية، إنه (د.بروس ليبتون Bruce Harold Lipton)[1] ، وهو من الرواد الذين وضعوا أسس ما يُعرف بعلم "البيولوجيا الجديدة للخلية New Cell Biology".

يقول (د.بروس): "كنت عالماً بيولوجياً في (جامعة ويسكونسون) في استنساخ خلايا العضلات البشرية. لقد كنت أخرج الخلايا من البشر وأقوم بزراعة الأنسجة، وأقوم بدراسة الخلايا الفردية، سعياً وراء فهم ما يتحكم في قدرها ؟ ما الذي يجعلها متصنعة أو مريضة ؟ وما الذي يجعلها طبيعية في أثناء عملية التحكم ؟".[2]

ويضيف قائلاً: "في أعمالي خلال دراساتي العليا كنت أستنسخ الخلايا الجذعية في عام ١٩٦٧ م، وأثناء قيامي بهذا البحث كنت أُدرس أيضاً طلاب الطب، أسس عمل الخلايا، القصة التقليدية في الكتب أن الجينات تتحكم بالحياة وما نسميه بـ (التحديد

---

(١) (من مواليد ٢١ أكتوبر ١٩٤٤، في ماونت كيسكو، نيويورك). هو عالم الأحياء التنموي الأميركي، وهو باحث سابق في كلية جامعة ستانفورد للطب. في عام ١٩٦٦، تلقى ليبتون ليسانس في علم الأحياء من C.W. من جامعة لونج أيلاند وعلى درجة الدكتوراه في علم الأحياء التطوري من جامعة فرجينيا في عام ١٩٧١. وفي عام ١٩٧٣، كان يُدرس علم التشريح كأستاذ مساعد في كلية الحقوق بجامعة ويسكونسن الطب، قبل أن يأتي من الجامعة الأمريكية كلية الكاريبي الطب، حيث كان أستاذا لعلم التشريح لمدة ثلاث سنوات. ومن أشهر كتبه:

- The Biology of Belief - Unleashing the Power of Consciousness, Matter & Miracles, 10th anniversary edition (2015).

(٢) قال هذا الكلام في محاضرة له بعنوان: (بيولوجيا المعتقدات The Biology of Perception).

الجيني)، الاعتقاد أنّ الجينات تتحكم بسلوكك وصفاتك الجسدية وما إلى ذلك، وما يكشفه بحثي عندما كنت أدرس الخلايا الجذعية هو التالي: وضعت خلية جذعية في علبة (بتري) وحدها وكانت تنقسم كل ١٠ إلى ١٢ ساعة. وهكذا، تصبح خليتان، أربعة، ثمانية، ستة عشر، أثنين وثلاثين خلية. وبعد أسبوعين يكون لديّ آلاف الخلايا في علبة (بتري)، لكن ما كان فريداً كانت جميعها متطابقة جينياً. لكن أجربت تجربة وكانت بإخراج بعض الخلايا الجذعية من العلبة ووضعها في علية منفصلة فيها بيئة مختلفة وكانت البيئة مستنبتاً، لكن المستنبت بالنسبة إلى الخلايا مثل العالم الذي نعيش فيه يتضمن الهواء والماء والطعام وكل شيء فيه.

لذا، أخرجت الخلايا من علبة الخلايا الجذعية ووضعها في علبة مختلفة في بيئة مختلفة وشكلت الخلايا عضلة. ثم عدت إلى العلبة ذاتها التي فيها خلايا متطابقة جينياً وأخذت بعض الخلايا ووضعتها في بيئة مختلفة وشكلت عظم. ثم عدت إلى العلبة التي فيها خلايا متطابقة جينياً ووضعتها في علبة ثالثة في بيئة مختلفة وشكلت خلايا دهنية. وها أنا يواجهني هذا الواقع جميع الخلايا كانت متطابقة جينياً لكن كان لديها مصير مختلف (دهن وعضل وعظم)؛ وطرحت على نفسي سؤالاً بسيطاً ماذا يتحكم بمصير الخلايا ؟

وكانت الإجابة هي البيئة، كانت الشيء الوحيد المختلف لأنها كانت جميعاً متطابقة جينياً. فقلت لنفسي: "يا إلهي ! ها أنا أُدرس أن الجينات تتحكم بالحياة لطلال الطب، لكن الخلايا تظهر لي أنّ لها كلها الجينات ذاتها لكن البيئة التي وضعتها فيها تؤثر".

لذا، تتحكم البيئة بحياتها. وتجربة بسيطة مهمة جداً بالنسبة إلينا اليوم؛ إذا أخذت طبق (بتري) فيه خلايا ونقلته من بيئة صحية إلى بيئة أقل صحة فتمرض الخلايا. ولو كنت طبيب خلايا لفكرت في الدواء الذي يجب أن أعطيها إياه؛ لكن تبين أنّه لا تعطي

الخلايا دواء بل تنقلها من البيئة السيئة وتعيدها إلى بيئة جيدة وستتعافى الخلايا بطريقة طبيعية".[١]

ويضيف قائلاً: "الأبحاث قادتني إلى بصيرة، أنه إدراك البيئة هو الذي يتحكم في الخلية. واتضح أن معتقداتنا هي التي تنتقي جيناتنا، وتنتقي سلوكنا".[٢]

كما يقول: "لقد تَكَشَّفَت للعلم الحديث منذ العقد الأخير من القرن العشرين معارف قلبت الكثير من مفاهيمنا البيولوجية التقليدية رأساً على عقب. فلقد **ثبت أن الوسط المحيط (البيئة) بظروفه الطبيعية وما فيه من طاقات، وكذلك المتغيرات الداخلية في جسم الإنسان هي المنظم لنشاط خلايانا،** لذلك فإن **وعي الخلية بما حولها وبما داخلها هو المتحكم الأول في حياة الخلية.** وبذلك **وقف دور الجينات الأساسي عند توجيه بناء الخلايا والأنسجة والأعضاء**".[٣]

بناء على المفاهيم السابقة، تأسست **"البيولوجيا الجديدة New Biology"**، التي تقوم على علمين جديدين تماماً: الأول هو **"علم التحكم في الجينات Epigenetics"**، ويقوم بدراسة آليات تأثير البيئة (الداخلية والخارجية) على نشاط الجينات (تنشيط، كبت، تعديل نشاط) دون تغيير بنية الجينوم، وتُعرف هذه التعديلات بـ **"التعبير الجيني Gene Expression"**.

والعلم الثاني هو **"علم تحويل الإشارات Signal Transduction"**، الذي يهتم بدراسة التفاعلات الكيميائية داخل الخلية، والتي تستجيب بها الخلية للمتغيرات، البيئية، وتؤثر بشكل مباشر على التعبير الجيني.

---

(١) قال هذا الكلام في لقاء تليفزيوني له بعنوان:

- Bruce Lipton, The Power of Consciousness, Interview, by: Iain Mcnay, Conscious.TV, 15/08/2010.

(٢) قال هذا الكلام في محاضرة له بعنوان: (بيولوجيا المعتقدات The Biology of Perception).

(٣) د.عمرو شريف، الإلحاد مشكلة نفسية: علم نفس الإلحاد، ص ٣٩٧.

ويقول "د.بروس": "إذن، هناك علم جديد، وأدوات جديدة متاحة لنا. في السابق كنا نقول ونعتقد أن النواة هـي مركـز القيـادة للخليـة، لأنهـا تحتـوي عـلى الجينـات، والجينات تتحكم بك. لكن الواقع هو: إذا أخرجت النواة من الخلية، لن تتأثر الخليـة بأي شكل من الأشكال. يمكن للخلية أن تعيش لشـهرين قـادمين بـدون وجـود أي جينات بداخلها على الإطلاق؛ وهي لن تكون موجودة فقط، لكن ستقوم بكـل شيء كانت تقوم به قبل إخراج النواة. سوف تتحرك وتتواصل مع الخلايا الأخرى وتأكـل وتنمو، وتتمكن من أخراج الفضلات وتبني بناءهـا وتـدرك السـموم وتبتعـد عنهـا وتدرك الطعام وتتحرك تجاهه.

أنني أن أخرجت كل الجينات من الخلية، لن أؤثر على سلوكها بأي شكل. مما يعني هذا، النواة لا يمكن أن تكون مركز القيادة للخلية، لأن الخلية لا يـزال لـديها القـدرة عــلى الــتحكم بــدون النــواة. فالنتيجــة النهائيــة هــي أن الجينــات لا تــتحكم في البيولوجيا".[1]

أين مخ الخلية ؟

ويقول "د.بروس": الخلية هي آلة مصنوعة من أجزاء والأجزاء تتفاعل مع بعضها البعض لتصنع الشيء المعقد الذي ندعوه "الحياة". هناك حوالي مـن ٧٠ إلى ٩٠ ألـف أجزاء من البروتينات التي تصنع الإنسان. كل البروتينـات مرتبـة في سلسـلة خطيـة، وكل بروتين هو حلقة في هذه السلسـة. الحلقـات الصـغيرة هـذه تـدعى "الأحمـاض الأمينية"، وهي كتل بنائية لبناء البروتينات.

إذن، ما الذي يصنع الفارق بين (٧٠) إلى (٩٠) ألف من البروتينات المختلفة ؟

أولاً: طول السلسلة، عدد الأحماض الأمينية بداخل السلسلة، والتي تختلـف مـن بروتين إلى أخر.

---

(١) قال هذا الكلام في محاضرة له بعنوان: (بيولوجيا المعتقدات The Biology of Perception).

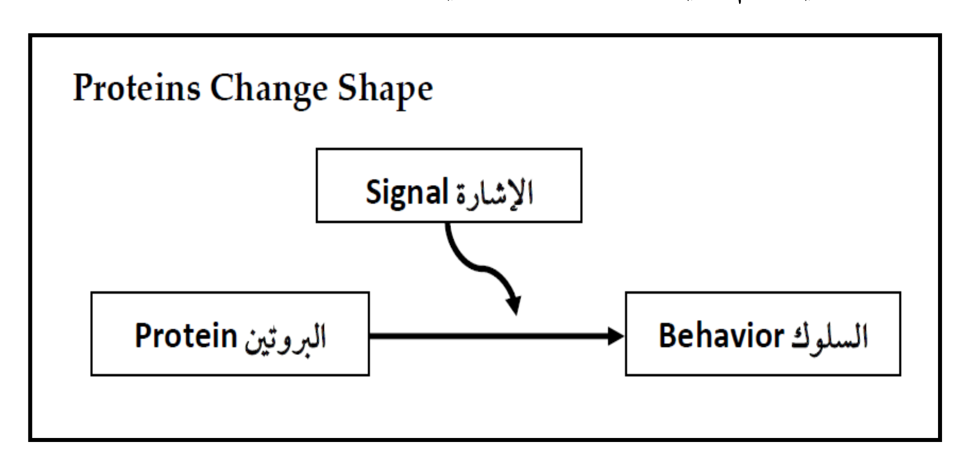
ثانياً: تسلسل الألـوان، والـذي يمثـل الأحمـاض الأمينيـة المختلفـة التـي تصـنع خصائص البروتين.

إذا صنعت جسد من البروتينات فقط؛ حينها، سأكون عبارة عـن تمثـال بـدلاً مـن أكون مصنوعاً من الأنفاس، ليست هناك حياة.

من أين تأتي الحياة ؟ وما هي الحياة ؟

الحياة هي حركة البروتينات. البروتينات تتحرك، وحين تغير شـكلها يمكنهـا أن تقوم بالوظائف؛ البروتينات تمدني بالبناء المادي، لكنها يمكنها أن تغير الشـكل حـين ترتبط **أشارة** بهذا البروتين.

أن البروتين يمدك بالبناء الجسدي، لكنه أيضاً يمدك بالسلوك؛ سلوكك هو **الحركة والفعل الذي تقوم به في حياتك.** والحركة تأتي من حركة البروتينات.



الفكرة هي هكذا؛ سلوكك يمثـل حركـة البروتـين المتفاعـل مـع الإشـارة. إذن، الإشارة تُفعل حركـة البروتـين فينـتج البروتـين السـلوك. إذن، الحركـة تـتحكم بهـا الإشارة.

إذن، مخ الخلية هو البناء الذي يتحكم في الإشارات ليخبر الخلية بما عليهـا فعلـه، متفاعلاً مع البيئة. مخ الخلية هو **"غشائها Cell Membrane".**

كيف يعمل غشاء الخلية ؟

أنه يأخذ الإشارات البيئية، والتي يمكـن أن تكـون أي شيء في البيئـة. يمكـن أن تكون إشراق الشمس أو الهواء الساخن أو الأصوات، روائح، مذاقات؛ يلتقط الغشاء هذه الإشارات البيئية التي تدعى "الإشارات الأولية". ثم ما يحدث، هـو أن الغشـاء يحول "الإشارات البيئية" إلى الإشارات التي تتحكم في البروتين. إذن، السلوك يتكون عن طريق الغشاء أثناء تفاعله مع البيئة.

إذا أزلت البيئة، لن يكون هناك سلوك للخلية. الخلية بكل ما تحتويه، إذا استطعت أن أبعد البيئة عن الخلية ستكون فقط ساكنة، وليس بها حياة. الحياة هي طريقة تفاعل الخلية مع البيئة.

كما ترى البيئة، هذه الإشارات البيئية تتحكم في بروتيناتك، وتجعلك تتفاعل. إذن، سلوكك ليس متعلقاً بالجينات وليس هناك أي علاقة للحمض النووي هنا. سلوكك متعلق برؤيتك للإشارة التي تـدعى "الإدراك"، ثـم تحويـل هـذه الإشـارة لاختيـار البروتين المناسب لردود فعلك.

هناك آلاف البروتينات في غشاء الخلية، لكن يمكنني إن أقسمها إلى مجموعتين:

الأولى: **لديها هوائي، والهوائي هو "المستقبل Receptors**"، تعمل كهوائيـات أو قرون استشعار تدرك ما حولها خارج الخلية وأيضاً ما بداخلها.

الثانية: **"المستجيبات Effectors"**، تتلقى التعليمات من المسـتقبلات، **فتفـتح بواباته أو تغلقها**، لتسمح أو تمنع مرور المواد المختلفة إلى داخل وخارج الخلية، وذلك تبعاً لما ترصده المستقبلات من ظروف بيئية داخل الخلية وخارجها.

أن الخلية مغطاة بأنواع عديدة من الهوائي، لكل الأشياء التي يمكن للخلية التعامل معها. إذن، حين تأتي الإشارة ويلتقطها الهوائي؛ ثـم تتحـول إلى سـلوك، عـن طريـق المجموعة من البروتينات.

وهناك ثلاثة أنواع مختلفة:

١- القنوات، والتي أشبه بالأنبوب بداخلها تسمح للمعلومات بالدخول.

٢- الإنزيمات، والتي هي البروتينات التي تسمح للأيض بالحدوث.

٣- أو الهياكل الخلوية، وهي بروتينات تغير شكل الخلية.

إذن، هناك مئات الآلاف من المستقبلات والمستجيبات في غشاء كل خلية، تعمل معاً في **تناغم وتنسيق،** وهو ما يُسمى بـ **"الأسلوب الجَمعي Holisitic"**، الذي يعتمد على فيزياء وكيمياء الكوانتم.

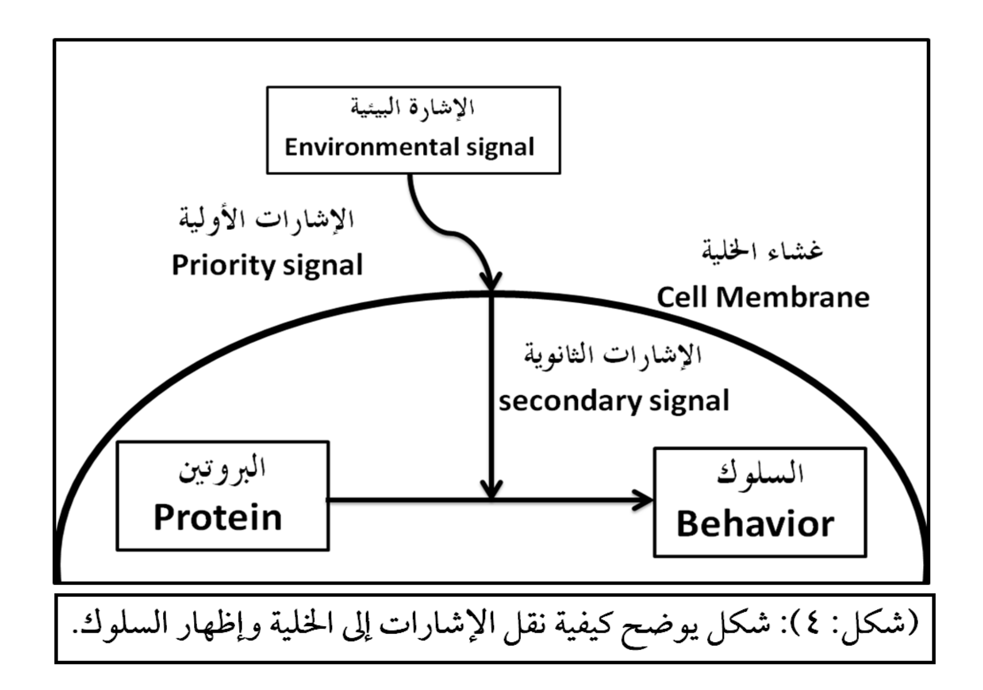
أن سلوك الخلية تتحكم به وحدة الإدخال الخاص بالبيئة. بعد ذلك، يتم تحويل هذا الإدخال إلى إشارة سلوك والتي تنسق وظائف الخلية، كي تتفاعل مع ما يحدث في البيئة.

إذا قمت بقطع الهوائي عن الخلية كي لا ترى شيء؛ لن يكون هناك سلوك، ستكون الخلية في حالة غيبوبة تامة. يعني هذا؛ أن السلوك متعلق بالإشارة.

وظيفة المستقبل هي الوعي بالبيئة، أنه يرى. لكن، يجب أن أحول هذه الإشارة إلى فعل بيولوجي. إذن، وظيفة وحدة الإخراج أو المؤثر هو أن تصنع إحساس مادي أو ردة فعل لهذه الإشارة.

وتدعى وحدة التحكم هذه، بـ **"الإدراك Perception"** الوعي بالبيئة عبر الأحاسيس المادية.

سلوك الخلية ليس مبرمج، لكنه يتعدل باستمرار بأي كانت الإشارة الموجودة في البيئة.



(شكل: ٤): شكل يوضح كيفية نقل الإشارات إلى الخلية وإظهار السلوك.

تقوم الإشارة من البيئة بتفعيل المُستقبِل والذي يقوم بتفعيل المؤثر، والمؤثر يقوم بتفعيل الإشارة الثانوية والتي بدورها تذهب إلى البروتين. وإذا احتجت البروتين، بسبب الإشارة البيئية يجب أن أتفاعل مع الإشارة.

ماذا أحتاج إلى فعله، إذا لم يكن البروتين حاضراً في الخلية ؟

أذهب إلى النواة وأقوم بتفعيل الجين من أجل صنع البروتين. ما علي فعله، هو أخذ الإشارة والذهاب إلى نواة الخلية؛ حيث يوجد (الحمض النووي DNA)، لكن الحمض النووي مغطى بكمُ من البروتين.

وفي نقاط دورية، أعلى كل جين هناك بروتين متحكم يدعى "بروتين منظم"، أتعلم ما يحدث ؟

الإشارة البيئية ترتبط بالجين المناسب بواسطة الشكل؛ وحين ترتبط الإشارة بالبروتين، تُغير شكل البروتين. وحين أغير شكل البروتين، أتسبب في نزع الكمُ عن الحمض النووي.

وحين يصبح الجين مكشوف، ما الذي سأفعله بهذا ؟ أنا أحتاج لنسخة من الجـين. والتي تدعى "الحمض النووي الريبي" والتي بدورها تذهب إلى الخلية وتتحـول إلى بروتين.

إذن، النتيجة النهائية هي: أقوم بآخذ جزئ الحمض النووي الريبي وأحصل عـلى نسخة من جزئ هذا الحمض النـووي. وهـذا يصـبح مخطـط للجـين، وهـذا يـدعى "الحمض النووي الريبي" وهذا المخطط يستخدم في صناعة البروتين.

إذن، ما نفهمه من هذه العملية هـو هـذا: الجـين لا يصـبح مكشـوفاً، حتـى تـأتي الإشارة؛ حين تذهب الإشارة، يغطى كمُ الجين ويصبح الجين الآن مختفياً.

إذا كان هذا جين للسرطان؛ ولا يعطيك السرطان، لأنه ليس مكشـوفاً. مـا الـذي سيتسبب في أن يعبر جين السرطان عن ذاته ؟ (الإشارة).

إذن، ما هي الإشارة من بيئتك التي تتلقاها لانتقاء عمليـات أو جينـات سـلبية في جسدك ؟

الإشارة الثانوية، تذهب فتجد البروتين مفقود؛ تذهب الإشارة الثانوية إلى النـواة؛ تجد الجين المناسب، عن طريق الارتباط بالبروتين المنظم المناسب. تتسبب في نـزع كـمُ البروتين المنظم وتكشف الجين؛ وحين يتم كشف الجين، يتم صنع نسـخة منـه تـدعى "الحمض النووي الريبي". وهذا ما يخـرج إلى الخليـة، ويسـتخدم لوظـائف وسـلوك الخلية.

الجينات لا تتحكم في نفسها، الإدراك هو الذي يتحكم في الجينـات. الإدراك هـو الإشارة التي تتسبب في نزع كمُ الحمض النووي. الإدراك لا يتحكم فقط في السلوك، ولكنه يتعمق ويختار أي من الجينات التي يود أن يعبر عنها.

ماذا يحدث، إذا تواجدت في بيئة متوترة وأنا لا أمتلك الجينات المناسبة للتفاعل مع هذا التوتر ؟

حينها، ستقول أن الطريقة الوحيدة للتحكم في الأمر هو تغيير الجينات.

يقول (د. بروس ليبتون): حسناً، في البيولوجيا التقليدية الطريقة الوحيـدة لتغيـير الجين؛ هي عملية تدعى **"الطفرة العشوائية Random Mutations"**، هـذا موجود في كل النصوص، ماذا يعني هذا ؟

يعني هذا أنه؛ يمكنني أن أتسبب في حدوث طفرة بشكل كيميائي؛ لكن لا يمكنني التحكم في الناتج، الناتج يكون دائماً عشوائي.

إذن، النتيجة النهائية هي المعتقدات الداروينية أن التطور هو تغييرات عشـوائية في الجينات. أن الجينات تتغير فقط من قبيل الصدفة، هذا هو المعتقد التقليدي.

ولكن الأبحـاث الجديـدة تُخبرنـا عـن نـوع جديـد مـن الطفـرة يـدعى "الطفـرة التكيفية". الفكرة في هذه الطفرة، هي أن الجينات لا تتغير بشكل عشوائي لكن البيئـة تتحكم في الطفرة.

إذن، أنت دوماً تعد جيناتك لتلائم ما تراه في البيئة. إذن، هذا ليس أمـر عشـوائي لكنها طفرة تقودها البيئة.

هناك بحث بعنوان: (Test Tube Evolution Catches Time in a Bottle)[1]، نشر في مجلة (Science). هذا بحث شيق للغاية، لأن ما قاله هو هذا:

يمكنك أن تأخذ مجموعة من البكتريا وتضعها في خمسة أنابيب اختبار؛ وتضع نفس البيئة الضاغطة في كل من الأنابيب وتتسبب في تغيير البكتريا لجيناتها كـي تبقـى على قيد الحياة.

هذه هي الفكرة؛ في كل الأنابيب الخمس، النتيجة كانت متماثلة.

فجأة تقول: أين الطبيعة العشوائية في هذه العملية ؟!

---

(1) Test Tube Evolution Catches Time in a Bottle, Tim Appenzeller, Science Vol. 284, Issue 5423, pp. 2108, 25 June 1999.

والإجابة: إنها ليست عشوائية؛ التغيرات التطورية دائماً تكون تكيفية مع البيئة.

يقول المقال العلمي: هذا الإشعاع التكيفي المصغر ينكشف بنفس الشكل في كل مرة، طبقاً لوضع البيئة المتاحة.

وهنا النقطة؛ نحن نعدل جيناتنا لتتلائم مع البيئة التي نعتقد أننا نعيش بها. لقد قُلت: **"نعتقد أننا نعيش بها"؛ لأن الإدراك ربما يكون صحيحاً وربما يكون خاطئاً. لهذا، الإدراك هو اعتقاد. أنه إدراكك الذي يغير جيناتك.**

هناك شيء يسمى **"جينات الهندسة الوراثية Genetic Engineering Genes"**، ما يعنيه هذا ؟

يقول (د.بروس): لقد وجدنا الآن أنه بداخل كل من خلايانا لدينا جينات وظيفتها إعادة كتابة الجينات الأخرى، حين يتطلب الأمر ذلك. إذن، أنت مجهز بالقدرة على التكيف وتغيير جيناتك طبقاً لتفاعلك مع البيئة. فالإشارات البيئية تقوم بتفعيل جينات الهندسة الوراثية، إنها بإمكانها تغيير جيناتك؛ وتغيير الطراز الوراثي الخاص بك.

معتقداتك تنتقي جيناتك، وأن لم يكن لديك الجينات المناسبة للتعامل مع الضغوط الموضوعة عليك، معتقداتك ستعيد كتابة جيناتك في محاولة لفعل ذلك. إذن، هناك الكثير من التحكم في حياتك لكن هذا يحدث بواسطة إدراكك للبيئة؛ هذا ما يتحكم بالأمر كله.

أذن، في النهاية ثبت خطأ مفهوم الحتمية البيولوجية، بعد أن تبين أن النشاطات الرئيسية للخلية وكذلك مشاعرنا وسلوكياتنا تتحكم فيها عوامل خارجية وعوامل داخلية ليس لجيناتنا دخل فيها. فأنا (الذات الإنسانية) لست عبداً لجينات أنانية تجعلني مُسَيَّراً مقهوراً، بل إنني سيد لمصيري. (١)

---

(١) قال هذا الكلام في محاضرة له بعنوان: (بيولوجيا المعتقدات The Biology of Perception).

كيف يتم اتخاذ القرار في النفس ؟

إن النّفس – كما ذكرت آنفاً – تحوي في داخلها، أموراً أساسية وهي بمثابة المجلدات البرمجية في نظام ويندوز، وهذه الأمور هي: الإرادة، والإدراك، والتّحاكم، ومركز المفاهيم والأفكار والقيم والأخلاق، والإدارة والشعور والشّهوات، والهوى.

والسُّلُوك الإنساني، يصدر نتيجة تفاعل هذه الأمور أو بعضها مع بعض، وبناء على صواب استخدام هذه الأمور، تخرج النّتيجة صواباً أو خطأ؛ وسنضرب مثالاً تقريبياً، عما يجري في داخل النّفس بصُورة حوارية.

لنتخيل أن في داخل النّفس دوائرَ فاعلةً وأخرى منفعلة، ولكل دائرة مسؤول واحد عنها من المذكورين، تابعين لمدير عام، يصدر القرار منه، وكلهم يتمتع بالوعي والإرادة الجزئية.

مدير عام: الفؤاد. **مدير تنفيذي: الإدراك.**

١- دائرة فاعلة: الإرادة.

٢- دائرة فاعلة: التّحكم.

٣- دائرة فاعلة: المفاهيم والمعلومات والقيم.

٤- دائرة منفعلة: الشعور.

٥- دائرة منفعلة: الشّهوات.

٦- دائرة منفعلة: الهوى.

عُرض على هذا الإنسان (النّفس) أمرٌ ما، فأول ما يمر هذا الأمر، إنّما يمر على المدير التّنفيذي، الذي يدير الحوار بين الدّوائر كلها، ثم أول دائرة تتكلم هي دائرة الهوى، وتساعدها دائرة الشّهوات، ويطالبان بإلحاح وضغط شديد على دائرة الإرادة، لاستصدار قرار بالموافقة والتّحرك دون الرّجوع إلى دائرة أخرى، فإن نجحا في

استصدار القرار تحرك الإنسان نحو العمل، وقام به دون موافقة الدّوائر الفاعلة الأخرى، ومن ثم، سوف يترتب على ذلك اضطراب في النّفس، وقلق وارتباك، أما إذا قامت دائرة الإرادة، وعرضت الموضوع على بقية الدّوائر الفاعلة، وأخذ الموضوع حقه من الدّراسة، ورفعوا التّقرير إلى المدير العام (الفؤاد)؛ ليتخذ القرار بناء على معطيات الدّوائر الفاعلة وموافقتها، وإذا حصل ذلك، ترتب عليه انسجام النّفس وتوازنها مع دوائرها، ويتم نهي دائرة الهوى والشّهوات من التّأثير على استصدار القرار كونهما دائرتين منفعلتين، واجبهما إتباع القرار الذي يصدر عن الدّوائر الفاعلة وتنفيذه؛ قال تعالى: { وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ } (النازعات: ٤١).

ما هو القلب ؟

قال تعالى: { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } (الأعراف: ١٧٩).

نلاحظ أنَّ القلب، والعين، والأذن، لا تتم فيهم عملية الفقه والسّمع والبصر، وإنَّما تتم بهم، والفرق بين دلالة (في) ودلالة (بـ) كبير، إذ الأولى تدل على الظّرفية، والأخرى تدل على الاتَّصال والإلصاق.

وهذا الأمر معلوم، فالسّمع لا يتم في الأذن، وإنَّما يتم بالأذن؛ أي يتم استخدام الأذن، كوسيلة لنقل الأصوات إلى مركز تموضع السّمع، فيتم عندئذ قراءة الموجات الصّوتية، وكذلك القلب والعين، وهذا يدل على أن هذه الوظائف الثّلاث: الفقه والسّمع والبصر؛ إنما تحدث في النّفس المتموضعة في الدّماغ والقلب (المادي في الجسم)، ومن ثم، فلا يصح القول، أنَّ السّمع وظيفة الأذن؛ لأنَّ وظيفة الأذن نقل الإحساس بالأصوات، فهي حاسة نقل، ليس إلاّ. وهكذا باقي الحواس.

وقد ذكر الخالق للقلب – في القرآن – فعلين يتمان بوساطته، وهما: **الفقه، والتّعقل.**

قال تعالى: { لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا } (الأعراف: ١٧٩).

قال تعالى: { لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا } (الحج: ٤٦).

وكما هو ملاحظ في النّصين، أنَّ المستخدم هو حرف (الباء) الذي يدل على الاتَّصال والإلصاق، ما يُؤكَّد أن فعلي الفقه والتّعقل، لا يَتُمّان في القلب، وإنَّما بوساطة القلب، وهذا يدل على أنَّ الذي يقوم بالفعلين؛ إنَّما هو النّفس، فهي المسيطرة ولها القيادة.

فدعونا ننظر في لفظة **(القلب)** لنعرف معناها، فهي مشتقة من الجذر اللساني العربي **(قلب)،** والتي وردت مشتقاتها في القرآن حوالي ١٦٨ مرة، سننظر في المعاجم العربية لنفهم معناها ثم سنحلل دلالة حروفها فيزيائياً.

(قلب): القاف واللام والباء أصلانِ صحيحان: أحدهما يدلّ على **خالِص شَيء وشريفِه،** والآخَرُ على **رَدَّ شيء من جهةٍ إلى جهة.** فالأوَّل القَلْبُ: قلب الإنسان وغيره، سُمَّي لأَنَّه أخْلصُ شيء فيه وأرفَعُه. والأصل الآخر قَلَبْتُ الثَّوبَ قَلْباً. والقَلَب: انقلابُ الشَّفَة، وهي قَلْباءُ وصاحبُها أَقْلَب. وقَلَبْتُ الشَّيء: كبَبْتُه، وقلَّبته بيديَّ تقليباً.[1]

(قلب): القَلْبُ: **تَحْوِيلُ الشيء عن وجهه.** وقَلَّبَ الأُمورَ: **بحثها، ونظر في عواقبها.**[2]

- **دلالة أصوات الجذر (ق – ل – ب):**

(ق): صوت يدل على قطع أو وقف شديد.

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الخامس، ص ١٧ .

(٢) محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، الجزء الأول، ص ٦٨٥ .

(ل): صوت يدل على حركة ثقيلة متصلة لازمة.

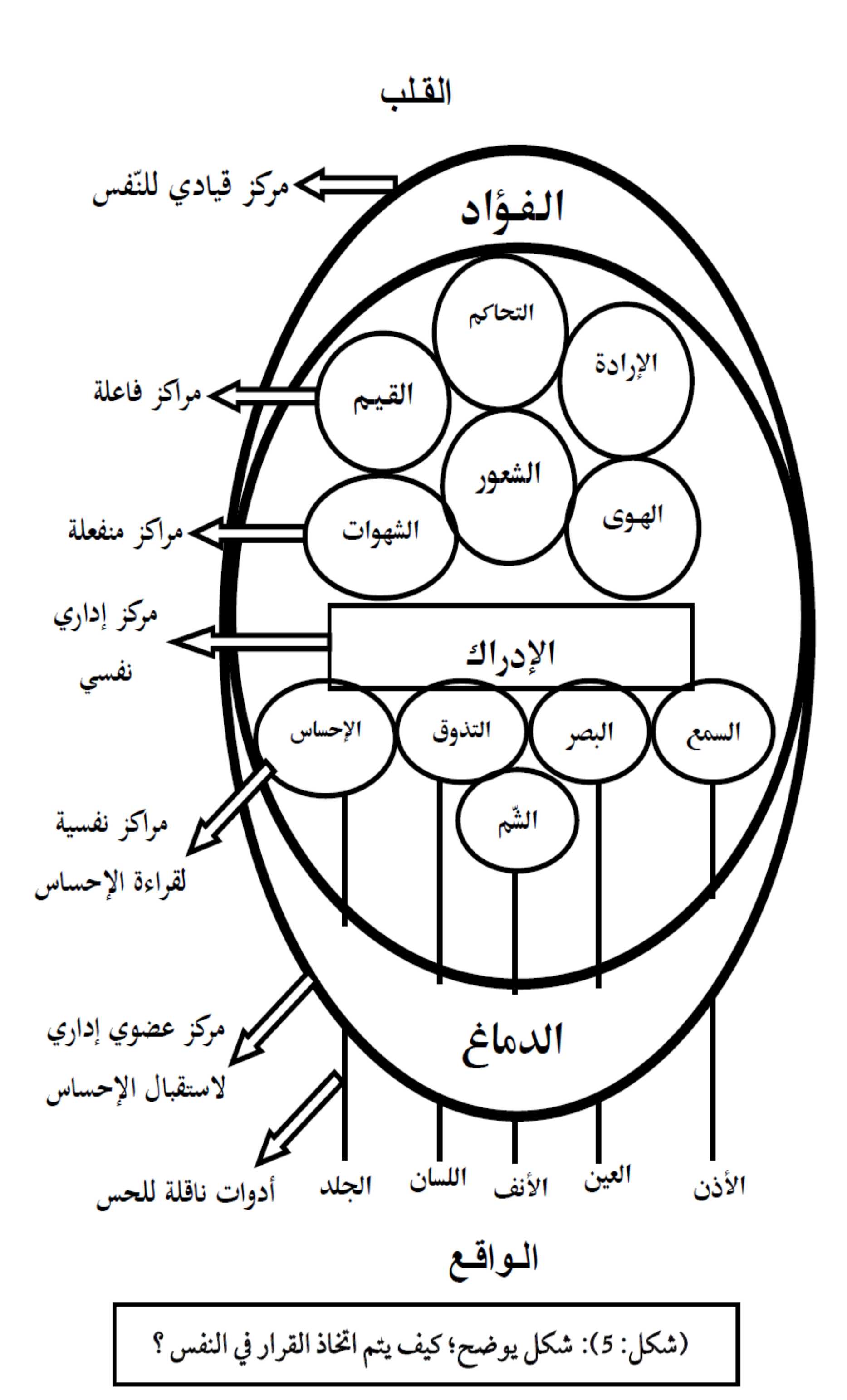
(ب): صوت يدل على الانتقال من شيء لنقيضه.

(قلب): كلمة تدل على **حركة توقفت بشكل شديد، وانتقلت بثقل متواصل متلازم، وانتهت بشكل مناقض لحركتها السابقة.**

وهذا المفهوم ينطبق على (النفس) التي تتقلب على جميع الأوجه الشيء ونقيضه. وهذا أنطبق على العضلة الموجودة في صدر جسد الإنسان الذي يطلق عليها الأطباء والناس كلمة (القلب).

(فالقلب)؛ هو: – **قوة فكرية – نفسية تقوم بربط (لحم) المعلومات ومعالجتها لينبثق منها إلى الوسط الخارجي ما قبل الشخص منها بعد تقليبها على وجوهها بسرعة أو ببطء لتظهر من خلال التصرفات وسلوكيات والمواقف.**

ودور القلب مثل دور المعالج الرئيسي في الحاسوب (processor). تكون المعالجة عبارة عن سلسلة من العمليات يذكرها القرآن كفعل متواصل (يفقهون، يعقلون).



(شكل: 5): شكل يوضح؛ كيف يتم اتخاذ القرار في النفس ؟

الفؤاد مركز نفسي [1]

إنَّ السّمع والبصر، همـا مركـزان في الـنّفس، يتصـلان بـالواقع مـن خـلال الأذن والعين، ولقد تم ذكر الفؤاد معهما، في قوله تعالى:

{ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ } (السجدة: ٩).

{ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } (الإسراء: ٣٦).

وهذا يدل على أنَّ الفؤاد، مركز في النّفس؛ فماذا تعني كلمة (الفؤاد) ؟

فهي مشتقة من الجذر اللساني العربي **(فــأد)**، والتـي وردت مشـتقاتها في القـرآن حوالي ١٦ مرة، سنحلل دلالة حروفها فيزيائياً، لنفهم معناها.

- **دلالة أصوات الجذر (ف – ء – د):**

(ف): صوت يدل على تفرق الحركة في كافة الاتجاهات.

(ء): صوت خفيف يدل على ظهور مفاجئ في الزمان والمكان.

(د): صوت يدل على دفع شديد متوقف.

(فأد): كلمة تدل على **حركة متفرقة في كافة الاتجاهات، تظهر بشـكل مفـاجئ في الزمان والمكان، وتنتهي بدفع شديد متوقف.**

أنظر مثلاً لكلمة (فأر)؛ بدأت بحرف (الفاء) الذي يدل على حركة متفرقة في كافة الاتجاهات، وجاءت (الهمزة) لتظهر هذه الحركة بشكل مفاجئ في الزمان والمكان، ثم انتهت بحرف (الرّاء) لتكون هذه الحركة بشكل سريـع ومتكـرر. ومـن هـذا الوجـه

---

(١) سامر إسلامبولي، دراسة إنسانية في الرّوح والنّفس والتّفكير، ص ١٤٥ – ١٤٨ .

لاحظ العرب تحقق هذه الـدلاّلات بحيـوان الفـأر، فـأطلقوا عليـه اسـم (فـأر) لأن حركته تكون سريعة ويتخفى ليظهر بشكل مفاجئ، ولكن إذا أحس بحركة قريبة منه جرى سريعاً ولكنه يكرر حركته مرة أخرى.

وكذلك دلالة كلمة (فأد) جاء حرف الدّال، ليعطي الظهور المفاجئ، دفعاً شديداً. وسُمي الفؤاد فؤاداً؛ لأنه يتحرك في كافة الاتجاهات ليجمع المعلومات، ثم يظهر هـذه الحركة بصُورة خفيفة، برهة من الزمّن، ليعود بشدة دافعاً نتيجـة قراءتـه للمعلومـات وحكمه على الشّيء.

إذنّ؛ (الفؤاد): اسم لمكان وضع المعلومات المتفرقة التي استفادها كل إنسان حـي وجعلته يتفاعل معها ويندفع مع أحداث الحياة سواء قبل هذه المعلومات أم لم يقبلها. فالفؤاد وظيفته تخزين المعلومات مثلما يخزن القرص الصلب المعلومات المعطاة له مـن المستخدم.

قال تعالى: { وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } (القصص: ١٠).

أي لم تستطع أم موسى استيعاب ما يجري من الأحداث، وأصابها العجز عن اتّخاذ الموقف المناسب والثّبات عليه، وحصل اضطرابٌ ما بين الفؤاد والقلب.

قال تعالى: { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّـتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا } (الفرقان: ٣٢).

أي لنثبت عملية دُخُول المعلومات، وإدراكك لها، ثم تسـتوعبها وتستحضرـها – حين اللّزوم – إضـافة إلى أن اسـتمرار نـزول الآيـات بصُـورة مُفَرَّقـة، يترتـب عليـه استمرار الاتّصال، وهذا ينتج عنه الاستقرار والتّوازن والقوة للنّفس، ومن خلال مـا ذكرت من النُّصُوص، نعلم أنَّ الفؤاد مركز له جوانب متعددة وهي:

١- **الإدراك:** ودل ذلك قوله تعالى: { مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ } (النجم: ١١).

٢- **الإرادة:** ودل ذلك قوله تعالى: { فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ } (إبراهيم: ٣٧).

٣- **التّمييز:** ودل ذلك قوله تعالى: { إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } (الإسراء: ٣٦).

٤- **المفاهيم، والمعلومات، والشعور:** قال تعالى: { الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ } (الهمزة:٧).

هذا هو الفؤاد في النّفس، مركز متعدد الوجوه، مسؤول عن قيادة وإدارة النّفس، وقيادة الدّماغ و عضلة القلب في جسم الإنسان.

الفرق بين الفقه والعلم

إن كلمة (فقه) لم تأت في الاستخدام القرآني إلا بصيغة الفعل (يفقهون)؛ فعلى أي شيء تدل كلمة (فقه) ؟

- **دلالة أصوات الجذر (ف – ق – هـ):**

(ف): صوت يدل على تفرق الحركة في كافة الاتجاهات.

(ق): صوت يدل على قطع أو وقف شديد.

(هـ): صوت يدل على تأرجح خفيف منضبط.

(فقه): كلمة تدل على **حركة متفرقة في كافة الاتجاهات، تقطع حركتها وتقف بشكل شديد، وتنتهي بتأرجح خفيف منضبط.**

فالإنسان يُحاول أن يبحث في كل شيء (كافة الاتجاهات)، ليدري ما يقال له في محيطه، وعندما يصل لدراية (يقطع بحثه)، ويصل إلى فهم متأرجح ظني. فتصير (فقه) بمعنى **الدّراية للشّيء، والفهم المُباشر له بصورة احتمالية.**

قال تعالى: { وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) } (طه).

قال تعالى: { قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ } (هود: ٩١).

قال تعالى: { فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا } (النساء: ٧٨).

قال تعالى: { وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ } (التوبة: ١٢٢).

فعملية الفقه، هي عملية تواصل وتعامل مع النّاس – مُباشرة – من المتكلم إلى المخاطب أخذاً وعطاءً؛ ليتم التّفاهم فيما بينهم، وهذا لا يدل بالضرورة على صواب الأمر الذي هو محل للفقه، فالحكم عليه بالصّواب أو الخطأ، أمر يرجع إلى العلم، فما هو العلم ؟

- دلالة أصوات الجذر (ع – ل – م):

(ع): صوت يدل على عمق أو بُعد في الشيء.

(ل): صوت يدل على حركة ثقيلة متصلة بطيئة لازمة.

(م): صوت يدل على جمع متصل ينضم ويتداخل ويتكامل في أطار واحد.

(علم): كلمة تدل على **حركة لها بُعد وعميقة، تمشي بشكل بطيء وثقيل متصل ومتلازم مع بعضه، وتنتهي بجمع متداخل ومتكامل في أطار واحد.**

إذاً، العلم هو السّير في الأرض (دراسة)؛ لمعرفة كيف بدأ الخلق، وإلامَ آل، وتتبع هذه الحركة (الكيف)؛ للوُصُول إلى اكتشاف السّنن التي تحكمه (الرّوح)، ومن ثـمَّ، يتمكن الإنسان من التّنبؤ بحركته القادمة، وتسخير ذلك لمصلحة الإنسان، وذلك على صعيد الآفاق، أما على صعيد الأنفس؛ فالتاريخ الإنساني، هو المخبر الموضوعي لدراسة القيم والأخلاق والأحكام، المتعلقة بالإنسان والمجتمع، وذلك من خلال النّظر إلى عاقبة الأمور، التي آلت إليها الأقوام في رحلة الحياة.

قال تعالى: { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } (الأنعام:١١).

قال تعالى: { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ } (النمل:٦٩).

قال تعالى: { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ } (العنكبوت: ٢٠).

إذن نقول أن: (كل عالم فقيه، والعكس غير صواب)..

مفهوم لفظة (العقل)

دعونا ننظر في كلمة **(العقل)** لنعرف معناها، فهي مشتقة من الجذر اللساني العربي **(عقل)،** والتي وردت مشتقاتها في القرآن حوالي ٤٩ مرة، سنحلل دلالة حروفها فيزيائياً، لنفهم معناها.

ونلاحظ، من خلال تتبع كلمة (العقل) في النّص القرآني، أنها جاءت بصيغة فعل (يعقلون، تعقلون، نعقل ...) ولم تأت – قط – بصيغة اسم؛ ولهذا دلالة في النّص القرآن، ينبغي التّنبه لها.

قال تعالى: { كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } (البقرة: ٢٤٢).

قال تعالى: { إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ } (الأنفال:٢٢).

قال تعالى: { وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } (الملك:١٠).

- **دلالة أصوات الجذر (ع – ق – ل):**

(ع): صوت يدل على عمق أو بُعد في الشيء.

(ق): صوت يدل على قطع أو وقف شديد.

(ل): صوت يدل على حركة ثقيلة متصلة بطيئة لازمة.

(عقل): كلمة تدل على **حركة لها بُعد عميق، تم وقفها بشدة، وانتهت بشكل بطيء وثقيل متصل ومتلازم مع بعضه.**

أن كلمة (عقل) عندما بدأت بحرف (العين) أخذت فعل العمق، وعندما جاء بعدها حرف (القاف)؛ أعطى فعل العمق، وقفاً لحركته بصُورة شديدة، وجاء حرف (اللام)؛ ليحرك الفعل بهدوء متواصل، وفق القطع والوقف الذي تم.

إذاً، دلالة كلمة (عقل)، هي اختيار، يعقبه تحديد، يعقبه حركة منضبطة بما حُدد لها، وبناء على ذلك، يمكن أن نضبط تعرف كلمة (عقل) على الصّورة التالية:

(عقل): إرادة جازمة حابسة على حركة منضبطة.

إذاً، كلمة (عقل) تدل – ابتداء – على الإرادة الجازمة لساناً، وهذه الإرادة لا تتأتى – في الواقع – إلا بعد الإدراك والانتهاء عند أمر معين، يتوقف عنده، ومن ثَمَّ، تتم الحركة وَفق هذا الأمر، بصُورة منضبطة به، مقصورة عليه، لا تتجاوزه إلى غيره.

وبناء على ما ذكرت، نلاحظ أن كلمة (عقل) لا تُستخدم إلا للإنسان، فهي من أفعاله، فهو الذي يعقل، ومن هذا الوجه قيل: الإنسان حيوان عاقل.

تجارب علمية لتدل على أهمية القلب

ومن أهم هذه التجارب العلمية الحديثة ما قام به البروفيسور: (عمر عبد العزيز موسى)[1]، ولكن علينا أولاً أن نعرف ما هو القلب.

يتكون القلبُ من أربعةِ تجاويفَ أو غُرَف هي بالترتيب من اليمين إلى اليسار تبعاً للدورة الدموية: الأُذَيْن الأيمن وتحته البطين الأيمن؛ الأُذَيْن الأيسر وتحته البطين الأيسر.

---

(١) نائب مدير جامعة الرباط في الخرطوم، واستشاري الجهاز التنفسي.

وعن وصف القلب أنقل ما نقله (الدكتور: عماد حسن) في كتابه، عن كتاب[1] البروفيسور: (عمر عبد العزيز موسى): "إن القلبَ المعروف لدى الإنسان كمضخةٍ للدم، حيث يستقبل الدمَ الوريدي ويرسله إلى الرئتين ليؤكسج، أي يحمل الأكسجين الذي يدخل الرئتين مع عملية الشهيق، بينما يتلخص من ثاني أكسيد الكربون الذي يأتي من احتراقاتِ وتفاعلات الجسم فيخرج مع عملية الزفيز".[2]

عملية انتقال الدم من "الأذين الأيسر" لـ "البطين الأيسر"، ثم منه إلى الرئتين عن طريق الشريان الرئوي ثم العودة إلى "الأذين الأيمن" عن طريق الوريد الرئوي ومنه إلى "البطين الأيسر" ومن ثم يضخ للجسم عن طريق شريان الأورطي، عملية معقَدة لا نحتاج للدخول فيها إذ إنها ميكانيكا وكيمياء حيوية بحتة. ما يهُمّنا هنا هو **البحث عن موضع العقل في القلب.**

يمضي (د. عمر عبد العزيز) ليصف النظامَ العصبي للقلب: "وللقلب نظامٌ عصبيٌّ منفصلٌ حيث تبدأ إشاراتٌ داخل الأذين الأيمن في عقدة تسمى العقدة الجَيْبيّة الأذينية وتقع بين مدخل الوريد الأجوف العلوي والوريد الأجوف السفلي، وتطلق خلاياها إشاراتٍ أسرعَ مِن أي عقدةٍ أو جزءٍ آخر من القلب لتنتقل عبْرَ ثلاثة طرق محددة في الأذين الأيمن للعقدة الأذينية البُطيْنِيّة ومنها خلال طريق واحد عبر حلقة ليفية لعضلات البطينين.[3]

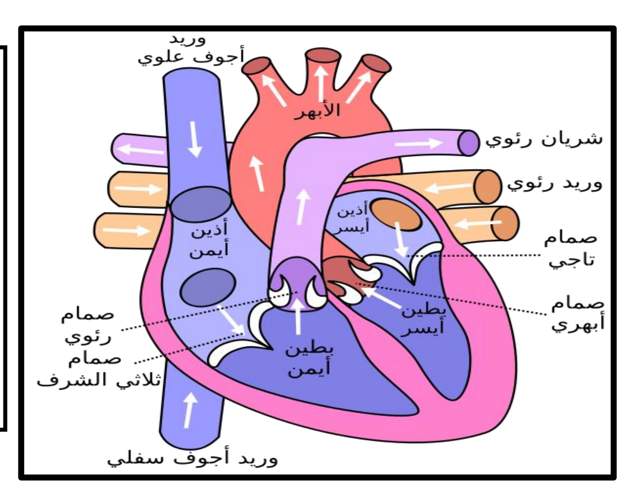
هذه العقدة العصبية في أعلى الأذين الأيمن هي التي تطلق تياراً كهربائياً يؤدي إلى انقباض وانبساط عضلات القلب، ويَظهر سريان التيار الكهربائي في الرسم المعروف بـ **"رسم القلب Electrocardiogram or ECG".**

---

(1) عمر عبد العزيز موسى، العقل والقلب في الطب والقرآن والسنة، دار السداد – الخرطوم، ط1، 2009م.

(2) عماد محمد بابكر حسن، أمي كاملة عقل ودين، دار إبداع – القاهرة، ص 45.

(3) نفس المرجع، ص 45.



(شكل: ٦): رسم توضيحي لبنية القلب – منظر أمامي للقلب المفتوح يعرض جريان الدم الطبيعي.

ومضى (البروفيسور: عمر عبد العزيز) في كتابه الذي كتبه سنة (٢٠٠٩) يصف أنه في عمليات نقل القلب فإن قلبَ المريض لا يُزال كله، وإنما يُـترَك الجزءُ الخلفي من الأذينين بما فيه جدار الأذين الأيمن ومعه العقدة العصبية المسئولة عن توزيع الكهرباء في القلب. بينما يُنقل القلب السليم من المتوفى ويتم خياطته على تلك الأجزاء المتبقية من قلب المريض. وكان د.عُمر يَظن أن "العقل" مرتبطُ بهذه الحزمة العصبية في الأذين الأيسر.

وفي عام (٢٠١١) ذهب بنفسه إلى ماليزيا بعد إقناع القائمين على أحد المراكز الطبية المتقدمة هناك بإجراء أول تجربةٍ من نوعها في تاريخ العالم للبحث عن مكان العقل.

فكانت الخلاصة أن عرّضَ (البروفيسور: عُمر عبد العزيز) نفسه لعملية بنجٍ تامٍّ لعددٍ من الساعات بعد أن تم حقنُه بمادةٍ مشعّةٍ تلتقطها الخلايا في حالة النشاط؛ والجهاز يستعمل عادة للكشف عن مناشط محددةٍ في المخ وليس القلب، لكن في هذه الحالة الاستثنائية فقد كانت التجربة للبحث عن نشاطٍ غامض في القلب وما حوله؛ وكانت النتيجة أن كل قلبه ظل في حالة نشاط حين اليقظة والنوم، لكن هناك منطقة في

أعلى الأذين الأيمن اختفى منها الإشعاعُ فورَ النوم دليلاً على تعطُّل نشاطها، رغم أن القلبَ يعمل كقلب أي نائم، وعاد النشاط إليها فورَ استيقاظه.

ورغم إنها تجربةٌ وحيدةٌ ولا يمكن اتخاذها حقيقة علمية، إلا إنها أولُ سابقةٍ من نوعها تُسلط الضوء على وجود مكان ما في القلب يتعطل مع النوم؛ والمعروف شرعاً أن النائم يُرفع عنه القلم ويسقط عنه التكليف مما يفيد أن عملية العقل لا تعمل أثناء النوم.

ولقد شرح هذه التجربة (البروفيسور: عُمر عبد العزيز) بنفسه في اللقاء التلفزيوني الذي أجراه على قناة الشروق السودانية. وهذه التجربة تجعل السؤال عن مكان عملية التعقل أكثر إلحاحاً من ناحية دينيةٍ وطبيةٍ؛ لأن إثبات أن عملية التعقل تحدث في عضلة القلب سيكون ثورة عالمية فكرية إذ إن القرآن لم يربط عملية التعقل إلا بالقلب، بينما كل كثير من العلماء والناس اليوم يظنون أنه في الدماغ إلى اليوم؛ أما من ناحية طبيةٍ، فإن تحديد موضع الداء يمكن أن يُسهل كثيراً في علاج الأمراض العقلية المستعصية والتي غالباً ما تعالج فقط بالمسكنات نتيجة غموض الأعراض وعدم المقدرة على الوصول إلى مصدرها.

فإن كان الأذين الأيمن هو المكان الذي يرجح أن عملية التعقل تتم من خلاله، وإنْ كان الأذين الأيمن يحتوي على العقدة العصبية التي تولد كهرباء القلب، فما هي العلاقة بين هذه الكهرباء والعقل ؟

القلب مغناطيس قوي [1]

خلال الربع الأخير من القرن العشرين، حدث انفجار معرفي في علوم القلب. فقد توالت الاكتشافات التي أظهرت أن **القلب ليس مجرد مضخة**، وأن علاقته بالمخ

---

(1) د.عمرو شريف، رحلة عقل: هكذا يقود العلم أشرس الملاحدة إلى الإيمان، ط ٨، مكتبة الشروق الدولية – القاهرة، ٢٠١٤م، ص ١٩٢ – ٢٠٥ .

ليست علاقة العبد بالسَيِّد، بل إن السيادة تبادلية. إن الحقائق العلميـة التـي تكشـفت تبدو كشيء من الخيال العلمي ولغرابتها ومخالفتها للمفاهيم السائدة.

قد أثبتت التجارب أن المجال الكهرومغناطيسي للقلب يؤثر على (موجـات ألفـا) الكهربائية الصادرة من المخ، والتي تَنْشَـط وقـت الاسـترخاء، ويمكـن رصـد ذلـك باستخدام رَسَّام المخ الكهربائي. [١]

كما ثبت حديثاً، باستخدام أجهـزة رصـد دقيقـة، حـدوث تـداخل بـين المجـالين **الكهرومغناطيسيين لقلبي شخصين متجاورين.** ويؤدي التداخل في بعض الحـالات إلى نوع من **التناغم،** كما يؤدي إلى التشويش في بعض الحالات الأخرى!.. [٢]

وإذا كان الكثيرون من الباحثين يعترضون على نتائج هذه الدراسات، فغن حدوث التداخل بين المجالات الكهرومغناطيسية يعتبر **بديهيـة فيزيائيـة** نستشـعرها جميعـاً في تشويش التليفونات المحمولة على الأجهزة الإلكترونية المحيطة بنا.

وكذلك تتبع (د.جارى شوارتز Gary Schwartz) (أستاذ الطب النفسي في جامعة أريزونا)، أكثر من ٣٠٠ مريض أُجريت لهم جراحات زراعة القلب، فلاحـظ حدوث تغيرات نفسية وعقلية جذرية لجميع المـرضى بعـد الجراحـة، خاصـة هـؤلاء الذين رُكِّبَت لهم قلوب صناعية !..

---

(1) Yves Gahery, and Denise Vigier. Inhibitory effects in the cuneate nucleus produced by vago-aortic afferent fibers. Brain Research, Volume 75, Issue 2, 26 July 1974, Pages 241–246.

- **Rollin McCraty, and Mike Atkinson. (1999). Influence of afferent cardiovascular input on cognitive performance and alpha activity. Proceedings of the Annual Meeting of the Pavlovian Society, Tar – rytown, NY.**

(2) Glen Rein, Mike Atkinson, Rollin McCraty. (1995). The physiological and psychological effects of compassion and anger. Journal of Advancement in Medicine, Volume 75, Issue 2, 26 July 1974, Pages 87 – 105.

المخ الصغير

قد يقول قائل: إن هؤلاء الكهرومغناطيسيين يتحدثون عن القلب وكأنه المخ. فهل للقلب حقّاً مثل هذه القدرات الاستقبالية والإدراكية والإرسالية؟!

في عام ١٩٩٤م، فاجأ (الدكتور آندرو آرمور Andrew Armour)[1]، العالَمَ بطرح مفهوم في غاية الأهمية. لقد توصل في أبحاثه إلى أن **للقلب جهازاً عصبيّاً خاصّاً** Interinsic Nervous System، يستحق أن يُدْعى **المخ الصغير** The Little Brain، قياساً على المخ الكبير الذي في أدمغتنا **!!**..[2]

ويتركب الجهاز العصبي للقلب من حوالي (٤٠٠٠٠) خلية عصبية، بالإضافة إلى الأنواع المختلفة من الخلايا الداعمة التي تشبه مثيلتها في المخ Glial Cells، ويستخدم نفس الناقلات العصبية الكيميائية والبروتينات التي يستخدمها المخ. ونتيجة لهذه المشابهة، ينظر البعض إلى هذا الجهاز باعتباره **جزيرة صغيرة انفصلت عن المخ الأم، واستقرت في القلب !..**

ويمكن لهذا **المخ الصغير أن يقوم بتنظيم أداء القلب بمعزل عن الجهاز العصبي،** وهذا ما يحدث في المرضى الذين أُجريَت لهم جراحات نقل القلب، التي يتم فيها قطع الأعصاب التي يتواصل بها المخ مع القلب!..[3]

---

(١) أستاذ أمراض القلب بجامعة مونتريال بكندا، من المؤسسين لعلم (أعصاب القلب – Neuro cardiology)، والمشرف الرئيسي على مجلة (Neuro Cardiology). وقد نشر آرمور نتائج أبحاثه في كتابه "مخ القلب The Heart Brain".

(2) Armour, J.A. and J. Ardell. Eds. (1994).Neurocardiology. New York, NY, Oxford University Press.

(3) Armour, J.A. (1991). Anatomy and function of the intrathoracic neurons regulating the mammalian heart. In: I. H. Zucker and J. P. Gilmore, eds. Reflex control of the circulation. Boca Raton, FL, CRC Press. 1 – 37.

ولا يقف الأمر عند ذلك الحد، بل إن هذا "المخ الصغير" يشـارك في توجيـه المـخ الكبير ! وقد أثبت الباحثون أن تنشيط العصـب نظـير الـودى (الجارسـيمبتاوى) في القلب يؤدي إلى تهدأة النشاط الكهربائي للمخ بنسبة ٥٠ ٪ !!..[١]

---

(1) C.A. Sandman, B.B. Walker, C. Berka.(1982). Influence of afferent cardiovascular feedback on behavior and the cortical evoked potential. In: J. Cacioppo, J. T. and R. E. Petty, eds. Perspectives in Cardiovascular Psychophysiology. New York: The Guilford Press. 189-222.

- R McCraty, WA Tiller, M Atkinson. (1996). Head-heart entrainment: A preliminary survey. Proceedings of the Brain-Mind Applied Neurophysiology EEG Neurofeedback Meeting, Key West, Florida.

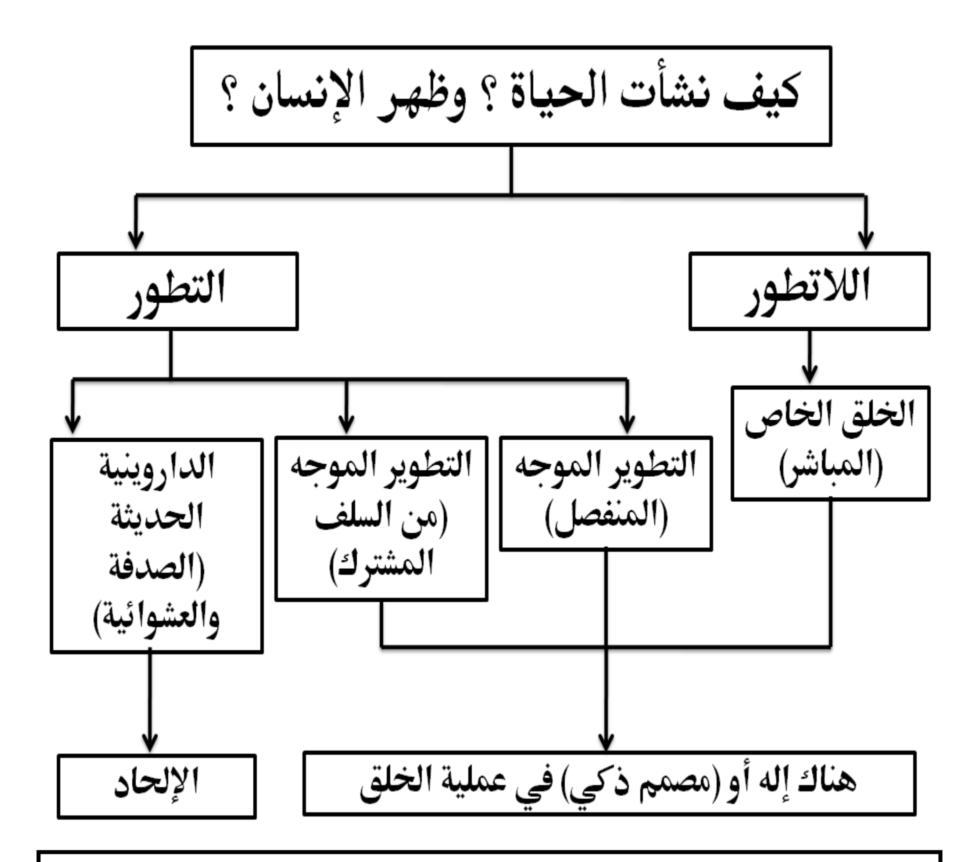
الفصل الثالث

الأطوار البشرية

المدارس الأربعة المختلفة

دعوني أستعرض لكم المدارس المختلفة التـي تتعامـل مـع سـؤال: كيـف نشـأت الحياة؟ وظهر البشر والإنسان العاقل على الأرض ؟

هناك أربعة مدارس مختلفة تتعامل مع هذا السؤال. (أنظر شكل:١).



(شكل: ١): شكل هندسي يوضح المدارس المختلفة التي تتعامل مع سؤال: كيف نشأت الحياة ؟ وظهر الإنسان ؟

أولاً: الخلق الخاص (المباشر):

هـذه المدرسـة منطلقهـا الفكـري والعلمـي مـن الكتـاب المقـدس لـدى اليهـود والمسيحيين وأيضاً الفكر السلفي لدى المسلمين. وهذه تقول أن عمر الأرض حـوالي ٦٠٠٠ سنة فقط وأن الحياة والكائنات الحية جميعاً قـد نشـأت مـرة واحـدة في وقـت واحد بعد خلق السماء والأرض. وأن الله هو الذي خلقهم بيده – بأنه قال كن فكان – مباشرةً ولا يوجد شيء أسمه تطور للكائنات الحيـة فـالعلم نسـبي ولا يُعتمـد عليـه لذلك الحق هو ما قاله الله في الكتب المقدسة فقط .

ثانياً: التطوير الموجه (المنفصل):

وهذه المدرسة تحاول التوفيق بين العلم والدين ففي الغرب تسـمى هـذه المدرسـة بحركة التصميم الذكي. حيث أنها تحاول أن يكون منطلقهـا الأول العلـم فتسـتخدم مصطلحات علمية دقيقة بحيث أن أنصار التطور الدارويني يخجلوا من أنفسهم عنـد سماع وجهة النظر هذه التي منطلقها العلم الحديث وفي نفس الوقـت تقـول أن هنـاك محرك أعلى هو الذي كان السبب في انطلاق هذا التنوع في الخلق.

ولكن هذه المدرسة لا تؤمن بأن الكائنات الحية قد جاءت (تطـورت) مـن سـلف مشترك ولكن كان كل نوع خُلق بشكل مُنفصل عن النوع الأخر بشكل تـدرجي بـين الكائنات لا تطوري، ولكن النوع الواحد من الكائنات الحية تطور مـن داخـل نفـس النوع أي أنها تؤمن بما يمسى بالتطور الصغير.

ولذلك فهذه المدرسة تقول بأن هناك تطوير من المصمم الذكي أو الإله.

ثالثاً: التطوير الموجه (من السلف المشترك):

وهذه المدرسة هي خليط بين المدرسة الثانية والمدرسة الرابعة حيث أنها تقول أن هناك إله (مصمم ذكي) ولكن تؤمن بما تقوله الداروينية الحديثة بأن الكائنات الحية جاءت كلها من سلف مشترك (الخلية البدائية الأولى) ثم تطورت منها حتى ظهر أخر هذه الكائنات وهو الإنسان العاقل.

رابعاً: الداروينية الحديثة (الصدفة والعشوائية):

وهذه المدرسة هم من أنصار مدرسة داروين للتطور لا تؤمن بوجود إله أو مصمم ذكي مسبب لهذا التطور. ولكن تؤمن بأن الطبيعة (المادية) هي التي أنتجت سلم التطور من الصدفة والعشوائية في خلال زمن طويل جداً.[1]

(١) ولقد شرحت بإسهاب علمي طويل المدارس الأربعة من خلال كتابي الذي يتحدث عن "قصة نظرية التطور"؛ سيتم نشر الكتاب قريباً..

تطور الإنسان من القردة العليا !

إن الداروينية الحديثة تعتمد في مفهوم التطور على عامل يسمى "السلف المشترك"؛ فإن جميع الكائنات الحية بما فيها الإنسان تطور من سلف مشترك قديم أولي وهي الخلية الحية الأولى البدائية. ثم ترقى في سلم التطور حتى وصل إلى أخر هذه الكائنات وهو "الإنسان العاقل الحديث". بذلك؛ يكون الإنسان قد تطور من سلف مشترك بينه وبين القردة ، وهو ما يسمى بـ "القردة العليا". وهذا يعني أننا والقردة أولاد عمومة واحدة !..

فكيف تكون هذه الفرضية صحيحة ؟!

يدعي البعض من العلماء أن جينات القرد والإنسان تتشارك بنسبة عالية جداً مما يدل ذلك على صحة الفرضية التي يذهبون إليها بأن الإنسان قد تطور من سلف شبيه بالقرود !..

لذا فهو يشترك في الكثير من الصفات والمزايا مع القرود المعاصرة، وقد ذهب بعض التطوريين لأبعد من ذلك؛ حيث ادعوا أن قدرات الإنسان ليست إلا قدرات متطورة كانت موجودة في سلفه التطوري.

يقول داروين في كتابه (أصل الإنسان): "إن اختلاف الدماغ بين الإنسان والحيوانات العليا كبير، ولكنه كبير من جهة الكم لا النوع؛ فقد رأينا أن الأحاسيس والحدس وجميع المشاعر والقدرات كالحب والذاكرة والانتباه وحب الاستطلاع والمحاكاة والدراية.. إلخ، كلها – والتي يفخر الإنسان بها – موجودة لدى كائن بدائي من الحيوانات العليا أو في بعض الأحيان لدى كائن متطور من الحيوانات الدنيا".[1]

---

(1) Charles Darwin, "The Descent of Man and Selection in Relation to Sex", 2nd ed (London: John Murray, 1882), p 126.

يدعي بعض التطوريين من ناحية أخرى أن الإنسان يملك قدرات جديدة كليا ولا يمكن تفسيرها تبعاً لقدرات الأسلاف التطوريين. يعرف هؤلاء بأصحاب "نظرية الظهور المفاجئ Emergentists"، ومنهم العالم "هارولد موروويتز".[١]

يقر هؤلاء العلماء أنه على الرغم من التشابهات المهمة بين الإنسان والقردة إلا أنها تشابهات بعيدة، وخصوصاً فيما يتعلق بالقدرات العقلية والروحية، فيعتبرون أن القدرات المتطرفة، كتلك التي كانت لـ "ويليام جيمس سيديس William James Sidis"[٢]، تشير إلى أن الفروق بين الإنسان والقرود جذرية، وتعتبر فروقاً نوعية وليست فروقاً كمية فقط كما ادعى داروين [٣].

كيف أصبحنا بشراً ؟

---

(١) د.وليام ديمبسكي و د.جوناثان ويلز، تصميم الحياة: اكتشاف علامات الذكاء في النظم البيولوجية، ترجمة: د.موسى إدريس وأخرين، ط ١، دار الكاتب للنشر والتوزيع، الإسماعيلية – مصر، ديسمبر ٢٠١٤م، ص ٢٦ . نقلاً عن:

- Harold J. Morowitz, “The Emergence of Everything: How the World Became Complex”, (Oxford: Oxford University Press, 2002), chs 28-32.

(٢) ربما كان "ويليام جيمس" (١٨٩٨م – ١٩٤٤م)، أذكى إنسان عاش في هذا العالم، إذ يتراوح معدل ذكائه حسب مقياس IQ بين (٢٥٠ – ٣٠٠)، استطاع قراءة صحيفة نيويورك تايمز بعمر ١٨ شهراً، وتعلم اللاتينية بنفسه في سن السنتين، ثم تعلم اليونانية في الثالثة من عمره، واستطاع طباعة الأحرف بكل من الإنجليزية والفرنسية في الرابعة من عمره، قدم بحثاً في التشريح وهو في سن الخامسة، وأذهل الناس بقدراته الرياضية، تخرج من مدرسة بروكلين الثانوية بـ (ماساشوستس) وهو في الثامنة، وكان على وشك الالتحاق بجامعة هارفارد، لولا أن هيئة القبول فيها قررت تأجيل ذلك لعدة سنوات ريثما يتم نضجه الاجتماعي، استجاب ويليام للقرار ودخل الجامعة في سن الحادية عشر، ونال الشهادة الجامعية بمرتبة الشرف في السادسة عشر ليصبح فيما بعد أصغر بروفيسور في التاريخ. استنتج ويليام احتمالية وجود الثقوب السوداء قبل أن يتنبأ بذلك عالم الفضاء " شاندراسيخار Subrahmanyan Chandrasekhar"، وعندما بلغ كان يتكلم بأكثر من أربعين لغة ولهجة محلية.

(3) Mortimer Adler, “The Difference of Man and the Difference It Makes” New York: Fordham University Press, 1993.

لازال الكثير من الملحدين الذين اتخذوا التطور كايدولوجيا لنكران الخلق وبالتالي نكران الإله يتحدثون عن نسبة التشابه بين الإنسان والشمبانزي معتبرين ذلك دليلا على أصل مشترك. وساعدت دعاية متحيزة كُلياً لنشر تلك الأفكار وتجاهل حقيقة الأبحاث الحديثة والحقيقية التي أثبتت عكس ذلك الادعاء.

فهل فعلا الادعاء بتشابه الشمبانزي والإنسان يتجاوز ٩٨٪ كما يدعى هؤلاء صحيح علميا ؟

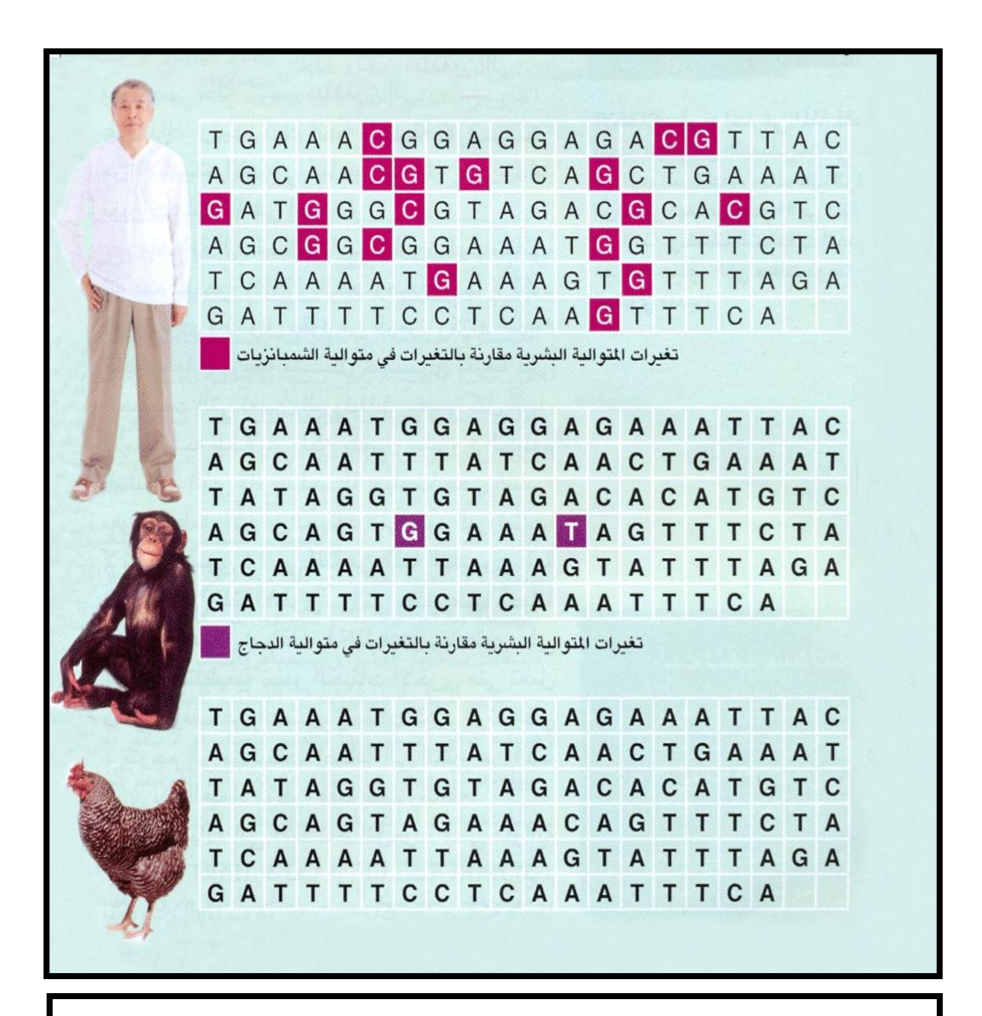
في مقال علمي وجدته في مجلة (Scientific American) الداروينية الشهيرة في عدد ديسمبر ٢٠٠٩م، قامت الدكتورة (كاثرين پولارد Katherine S. Pollard)[1] بنشر مقال علمي بعنوان (What Makes Us Human?). وقد تُرجم المقال إلى اللغة العربية في "مجلة العلوم الكويتية" تحت عنوان (ما الذي يَجْعَلُنَا بَشَرًا ؟) في عدد ديسمبر ٢٠٠٩.

تجربة مسح الجينوم:

للعثور على تلك الأجزاء من جينومنا التي جعلتنا بشرا، قامت الباحثة كاتبة المقال بدراسة متوالية (DNA) في أحد الجينات ويُطلق عليه (HAR1) وقامت بدراسة هذا الجين في كل من الإنسان والشمبانزي والدجاج واكتشفت أن المتوالية للـ (DNA) بين الشمبانزي والدجاج تختلف في قاعدتين فقط من أصل ١١٨ قاعدة بينما يصل الاختلاف بين الإنسان والشمبانزي إلى ١٨ قاعدة، مما يشير إلى أنّ الجين

(١) باحثة في الإحصاء الحيوي بجامعة كاليفورنيا في سان فرانسيسكو. وفي عام ٢٠٠٣، بعد حصولها على الدكتوراه وإجراء أبحاث بعد الدكتوراه في جامعة كاليفورنيا ببيركلي، بدأت "كاثرين" زمالة في الجينوميات المقارنة في جامعة سانتا كروز، وشاركت خلالها في سَلْسَلة جينوم الشمبانزيات. استخدمت "كاثرين" هذه المتوالية لتحديد النواحي الأسرع تطورا في الجينوم البشري. وفي عام ٢٠٠٨ حصلت على زمالة سلون Sloan البحثية في البيولوجيا الجزيئية الحسابية والتطوّرية، ومؤخرا شرعت في دراسة تطور الميكروبات التي تعيش في جسم الإنسان.

(HAR1) قد اكتسبت وظيفة جديدة مهمة في البشر. وهذا يُشكك في دلالة (DNA) وقدرته على التمييز بين الكائنات الحية المختلفة وأن الأمر لا يعدو كونه مجرد متواليات لقواعد نيتروجينية وليس معنى أن مقاس حذاء الإنسان أقرب لمقاس حذاء التمساح من مقاس حذاء الفيل أننا والتماسيح من أصل واحد فهذه سطحية في البحث ودجل باسم العلم.



(صورة: ١): تغيرات المتوالية البشرية مقارنة بالتغيرات في متوالية الشمبانزيات والدجاج.

الدنا المتميّز

تقول "كاثرين پولارد": "تكشف المقارنات بين جينومي الإنسان والشمبانزي تلك الامتدادات النادرة من الدنا التي ننفرد بها وحدنا".



(صورة: ٢): أدت الجهود المبذولة لكشف الدنا المميّز للبشر إلى عدد من المتواليات المتميّزة في البشر مقارنة بالشمبانزيات. وفي هذا الشكل قائمة جزئية بهذه المتواليات مع بعض وظائفها.

النسبة تقل

كثـيرا مـا يـتحجج الملاحـدة و التطـوريين بالتشـابه بـين كروموسـوم الإنسـان وكروموسوم الشمبانزي لإثبات نظرية التطور وبالأخص لنفي خلـق الإنسـان عنـد طريق الخلق الخاص. ولكن العلم كلما تقدم أكثر كلما كشف زيـف هـذه الادعـاءات وأنها كانت مبنيـة عـلى افتراضـات لا أسـاس علمـي لهـا ، وأخـيرا تـم اكتشـاف أن الكروموسوم الذكري(Y) بين الإنسان والشمبانزي مختلف اختلافا كبيرا لا يمكن معه أن يكونا لأصل واحد.[١]

يقول التطوريين أننا نحن "البشر" نتشابه في جيناتنا مع الشـمبانزي بنسـبة ٩٨ ٪. وقد أتت الدراسات الحديثة الموسعة على مناطق أكبر من الجينوم لتثبت عكـس ذلـك الادعاء. فقد وصفت مجلـة (أبحـاث الجينـوم Genome Research) العلميـة المحكّمة المرموقة أن مقارنة جينـوم الإنسـان بـذلك الخـاص بالشـمبانزي هـو يشـبه البحث عن إبرة في أكوامٍ من القش.[٢]

وتقرر المجلة أن نسبة تقارب الإنسان والشمبانزي ليست ٩٨٪ كما يزعمـون، بـل هي ٩٦٪ ومؤخرًا النسبة تترواح بين ٩٣٪ و٩٥٪ ..

بل وأيضاً الدراسات الحديثة تقول أن نسبة التشابه تقل إلى ما يقارب ٨٦ ٪ كحـد أقصى للتشابه بين الإنسان والشمبانزي ولا زال الفرق يزداد توسعا كلما توغل العلماء في الدراسة المتأنية.[٣]

---

(1) Chimpanzee and human Y chromosomes are remarkably divergent in structure and gene content, Vol 463, 536-539 (28 January 2010).

(2) Comparing the human and chimpanzee genomes: Searching for needles in a haystack, By: Ajit Varki and Tasha K. Altheide, Published: Genome Research, 2005, Vol: (15) 1746-1758.

(٣) أنظر إلى المقالات العلمية التالية:

- Global analysis of alternative splicing differences between humans and chimpanzees, Published:"National Center for Biotechnology Information" (Genes & Development) (15 November 2007), Vol 21(22): 2963–2975.

كما أوضحت تلك الدراسات وجود مناطق لكتل كبيره من الجينوم متطابقة من حيث الإدراج والحذف بين الإنسان والغوريلا وغياب تلك العلاقة في الشمبانزي وهو من المفترض تطوريا انه أكثر قرابة من الغوريلا للإنسان بالإضافة إلى اكتشاف أكثر من ١٥ ٪ من التماثل بين الإنسان والغوريلا واختلافهم بها عن الشمبانزي فيما يتعلق بقدرات السمع التي من المفترض تطوريا أن الإنسان تميز بها عن الشمبانزى بعد الانفصال فكيف يفسر التطوريون وجودها في الغوريلا وهى قريب أبعد ؟!

فكيف تظهر بالغوريلا ثم تختفي بالشمبانزي ثم تظهر مره أخرى بالإنسان بنفس الطريقة ؟

يقول التطوري "هنري جي Henry Gee" المحرر العلمي في مجلة "الطبيعة Nature " الشهيرة عن مسألة وجود نسب بين الإنسان والحيوان بناءً على تراص القواعد النكليوتيدية عن أن الأمر لا يعدو مجرد حدوته فيقول:

"وكل ما في الأمر أنها مجرد حكاية أو حدوته من أحاجي منتصف الليل المسلية التي قد تكون مُوَجِّهَةً أو مُرْشِدَةً للإنسان في كثيرٍ من الأحيان إلا أنها ومع ذلك لا تستند لأيّ أساسٍ علمي".[1]

والتشابه الشديد مع الإنسان ليس أمرًا حصرياً بالشمبانزي ! لكن هم يريدون التركيز على ذلك لدعاوى أيديولوجية معلومة. وإلا فنسبة التشابه بين الإنسان والفأر ٩٩٪ !..[2]

- **Genome-Wide DNA Alignment Similarity (Identity) for 40,000 Chimpanzee DNA Sequences Queried against the Human Genome is 86–89%, By: Jeffrey P. Tomkins, Published:"Answers Research Journal", Vol:4, (28 December 2011).**

(1) Henry Gee, In Search of Deep Time: Beyond the Fossil Record to a New History of Life, New York, The Free Press, 1999, p.116-117.

(2) the mouse genome, introduction: Human biology by proxy, BY: Chris Gunter & Ritu Dhand, Published: Nature 420, 509 (5 December 2002).

إذن المفترض أن الفأر أقرب للإنسان من الشمبانزي ! ولكـن هـم يركـزون عـلى دعاوى ومقدمات لديهم ثم يُخضـعون المعطـى العلمـي لمقـدماتهم ويتجـاهلون بقيـة المعطيات!

ألسنا لو اعتمدنا أحجية التشابه الجيني تلك، يمكننا أن نسقط بها شـجرة التطـور ككل ؟

وفضلا عن كل تلك الاختلافات التي صرخت بها الدراسات فإنه من المعروف أن جينوم الشمبانزي يزداد في الحجم عن جينوم البشر بنسبه تتجاوز ١٢٪ وهذا يشـكل أيضاً فرقا جوهريا للتباين. ولكن الدعاية الإعلامية التي اعتبرت التطور إيديولوجيـة إلحادية يدافع عنها باستماتة وبأكبر تدليس انتقائي تم ممارسته في تـاريخ العلـم ظلـت تضلل العامة بتلك الأبحاث المتحيزة والتـي اثبـت عـدم صـلاحيتها وعـدم أمانتهـا فوجدنا التطوريون يدللون على الأصل المشترك بأدلة لا يجب أن يقول بها عالم للوراثة مثل الكروموسوم الثاني الملتحم في الإنسان كدلالة على أصل مشترك.

حيث أنه بذلك يوائم الزوج الناقص عنه في الرئيسيات والقـردة الأخـرى حيـث يقل عنها بزوج من الكروموسومات فعددها بالإنسان ٤٦ بينما بالقردة ٤٨كرموسوم. ولكن التدليل بعدد الكروموسومات على التطور هـو بالأسـاس أكثـر الحجـج التـي تقوض وتعترض افتراض شجرة القرابة والنسب الجيني لأن عـدد الكروموسـومات هـو أول عـائق أمـام شـجرة التطـور المزعومـة حيـث أنـه مـن المعـروف أن أعـداد الكروموسومات تتباين داخل جنس واحد حيث وجـدت، أنهـا بالكلبيـات تـتراوح بتباين هائل حيث يتراوح عدد الكرموسومات داخل فصـيلة الثعالـب بـين ٣٨-٧٨ كروموسوم بين أنواع مختلفة من الثعالب رغم انف علاقة القرابة التطورية المزعومة.

بالإضافة إلي وجود تلك التباينات بكثرة داخل الفصائل المختلفة الشديدة القرابـة كالفئران وغيرها من الأمثلة كثيرا. وقد أثبتـت الدراسـات أيضـا عـدم صـحة ذلـك الادعاء فهذا الدكتور "جيري بيرجمان"، وهو أستاذ في كلية ولايـة نـورث ويسـت في

ولاية أوهايو، أنجز وفريق عمله مؤخرا أبحاثاً على تسلسل الحمض النووي التي تؤكد بجدية على التشكيك في صلاحية نموذج الانصهار وعدم حدوثه من الأساس.[1]

وهناك دراسة مذهلة من جامعة أكسفورد تقول أن ٢٣٪ من الجينوم لدينا يتناقض مع المعيار بين الإنسان والقرد.[2]

السلف المزعوم:

حتى يتحول الإنسان من السلف المزعوم إلى صورته الحالية يتوجب على الداروينية إعطاء تفسير مقنع لنشوء عدة أنظمة بيولوجية تميز الإنسان عن الرئيسيات العليا الأخرى على سبيل المثال لا الحصر:

١. المشي على قدمين منتصبا بالترافق مع التعديل في تركيب الحوض و المخيخ.
٢. استطالة الساق وقصر الذراعان مع يد أكثر حذقًا بكثير، مع بصمات أصابع تمتلك حاسة لمس جيدة للغاية.
٣. تعديل في البلعوم ينتج عنه السماح بالنطق، والتعديل في النظام العصبي المركزي خاصة في منطقة الفص الصدغي والتي تسمح بالتمييز المحدد للحديث.
٤. تغير في الجهاز العضلي.
٥. زوال الشعر.

---

(1) The chromosome 2 fusion model of human evolution—part 1: re-evaluating the evidence, by Jeffrey Tomkins and Jerry Bergman, Published: Journal of Creation, Volume 25, Issue 2: 106–110, (August 2011).

- The chromosome 2 fusion model of human evolution—part 2: re-analysis of the genomic data, by Jeffrey Tomkins and Jerry Bergman, Published: Journal of Creation, Volume 25, Issue 2: 111–117, (August 2011).

(2) Mapping Human Genetic Ancestry, Oxford Journals: Molecular Biology and Evolution, Published: Volume 24, Issue 10, Pp. 2266-2276, (28 July 2007).

٦. المســاحة بــين العينــين قريبــة بــما فيــه الكفايــة لإدراك المســافات والرؤيــة المجسمة. وتقدم شبكية العين وتقدم رؤية الألوان المختلفة .

٧. الذكاء والقدرة العقلية الفائقة والفريدة.

*****

ووفقا لما نشـرته "مجلـة العلـوم Science Magazine"، فـإن الاختلافـات الجينية بين الإنسان والشمبانزي هي ٣٥ مليون زوج من قواعد الحمض النووي عـلى أقل تقدير.[١]

كم من الوقت يلزم لإحداث هذا التغيير ؟

في ورقة علمية نشرتها "المركز الوطني لمعلومات التكنولوجيا الحيوية National Center for Biotechnology Information" (NCBI)، للعـالمين (Rick Durrett and Deena Schmidt)، التـي تـم نشرهـا في ٢٠٠٨ بمجلة "علم الوراثة Genetics"، بغرض التوصـل إلى اسـتنتاجات نظريـة حـول المعدل الزمني المطلوب لتثبيت الطفرات داخل المجموع السكاني لنوع من الإحياء عن طريق العمليات الحسابية ونماذج المحاكاة الحاسوبية.[٢]

وجدوا أن الفترة الزمنية اللازمة لتثبيت طفرة واحدة فقط في أسـلاف الرئيسـيات هي ستة ملايين سنة. وأن الحصول على أثنين فقط من الطفرات وتثبيتها عـبر التطـور الدارويني للبشر هو ١٠٠ مليون سنة.

---

(1) Relative Differences: The Myth of 1%, By: Jon Cohen, Published: Vol. 316, Issue 5833, pp. 1836, (29 Jun 2007).

(2) Waiting for Two Mutations: With Applications to Regulatory Sequence Evolution and the Limits of Darwinian Evolution, By: Rick Durrett and Deena Schmidt , Published: vol. 180 no. 3, 1501-1509, (1 November 2008).

- Waiting Longer for Two Mutations, By: Michael J. Behe, Published: vol. 181 no. 2, 819-820, (1 February 2009).

- ما الذي يعنيه هذا ؟

مما سبق يتضح أمر غاية في الوضوح بخصوص فاعلية معدل الطفرة في التطور البشرى المزعوم وفشل الداروينية في توفير الدعم النظري بعد فشل الدعم التجريبي لإثبات قصة السلف المشترك.

بعبارة أخرى، إذا كان تاريخ الانفصال التطوري الذي حدث بين الإنسان والشمبانزى من السلف المشترك قد حدث ما بين خمس لسبع ملايين سنة مضت وهذه الفترة التي من المفترض أن يختلف فيها الإنسان عن الشمبانزى بما مقداره ٣٥ مليون زوج من قواعد الحمض النووي عن طريق الطفرات هي بالكاد كافية لحدوث وتثبيت طفرة واحدة فقط.

فماذا لو علمنا أن تقديرات الوقت المتاح للحصول على اثنين من الطفرات اللازمة في طريق تطور البشر بحسب – البحث الذي أشرنا إليه – هي ٢١٦ مليون سنة، وهى طويلة بشكل غير واقعي، وهذا يعنى أن الوقت الذي من المفترض أن تتطور فيه كل الثدييات على كوكبنا من ثدي بدائي عاش في هذا الوقت يتحصل فيه نموذج الوراثة السكانية على طفرتين فقط.

وماذا عن كافة الاختلافات بين البشر والشمبانزي والتي رصدنا بعضها في مستهل كلامنا، كم من الطفرات يلزم للحصول عليها، اثنين ؟! عشرات ؟! مئات ؟! ملايين ؟!

تخيلوا كم من الوقت يلزم لذلك ؟...

كيف بدأ خلق البشر ؟

كيف خُلق أوّل كائن بشريّ ؟

في الحقيقة ليس هناك كائن بشريّ أوّل ، بل مجموعة كائنات بشرية ، نشأت بتـدبير القوّة الربّانيّة من طين الأرض وعناصرها ، في أجواء مر بهـا كوكـب الأرض مغـايرة تماماً لما نحن فيه اليوم. ثُمّ هذه الكائنات البشـرية المنبثّـة رجـالاً ونسـاءً ، تزاوجـت ، وأنجبت السلالة البشرية التي تطوّرت عبر مئات الآلاف من السنين.

وكما قلنا فلم يتطوّر الكائن البشري من قرد أو كائنات أدنى ، بل بدأت الكائنـات جميعها متمايزةً بأنواعها ، بجيناتها الخاصّة بها ، ونمـت في حاضـنات (بيـوض) طينيـة بدلاً من الأرحام حتّى اكتملت ، فخرجت إلى الدنيا ، لتبدأ من بعدها حقبة التزاوج.

المخلوق الخنثى

بدأت الخلايا الأولى التي كانت بمثابة بذور البشر، والمتكوّنة على ضـفاف الأنهـار كانت "لا جنسية / خنثى" (xx - yy)، أي تختزن جنس ذكـر (xy) وأنثـى (xx)، كما عبّر القرآن عنها: { خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ } (النساء: ١).

وفي التراث السومري والبابلي وصفوا الكائن الحيّ الأوّل "بالمخلوق الخنثى" وهو **"الكائن/ القوّة الذي أبدعته قوّة المياه العذبة النقيّة (أنكي/ إيا) من تحت ظفره الوسخ ليس بذكرٍ ولا أنثى".**[١]

هذا يعني بلغتنا أنّ فعالية المياه العذبة كوّنت خلايا كلّ كائن حيّ بتـدبيرٍ ربـوبيّ في الطمّي الطيني الوسخ المتشكّل على شواطئ المسطّحات المائية (الظفر الوسخ للماء) كما قال تعالى: { وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِـنْهُم مَّـن يَمْشِي

(١) د.فاضل عبد الواحد على، عشتار ومأساة تموز، ط ١، دار الأهالي للنشر والتوزيع، دمشق – سورية، ١٩٩٩م، ص ١٤٩ .

عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } (النور: ٤٥)؛ حتّى بلغت هذه الخلايا البدئيّة في مراحل تطوّرها التكاثر بالانقسام إلى زوجين، ثمّ عَلقت ونمت حتّى بلغت وفقست عن بشرٍ بالغين، نبتوا من "بيوض/ قوالب الطين"، كما نبت كلّ شيء قبلهم بعشرات ومئات الملايين من السنين.

وفي ملحمة الخليقة البابلية قبل ٤٠٠٠ عام إشارةٌ إلى هذا، أنّ القوةّ الربّانية المضطلعة بالإنسان (ويُسمّونها "إنليل") قامتْ بعد تذليل الأرض بسمائها، بخلق البشر، لكنْ كيف ؟ تقول الملحمة: (فحفر – أي الربّ – شقّاً في الأرض ووضع بدايات البشرية في الشقّ، وعندها بدأ البشر يظهر كالحشيش في الأرض)، وهذا، من نصوص سومر، فالحقيقة واحدة هي هي لمْ تتغيّر.[1]

قال تعالى:{وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا} (نوح: ١٧ – ١٨).

فبناءً على هذا، سنأخذ جولة تَدبُريه في آيات الله تعالى لنستكشف من معادلاته الدقيقة ما يقوله بشأن خلق البشر ثمّ الإنسان.

أوّلاً: اختصام الملأ الأعلى:

سأستعرض معكم القصة من الآيات القرآنية بشكل سريع جداً لنصل إلى الهدف المراد ذكره.

قال تعالى: { مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ **بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ** (٦٩) إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) } (ص).

---

(١) جمعية التجديد ، الخلق الأول: كما بدأكم تعودون، ص ٣٢ .

فإن الرب (سيد الملائكة)[1] حين أعلم (الملائكة الدنيا)[2] بإنشاء الكـائن البشـريّ الذي هو آخر الكائنـات الأرضـيّة؛ { وَإِذْ قَـالَ رَبُّـكَ لِلْمَلاَئِكَـةِ إِنِّي خَـالِقٌ بَشَرًـا مِّـن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِـي فَقَعُـوا لَـهُ سَـاجِدِينَ } (الحجر: ٢٨ – ٢٩).

لم يذكر أبداً أن الملائكة احتجّت على إيجاد هذه الفصيلة المتميّـزة الأخـيرة، وهـي فصيلة غير مصنّفة، هي فوق الحيوان ذكاءً، مع إخباره لهم بأنّه متى ما تمّ تسويته ونفخ الروح فيه سيأمرهم بالخدمة والإذعان له (السجود)، إلاّ أنّه لمْ يقُم احتجاجٌ منهم على ذلك.

بيْد أن بمجرّد أنْ قال في ظرفٍ آخر أنّه سيجعل من ذلك المخلوق خليفة، احتجّوا أو تساءلوا بأنّه يُفسد ويسفك الدماء { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَـةِ إِنِّي جَاعِـلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْـدِكَ وَنُقَـدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } (البقرة: ٣٠)؛ فماذا يعني هذا ؟

يعني أنّ الملائكة كانت لهم ثلاث محطّات:

١– خلق البشر من الطين، وهذه رضوا بها، بل خدموا في تهيئة ظروفها.

٢– قرار السجود له، وهذه لمْ يحتجّوا عليها.

٣– قرار جعل ذلك البشر خليفة، وهذه أشكلوا عليها.

---

(١) هذا الرب هو من الملأ الأعلى قد يكون (جبرئيل)؛ فالحوار هنا بين الربّ – هو ربّ الملائكة الدنيا (الجنيات بلغة عصرنا)، فهو سيّدهم الأعلى المشرف على الملائكة الدنيا العاملين – (الرئيس الأعلى وربّ العمل بلغة اليوم).

وهو "ربّ الأرباب" في لُغة التراث القديم وقصْدُهم سيّد الملائكة المدبّرة، فالحوار ليس بين الله العليّ الواحد الأحد وبين هذه القوى لأن سبحانه: { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) } (يس).

(٢) قلنا أن المقصود بها – بلغة أهل العلم الحديث اليوم – هي: (الجينات داخل الجسم البشري).

فنهض إشكالُهم لأنّهم عاينوا فعْلاً ما يفعله البشر طوال التاريخ المديد من إفساد الطبيعة ومنْ أكل بعضه البعض أيضاً، وكلاهما عنصران منافيان لتولّي الخلافة مثلما قال سبحانه: {وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ} (البقرة: ٢٠٥)؛ وقال تعالى: { فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ } (محمد: ٢٢).

فالإفساد البيئيّ، وإهلاك النسل، ظاهرتان تقفان على النقيض، مع الدور الاستخلافي، هذا المنطق الصحيح، باحت به الملائكة بعفويّتها.[١]

ثانياً: النشأة الأولى والثانية والثالثة:

١- النشأة من الأرض:

قال تعالى: { وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ } (هود: ٦١).

فالتركيز هنا على **"أنشأكم من الأرض"**، ليس لها إلاّ معنىً واحد، هو خروج البشر أوّلاً من الأرض.

٢- النشأة من قوم آخرين:

قال تعالى: { وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ **كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ** } (الأنعام: ١٣٣).

الآية تخاطب الناس جميعاً، فكلّهم جاءوا مِن ذرّية قومٍ آخرين مغايرين لنا، هم البشر الأوائل، الخلق البهائمي البدائيّ غير الإنساني. أنشأنا سبحانه منهم وأبادهم بالتدريج (عدا فلولٍ ربّما نعثر عليها في الأدغال أو في مغاور الكهوف)، لذلك قال

---

(١) جمعية التجديد ، الخلق الأول: كما بدأكم تعودون، ص ٥٠ – ٥١ .

تعالى (ويستخلفُ منْ بَعْدِكُم ما يشاء) وليس "بعْدَكم" الدالّة على حقبة لاحقة مباشرة، وليس "مَن يشاء" الدالّة على هويّة معلومة، بل هو استبدال الجنس الإنساني كاملاً، وليس توريث الذرّية الأبناء مكان آبائهم، أو استخلاف قوم مكان قوم.

إنّ هذا "الإنشاء لنا من ذرّية قومٍ آخرين" حصل مرّةً واحدة فقط حين إنشائنا أوّل مرّة، ولو حصل مرّةً ثانية – كما تتوعّدنا هذه الآية – لاستُبدل الجنس الإنساني برمّته، ولكنّه لمْ يحصل، أمّا توريث الذراري، والاستبدال فقد حصلا كثيراً، بل هما الماضي مع خيار حصوله مستقبلاً قال سبحانه مستهلاً (إنْ يشأ) ولمْ يقل (إذا يشأ أو إن شاء)، والصورة نفسها عبّرتْ عنها آية أخرى.

قال تعالى: { **إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ** وَيَأْتِ **بِخَلْقٍ جَدِيدٍ** * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ } (فاطر: ١٦ – ١٧).

وقال تعالى: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ **إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ** } (إبراهيم: ١٩).

فهو خلْق جديد غير "الناس" (غيرنا نحن)، كما بيّنه صريحاً أيضاً : { إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ **أَيُّهَا النَّاسُ** وَيَأْتِ **بِآخَرِينَ** وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا } (النساء: ١٣٣). لاحظ "آخَرين" بفتح الخاء المغايرة في الكيفيّة لجنس "النّاس".[1]

٣- نشأة الأرض ونشأة الأرحام:

قال تعالى:{ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ **إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ** وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ } (النجم: ٣٢).

---

(١) جمعية التجديد ، الخلق الأول: كما بدأكم تعودون، ص ٥٨ – ٥٩ .

لاحظ الحقبيتيْن جليّاً، "إذ" الأولى تتحدّث عن مرحلة خلق البشر قبل ولادة الأرحام، و "إذ" الثانية يُبيّن تولّد الجنس البشري في الأرحام. ولماذا خاطب سبحانه الجنس الإنساني **"هو أعلمُ بكم"** بنشأتهم في الحقبتين؟!

لأنّ هاتين الحقبتيْن ما زالت بصماتهما تُؤثّر في مسيرة الإنسان في ميوله الغرائزية البشريّة لارتكاب الإثم والفواحش، الميْل البهائميّ حيث شريعة الخصب والإباحة (العشتاريّة الأولى) موجود في جيناته ومكوّن وعيه المتراكم عبر الدهور، والمورّث له عبر هاتين المحطّتيْن، محطّة الزمن الأوّل (الدهر الأوّل المنسيّ) حيث "المستقرّ" هي الأرض، ومحطّة الأرحام حيث يقع الشذوذ السلوكيّ الذي يُسبّبه الوالدان بنوازعهما لحظة الوقاع الجنسي وعقد نطفته، وهي محطّة "المستودع"، ولذلك صار الحمل "وديعة"، وصار وجوب التخيّر للنُّطف، من صميم أمانة الدِّين ووعيه.[1]

٤- "النشأة الأخرى" و "النشأة الآخرة":[2]

قال تعالى: { وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ * وَأَنَّ عَلَيْهِ **النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ** } (النجم: ٤٥ – ٤٧).

هذه الآية تُبيّن بوضوح أنّ تحديد جنس الذكورة والأنوثة، لا يكون في بويضة الأنثى (لأنّها تُعطي نصف مجموعة الكروموزومات – الصبغيّات)[3]. كما أنه ليس في "حويمنات" الذكر (لأنّه يُعطي النصف أيضاً)، لكنّها في منيّ الرجل حين يُلقّح البويضة، فإنْ سبق "حويمن" (حيوان منويّ) يمتلك صبغيّة الذكورة كان المولود ذكراً، وإنْ سبق آخر يملك صبغية الأنوثة كان العكس، وهذا تماماً دلالة العبارة (إذا

---

(١) جمعية التجديد ، الخلق الأول: كما بدأكم تعودون، ص ٥٩ – ٦٠ .

(٢) نفس المرجع، ص ٦٠ – ٦٨ .

(٣) دانييل كيفلس و ليروي هود، الشفرة الوراثية للإنسان: القضايا العلمية والاجتماعية لمشروع الجينوم البشري، ترجمة: د.أحمد مستجير، العدد ٢١٧، سلسلة: عالم المعرفة – الكويت، يناير ١٩٩٧، ص ٥٦.

تُمنى) ففي هـذا الظـرف فقـط يتحـدّد الجـنس لا قبلـه، ظـرف (إذا)، ظـرف سـباق "الحويمنات" من الرجل نفسه، لا قبله ولا بعده، ظرف أولى ساعات المعاشرة.

وهذا ما يُحتمَل (في قراءة ثانية) أنْ نفهمه من قول النبيّ: (وإذا سَبَقَ مَاءُ الرجل ماءَ المرأة نَزَعَ الولد)[1]، وفي حديثٍ أخر: (مَاءُ الرَّجُـلِ أَبْـيَضُ، وَمَـاءُ الْمَـرْأَةِ أَصْـفَرُ، فَـإِذَا اجْتَمَعَا، فَعَلَا مَنِيُّ الرَّجُلِ مَنِيَّ الْمَرْأَةِ، أَذْكَرَا بِإِذْنِ الله، وَإِذَا عَلَا مَنِيُّ الْمَرْأَةِ مَنِيَّ الرَّجُـلِ، آنَثَا بِإِذْنِ الله)[2].

أنّ ماء الرجل وماء المرأة كلاهما من حويمنات الرجل، (ماء الرجـل أيّ الحـويمن الحامل الصبغة الذكوريّة، وماء المرأة أي الحويمن الآخر الحامل الصبغة الأنثوية)، مع تسليمنا بالقراءة الأولى الأخرى القائلة أنّ ماء (إفرازات) المرأة حمضيّ، ومـاء الرجـل قلويّ، ولُوحظ أنّ غلبة الوسط الحمضيّ (أيْ غلبة مـاء المـرأة وعلـوّ تركيـزه) يُنشّـط الحويمنات ذات الصبغة الأنثوية لتلقيح البويضة، والعكس في الآخر.

ولنا أنْ نجعل "نطفة" هي بويضة المرأة بالخصوص، و "إذا تُمنى" أي حين يلقحها منيّ الرجل، لتظلّ متوالية خلق الذكر والأنثى من ذكر وأنثى، وهكذا، وهـذا يُوافـق جواب (نبيّ الأمّة) في حديث عبد الله بن مسعود الذي رواه أحمد بن حنبل في مسـنده جواباً لليهوديّ الذي سأله : يا محمّد .. ممّ يُخلق الإنسان ؟ قال النبي: "يا يهودي، من كل يخلق، من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة"[3].

ومغزانا من الآية، هو عبارة "النشأة الأخرى"، فما معنى "الأخرى" ؟

---

(١) أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية للنشر – الرياض، ١٩٩٨م، حديث رقم: (٤٤٨٠)، باب: تفسير القرآن، ص ٨٤٧.

(٢) الحافظ أبي الحسين مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، بيت الأفكار الدولية للنشر – الرياض، ١٩٩٨م، حديث رقم: (٣١٥)، باب: الطهارة، ص ١٤٥.

(٣) أحمد بن محمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل: وبهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال، المطبعة الميمنية – مصر، ١٣١٣ هـ، ج ١، ص ٤٦٥.

"أُخرى" هي مؤنّث "آخَر" بفتْح الخاء، وهي تفيد البدليّة والمغايرة. أمّا "آخِرة" فهي مُؤنّث "آخِر" بكسر الخاء، وهي مقابل الأولى والأوّل.[1]

وبين "الآخَر" و "الآخِر" مسافةٌ شاسعة، فلنا أنْ نقول أنّ الله هو "الآخِر"، ولكن لو قُلنا أنّه "الآخَر" لأشركنا معه إلهاً ثانياً، له كيفيّة مغايرة عنه. وقد تكرّرت مفردة "أخرى" في القرآن ٧١ مرّة بنفس المعنى مفيدة البدليّة والمغايرة. يجب أنْ نفهم هذا لأنّ ما سنقوله الآن وفي النقاط التالية ينبني ويتأسّس على هذا التفريق.

فالآية تُخبرنا أنّ هناك نشأتيْن في الكيفيّة لا في الكمّية (فهي ثلاث في الكمّية):

١- نشأة معتادة، من الأرحام.

٢- نشأةً أخرى، أيْ مغايرة في الكيفيّة بدلاً من تلك النشأة المعتادة.

النشأة المعتادة هي التولّد من لقاح ذكر وأنثى، بويضة وحويمن، وهذه النشأة المعتادة هي علينا – نحن البشر – تفعيلها أو تعطيلها، أمّا النشأة الأخرى فهي مخصوصة ومُحتكرة على الربّ بكيفيّة فرديّة غير تكاثريّة لا دوْر لنا ذكوراً وإناثاً فيها، فمتى حصلت أو ستحصل تلك "النشأة الأخرى" ؟

هناك نشأةٌ علينا هي نشأة التولّد من الأرحام، وهناك نشأة على الله هي "أُخرى" أي مغايرة للمعهود الذي نراه، وهذه الأخرى تحصل مرّتين : (أولى حين بدء الخلق البشري، وآخرة حين البعث)، وكلاهما لمْ نرهما.

---

(١) لاحظ الآيات التالية: قال تعالى: { ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ } (الواقعة: ١٣ – ١٤)؛ و قال تعالى: { قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ } (الواقعة: ٤٩ – ٥٠)؛ و قال تعالى: { أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ } (المرسلات: ١٦ – ١٧)؛ و قال تعالى: {فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ } (الزخرف: ٥٦)؛ الآخِر، بكسر الخاء عكس الأوّل.

قال تعالى: { أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ **ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ** إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } (العنكبوت: ١٩ – ٢٠).

وهذه الآية تدعو الناس بصراحة لاعتماد علم الآثار في معرفة كيف نشأ الخلق، والبشر، لتُطابق الحقيقة القرآنيّة وينكشف لهم صدْقها.

"النشأة الآخِرة"، تعني ببساطة – كما قدّمنا – أنّ هناك نشأةً أولى بنفس الكيفيّة، فالنشأة واحدة وبنفس الكيفيّة، سوى أنّ تلك (أيْ بداية الخلق) هي نشأة أولى، وهذه (إعادة الخلق) "نشأةٌ آخِرة".

وهذا دلالة "آخِرة" وليس "أُخرى"، فالأولى والآخرة هما اثنتان بالكيفيّة نفسها، ترابٌ يختلط بالماء، فيتشكّل طميّ طينيّ مائع، فتتجمّع العناصر والمكوّنات بل ومُخلّفات الكائنات المتحلّلة من نباتات وحيوانات، لتشكيل الأحماض الأمينيّة اللازمة التي هي أساسات الكائن الحيّ، و يقوم السادة المدبّرون بالنفخ في الصور، فيبثّوا شفرات كلّ إنسان، بإطلاق أوامرها إلى الأحماض لتشكّل بروتينات وخلايا الجسم البشريّ وفق تعليمات الشفرات الجينيّة المتميّزة لكلّ فرد، فيتركّب شيئاً فشيئاً – كما الجنين – في حاضنات الطين المائع المغلّفة بقوالب الصلصال، هذه صورة البعث تماما: **{ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }** (البقرة: ٢٨)؛ وهي الصورة الأولى الغائرة في الزمان، المشهد نفسه.

وبهذه الكيفيّة تنحسم معارك كثيرة، في جدالات ملأت كُتب علم الكلام، عن حشر الأجسام وكيفيّتها، فالمادّة مادّة الأرض وعناصرها، منها خُلقنا أوّل مرّة ومنها نخرج ثانية، أمّا الشفرة المورّثة فكلٌّ وشفرته كما هي تماماً، ولا يهمّ الله أننا تحلّلنا في الأرض أو تبعثرنا في الفضاء أو تحوّلنا إلى حجارة أو إلى حديد أو إلى بخار، لذلك قال: { قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ } (ق: ٤)؛ فالكتاب

الحفيظ أقرب فهمٍ له هو مدوّنة الجينات (الد.إنْ.إيه)، لذا قال تعالى: { بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ} (القيامة: ٤).

وتنحسم بهذا الفهم أيضاً التباساتٌ كثيرة، من أنّ ملايين الناس لمْ تُدفن في القبور، فمنها من مات غرقاً ومنهم من أُحرق وذرّ رماده، ومنهم من افترسته الحيوانات أو تعفّن وتحلّل، ومنهم من مات انفجاراً في الجوّ بل وعلى سطح القمر حسب الحادثة المشهورة، ومنهم ومنهم.

فالكلّ سيخرج، بهذه الصورة، **سيخرج من قبور طينيّة عرياناً سواءً** دُفن أم لمْ يُدفن قبْلاً، كُفّن أم لمْ يُكفَّن، **وتتوحّد بذلك أرض المحشر، كمستنبت زراعيّ لأبدان المبعوثين،** سواءً لمن طُمر تحت ركام جليد سيبريا وكندا، أو غرق في فيضانات بنغلاديش وأندونيسيا أو أُحرق في بمباي، أو دُفن في أنحاء العالَم، فمبعثهم ومحشرهم من أرض العرب كما في الحديث النبويّ أنّها (أرض المحشر والمنشر)[1] .

هكذا كانت البداية وهكذا هي النهاية لذلك يُؤكّد تعالى: { كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ } (الأنبياء: ١٠٤).

و قال تعالى: { كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ } (الأعراف: ٢٩).

وهاتان الآيتان، ودلالة كاف التشبيه والمحاكاة العربيّة، لا تُعطي إلاّ الكيفيّة نفسها، الكيفيّة البدئيّة: { لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } (الكهف: ٤٨).

وقال تعالى: { فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } (الإسراء: ٥١).

وقال تعالى:{ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ } (يس: ٧٩).

---

(١) أبي الفداء إسماعيل بن عُمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، دار المعرفة – بيروت، ١٤١٢ هـ، ج ٣، ص ١٩٤.

وقال تعالى: { أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ * وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ...} (ق: ١٥ – ١٦).

والخلق الأوّل هنا هم البشر وليس الإنسان وإلاّ لقال (فلقد) عاطفاً بالفاء حين قوله **(ولقد خلقنا الإنسان)** ليُفيد أنّه يسترسل في الحديث عنهم، و { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ } (يس: ٧٨).

وكذلك قال: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } (الحج: ٥).

وهذه الآية ترينا أنّ البعث يُحاكي البداية، **هو تصنيع من تراب، وأنّ الأرض هي الرحم الذي سيمرّ فيه الجنين البشريّ، سوى أنّه لن يخرج طفلاً كما جرت العادة من أرحام الأمّهات، بل كما البداية يخرج رجلاً وامرأةً من رحم الأرض.**

موافقاً لقوله: { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ **خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا**...} (الروم: ١٩ – ٢١).

وهذه الآية صريحة بأنّ **الحقبة الأولى أُخرجنا من الأرض الميّتة تماماً كما يخرج النبات، فإذا فجأةً نحنُ بشر ينتشر ويدبّ هنا وهناك،** فتلك آية ربّانيّة مذهلة، ثمّ أعقبها بالآية الثانية حين **تعارفت إناث البشر وذكورها، لتبدأ مرحلة التزاوج وهي الحقبة التي عاصرها الآدميّ وخاطبته الآية بها.**

فالآية وبصراحة تُعلن أنّ خلق البشر المنتشر المُخرج كالنبات قدْ تمّ أوّلاً، ثمّ في مرحلةٍ لاحقة خلق لنا من أنفسنا أزواجاً لنسكن إليها وجعل بيننا مودّة ورحمة، فهو الخلق الإنسانيّ، من نفس الصبغة الجينيّة، ليتمّ التوافق الروحي والعقليّ والاجتماعي والأسريّ.

ولأنّ حقبة البداية نفسها هي حقبة النهاية قدّم سبحانه قوله: { اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } (الروم: ١١)؛ وعقّب سبحانه قوله: { وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } (الروم: ٢٧)، ووسّط "الإنبات من الأرض" بينهما تماماً بدقّة حسابيّة في (آيات الروم: ١٩ – ٢١) الآنفة.

فالتراث العربيّ الصحيح كان يعرف "النشأة الأولى" (أو خلق البشر) كيف حصلت، ويُدرك أنّها من طين التراب، حيث خرجت البشر كالنبات، ولا أدلّ من ذلك أنّ نوحاً قالها قبل أكثر من ٥٠٠٠ عام؛ **{ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا }** (نوح:١٧).

فهذه هي "النشأة الأولى" فليست النشأة الأولى النشأة في الأرحام من النطفة والمنيّ، فالله حين قال: { نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ **النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ** فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ } (الواقعة: ٥٧ – ٦٢).

فقد أحال على علمهم بالنشأة الأولى التي هي من **(تراب/ ماء/ طين/ صلصال)،** وليست تلك التي تتخلّق ممّا يُمنون في الأرحام، وإلاّ لقال "فلقد علمتُم النشأة الأولى" بالفاء ليكون عطفاً وتفريعاً على المعلوم السابق أيْ التخلّق من المنيّ، ولما قال "علمتُم" المفيدة لعلمٍ سابق خارج سياق الكلام، أمّا وقد قال "ولقد" بالواو[١]، فهذا

(١) ولخاصّية الواو هذه قال أيضاً "وما نحن بمسبوقين" بالواو لا بالفاء ليدلّ على عدم العجز عن الإماتة المذكورة أوّلاً، وعلى البعث والإنشاء اللاحق ثانياً.

يعني أنّه أحال على نشأةٍ أخرى خارج الآية لكنّها معلومةٌ في العقليّة التراثيّة وبالإمكان تذكّرها، وإنْ كانت ليست مشاهَدةً لديهم كنشأة المنيّ والأرحام، إذن؛ فالنشأة الأولى معلومةٌ لديهم، كلّ الذي عليهم هو أنْ يستحضروها "فلولا تذكّرون".

والآية تشي بأنّ السلك الناظم بين العمليّات الأربع: خلق الخلائق من المنيّ، وتقدير الموت عليهم، والإنشاء الأخير (البعث)، والنشأة الأولى القديمة، سلكٌ ورباطٌ واحد[1]، وبرمجة واحدة، أشارت إليه الآية بعبارة "أفرأيتُم" وهو "ما تُمنون"، هو الخليّة الأولى التي تحتوي على الشفرة الجينيّة، فهي "الكتاب الحفيظ"، ومدوّنة التخليق والإماتة، وإنْ كان من سرّ لموت الخلايا أو توقّفها عن العمل فهو مخبوءٌ كبرنامج مقدَّر في سطور سلسلة شفراتها، وقد كشف العلم حديثاً بعضاً من هذا؛ أنّ الكروموسوم (الصبغة) الرابع فيه جينةٌ (مورّث) تُعنى بطول الأعمار من أصل ٥٠٠ جينة يحتويها.

٥- **الإخراج "تارة أخرى":** [٢]

إذا أمضيْنا دلالة **"أخرى"** بأنّها تعني كرّةً بكيفيّة ثانية مغايرة، ونؤكّد على **"مغايرة"**، كما قوله: { **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ** مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ **ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ** فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ } (الزمر: ٦٨).

بأنّها تعني "نفخة ثانية" غير الكيفيّة الأولى، فالأولى للصعق والإماتة وسلْب النفوس حياتها الدنيا، والثانية على العكس تماماً هي للإحياء، إذا كان هذا هذا، سنُدرك لماذا قال سبحانه: { مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ **تَارَةً أُخْرَىٰ** } (طه: ٥٥).

---

(١) هو المعبَّر عنه بشدّ الأسر، وهو السلسلة، الرباط، (كما في التراث السومري "اربط عليه صورة الآلهة") أيْ برنامج وقوانين تخليقيّة مقدّرة؛ { نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا } (الانسان: ٢٨). وهو نفسه سلسلة الشفرة الوراثية الإنسانية، المدوّنة الجينيّة.

(٢) جمعية التجديد ، الخلق الأول: كما بدأكم تعودون، ص ٦٨ – ٧١ .

(مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ) بالإنبات الأوّل من الطين كما قلنا، **(وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ)** تجاوزاً الآن وبخطأ نقول: بالدفن والموت الجسدي، **(وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ)** بالبعث والإنبات مرّةً ثانية. لكن ما معنى "تارةً أخرى"، ولماذا أُضيفت هنا ؟

لقد جاءت **"تارة"** مرّتيْن في كتاب الله، واختلفوا في أصل الكلمة فقيل أنّ أصلها من "تور"، ولكنني أقول أنّ أصلها من "تار". ولقد جاء معناها في محيط المحيط من مادة "تار"، أَتارَ الشيءَ إتَارةً: **اعادهُ مرَّةٌ بعد مرَّةٍ.**[١]

إذن؛ دلالة "تارة" هي تفيد أمريْن: **المغايرة والتكرار؛** ولإفادتها التغاير لا يمكن استعمالها في موقع "مرّة"، فالفعل بكيفيّة واحدة لا يمكن أنْ تقوم به تارتيْن أو ثلاث تارات، بل مرّتين وثلاث مرّات { سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ } (التوبة: ١٠١)؛ { إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً } (التوبة: ٨٠)، ولهذا السبب جاء قال تعالى: { مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } (الإسراء: ٥١)، وقال تعالى: { لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ **أَوَّلَ مَرَّةٍ** } (الكهف: ٤٨).

لأنّ خلْقَ أوّل مرّة هو تماماً كخلقِ ثاني مرّة، كلاهما من قبور طينية، ولو قال أنّه خلقنا تارةً أولى كذا، لكان كيفيّة خلقنا التارة الثانية حتماً مغايرا؛ ولهذا السبب تيسّر دمج "تارة" مع "أخرى" لأنّ كليْهما يُفيدان التغاير (كما أسلفنا).

إذن؛ ما الذي يُقابل "الإخراج تارةً أخرى" ؟ إنّه أمرٌ مغاير حتماً، وتجاوزاً نقول: هو خروجنا من الأرحام الذي ينتهي بموتنا ثم إعادة تخليقنا بباطنها (وفيها نُعيدكم)، هو الذي يُقابل (منها نخرجكم تارة أخرى)[٢].

---

(١) بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان – بيروت، ١٩٨٧ م، ص ٧٥.

(٢) قال تعالى: { أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم } (الإسراء: ٦٩)؛ هذه هي الـ "تارة" الثانية في القرآن كلّه، لاحظ أنّ الذي يُقابل "الإعادة في البحر تارة أُخرى"، هو "الخروج منه والنجاة" لا "دخوله أوّل مرّة". فهناك دخول البحر أوّل مرّة، خروج منه، دخوله تارة أخرى وهي تقابل الخروج منه، ولو قلنا "دخوله مرةً أخرى"، لقابلت "دخوله في المرّة الأولى".

لكنْ "تارة" لا تأتي لحدَث واحد، كما قُلنا، بل لمتكرّرٍ مرّتيْن أو أكثر، فهنا في بطن الأرض حدَث: خروجٌ، دخولٌ، خروج، وفي مثال البحر: دخول، خروج، دخول، فنلاحظ أنّ "تارة" تعلّقتْ بالحدث الثالث المغاير للثاني، والمتكرّر عن الأوّل، وهذا بالضبط عملُ "تارة" وفائدتها، أيْ:

(مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ) = (وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ)

(وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ) × (وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ)

فكأنّ الأمر: نُدخلكم في الأرض تارة، ونُخرجكم منها تارة.

وأنتم موجودون بعدما خرجتُم بطريقة (أرحام)، ونخرجكم من الأرض بطريقة أخرى.

فالخلق الأوّل من الأرض هو للجنس البشريّ الأوّل كافّة، لا كما يُتصوَّر أنّه لآدم، فلذلك جاء ضمير المفعول المخلوق بالجمع، أمّا كيفيّته فليستْ كما صوّره الفهم التوراتيّ، بجبل المخلوق البشري فضلاً عن الإنسانيّ من تراب، بل كما يُمكننا تماماً وبالدقّة نفسها تصوّر عمليّة الإعادة للبعث، إخراجاً كما النبات.

قال تعالى: { وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ } (ق: ٩ – ١١)، الصورة هي هي.

على أنّا فهمنا آنفاً أنّ "تارةً" أفادتْ خروجاً من الأرض **(منها خلقناكم)**، ثمّ دخولاً فيها **(فيها نعيدكم)**، ثمّ خروجاً آخر **(منها نُخرجكم)**، ولكنّ الواقع المعاش يُكذب هذا كما بيّنا فيما سبق، فهناك الملايين لمْ يُدفنوا، بل أُحرقوا، والبعض مات في الفضاء وفي خارج الكوكب، فكيف نفهم **"فيها نُعيدكم"** التي أدركنا من كلمة "تارة" أنّها العمليّة التي تُغاير **"منها نُخرجكم"** ؟

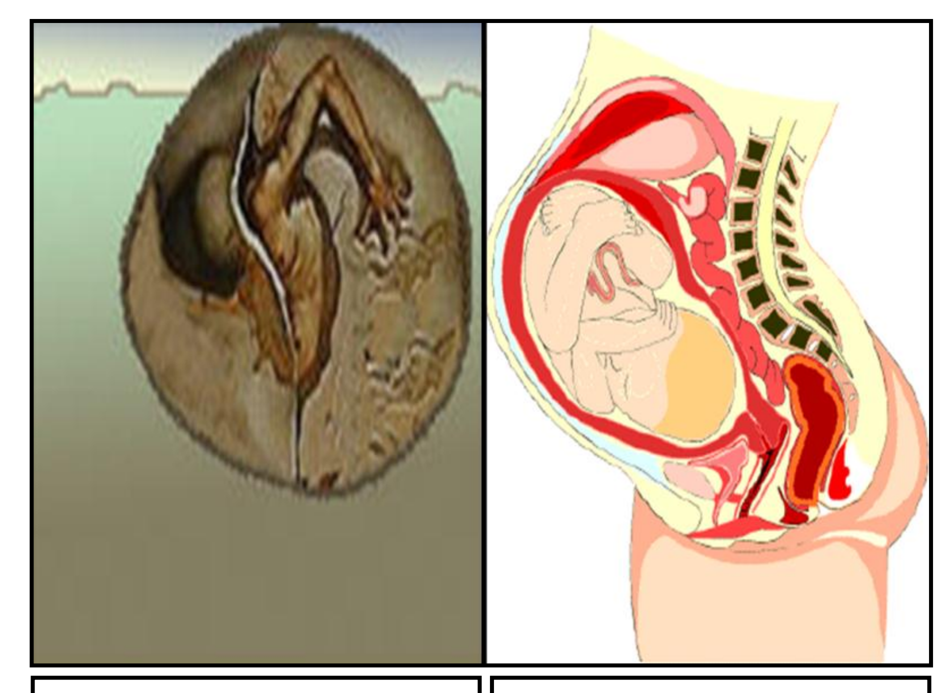
هذا أمرٌ لمْ يتوقّف أحدٌ ليسأله، وهو نفسه السرّ الذي تكشفه كلمة "نُعيدكم" فهي تعمل بوجهين: وجهٍ يعني الإدخال في الأرض ليُقابل الإخراج الأوّل من الأرض (الخلق البدئي)، وهذا الوجه يُفيدنا أنّه يُعزّز أنّ الخلق البدئيّ كان إخراجاً سيُقابله بعدئذٍ إدخالٌ في الأرض (الدّفن أو التحلّل إلى عناصر التراب). لكنّ سيادة هذا الوجه وانطلاؤه هو الذي أفضى بالإشكال المطروح.

الوجه الثاني لمعنى **"يُعيدكم"** هو **(rebuilt/recreate)** إعادة تخليق وتركيب ذرّات وخلايا وأعضاء الإنسان نفسه، وهو نفس المعنى الذي عناه المُنكرون {فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} (الإسراء: ٥١)، فهم لمْ يقصدوا الوجه الذي معناه "منْ يدفننا في الأرض ؟" قطعاً ! ليسألوا عن هويّة الدفّان!! بل "مَنْ يُعيد تخليقنا بعد انفنائنا؟".

*****

فبهذا الكشف، تتّضح الخارطة كلّها ويزول الإشكال، **أنّ الله صنعنا في طين الأرض وأنبتنا منها لنخرج في البدء، ثمّ لو متنا أينما متنا ولو في المرّيخ أو في زُحل، فسوف يتمّ "إعادتنا" في نهاية الأمر (بمعنى تصنيعنا) في طين الأرض، لنخرج مرّة ثانية كما خرجنا أوّل مرّة.**

وهذا بالتمام ما أفصحته الآيات: { وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا} (نوح: ١٧ – ١٨)؛ فتأمّل كيف جاءتْ "ثُمّ" بين "أنبتكم" في الزمن السحيق و "يُعيدكم" المستقبليّة، وهي حقبة قدْ تكون امتدّت لملايين السنين، ولكنْ ما مِنْ "ثمّ" أتتْ بين "الإعادة" (التصنيع في باطن الأرض) و "الإخراج"، لأنّ الإخراج سيعقب الإعادة – التي هي التخليق نفسه – مباشرةً، فالأرض الطينيّة والمستنقعات إذاً كانت مصنع النشوءات طُرّاً.



(صورة: ٣): نشأة الأرحام المعتادة.

(صورة: ٤): نشأة الأرض الأولى ثُمّ الآخرة يوم البعث من بيوض الطين.

كيف خُلِق الإنسان ؟

قال تعالى: { هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) } (الإنسان).

إن الآية الأولى تُخاطب الإنسان لتقول له: لو بحثتَ بعمق لعلمت أنّ جنسك (البشريّ) كان حيناً من الدهر شيئاً لا يُذكر، لأنّك حينها لمْ تكنْ إنسانا.

ولكن، **متّى صار الإنسان إنساناً ؟**

هذا ما تُبيّنه الآية الثانية، لذلك كرّرت لفظة "الإنسان" للتباين، ولمْ تُعوَّض بالضمير، فقالت أنّه خُلق بتصرّف جينيّ (نطفة – أمشاج)، والأمشاج هي: **(ما يُخلط ويُغزل بدقّة بين شيئين ولونين)**[1] .

ولا نجد في الإنسان غير الكروموسومات (الأمشاج) تكون نتيجة مزيجٍ بين لونين من الخصائص أيْ "صبغة" (ومن ماء أب وأم)، حيث نصفها من الرجل (٢٣ منها)، ونصفها من المرأة (٢٣ الأخرى)، وهي مخزن الطبائع الموروثة المختلطة (صبغة) من الوالدين.

وكلمة "صبغيّة" هي ترجمة لكلمة (كروموثو / كرموسوم CHROMOSOME) التي هي أصلها عربي ثم صارت في اللغات الأجنبية كروموسوم، فكلمة "كرومو" هي الأصل وهي: (كرومو لفظاً بالسريانيّة و "قُرْمة" بالفصحى: صبغة / أصل).

---

(١) محمد بن مكرم ابن منظور، معجم لسان العرب، الجزء الثاني، ص ٣٦٧ .

وكما أنّ "الصبغة" صارت في الفهم المتداول طلاء، فالصبغة هي "الخلْق الحيويّ" في اللغة العربية العربية أيضاً أو كما يقوله النص القرآني: { صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ } (البقرة: ١٣٨).

فكما أنّ "البويا" أيضاً تعني صبغة، فندعو الجينات "صبغيّات" وهي كلمة صحيحة، فإنّ "بويا" تعني: (صبغة وخلْق حيويّ وحياة)، إلا أنّها صارت مع الاستخدام اليومي العامّي البسيط تستخدم في الطلاء فقط أيْ في الدهان، بينما هي في الأصل تعني صبْغة، فمن هذه (البويا) ذهبت أوروبا وصارت "بيو- لوجي": (علم الحياة BIO-LOGY) ظناً منهم أنّ كلمة بويا هي إغريقيةّ !..

فعَوْداً إلى الآية، واضحٌ منها أنّ الـ "أمشاج" أخصّ من الـ "نطفة"، إذن؛ هي شيء لا بدّ أنْ يُوجد في النطفة (الخليّة المائعة الأولى). فعلى هذا، ينتفي الوهم الذي يُلحق هذه الآية (نطفة – أمشاج) ويُصيّرها نفس آيات (نطفة من منيّ يُمنى / نطفةٍ إذا تُمنى)، ذلك أنّ كلّ آيات نطفة المنيّ التي محضنها الرحم كانت شفرتها جينات إنسانية ثابتة متوارثة، أمّا تخليق الإنسان الأوّل (آدم) بتحويله من الكائن البهيميّ، فقد كان بتصرّف وتعديل جينيّ (هندسة ربّانيّة جينية بلُغة اليوم)، فالإنسان الأوّل خُلِق من أمشاج، وبنوه (بنو آدم) ورثوا هذه الخلْقة / الصبغة الجينيّة من المجموعة الآدمية العاقلة الأولى، لذلك نرى تحوّل آدم المباشر إلى "سميع بصير".

أنّ المخلوقات البشرية الأولى الخارجة من تراب الأرض[1] (والمخلوقات الثانية أيضا أي نحن البشر الإنسان الخارجة من الرّحم) بدأ كلّ منها من نطفة، أي من خليّة

(١) الآية التي تُبيّن هذا في سورة فاطر، التي تشير إلى الفطر الأوّل بقوله تعالى: { وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ} (فاطر: ١١). فالـ "نطفة" ليست تلك التي في الرّحم، لأنّ مرحلة الـ "أزواج" من ذكورة وأنوثة ينبغي أنْ تسبق "نطفة"

أولى (قابلة للإخصاب والتكاثر)، وكذلك الإنسان في طور الرحم يبدأ بالنطفة أيضاً، فآدم الإنسان الأوّل بدأ بالنطفة (الخليّة الأولى المائعة) حينما لمْ يكن شيئا مذكورا. فالإنسان في كلا الحقبتيْن بل وكلّ الكائنات الحيّة تبدأ من نطفة (خليّة حيّة أولى) كيفما كانت الطريقة الحاضنة خارج الرّحم أو داخله.

إنّ كلمة نطفة يُعبّر بها عن المتبقيّ من قطرات الماء في الإناء، وهي صورة تعادل ما بصدده كون آخر قطرات الإناء هي أوّل ما سُكب فيه (تقريباً، بفرض عدم الاختلاط، وعلى نحو التمثيل والتقريب) وهي آخر ما بقي منه، وهذا يُحاكي صورة النطفة الحيّة أو الخلايا الأمّ الأولى التي نسخت نفسها وانقسمت وهكذا، فلو قُمنا بحذف / نزف / تجاهل / شطب كلّ الخلايا – النُّسَخ المُضافة من جسم الإنسان، لصفينا أخيراً على الخليّة الأصل المتبقّية وهي كالنطفة في الإناء، وهي الخلايا الأولى المعبّر عنها علميا بالخلايا الجذعية كاملة القدرة أو القوّة، أو قُلْ هو النسخة الأولى من الـ (DNA).[1]

= الرّحم لا أنْ تعقبها في ترتيب الآية، بل الأولى فهمها كمراحل الانبثاق البشريّ، بيولوجيا الخلق البشريّ، إذْ كان تراباً أوّلاً، ثمّ بعد دهور، بعد أن صار التراب طيناً وسلالات طينيّة، تكوّنت من عناصره الخليّة البشريّة الأولى (البذرة)، وهي الـ "نطفة"، في الطين، ثمّ انقسمت عن خلايا جنسيّة لتكوّن بعد أحقاب مديدةٍ الرجال والنساء وهي المعبَّر عنها (ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا)، وظلّت إلى الآن هذه الأزواج، التي بدأت مِنْ نقطةٍ تاريخيّة تنسل البشريّة عبر أرحام إناثها، المعبّر عنه (وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ).

(١) جمعية التجديد ، الخلق الأول: كما بدأكم تعودون، ص ٧٤ – ٨٥ .

بث الرجال والنساء

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي **خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً** ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا } (النساء: ١).

لدقّة الهندسة القرآنية وبراعتها، لم يلتفت المفسّرون إلى علّة وضْع مفردتيّ "الرجال" و"النساء" في قوله سبحانه: **"وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً"**.

فقال كثيرُهم : أنّ "النفس الواحدة" هي آدم، و "زوجها" هي حوّاء، وهذا ما قاد البعض إلى تصوّر الفهم التوراتي أنّ حوّاء خُلقت من ضلع آدم ! ثمّ فهموا على ضوء ذلك أنّ من آدم وحوّاء بث الله الرجال والنساء، وهذا قادهم مرّةً ثانية إلى الخطأ الثاني بتصوّر أنّ أبناء آدم الذكور تزوّجوا أخواتهم الإناث، فانبثقت البشرية، وكان الأمر – حسب منظورهم – مقبولاً في البداية اضطراراً ثمّ حرّمته الشريعة !!..

إذن، خطأٌ واحد استتبع أخطاءً على مستوى العقيدة والتشريع، ناهيك عن الأخطاء على مستوى العلْم والحقيقة التاريخيّة.

وقد قلنا من قبل[1]؛ أن أصل مادَّة خلق النّفس، هي مخلوقة من مارج من نار (طاقة)، أي من خلاصة اختلاط واضطراب ألسنة النّار الصّاعدة الملتهبة. وبذلك صار الإنسان كائناً ترابياً ونارياً بوقت واحد، أي جسم ونفس، وروح تحكمه.

وقد عرفناأيضاً؛ أنّ البداية البشرية انبثقتْ من خلايا وحيدة لا جنسيّة، انقسمت كلٌّ منها إلى خليّتين جنسيّتين ذكريّة وأنثوية، ما أنتج بفعل الظرف الخاصّ واليد الربّانيّة خلايا مخصّبة (بيوضاً) كثيرة تحتضن أجنّةً بشريّة، نمت هذه "البيوض" في

---

(١) أنظر في هذا الكتاب الباب الثاني، الفصل الثاني: الروح والنفس.

محضن الطبيعة "الأرض الطينيّة" حتّى فقست بعد أطوارٍ طويلة الآماد عن أفراد بالغين ناضجين جنسيّاً (رجالاً كثيراً ونساءً).

*****

أن لفظة **(بث)**، تعني: **تفريق الشيء وإظهاره.**[1]

قال تعالى: { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا **أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ** } (الروم: ٢٠).

ولفظة (نساءً) أتت من الجذر الثلاثي اللساني العربي (نسء)؛ وهذا الجذر ورد في التنزيل الحكيم حصراً (٦٦ مرة) فقط.

(نسء): تأخير الشَّيء . ونُسِئت المرأةُ: **تأَخّر** حيضُها عن وقته فرجي أنها حبلى. والنَّسِيئة: بيعُك الشَّيءَ نَسَاءً، وهو **التَّأخير**. ونَسأَ الله في أجلِك وأنسأ أجلك: **أَخّره وأبعده.**[2]

(نسأ): نُسئَت المرأة تنسأ نَسْأ: **تأَخّر** حيضها عن وقته، وبدأ حَمْلُهَا، فهي نَسءٌ، ونَسِيءٌ، والجَمْع أنساءٌ، ونسوءٌ، وقد يُقال: نِساءٌ نَسءٌ، على الصّفة بالمصدر. ونسأ الشّيء ينسَؤُه نسأ، وأنسأه: **أَخّره**... والاسم النّسيئة والنّسيء. ولذلك قيل للبنِ: **النّسيء لزيادة الماء فيه.** وكذلك قيل: نسئت المرأة إذا حبلت، جُعلت زيادة الولد فيها كزيادة الماء في اللّبن.[3]

- نأتي الآن لتحليل لفظة **(ن – س – ء)** فيزيائياً:

(ن): صوت يدل على ستر أو اختباء أو سكون.

(س): صوت يدل على حركة بشكل غير واضح وغير عميق أولي.

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الأول، ص ١٧٢ .

(٢) نفس المرجع،الجزء الخامس، ص ٤٢٢.

(٣) محمد بن مكرم ابن منظور، معجم لسان العرب، الجزء الأول، ص ١٦٦ – ١٦٨ .

(ء): صوت خفيف يدل على ظهور مفاجئ في الزمان والمكان.

(نسء): لفظة تدل على حركة مستترة وساكنة ، تكون غير واضحة وغير عميقة في بدايتها ، تنتهي بظهور مفاجئ في الزمان والمكان.

إذاً؛ دلالة (النّسيء) تُطلق على **التّأخير والزّيادة.**

ولذلك قال تعالى: { إِنَّمَا **النَّسِيءُ** زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ..} (التوبة: ٣٧).

فهذه العملية هي تأخير أشهر الحُرُمُ عن وقتها، وإضافتها إلى غير وقتها.
ولهذا السبب أصبح (النسيءُ) مناسباً لوصف الأنثى بلفظة (نِساء): وذلك لأنَّها **قابلة للزيادة بالحمل والولادة.** وكلمة نَساء ليست جمعاً وإنما هي مصدر.

فلفظة (نسئ) هي صفة مثل لفظة (رجل)؛ يمكن أن تُطلق على الذكور أو الإناث إذا تحققت أي صفة منهما على الذكر أو الأنثى.

*****

أما لفظة (رجالاً)، أتت من الجذر الثلاثي اللساني العربي (رَجَلَ)؛ وهذا الجذر ورد في التنزيل الحكيم حصراً (٧٣ مرة) فقط. وكلها تأتي في القرآن لتدل على معنى واحد لا يتغير مهما أتى في نص مغاير ولكن يُطبق معناه حسب نزوله في سياق الآيات وفقط.
وقد فهم الناس أن هذه اللفظة تُطلق على الذكور حصراً !!.. ولم يتعبوا أنفسهم لفهم ما أراد الله حيث أن الفهم السريع والسهل، يأتي على هوا الذكور بالتأكيد..

فيتم فهم النصوص حسب الهوا الذكوري لاضطهاد الأنثى في المجتمعات العربية بإسم الدين.. فدعونا ننظر على بعض المعاجم اللغوية لهذا الجذر ونرى ماذا قالوا عنه.

(رجل): الراء والجيم واللام أصل مُعظم بابِه يدلُّ على العضو الذي هو رِجْلُ كلَّ ذي رِجْل. والرَّجْل: الرَّجّالة. **إنما سُمُّوا رَجْلاً لأنهم يمشون على أرجُلِهم.** ورجلٌ

رَجِيلٌ وذُو رُجْلَةٍ، أي **قويٌّ على المَشْي**. الرَّجُل: الواحد من الرَّجال **وربما قالوا للمرأة الرَّجُلَة**. [1]

(رجل): وتَرَجَّلَتِ المرأَةُ: **صارت كالرَّجُل**. وفي الحديث: **كانت عائشة، رَجُلة الرأي**. وقد يكون **الرَّجلُ صفة يعني بذلك الشدة والكمال**. وقال سيبويه: إذا قلت هذا الرَّجُل فقد يجوز أَن **تعْني كماله وأن تريد كل رَجُل تكلَّم ومشى على رِجْلَيْن، فهو رَجُل**. والرَّجْل: قَدَم الإِنسان وغيره؛ والرَّجْل من أصل الفخذ إلى القدم. ارْتَجَل الرجلُ ارتجالاً إذا ركب رجليه في حاجته ومَضى. [2]

- نأتي الآن لتحليل لفظة **(ر – ج – ل)** فيزيائياً:

(ر): صوت يدل على حركة سريعة منتظمة ومتكررة أو مرتبطة ومتصلة.

(ج): صوت يدل على جهد و شدة وعلى الغلظة.

(ل): صوت يدل على حركة ثقيلة متصلة لازمة.

(رجل): لفظة تدل على حركة سريعة ومتكررة ومنتظمة، بها جهد وشدة غليظة، تنتهي بثقل متصل ومتلازم.

ومما تقدم يمكننا أن نقول أن لفظة (رجل)؛ هي **اسم صفة، وليست اسم جنس.** يطلق على كل ما يحمل هذه الصفات المذكورة سابقاً.

ولذلك أُطلقت على أطراف البشر السفلى – ذكور وإناث – لفظة (أَرْجُل)؛ لأنها تحمل الصفات السابق ذكرها، فهي تجعل الإنسان يتحرك في الأرض بشكل سريع ومتكرر ومنتظم، وبجهد شديد، ينتهي بالثقل واتصال الحركة.

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة،الجزء الثاني، ص ٤٩٢ – ٤٩٣.

(٢) محمد بن مكرم ابن منظور، معجم لسان العرب، ج ١١، ص ٢٦٦ – ٢٧٠.

وهي أيضاً تُطلق على الذكر والأنثى، كصفة شخصية يمكننا أن نقول لأنثى أنها رجل والذكر كذلك. وهذا القول تدعمه الآية التالية: { وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ **رِجَالًا** ...} (الحج: ٢٧). والحج معروف أنه تكليف للذكر والأنثى معاً، والآية هنا أطلقت عليهم أنهم رجالاً.. وهذا يتوافق مع ما توصلنا له، من أن لفظة (رجل) هي اسم صفة تطلق على كل شيء يحمل الصفات السابق ذكرها.

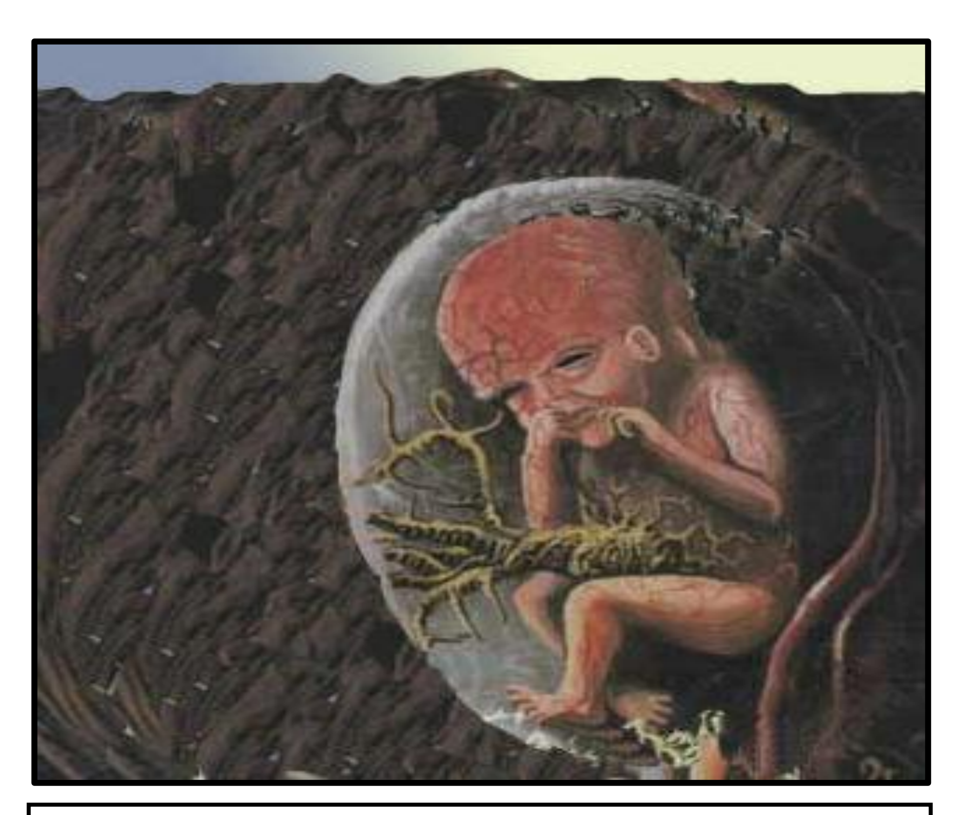
وقال تعالى: { الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ } (النساء: ٣٤).

وهنا قال الرجال ولم يقل الذكور، علينا أن ننتبه جيداً للألفاظ الواردة في التنزيل الحكيم.

نجد أنّ في المرحلة الأولى فصّل بداية الخلْق حيث كانت الخلايا الحاملة للجينة البشريّة الأولى (النفس الواحدة) خلايا حيّة سابحة في الماء الأوّل تحمل الصبغتين الذكرية والأنثويّة، فهي عديمة الجنس (خُنثى)، ثمّ خلق منها زوجها، بانقسامها إلى خلايا ذكريّة وخلايا أنثويّة، ثمّ نمت هذه الخلايا الذكورية والخلايا الأنثويّة كما تنمو الخليّة الملقّحة تماماً في الرحم، لتشكّل كائنات بشرية، الخلايا الأنثويّة كوّنت إناثاً، والذكريّة كوّنت ذكوراً، ولكن ليس إناثاً وذكوراً صغاراً بل نموْا في البيوض حتّى خرجوا بالغين أي نساءً ورجالاً، هذه هي مرحلة ربوبيّة بحتة (ربّكم) حتّى لكأنّ الطبيعة هي التي تخلق، فليس من واعٍ بشريٍّ موجود يعي اسم "الله" إذّاك، هذه هي الحقبة الأولى لبزوغ هذا الكائن البشري (رجالاً كثيراً ونساءً) لا رجلاً واحداً وامرأةً واحدة، ولا رجلاً واحداً خُلقت منه أو من ضلعه امرأة، ولا رجلاً وامرأة تحدّرا من قرود أو من سلالات أدنى، بل خلقٌ بالغٌ، فصيلةٌ مستقلّةٌ بذاتها قد انبثقتْ وظلّتْ تنبثق من الطين اللاّزب دهوراً طويلة، ثمّ لمّا تطوّر بعد دهر، فمن هؤلاء الرجال وهؤلاء النساء تمّ التزاوج، فانتقل بعدها طوّر الخلْق البشري إلى مرحلة الأرحام. [1]

---

(١) **جمعية التجديد ، الخلق الأول: كما بدأكم تعودون، ص ٨٧ – ٨٨ .**



(صورة: ٢): أجنة بشريّة تولّدت في بطن الأرض وانشقّت الأرض عنهم رجالاً ونساءً بالغين.

النبي آدم ليس أول البشر

خلاصة ما وصلنا له في الفقرات السابقة؛ هـو التـالي: نفـترض أنّـه، وِفْـقَ مخطّـطٍ وتدبير ربّانيّ كوَّن شفرات أزواج مخلوقات اليابسة، وظهرتْ إلى الوجود بدْءًا في الطين الأوّل الذي أنتج أقلّ المخلوقات تعقيداً كالمجهريّات والنباتات، لمئات ملايين السنين، أسهمت بدورها الحيويّ في نقل الطين لحالة أخصب وأعقـد ويحتـوي عـلى مركبّـات عضوية أكثر، فتطوّر الطين ليُوجِد مستويات من الخلق أعقد كالحيوانـات مـن أدناهـا شيئاً فشيئاً لأعلاها، وهكذا حسب دورات الحياة، وفي محاكاة قريبة للسلسلة الغذائيّة، كلّما انوجَد مخلوقٌ هيّأ بتواجده وموته عبر ملايـين السـنين، هيّـأ الطـين للانتقـال إلى مستوى في الخلْق أعقد، حتى تُوّج الغِنى الخصبيّ للطين، بإخراجـه آخـر المخلوقـات وهم البشر الأوائل، الذين يبدو أنّهـم خرجـوا عقيمـين أوّلاً، أو سريعـي الانقـراض بحيث لم يستطيعوا تكوين نسلٍ طبيعي يُعيد دورة حياتهم، ثُمّ بموتهم وتحلّلهم يخـرج آخرون من رحم الأرض وهكذا، فيتطوّر الطين لإخراج جيل ثانٍ محسّنٍ عن الأوّل.

واستمرّت هذه الحالة أيضاً مئـات الآلاف مـن السـنين وكانـت أعمارهـم قليلـة، باعتبار الظرف القاسيّ المُحدق بهم، ولأنّهم يخرجون بالغين، حتّى نجحـت الأجيـال البشريّة على التزاوج لتنسل نفسها أو خرج جيل أخـير محسَّـن وقـادر عـلى التناسـل ، فانتقل التكاثر عندها إلى الأرحام، متزامناً مع انتهاء الظرف الطبيعيّ الذي هيّأ لإيـلاد البشر من الأرض، فبدأت تخرج أجيال البشريّة من الأرحام بدلاً من الأرض ، وبدأت عمليّات التحسين في السلالة جيلاً بعد جيل وراثياً، حتّى بلغ مرحلة تطـوّر مناسـب يسمح بانتخاب زوجين منه للنفخ فيهما من الرّوح وتحويلهما إنسانيْن.

التقسيم الأحفوري

حسب الحفريات التي وُجِدت حتى الآن في المستويات الجيولوجية يقسـم العلـماء أحقاب ظهور البشر كالتالي:

حتى الآن وجد علماء الأحفوريّات، الأنثروبولوجيا، والمتحجرات أربعة أجنـاس (أو مجموعات) بين الجنس الإنساني المعاصر وبين الجنس البشري الأول، ألا وهي:[1]

أولاً: (الأرديبيتيكوس Ardipithecus)

(عاشت بين الـ ٤ إلى ٧ مليون سنة الماضية): هذه المجموعة هي أقدم المجموعات وأكثرها شبهاً من حيث البنية الجسمية وحجم الدماغ من الرّئيسـيّات الأخـرى. لقـد تميّزت هذه المجموعة بكونها هي الأولى التـي تـم تطويرهـا للقـدرة عـلى المشي عـلى قدمين، ويقولون أنها تركّزت معيشتها في أفريقيا. ومن أشهر هذه الحفريـات في هـذه المجموعة هما كالتالي:

- **(Sahelanthropus tchadensis)** (عـاش مـا بـين ٧ و ٦ ملايـين سنة).
- **(Orrorin tugenensis)** (عاش ما بين ٦.٢ و ٥.٨ مليون سنة).
- **(Ardipithecus kadabba)** (عـاش بـين حـوالي ٥.٨ و ٥.٢ مليـون سنة).
- **(Ardipithecus ramidus)** (عاش قبل نحو ٤.٤ مليون سنة).

---

(١) المرجع لهذه التقسيمات العلمية من خلال هذا الموقع، والأفلام الوثائقية هذه:

- **http://humanorigins.si.edu/evidence/human-family-tree**
- **Documentary: Becoming Human: 1- First Steps. (31 August 2011), NOVA.**
- **Documentary: Becoming Human: 2- Birth of Humanity. (31 August 2011), NOVA.**
- **Documentary: Becoming Human: 3- Last Human standing. (31 August 2011), NOVA.**
- **Documentary: Dawn of Humanity. (16 September 2015) NOVA and National Geographic.**

ثانياً: (الأسترالوبيثكس Australopithecus)

(عاشت ما بين الـ ٢ إلى ٤ مليـون سـنة الماضـية): هـذه المجموعـة هـي ثـاني أقـدم المجموعات، وتتميّز بكونها مشت منتصبة معظم الوقت، ولكنّها مـع ذلـك اعتـادت تسلّق الأشجار أيضاً. ومن أشهر هذه الحفريات في هذه المجموعة هما كالتالي:

- **(Australopithecus anamensis)** (عاش قبل ٤.٢ إلى ٣.٩ مليون سنة).
- **(Australopithecus afarensis)** (عاش بين ٣.٨٥ و ٢.٩٥ مليون سنة).
- **(Australopithecus garhi)** (عاش منذ حوالي ٢.٥ مليون سنة).
- **(Australopithecus africanus)** (عاش قبل ٣.٣ إلى ٢.١ مليـون سنة).

ثالثاً: (البارانثروبوس Paranthropus)

(عاشت ما بين الـ ١ إلى ٣ مليون سـنة الماضـية): هـذه المجموعـة هـي ثالـث أقـدم المجموعات، وتتميّز بتغيّرات جذريّة في تركيبة أسـنانها ممّـا أهّلهـا لتسـتهلك أصـنافاً عديدة من الأغذية المتوفّرة. ومن أشهر هذه الحفريات في هذه المجموعة هما كالتالي:

- **(Paranthropus aethiopicus)** (عـاش قبـل ٢.٧ إلى ٢.٣ مليـون سنة).
- **(Paranthropus boisei)** (عاش قبل ٢.٣ إلى ١.٢ مليون سنة).
- **(Paranthropus robustus)** (عاش قبل ١.٨ إلى ١.٢ مليون سنة).

رابعاً: (الهومو Homo)

(عاشت ما بين الـ ٢ مليون سنة وحتّى الآن): هذه المجموعة هي الأحدث، والجنس الإنساني ينتمي لها من حيث التّصنيف. هذه المجموعة تتميّز بأحجام أدمغتها الكبيرة مقارنة بالمجموعات الأخرى، كما أنّها استعملت أدوات حرفيّة مختلفة، وعلى حسب قول معظم العلماء هي كانت المجموعة الأولى لتغادر أفريقيا إلى شتّى بقاع الأرض. ومن أشهر هذه الحفريات في هذه المجموعة هما كالتالي:

- **(الإنسان الماهر Homo habilis)** (عاش قبل ٢.٤ إلى ١.٤ مليون سنة).
- **(إنسان بحيرة رودولف Homo rudolfensis)** (عاش قبل ١.٩ إلى ١.٨ مليون سنة).
- **(الإنسان المنتصب Homo erectus)** (عاش ما بين ١.٨٩ مليون و ١٤٣.٠٠٠ ألف سنة).
- **(إنسان هيدلبرغ Homo heidelbergensis)** (عاش قبل ٧٠٠ إلى ٢٠٠ ألف سنة).
- **(إنسان فلوريس أو الهوبيت Homo floresiensis / Hobbit)** (عاش قبل ١٠٠ إلى ٥٠ ألف سنة).
- **(إنسان النياندرتال أو البدائي Homo neanderthalensis / Homo Neanderthal)** (عاش قبل ٤٠٠ إلى ٤٠ ألف سنة).
- **(الإنسان العاقل Homo sapiens)** (عاش قبل ٢٥٠ ألف سنة حتى الآن).

مفهوم لفظة (آدم)

قبل أن نبدأ في موضوعنا هذا دعونا أولاً نربط هذا الموضوع بما سبقه من موضوعات وكما يلي:

في مجموعة الموضوعات السابقة تعرضنا لمحاولة فهم هذه الكلمات: (إبليس، الشيطان، الجن، الإنس، العفريت). وقلنا بأنَّ ما نفهمه من هذه الموضوعات هو **الحديث عن عملية التطوير للإنسان عبر عمليات تطوير حمضه النووي ببلس بعض الصفات وتنحيتها وتعزيز وجود الصفات الأخرى.**

وأنَّ الجنّ في النص القرآني له مصاديق مختلفة أبسطها هو الجينات المسؤولة عن الصفات الفعالة القوية النشطة المؤثرة وأعقدها هو الإنسان الذي تتركز فيه تلك الصفات.

وأوضحنا بأنَّ الإنس يشير إلى الصفات الهادئة في الحمض النووي وأن عملية تطوير الإنسان جاءت نتيجة التحكم بالمورثات والصبغات الوراثية الموجودة في الحمض النووي لخلق إنسان تعمل فيه قوتان أحدهما (القوة الجنيّة) تدفعه بقوة وأخرى (الإنسيّة) تحد من أثر الأولى لخلق حالة التوازن فيه.

وأوضحنا أيضاً كيف أنَّ التطوير بعمليات بلس الصفات المراد تنحيتها تتعرض لصعوبات أحياناً ترتبط بطبيعة الخلق والتطوير وضروراتها فتنشطن بعض الصفات المبلوسة وتعاود الظهور في الأجيال اللاحقة أو حتى في نفس الجيل.

قلنا أيضاً بأنَّ تقسيم الصفات التي تقوم عليها التركيبة البشرية إلى صفات جنيّة وأخرى إنسيّة لا يعني أن الصفات الجنيّة سيئة بمطلقها ولا أنَّ الصفات الإنسية جيدة بمجملها وإنما السيئ والجيد موجود في كلاهما وبشكل نسبي وإن عملية التطوير

تقتضي المحافظة على نسب معينة لجعل هذا الإنسان فعال بدرجة كافية لتحمل الخلاقة وهادي في نفس الوقت لكي لا يدمر الأرض ونفسه.

قلنا بأن التنوع في زيادة ونقصان كل نوع من تلك الجينات والمورثات هو الذي يؤدي إلى تشكيلة معينة للإنسان.

نعيد الإشارة ونؤكد على أنَّ لفظة (الجنّ) مثلما تشير إلى الصفات الجينية القوية النشطة النارية الفعالة فهي أيضاً قد تشير إلى ذلك الإنسان الجنيّ الذي تتجلي فيه تلك الصفات بشكل أكبر من غيره. علينا دوماً أن نستحضر المفهوم والمصاديق ونجعل السياق هادياً لنا لفهم ما يريد النص إيصاله لنا من أفكار.

نود التأكيد أيضاً على أن ما نذكره متعلق بالصفات الجينية للإنسان – سواء أكانت أقرب إلى الجنَّ أو إلى الإنس – والتي تشكل بالنتيجة القاعدة الأساسية لتكوين نفسيته وطريقته في اتخاذ القرارات وأن حساب الإنسان سيستند إلى فكرة أخذ كل شيء بنظر الاعتبار وما هو متاح له من هامش حرية لاتخاذ القرار فيما يتعلق بما يعترض طريقه في الحياة. والحساب يعني تقييم كفاءة المنتج بعد تعريضه لمختلف الظروف المخبرية المختلفة.

تحليل لفظة (آدم)

ورد اسم (آدم) في النص القرآني وكما سيمرَّ معنا (٢٥) مرة، منها (١٦) مرة إشارة إلى (آدم)، ومرة واحدة إلى (إبنيّ آدم)، و (٧) مرات إلى (بني آدم)، ومرة واحدة إلى (ذريَّة آدم).

سوف نورد الآيات التي تناولت الاسم حسب ترتيبها في القرآن الكريم ونلاحظ أن الآيات توزعت بالشكل التالي:

السورة	الآية	م
البقرة	وَعَلَّمَ **آدَمَ** الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١)	١
البقرة	قَالَ يَا **آدَمُ** أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)	٢
البقرة	وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا **لِآدَمَ** فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)	٣
البقرة	وَقُلْنَا يَا **آدَمُ** اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)	٤
البقرة	فَتَلَقَّىٰ **آدَمُ** مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)	٥
آل عمران	إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ **آدَمَ** وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣)	٦
آل عمران	إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ **آدَمَ** ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩)	٧
المائدة	وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ **ابْنَيْ آدَمَ** بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧)	٨
الأعراف	وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا **لِآدَمَ** فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١)	٩
الأعراف	وَيَا **آدَمُ** اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩)	١٠

١١	يَا **بَنِي آدَمَ** قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦)	الأعراف
١٢	يَا **بَنِي آدَمَ** لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧)	الأعراف
١٣	يَا **بَنِي آدَمَ** خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)	الأعراف
١٤	يَا **بَنِي آدَمَ** إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ۙ فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥)	الأعراف
١٥	وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن **بَنِي آدَمَ** مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢)	الأعراف
١٦	وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا **لِآدَمَ** فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١)	الإسراء
١٧	وَلَقَدْ كَرَّمْنَا **بَنِي آدَمَ** وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠)	الإسراء
١٨	وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا **لِآدَمَ** فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠)	الكهف
١٩	أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن **ذُرِّيَّةِ آدَمَ** وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨)	مريم
٢٠	وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ **آدَمَ** مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)	طه

٢١	وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا **لِآدَمَ** فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦)	طه
٢٢	فَقُلْنَا يَا **آدَمُ** إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧)	طه
٢٣	فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا **آدَمُ** هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠)	طه
٢٤	فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ **آدَمُ** رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١)	طه
٢٥	أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي **آدَمَ** أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠)	يس

دعونا ننظر لهذا الجذر (آَدَم) في المعاجم وفي دلالة أصواته الفيزيائية من القرآن لنفهم ما المقصود منه بالضبط..

(أدم): الهمزة والدال والميم أصلٌ واحد وهي **الموافقة والملاءمة**، وذلك قول النبي للمُغيرةِ بن شُعْبة – وخَطَب المَرْأة – : "لو نَظَرْتَ إليها، فإنه أحْرَى أن يُؤْدَمَ بينكما". قال الكسائيّ: يُؤْدَمَ يعني أن يكون بينهما المحبّة والاتفاق... ولذلك **سُمِّى آدم عليه السلام؛ لأنه أخذ من أَدَمة الأرض.** (١)

(أدم): الأُدْمةُ: **القَرابةُ والوَسيلةُ إلى الشيء.** يقال: فلان أُدْمَتي إِليك أَي وَسيلَتي. ويقال بينهما أُدْمةٌ ومُلْحمة أَي خُلْطةٌ، وقيل: **الأُدْمة الخُلْطة، وقيل: المُوافَقةُ.** ورجل مُؤْدَمٌ مُبْشَرٌ: حاذقٌ مُجَرَّبٌ قد جمع لِيناً وشدَّةً مع المعرفة بالأُمور. (٢)

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الأول، ص ٧١ – ٧٢ .

(٢) محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، ج ١٢، ص ٨ – ٩ .

فهناك خيطاً يربط جميع تلك المعاني يمكن ربطها إلي بعـض هـو: **الخلـط بموافقـة وموائمة وتدبير.**

- دلالة أصوات الجذر **(ء – د – م):**

(ء): صوت خفيف يدل على ظهور مفاجئ في الزمان والمكان.

(د): صوت يدل على دفع شديد متوقف.

(م): صوت يدل على جمع متصل ينضم ويتداخل ويتكامل في أطار واحد.

(آدم): كلمة تدل على ظهور حركة مفاجئة في زمـان ومكـان محـدد، بـدفع شـديد متوقف، وتنتهي بتجميع شيء واحد أو أشياء متصلة ومتكاملة في قالب واحد.

وهنا يوضح المعنى الدلالي للأصوات للفظة (آدم): أن هناك ظهور حركة مفاجئـة في زمان ومكان محدد – وهذا ما وضحناه من خلال عرضنا في الفصول السـابقة بـأن الله أراد نشأة جنس الإنسان العاقل الذي سيعمر هذه الأرض فقام الملأ الأعلى بتنفيـذ هذا الأمر بتوكيل الملائكة الأدنى بأن يتم العمل عـلى هـذا المشرـوع فظهـر أول هـذا الكائن بالبشر الغير عاقل ليتم تطويره على زمن مديد – بدفع شديد متوقـف – وهـذا الدفع تم في عمليات التطوير الإلهية لهذا الكائن الجديد وتوقف في النهاية مـع ظهـور الكائن العاقل الأخير (آدم) كشخص الذي سيحمل هذا الاسم بدلالتـه ليكـون هـو خاتم هذا المشروع –، وتنتهي بتجميع شيء واحد أو أشياء متصلة ومتكاملة في قالـب واحد.

أي؛ (أَدَمَ): **مزجَ عناصر لها وجود بوعي لإنتاج تكوين جديد له شخصية مختلفة وظهور مميز.**

(آدَمُ): **كيان بشخصية جديدة ناتج عن خلط واعي ومتواصل لفترة طويلة نسبيا لكيانات سابقة.**

في النتيجة فإن آدم كجيل من البشر قد جاء نتيجة عملية تطوير طويلـة ومعقـدة وحمل صفات العديد من الأمور والمخلوقات التي سبقته.

إذ ناهيك عن أنه يحمل كل العناصر والمركبات الموجودة في التراب فإنه يحمل عددا يصعب إحصاؤه من الصفات التي يشترك فيها مع سائر المخلوقات الموجودة في محيطه وعلى هذا الأساس ترانا نستعمل في حياتنا اليوميـة أوصـاف للنـاس تتضـمن وصـفا بصفات حيوانية أو نباتية أو حتى جمادية، فنقول: فلان أسـد ونقـول: فـلان جبـل .. ونقول: فلان شجرة تظلل على الجميع .. وهكذا.

فأدم أوّل كائن إنساني عاقل، وهو ليس بمعصوم عن الخطأ، ومنه نسلتْ الإنسانيّة المليارّية هذه.

إنّ أوّل اسم أُطلق على الإنسان العاقل الأوّل هو **"آدم"**؛ باللغة العربيّة بلهجاتها السريانية[1] والفينيقية والعرباء، ولأنّ الربّ خلقه على صورته، **فكلمة "آدم" تعنـي "المثيل".**

إن كلمة **"آدم"** هي في أصلها **"دم"** وتلفظ بالسريانية **"دمو"** وتعني: **السيد** كما تعني **الأصل ، الشخص ، المثيل ، الشبيه ، النظير ، الند ، الدم ، العشيرة** ... والهمزة للتعريف.

ومؤنثه **"دميتا"** بالسريانية ، و **"دمية"** بالفصحى ، وتعنـي: **المثيلـة ، الشـبيهة ، نسخة الشيء ، المستنسخ ولو بصورة مقزمة عنه.**

---

(١) وهذه المعاني للفظة (آدم) ؛ أعتمدنا عليها من: القاموس الكلداني – العربي، للمطران: يعقوبْ أوجين مَنَّا، مركز بابل – بيروت، ١٩٧٥م.

فهذه الكلمة أو الاسم ذهب كلّ الأرجاء بتركيبها وبلفظها العربي، فمن الأسماء التي أطلق العرب عليه أيضاً كإنسان عاقل وتدل على عقليته والتي ميّزته عن كلّ الكائنات الأخرى هي كلمة **"أُمَنْ"**، وهي تعني: **الخالق، المبدع، المخترع، الماهر، الحاذق، والتي اشتُهرت في التراث الديني (أمين / آمون).. أو مانوت : هي الصنعة، الإبداع، الاختراع، المهارة.**

وبإضافة "هـ" التعريف أو "ذو/ دو" حسب اللهجات العربيّة القديمة: "دومَن" أو "هيومَن"، هـ + أومان = (Human)؛ أي ، الإنسان العاقل المبدع الخالق الماهر ..ألخ.[1]

---

(١) أحمد داوود، تاريخ سوريا الحضاري القديم، ج ٢، ط ١، دار الشرق – دمشق، ٢٠٠٤م، ص ٢٠ – ٢٢. بتصرف.

الباب الثالث

التطوير والمعصية والهبوط

الفصل الأول

تطوير البشر في الجنة

القارة المنسِيَّة [1]

يعتقد معظم العلماء اليوم وأكثرهم أن التطور البشري قد حدث في (قارة أفريقيا – أثيوبيا) بالتحديد، بعدما كان الكلام على أن الإنسان ظهر من أوروبا وجدوا أن الاكتشافات الحديثة تؤدي بهم إلى أفريقيا. ولكن هل هذا حقيقي ؟ في حين أنني وكثير من العلماء – العرب بالتحديد – نفترض أن البشرية انطلقت من قارة أسيا وبالتحديد من شبة الجزيرة العربية من منطقة (جبال السراة في دولة اليمن اليوم). ماذا عن هذا الإفتراض هل له من دلائل وإشارات ومقالات علمية حديثة ؟! دعونا نرى ذلك!..

لقد اكتشف الباحثون في عام ١٩٢٩، في العاصمة الصينية بكين، جمجمة شبه مكتملة، موغلة في القِدَم، في جبل يُسمى "تل عظام التنين Dragon Bone Hill"، أُطلق عليها اسم «إنسان بكين»، وقد ساعدت الجمجمة في إقناع كثير من الباحثين بأن البشرية نشأت أولًا في آسيا. و الوسائل الحديثة المستخدَمة في قياس العمر قد نسبت الحفرية إلى فترة زمنية، تصل إلى ٧٨٠ ألف سنة، لتكون بذلك واحدة من أقدم الرفات البشرية المكتشَفة على الإطلاق.

إلا أن تلك العينة قد توارت وراء اكتشافات في أفريقيا أسفرت عن العثور على رفات لأقارب البشر القدماء، تعود إلى حقب أقدم بكثير. وقد دعَّمت تلك الاكتشافات من مكانة أفريقيا، بوصفها مهد البشرية، أي المكان الذي خرج منه البشر المحدثون وأسلافهم، وانتشروا في أرجاء المعمورة، كما أسهمت الاكتشافات ذاتها في إقصاء آسيا إلى مكان أشبه بطريق تطوُّري مسدود، ولكن قصة إنسان بكين ظلت

---

(١) هذا الجزء المرجع الرئيسي فيه المقال العلمي الذي نشرته مجلة الطبيعة؛ الذي يحمل عنوان:

- **The Forgotten Continent (How China is rewriting the book on human origins), BY: JANE QIU. Nature, VOL 535, (14 July 2016). P: 218 – 220.**

تطارد أجيالًا عديدة من الباحثين الصينيين، الذين ناضلوا لفَهْم علاقته بالبشر المحدثين.

يقول **(وو شينجي)،** (عالِم الإحاثة بمعهد الحفريات الفقارية ومستحاثات البشر التابع للأكاديمية الصينية للعلوم في بكين IVPP): "إنها قصة بلا نهاية"، إذ تؤرق الباحثين تساؤلات بشأن ما إذا كان نسل إنسان بكين ورفقائه المنحدرين من نوع "الإنسان المنتصب Homo erectus" قد تلاشى وانقرض، أم أنه قد تطوَّر إلى نوع أحدث، وما إذا كان ذلك النسل قد أسهَم في تشكيل الحوض الجيني الخاص بالشعب الصيني الحديث، أم لا.

بدأ علماء مستحاثات أسلاف البشر في شتى أنحاء العالم في إيلاء مزيد من الاهتمام للحفريات الآسيوية، ودراسة مدى ارتباطها بأشباه البشر الأوائل (hominins)، وهي مخلوقات أوثق ارتباطًا بالبشر منها بحيوانات الشمبانزي. **وقد أوضحت المكتشَفات التي تم العثور عليها في الصين وأنحاء أخرى من آسيا أنّ تشكيلة مدهشة من الأنواع البشرية كانت في وقت من الأوقات تجوب القارة، متحديةً الأفكار التقليدية بشأن التاريخ التطوري للبشرية.**

يقول (وو شينجي): "يميل علماء غربيون كثيرون إلى رؤية الحفريات والقِطَع الأثرية الآسيوية من منظور ما كان يحدث في أفريقيا وأوروبا"، ويضيف قائلًا إنّ هاتين القارتين الأخريين قد جَذَبَتَا المزيد من الانتباه عبر التاريخ في دراسات التطور البشري، نظرًا إلى قِدَم الاكتشافات الحفرية التي عُثر عليها هناك، ولقربهما من مؤسسات الأبحاث الكبرى في مجال علم مستحاثات البشر، "ولكن من الواضح بشكل متزايد أن الكثير من المكتشَفات الآسيوية لا يمكن أن تتلاءم مع السرد التقليدي لقصة تطوُّر البشرية".

يتفق **(كريس سترِنجر)** ـ (عالِم مستحاثات أسلاف البشر بمتحف التاريخ الطبيعي في لندن) ـ مع هذا الرأي، ويقول: **"كانت القارة الآسيوية ـ وما زالت ـ قارة منسية، ولطالما تم التقليل من الدور الذي لعبَتْه في تطوُّر البشرية".**

تبدأ قصة "الإنسان العاقل Homo sapiens"، بصيغتها المعتادة من أفريقيا، وتختلف التفاصيل الدقيقة من رواية إلى أخرى، ولكن تظل الشخصيات والأحداث الرئيسة بشكل عام كما هي، ويظل العنوان دائمًا واحدًا: **"الخروج من أفريقيا"**. ويَرِد في هذه الرؤية التقليدية لتطور الإنسان أن الإنسان المنتصب قد نشأ للمرة الأولى في أفريقيا منذ أكثر من مليوني عام. (أنظر شكل: ١)، ثم حدث في وقت ما، منذ ما يزيد على ٦٠٠ ألف سنة، أنْ نشأ نوع جديد يُعرف باسم "إنسان هايدلبرج Homo heidelbergensis" الذي عُثر على أقدم بقاياه في إثيوبيا. **ومنذ حوالي ٤٠٠ ألف سنة، غادر بعض أفراد إنسان هايدلبرج أفريقيا وانقسموا إلى فرعين: اتجه الفرع الأول إلى الشرق الأوسط وأوروبا، حيث تطوَّر أفراده إلى "إنسان النياندرتال"**، بينما يَمَّمَ الفرع الثاني نحو الشرق، حيث تطوَّر أفراده إلى "إنسان دينيسوفان Denisovans"، وهي مجموعة اكتُشفت للمرة الأولى في سيبيريا في عام ٢٠١٠. أما البقية الباقية من أفراد إنسان هايدلبرج في أفريقيا، فقد تطوروا في نهاية الأمر منذ ما يقرب من ٢٠٠ ألف سنة إلى «الإنسان العاقل» الذي نعرفه حاليًّا، ثم ما لبث هؤلاء البشر الأوائل أن قاموا بتوسيع مداهم إلى أوراسيا منذ ٦٠ ألف سنة، حيث حلوا محلّ أشباه البشر الأوائل المحليين، مع حدوث قدر ضئيل من التزاوج بين النوعين.

مِن بين السمات المميّزة لإنسان هايدلبرج ـ الجد المشترك المحتمَل لإنسان النياندرتال، وإنسان دينيسوفا، والإنسان الحديث ـ أن أفراده يمتلكون مزيجًا من الملامح البدائية والحديثة. ومثل غيره من السلالات الأقدم، فإن إنسان هايدلبرج يمتلك جبهة عريضة، وليس لديه ذقن، ولكنه يشبه الإنسان العاقل بأسنانه الأصغر،

وجمجمته الأكبر حجمًا. ويرى معظم الباحثين أن إنسـان هايـدلبرج ـ أو مـا يشـبهه ـ شكل انتقالي بين الإنسان منتصب القامة، والإنسان العاقل.

وللأسف، **تتميز الأدلة الأحفورية لتلك الفترة التي تمثل فجـر الجـنس البشرـي بشُحِّها، وكذلك بغموضها في أغلب الأحيان.** فتلك الفترة هي الحلقة الأكثر غموضًا في تاريخ تطوُّر البشرية، حسب ما يقول **(راسل سيوشون)،** (عالِم مسـتحاثات البشرـ بجامعة أيوا في مدينة أيوا)، ويضيف: «ولكـن لتلـك الفـترة أهميـة محوريـة في فهْمنـا للأصول البعيدة للبشرية".

وازدادت القصة غموضًا مع تحليل الحفريات الصينية على مـدار العقـود الأربعـة الماضية، حيث ألقت ظلالًا من الشك بشأن التطور الخطي من الإنسان منتصب القامة الأفريقي إلى الإنسان الحديث. **تبيِّن تلك الحفريات أنه في الفترة مـا بـين ٩٠٠ ألـف و١٢٥ ألف سنة تقريبًا، كان شرق آسيا يعجّ بأشباه بشر «هومينين» يتمتعون بملامح يمكن أن تضعهم في مكانة وسط بين الإنسان المنتصب، والإنسان العاقل،** حسب ما يقول (وو شينجي).

يقول (راسل سيوشون): "تُعَدّ هذه الحفريات لغزًا كبيرًا، فهي تمثل بوضوح أنواعًا أكثر تطورًا من الإنسان المنتصب، ولكن لا يعرف أحد ماهية تلك المخلوقات، لأنه لا يبدو أنها تتماشى مع أيّ تصنيفات نعرفها".

وقد دفعت الخصائصُ الانتقالية لتلك الحفريات الباحثين ـ مثل كريس سـترِنجر ـ إلى إلحاقها بإنسان هايدلبرج. ولأنّ الحفرية الأقدم بين هـذه الأشـكال ـ التـي كانـت بمثابة جمجمتين، تم العثور عليهما في يون شيان بمقاطعة هوبي، يعود تاريخهما إلى ٩٠٠ ألف سنة١،٢ ـ فإن سترِنجر يفترض **أن إنسان هايدلبرج ربما يكون قد نشأ في آسـيا، ثم انتشر إلى القارات الأخرى.**

ويعتقد معظم علماء الإحاثة الصينيين، وبعض مؤيديهم المتحمسين من الغربيين، أن الحفريات الانتقالية دليل على أن إنسان بكين هو الجدّ الأقدم للشعوب الآسيوية الحديثة. وفي هذا النموذج، الذي يُعرف بـ «التعددية الإقليمية multiregionalism»، أو الاستمرارية المصحوبة بالتهجين، **نجد أن أشباه البشر المنحدرين من الإنسان المنتصب في آسيا قد تزاوجوا واختلطوا بالجماعات القادمة من أفريقيا ومن أجزاء أخرى من أوراسيا، ونشأت من ذريتهم أسلاف شعوب شرق آسيا الحديثة، كما يقول (وو شينجي).**

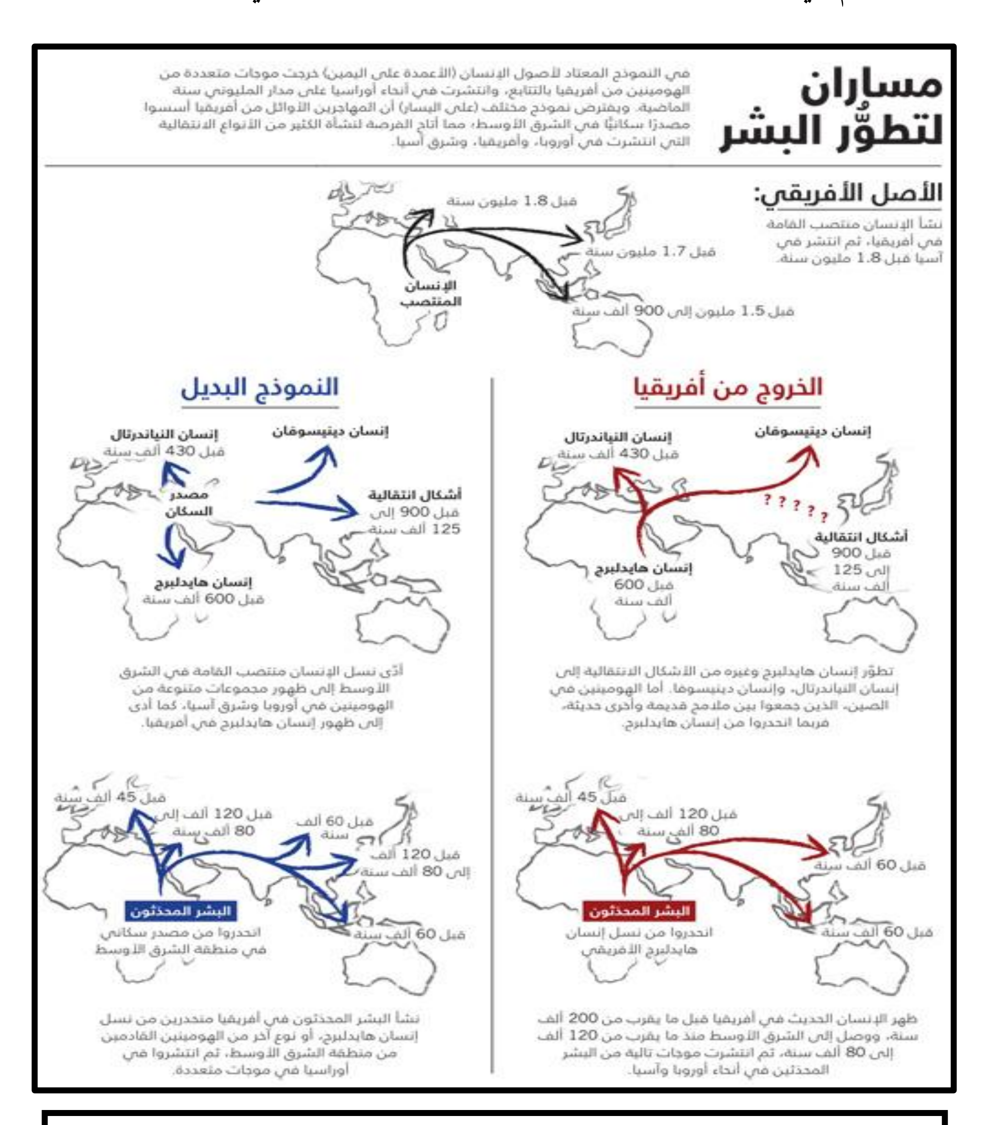
وتدعم هذه الفكرة أيضًا القِطَع الأثرية المكتشَفة في الصين. ففي أوروبا وأفريقيا تغيَّرت الأدوات الحجرية بشكل ملحوظ بمرور الوقت، ولكن أشباه البشر في الصين استخدموا الأدوات الحجرية البسيطة نفسها في الفترة ما بين ١.٧ مليون سنة، حتى ١٠ آلاف سنة مضت تقريبًا. ووفقًا لقول جاو زينج، عالِم الآثار بمعهد الحفريات الفقارية ومستحاثات البشر، فإن ذلك يشير إلى أن أشباه البشر المحليين قد تطوروا بشكل مستمر بتأثير بسيط من مجموعات خارجية من السكان.

يقول (سفانتي بابو)، عالِم الحفريات في «معهد ماكس بلانك للأنثروبولوجيا التطورية» في ليبزج بألمانيا: **"من المعروف أن التفسيرات الخاصة بالحفريات مثيرة للجدل".**

رغم التفسيرات المختلفة لسجل الحفريات الصينية، **يتفق الجميع على أن قصة التطور في آسيا أكثر إثارة بكثير مما حسبه الناس من قبل، ولكن تظل التفاصيل مشوشة وغامضة، لأن عددًا قليلًا للغاية من الباحثين قاموا بالتنقيب في آسيا.**

وسيسهم استخراج المزيد من الحفريات من شتى أنحاء القارة الآسيوية إسهامًا واضحًا في سد تلك الثغرات. هذا.. **ويتفق الجميع على أن آسيا ـ كبرى قارات العالم ـ ما زال لديها الكثير لتقدِّمه، فيما يتعلق بإزاحة الستار عن قصة الحياة الإنسانية.**

بهذا أكون قد نقلت أهم الأجزاء من هذه المقالة العلمية التي تم نشرها عام (٢٠١٦م) في (مجلة الطبيعة)، حيث بدأ العلماء يهتمون بالبحث في قارة أسيا.



(شكل: ١): هذا الشكل يوضح مساران لتطوُّر البشر.

الجزيرة العربية مهد البشرية الأول

وبعد هذه الإشارات على أن قارة أسيا لها أهمية كبيرة، ويجب البحث فيها من جديد عن حفريات تدعم **مسار تطوير البشرية والإنسانية من هذه القارة وبالتحديد من (شبة جزيرة العرب) في دولة اليمن من خلال (سلسلة جبال السراة)**.

فالمسار الجديد المقترح في رحلة تطوير البشرية لتصل إلى الإنسان العاقل الأول؛ أقول فيها أن **البداية كانت من الجبل المركز** وكانت تظهر هذه السلالات الجديدة من البشرية التي بدأت – حسب تقديرات ما وجد العلم من حفريات بشرية – **منذ ما يقارب ٧ مليون سنة**. هذه الفترة التي ظهر فيها جنس جديد على الأرض وهم (البشر البهائمي)، القريب في سلوكه من سلوك الحيوانات، التي لا عقل لها.

وكانت كل سلالة من هذه السلالات البشرية تجد طريقها لتنتشر عبر الأرض كلها، وتهاجر من مركزها (جبال السراة). لتملئ الأرض في كل مكان وبذلك وجدنا حفريات لهذه السلالات في كل مكان. ولعل أكثر الأماكن الموجود فيها هذه الحفريات هي (أثيوبيا في قارة أفريقيا).

لذلك أعتقد البعض أن مهد البشرية كان من أفريقيا، وكما أشرنا في هذه الجزئية هناك أوراق علمية بدأت تقول رواية جديدة في هذا الموضوع، بأن أسيا هي أساس هذا الانتشار؛ وعلماء الصين هم أكثر الناس اهتماماً بهذا الموضوع نظراً لأنهم يقعون في قارة أسيا.

ولعل قد حان الوقت لنا الآن أيها العرب؛ لكي نهتم بهذه العلوم التي لها علاقة بتطوير الإنسان في الجزيرة العربية. وأدعو كليات الآثار تحديداً أن تهتم بالبحث والتنقيب أكثر في (الجزيرة العربية). وتبدأ مسيرة البحث من دولة (اليمن)؛ لأنها هي

مهد البشرية والإنسانية. وليبدأ أيضاً الباحثين في علوم البيولوجيا والوراثة، بالبحث عن هذه الجينات الوراثية للإنسان في الجزيرة العربية وكيف تأثر العالم بهذه الوراثة !..

ومن العجيب أن الأبحاث العلمية الجديدة تقول بأن الجزيرة العربية كانت جزء من عملية التطور الإنساني، ولكنهم يجعلوا المركز من قارة أفريقيا في أثيوبيا، ثم يبدأ الباحثين في تفسير كيف ظهر الإنسان في الجزيرة العربية وبلاد الشام بعدما كان منتشراً في أثيوبيا. ولكنني أقول أن الموضوع بدأ عكسياً؛ حيث كانت (اليمن) هي المهد ومنها أنتشر إلى العالم أجمع. ولتفسير كيف أنتشر من اليمن إلى أثيوبيا؛ أجد أنه نفس التفسير الذي وضعوه للانتقال من أثيوبيا إلى الجزيرة العربية !..

وفي بحث علمي[١] منشور عن أرض اليمن يقول الباحثان (كريستوفر ايدينز و ت.ج. ويلكنسون)؛ التالي: "على الرغم من أهمية الموقع الجغرافي لليمن وجنوب شبه الجزيرة العربية كجسر يربط بين جنوب غرب أسيا وأفريقيا إلا **أن المنطقة بقيت مهملة من جانب الدراسات وخصوصاً بالنسبة لفترات ما قبل التاريخ**".[٢]

وفي بحث علمي[٣] أخر يقول الباحث (جاكوب ردل Jakub Ridl)؛ التالي: **"أُهملت الجزيرة العربية على الرغم من أهمية موقعها الجغرافي من قبل الآثاريين وعلماء الأنثروبولوجيا الجزيئية حتى وقت قريب. وهكذا، فمعرفتنا الآنية مؤقتة إلى حدٍ ما؛**

---

(1) New Light on Human Prehistory in the Arabo-Persian Gulf Oasis, BY: Jeffrey I. Rose, Current Anthropology, Vol. 51, No. 6 (December 2010), pp. 849-883.

(٢) المعهد الأمريكي للدراسات اليمنية، سلسلة الدراسات المترجمة، ج ٤، دراسات في الآثار اليمنية: من نتائج بعثات أمريكية وكندية، ترجمة: د.ياسين محمود الخالصي، ٢٠٠١م، ص ٢ .

(٣) البحث بعنوان: جنوب شبه الجزيرة العربية في العصر الجيولوجي الحديث (الهولوسين): الاكتشافات الاثرية الاخيرة. مترجم عن:

- **Southeast Arabia During The Holocene: Recente Archaeological Developments, Journal of World Prehistory, Vol. 12, 1998, pp. 55 – 119 .**

فالعديد من المواقع الأثرية لا تزال غير مؤرخة. ولا زال البحث المنهجي للتنوع الجيني لسكان الجزيرة العربية في مراحله الأولى".[1]

وفي بحث علمي قد نشرته (مجلة الإكليل)[2]؛ كان ملخصه كالتالي: "في بداية صيف ١٩٩٠ م، قام فريق من الباحثين بعمل مسح لسلسلة من مناطق (المراوح الغرينية Ahlluvial)[3]، في الجنوب الغربي من اليمن قرب باب المندب، لمواقع تعود إلى فترة (البلايستوسين الأسفل Lower Pleistocene) المتبوع بظهور (الإنسان منتصب القامة Homo erectus)، ترتبط بالهجرة الإنسانية المبكرة من أفريقيا إلى أسيا. وقد عثر الفريق على ٣٠ موقعاً وجمع حوالي (٢٣٨١) أداة تعود إلى البلايستوسين الأوسط والأعلى. ومعظم هذه المواقع تضم مجموعات كبيرة ومختلفة من الأدوات تعود إلى فترات مختلفة، وتعود أقدم المواقع إلى (للأسيوليون الأوسط Middle Acheulean) والذي تنتشر أدواته بشكل واسع وتظهر في كل المواقع باستثناء موقعين".

ويقول الباحث الأثري (Norman N. Whalenk): "بالنسبة لدخول (Homo erectus) إلى أسيا؛ منذ حوالي ١.٥ مليون سنة؛ مضى هناك طريقان محتملان لتلك الهجرة:

---

(١) جيفري روز، إضاءة جديدة على إنسان ما قبل التاريخ في واحة الخليج العربي، ترجمة: أ.د.أزهري مصطفى صادق علي، الجمعية السعودية للدراسات الآثرية، الرياض، ٢٠١٤م، ص ٦٧ .

(٢) (Norman N. Whalenk)، هل اتخذ الإنسان الأول طريقه من أفريقيا إلى اليمن عبر باب المندب ؟، ترجمة: د.عبد الحكيم شايف محمد و أزهري مصطفى الصادق، مجلة الإكليل (صنعاء)، وزارة الثقافة، العددان (٢٩ – ٣٠)، مارس ٢٠٠٦، ص ٩١ – ٩٩.

(٣) (المراوح الغرينية): هي عبارة عن مخروط أرضي تراكمت فيه الرواسب التي حملها مجرى مائي سريع عند دخوله منطقة سهلية أو مستوية وسميت بذلك تبعاً لشكلها المروحي.

هجرة بَرِّيَّة: عبر النيل من أثيوبيا، وعبر سيناء إلى الساحل.

هجرة بحريَّة: قصيرة، عبر الممرّ الضيق باب المندب، الذي يفصل آسيا عن أفريقيا.

ومن الاحتمالين؛ **فإن الطريق الأخير، يبدوا جديراً بالتفضيل، لأن يكون تواصلاً وامتداداً للاستيطان الإنساني الأول؛** على طول المسار الجيولوجي للأخدود (إلدواي/ توركنا/ أمو/ أواش...)؛ وحتى مُنخَفَض عفار؛ المحاذي للبحر الأحمر؛ قبالة الساحل اليمني مباشرةً؛ حيث يتقارب قارتا آسيا وأفريقيا هنا.

فبينما ظلّ الطريق النيلي إلى غرب آسيا هو المناسب؛ **فإن ممرّ باب المندب كان أقصر وأقرب جغرافياً، من منطقة أصل الإنسان القديم،** وتطوُّره في شرق أفريقيا.

لو كانت جماعة (Homo erectus) المبكَّرة قد اخترقت أولاً، عن طريق باب المندب؛ فلا بد من وجود بعض المخلَّفات الدالّة على وجودهم. وأكثر المناطق التي يمكن استكشافها؛ يجب أن تكشِف لنا عن آثار لفترة البلايستوسين الأوسط. وقد وضح في النهاية أن **هناك منطقتين في اليمن؛ كُشِفَ بها عن آثار للبلايستوسين الأوسط؛ أولهما من جنوب غرب اليمن، مقابلة لباب المندب؛ والآخر من الحدّ الجنوبي لوادي الجوف، في شرق وسط اليمن، وشمال غرب مأرِب".**

وفي هذا أيضاً يقول الباحث (جيفري روز Jeffrey I. Rose)؛ التالي: "أن "المرر العربي" (أي: اليمن ، عُمان ، والإمارات العربية المتحدة) مثّل قناة للإنسان الأول للخروج من إفريقيا إلى آسيا ، وبالتالي يشير إلى وجود طريق انتشار جنوبي خلال مرحلة النظائر البحرية (٤)[(١)] أو مرحلة النظائر البحرية (٣)[(٢)]". [(٣)]

---

(١) هي المرحلة ما بين (٧٤٠٠٠ إلى ٦٠٠٠٠ سنة مضت).

(٢) هي المرحلة ما بين (٦٠٠٠٠ إلى ٢٤٠٠٠ سنة مضت).

(٣) جيفري روز، إضاءة جديدة على إنسان ما قبل التاريخ في واحة الخليج العربي، ص ٤٦ .

ويضيف قائلاً: **"إنه من المؤكد أن الإنسان قـد احتـل باسـتمرار أغلـب منـاطق الجزيرة العربية طوال (١٠٠٠٠٠) سنة الماضية ، إن لم يكن لفترة أطول".**[١]

*****

وتعليقي على هذا الكلام مثلما قلت أنني أوافق على هذا الكلام، نظراً للاكتشافات العلمية في الجزيرة العربية الموثقة؛ ولكن أختلف مع التفسير حيث أن الهجـرة كانـت عكسية من اليمن إلى أثيوبيا.

ولعل البعض يقول كيف يمكن أن يعيش البشر الأوائل والإنسـان العاقـل الأول في هذه الصحراء القاحلة!.. وأقول أن هذا غير صحيح؛ فإن الجزيرة العربيـة لم تكـن صحراء قاحلة طوال الوقت؛ فالأبحاث العلمية الحديثـة تقـول أنهـا كانـت معمـورة بالخضرة والأمطار.

فقد اكتشف (آش بارتون) وزملاؤه ـ بجامعة أكسفورد، المملكة المتحدة ـ طبقات من الرواسب التي خلّفتها **أنهار قديمة في جنوب شرق الجزيرة العربية، تدفقت لعدة فترات طويلة خلال الـ١٦٠ ألف سنة الماضية.** ومن المرجح أن تلك الفترات الرطبة قد أتاحت للبشر شق طريقهم إلى المناطق الداخلية من الجزيرة العربية في وقت يسـبق بكثير ما أشارت إليه بعض النظريات. **ومنذ ١٦٠ ألف سنة على الأقل، كانت هنـاك أمطار موسمية توفر المياه العذبة والنباتات الكافية لدعم هجرة البشر كل ٢٣ ألـف سنة تقريبًا.**[٢]

وفي بحث علمي آخر نشرته (مجلة الطبيعة): تؤكّـد النتـائج أن التقلّبـات المناخيـة العالمية على المستوى المداري قد لعبت دورًا مهمًّا في تشكيل التوزيعات السكّانية العالميّة في أواخر عصر البلايستوسين؛ فالبشر عاشوا ظروفًا مناخيّـة متقلبـة، وعـلى مسـتوى

---

(١) جيفري روز، إضاءة جديدة على إنسان ما قبل التاريخ في واحة الخليج العربي، ص ٨ – ٩ .
(2) A damp dispersal out of Africa. Nature 519, P: 9 (05 March 2015).

سطح البحر متباينة في الوقت على مجموعة مختلفة من المقاييس الزمنيـة. وحتـى يومنـا هذا، مازال من الصعب تحديد قدر أثر التقلّب المناخي الألفي والجليدي على الانتشار والتطور المبكّرين للإنسان. ويقدِّم هنا البـاحثون نتـائج مـن نمـوذج رقمـي لانتشـار الإنسان موضوع باستخدام التقديرات الزمانيّة المكانية لتغيّرات مستوى سطح البحر، والتغيّرات المناخيّة على مدى الـ١٢٥ ألف سـنة الماضـية. يحـاكي النمـوذج الانتشـار الإجمالي لجنس الإنسان العاقل متسقًا بشـكلٍ كبـير مـع البيانـات الأثريـة والحفريـة، ويصوِّر الموجات البارزة من الهجرة الجليدية عبر منطقتي شبه الجزيرة العربية والشـام قبل حوالي ١٠٦-٩٤ ألف سنة، و٨٩-٧٣ ألف سنة، و٥٩-٤٧ ألـف سـنة، و٤٥-٢٩ ألف سنة مضت.[١]

إذن؛ فالجزيرة العربية كانت في تقلب مناخي على فترات مما جعلتها خضراء مطيرة في لحظات، ولحظات أخرى جافة صحراء قاحلة، مما جعلت السلالات البشرية تهاجر خارج حدود الجزيرة العربية إلى كافة نواحي الأرض.

وفي الأخير يعلق الباحث (جيفري روز)؛ قائلاً: **"أن شبه الجزيرة العربيـة تحمـل مؤشرات بالغة الأهمية لفهم السلالات البشرية المبكرة.** وخلال العقد الماضي ، بدأنا أخيراً في كشف خيوط هذا الاشتباه ، وتم كشف العديد من الألغاز حـول ذلـك. إن هذه البيانات الجديدة لا تدعم النماذج التقليدية لوجود الإنسان ، ولكنها ، ومع ذلك، **تشير إلى إعادة تقييم بعض الأفكار الأساسية".**[٢]

(1) Axel Timmermann, and Tobias Friedrich. Late Pleistocene climate drivers of early human migration. Nature 538, P: 92–95 (06 October 2016).

(٢) جيفري روز، إضاءة جديدة على إنسان ما قبل التاريخ في واحة الخليج العربي، ص ٧٩ .

أن كل الشواهد الآثارية، وكل معطيات العلوم الأخرى المساعدة لعلم التاريخ أكدت، وتؤكد كل يوم، على وحدة الجنس البشري ووحدة حضارته، وعلى **وجود مركز هو الذي قام بعملية ضخ الإنسان وحضارته عبر الأحقاب المديدة في كل الأنحاء، وأن هذا المركز هو في قلب الوطن العربي.** ثم جاء العلم المعاصر ليؤكد صحة هذه النظرة التراثية العربية.(١)

ويضيف الدكتور "أحمد داوود"؛ قائلاً: "إن علم الأركيولوجيا والمناخ والانتروبولوجيا أكدت جميعاً أن شبه جزيرة العرب كانت جنة الله على أرضه، تغذيها أنهار غزيرة وكثيرة، وتضم بحراً من الماء العذب يغطي منطقة الربع الخالي، وأن أمطارها كانت على مدار العام، وأن مناخها كان ربيعاً دائماً، كل هذا في الوقت الذي كانت كتل الجليد بسماكة مئات الأمتار تغطي أوروبا كلها من أقصى القطب حتى أواسط جنوب فرنسا".(٢)

السّراة

(سرا): السَّرْوُ: **المُروءة والشرَفُ.** ومعنى سَرُوَ الرجل يَسرو أي **ارتفع يرتفع ، فهو رفيعٌ ، مأخوذ من سَرِاةِ كل شيءٍ ما ارتفع منه وعلا.** والسَّرِيُّ: **المُختار.** وسَراةُ كل شيءٍ : **أعلاه وظَهرُه ووسَطه ؛** والسَّرْوُ : **ما أرتفع من الوادي وانحدر عن غلظ الجبل،** وقيل السَّرْوُ من الجبل **ما ارتفع عن موضع السيل وانحدرَ عن غلظ الجبل.**

---

(١) أحمد داوود، تاريخ سوريا الحضاري القديم ١- "المركز"، ص ٧٥٧ .

(٢) نفس المرجع، ص ٦٣٨ .

وسَراةُ اليَمَنِ: معروفة. والسَّراةُ: جبل بناحِية الطائف. قال ابن السكيت: الطَّودُ الجبل المُشرف على عرفة ينقاد إلى صنعاء يقال له السَّرَاةُ ، فأوله سراة ثَقيفٍ ثم سَراةُ فَهمٍ وعدوانَ ثم الأزدِ ثم الحَرَّةِ آخر ذلك.[1]

السَّرَاةِ ، هي **أرضٌ واسِعَةٌ**. وسَرَاةُ كُل شيءٍ : **أعلاهُ**. والسَّرْوِ : **أي الرِّفْعةِ.**[2]

هذه "السَّراة" هي أوّل يابسة انشقّ عنها كوكب الأرض حين كان مغطّىً بغمر الماء المحيط الذي يلفّه، وأسفله حميم (صهير حمم)، فعيّن موضعاً لأوّل يابسة ستطفو كمحلٍّ لعرش التدبير لصنع أحياء الأرض (أي اليابسة) ونفوسها التي آخرُها سيكون الإنسان. فهذه السلسلة الجبليّة (السَّراة) وكانت ملتصقة بجبال إيران وجبال شرق أفريقيا، كانت دائماً المهد الأوّل للحياة الأرضيّة، ومصدر انتشارها، وآخرها البشر، ثمّ للإنسان، ثمّ صارت أرض الرسالات، من الجبال المقدّسة الموزّعة فيها ومن وديانها حوالِيّ بقاع مكّة.[3]

جبل "شدا" في السّراة

ومن الأسماء التي أطلقها العرب السومريون على هذا الجبل اسم "شدا" أو "شدْ" أي **السدة، العرش،** كما تعني: **السيد، القاذف، الرامي، الراشق.** والكلمة في القاموس السرياني من الفعل شدا = رمى، رشق، قذف، طرح... الخ. و"شدت" تعني السدّة، العرش، الكرسي (وقد انتقلت هذه الكلمة إلى اللغات الأوروبية فصارت بالإنكليزية "Sit" بعد إدغام الدال مع التاء، وبالروسية "Sidet = جلس").[4]

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج ١٤، ص ٣٧٧ – ٣٨٣ .

(٢) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٤٠٨ – ٤٠٩ .

(٣) جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، بين آدمين: آدم الإنسان وآدم الرسول، ص ٤٢ – ٤٤ .

(٤) أحمد داوود، تاريخ سوريا الحضاري القديم ١- « المركز»، ص ٩٦ .

إنه جبل "شدا"[١] في بلاد غامد من جبال السراة[٢] في شبة الجزيرة العربية الذي ما زال محتفظاً باسمه الخالد حتى اليوم، وليس في الوطن العربي كله جبل آخر يحمل هذا الاسم غيره.

إن هذا الجبل مازال يحمل كثيراً من المواصفات التي اقترنت بأرباب الخصب، وبالمغاور، وبالأرض الجنة، وبالرياحين، والمحلّ الآمن.

وعن هذا الجبل كتب "علي بن صالح السلوك الزهراني" يقول: **"جبل شدا جبل عظيم، يزرع فيه الحنطة، والشعير، والبن، والموز، والخوخ، والرمان، والتفاح، والبرتقال، إلى جانب ما يغطيه من أشجار العرعر (أو الصنوبر) والزيتون البري، والحنّاء، وأنواع الرياحين. وبأعلى قمة هذا الجبل من جهته الشرقية، وتسمّى "قمة المصلّى"، حجر مثلث الشكل تحمله ثلاثة أحجار كبيرة كالأثافي، وهو باتجاه القبلة، ويتسع لإمام ومأمومين اثنين فقط، يسمّونه مصلّى إبراهيم، لا يستطيع الوقوف عليه أو الصلاة فوقه إلا من كان متعوداً.** وأبلغوني بأن هذا المصلّى الحجري كان يفد إليه

---

(١) جبل شدا الأعلى جبل صخري مرتفع، يُعدّ أعلى جبل في سهل تهامة، يقع تقريبًا بين مدينتي قلوة والمخواة جنوب غربي المملكة العربية السعودية. ويقدر ارتفاع قمة الجبل عن مستوى سطح البحر بما يقرب من ٢.٩٠٠ م. تغلب على تضاريس الجبل الصخور الملساء العارية، مما يعطي الجبل لونًا أزرق باهت.

(٢) تمتد هذه الجبال بين حدود المملكة العربية السعودية و الجمهورية اليمنية جنوباً حتى قبيل مدينة الطائف شمالاً، ويتراوح ارتفاعها بين ٨٠٠ إلى ٣٠٠٠ متر فوق مستوى سطح البحر، وتنحدر منها نحو الغرب أودية تهامة السعودية، وتسيل منها نحو الشرق أودية كثيرة منها روافد وادي نجران ووادي حبونا وأعالي روافد وادي الدواسر مثل وادي تثليث ووادي بيشة ووادي رنية ووادي تربة.

وتقسم جبال السراة إلى خمسة أقسام رئيسة هي:

سراة ثقيف : وهي السراة التي تطل على عرفات وما حولها وتمتد نحو الجنوب.

سراة بني مالك.

سراة غامد و زهران : وهي التي تلي السراة السابقة وتتصل بها.

الحَجْر: وتتصل بها من الناحية الجنوبية الشرقية سراة عسير.

سراة عسير: وهي السراة الموجودة حول مدينة أبها وشرقها في سراة عبيدة.

يمنيون، وأنهم كانوا لا يمرّون بالقرى، بل يتجهون إليه، ويبقون عند هذا المصلّى أياماً (يتعبدون الله) ويعودون إلى بلادهم. والطريق إلى القمة من الصعوبة بمكان. **وهو أعلى مكان في تهامة وسراة غامد وزهران بعد مرتفعات دوس وبيضان".**[1]

ولا شك في أن في أوصاف هذا الجبل عدة أمور يجب التوقف عندها:[2]

١. فهذا الجبل مقدس عند العرب الأقدمين في سوريا ووادي النيل.

٢. وقد دعي بهذا الاسم منذ ذلك الزمن الموغل في القدم وحتى اليوم.

٣. وعلى قمته تشكيل من الأحجار المثلثة وهي ثلاثة تحمل حجراً رابعاً، إنها رمز للأرباب الثلاثة ولرب الأرباب، ثم للملائكة الثلاثة ورئيسهم ميكائيل. وإن تسمية الناس لها بـ "مصلّى إبراهيم" ليس إلا تحريفاً عن العربية القديمة عن الكلمة "بهرام" الذي يعني النور. وهذا التشكيل الهرمي للحجارة هو تجسيد لحجر الـ "بن" على الجبل الأول عند بدء الخليقة، عند ميلاد النور، كما أنها تمثيل للوحدة العددية التي ترمز إلى الخلق: ثلاثة أحرف تؤلف كلمة، وثلاث حلقات من الحموض الأمينية...الخ.

٤. إن الناس كانوا يفدون إليه ويحجون إليه في القديم، ويسلكون طرقاً سرية.

٥. وإن ذلك المكان كان ترميزاً للكعبة الأولى وليس مصلّى لثلاثة أشخاص.

٦. إن من الأشجار التي اشتهر بها وتنبت عليه بصورة طبيعية منذ القدم شجرة البن. وإن تسمية هذه الشجرة مقترنة بحجر الـ "بن" الذي هو حجر الكعبة الأولى أو الصخرة المقدسة ، لمّا يلفت النظر إلى أصل هذه التسمية.

---

(١) علي بن صالح السلوك الزهراني، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية: بلاد غامد وزهران، ط ٢، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر – الرياض، ١٩٨١م، ص ١٣٢ – ١٣٣.
(٢) أحمد داوود، تاريخ سوريا الحضاري القديم ١- « المركز»، ص ٩٧ – ٩٨.

ويقول الدكتور "حمد الجاسر": **"إن أجود أنواع البن هو البن البري الذي ينبت في جبل شدا الواقع في السفوح الغربية من السراة في تهامة، والذي يبدو شامخاً مشمخراً عندما يطل المرء من إحدى مرتفعات السراة نحو الغرب".**[1]

ويقول: "شَداَ: من أشهر جبال تهامة وهما شدوان مُثَنَّى شدا. أحدهما لغامد والآخر لزهران".[2]

أما التسمية الأخرى لهذه الشجرة فكانت "كوفي" وهي جمع "كافا" في العربية القديمة وتعني الصخرة، حجر اللازورد. إنها، مرة أخرى، مرتبطة بالصخرة المقدسة، بحجر البن، بالكعبة. وهذه الكلمة العربية القديمة هي التي انتقلت إلى اللغات الأخرى إلى هذا اليوم. أما كلمة "قهوة" فكان العرب يطلقونها على اللبن الخالص أو الخمر الخالصة. ويروى أنهم في البداية كانوا يخفون أمر شرب البن عن جيرانهم الفرس محتفظين بأمرها سراً، معتقدين أنها تقوّي وتنشط (ومن معاني البن: القوة)، فكانوا حينما يسألون عن الذي يشربونه يقولون "قهوة"، أي خمر، والفرس ما كانوا يشربون غير الماء في عهدهم القديم. ومن الكلمة "كافا" أي الصخرة المقدسة جاء اسم الجبل الآخر: جبل قاف.[3]

وقد دعيت قمتا جبل شدا منذ القدم وإلى اليوم بـ "التحيتين". وعلى هذا يعلق "علي بن صالح السلوك الزهراني"؛ فيقول:

---

(١) حمد الجاسر، في سراة غامد وزهران، ط ٢، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر – الرياض، ١٩٧٧م، ص ٢٠.

(٢) نفس المرجع، ص ١٦٥.

(٣) أحمد داوود، تاريخ سوريا الحضاري القديم ١- « المرَكَز»، ص ٩٨ .

"التَحْيتَيْنْ قمتان في جبل شدا الأعلى تشرفان على وادي بُحر، وتكونان مع قمتي المصلّى والقارة ثلاثة رؤوس لجبل شدا الأعلى، وفي مغاور القمتين تعيش النمور المفترسة". [١]

الجبل المركز وموقعه الجغرافي

إن الجبل المقدس من حيث الاتجاهات فهي عند العربي القديم منذ وجوده على النحو التالي: كان يفترض، أو يعتقد، **أن جبال السراة في شبة جزيرة العرب هي مركز الأرض و"سرّتها"، واسمها نفسه يعني البروز والسرّة.** ولما كان العربي القديم يقدس الشمس منذ القدم فقد دأب على جعل معابده تتجه دائماً إلى الشرق (إلى الشمس)، وكان يقف كل صباح بوجهه إلى الشمس لتحيتها عند طلوعها. **واعتقد أن جبال "جامد" (أرض المخلص، غامد الآن) هي المركز.**

وبناء عليه **فإن من يقف في "جامد" ووجهه إلى الشرق، يكون قد وقف في السرّة، المركز، وكل ما على يمينه دعاه "اليمن" أي اليمين أو الجنوب، وكل ما على شماله دعي "الشام" أي الشمال. وهكذا بقيت كلمة "الشام" تعني الشمال.**[٢]

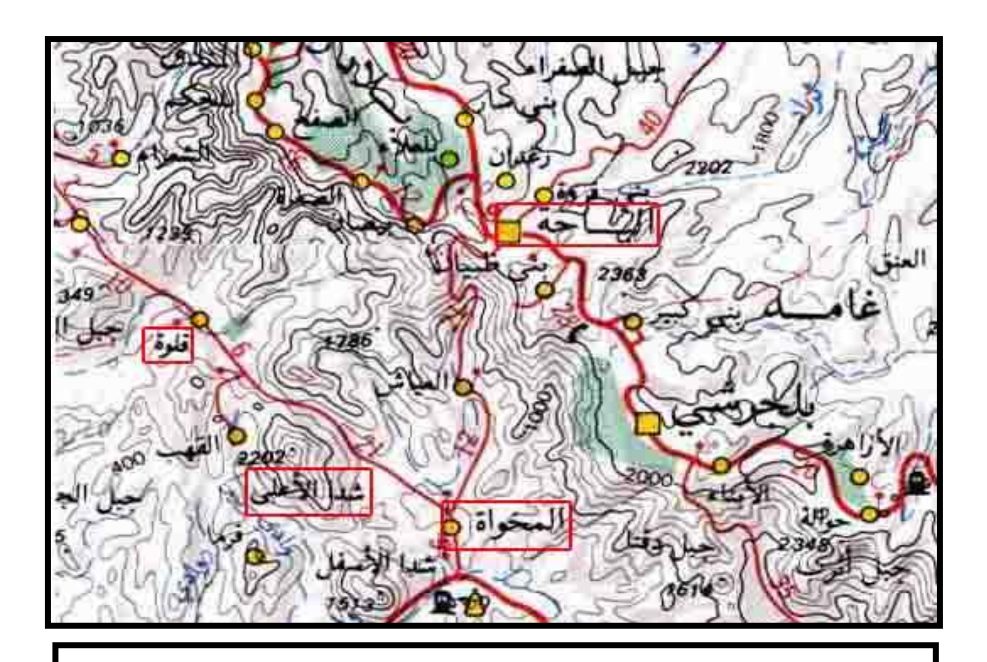
وفي معجم "لسان العرب": (شأم): الشُّؤْمُ: خلافُ اليُمْنِ. ويقال: تَشاءَمُ الرجل إذا أَخذ نحو شِماله. والمَشْأَمة: خلاف المَيْمَنَة. والشَّأْمُ: بلاد تذكر وتؤنث، سمين بها لأنها عن مَشْأَمة القبلة.[٣]

---

(١) علي بن صالح السلوك الزهراني، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية: بلاد غامد وزهران، ص ٥٤.

(٢) أحمد داوود، تاريخ سوريا الحضاري القديم ١- « المرَكز»، ص ١٠٨ .

(٣) ابن منظور، معجم لسان العرب، ج ١٢، ص ٣١٤ – ٣١٦.



(صورة: ١): إحداثي الجبل (١٩.٥٠.٣٩٢ / ٠٤١.١٨.٧٠٥)



(صورة: ٢): صورة طبيعية لجبل شدا

سُكنى الجنَّة

سنعرض في هذا الجزء أهم قضية شغلت الفكر الإنساني بعد قضية خلق آدم وهي قضية **(معصية آدم والأكل من الشـجرة)**؛ سـنتدبر الآيـات التـي بـدأت بسـكن آدم وزوجه الجنة ثم المعصية التي أرتكبها التي جعلته يهبط من هذه الجنة.

قال تعالى: { وَقُلْنَا **يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ** وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْـثُ شِـئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ } (البقرة: ٣٥).

قال تعالى: { **وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ** فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ } (الأعراف: ١٩).

الفروق البارزة بين الآيتين هي التالية:

السورة	الفوارق
البقرة	- تبدأ باللفظ **(وَقُلْنَا)**. - جاء التركيب فيها **(وَكُلَا)**. - جاء التركيب فيها **(وَكُلَا مِنْهَا)**. - جاء التركيب فيها **(وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا)**. - ورد حرف الجر مقترنا بضمير يعود على الجنة **(منْهَا)**.
الأعراف	- تبدأ باللفظ **(وَيَـا)**. - جاء التركيب فيها **(فَكُلَا)**. - جاء التركيب فيها **(فَكُلَا مِنْ)**. - خلا من اللفظ **(رَغَدًا)**. - لم يقترن بضمير **(مِنْ)**.

تحليل الفروق والاستفادة منها:

حتى نفهم المقصود دعونا أولاً نظر أين ورد هذا التركيب؛ قال تعـالى: { **وَإِذْ قُلْنَـا لِلْمَلَائِكَةِ** اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِـنَ الْكَـافِرِينَ (٣٤) **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ** وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْـثُ شِـئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَـا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) } (البقرة).

ورد هذا التركيب بعد الآيـة التـي تحـدثت عـن إسـجاد الملائكـة وعـدم سـجود إبليس.. بمعنى أن الحديث عن مرحلة ما بعد التطـوير باتجـاه الإنسـان العاقـل (آدم) الذي جاء من عمليه خلط وموائمة بتدبير.

فكانت المرحلة اللاحقة تزويد آدم (الجنس الجديد) بموجهات فطرية جديدة بينها شعوره بالانسجام الكامل مع أبناء جنسه الذين يمثلون الأعراق المختلفـة والمتقاربـة فيما بينها.. فكان التوجيه الجديد هو وضع إحساس قوي في هـذا الجـنس بميلـه نحـو نظائره.

نستنتج هذا من لفظة (قلْنَا) فالقول يعني **التركيز عـلى أمـر أكثـر ممـا لـو أخبرنـا بالموضوع فقط.** مثلا لو قلت : ألم أقل لك أن هؤلاء فاسقون ؟. أو قلـت: أمـا تعلـم بأنهم فاسقون ؟ الفرق واضح فالأولى فيها بينه وحجة بيـنما الثانيـة تعتـبر معلومـات عامة.

ورد الاشتقاق (قلْنَا) (٢٧) مرة في النصوص القرآنية مشـيراً في كـل مـرة إلى أمـر ثابت واضح المعالم والتبليغ كما في الأمثلة التالية:

قال تعالى: { **وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا** هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْـثُ شِـئْتُمْ رَغَـدًا وَادْخُلُـوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ } (البقرة: ٥٨).

قال تعالى: { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِـنكُمْ فِي السَّبْتِ **فَقُلْنَـا لَهُـمْ كُونُـوا** قِـرَدَةً خَاسِئِينَ } (البقرة: ٦٥).

قال تعالى: { وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ **وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا** الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا } (النساء: ١٥٤).

قال تعالى: { حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ **قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ** وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ۚ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ } (هود: ٤٠).

قال تعالى: { **وَإِذْ قُلْنَا لَكَ** إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا } (الإسراء: ٦٠).

هذا التركيب – في سورة (البقرة: ٣٤ – ٣٥) – يشير إلى قضية مكتملة الأركان تتضمن الأركان التالية:

١. أنَّ القائل هم الملائكة المختصون بما يقولون وأنهم مسؤولون عما يقولون.
٢. أنَّ القول قضية مدروسة بعناية ومبنية على مقدمات محكمة لأنها جاءت متبوعة بأمر.
٣. أنَّ المقول هو تعبير عن قرار سيادي ضمن صلاحيات الملائكة.
٤. أنَّ الأمر المترتب على القول قابل للتنفيذ وله أرضية مناسبة تماما.
٥. أنَّ المقول قد تمَّ إبلاغه بأفضل الطرق.
٦. أنَّ المقول يمكن الاحتجاج به على المتلقي.

وعلى أساس ما تقدَّم فإن ما يجري الحديث عنه في الآية الخاصة بسورة البقرة أمر مختلف تماما عن الأمر الذي جرى الحديث عنه في سورة الأعراف والذي جاء مرسلا وليس مبنيا على نفس المقدمات.

ولكن لماذا جاء التركيب الثاني هكذا ؟ وما الذي سيعنيه ذلك ؟

- للإجابة على السؤالين أعلاه نقول:

جاء التركيب مختلفا بين الآيتين لاختلاف الظرف والمناسبة والموضوع، فعدم استخدام التركيب **(وَقُلْنَا)** في سورة الأعراف يعني أن كل ما ذكرناه حول الأمر السابق غير موجود هنا ما يعني أن المسؤول هنا هو جهة أخرى غير الملائكة وأن الأمر ليست له أرضية معدة سلفا بل أن الأمر خارج عن الأطر التي تتحكم فيه مقارنة بما سبق وهكذا.

ولو أردنا أن نحلل هذا القول أكثر سنقول **أن المقولة الأولى جاءت للحديث عن الإطار الداخلي الذي تتحدث فيه الملائكة عن انسجام عالي بين الأعراق المخلوطة لذا فهم مسؤولون ويتمكنون من التصريح بأنَّهم سعوا إلى تثبيت قواعد الارتباط هناك** بينما الأمر مختلف بالنسبة للأجواء التي يجري الحديث عنها في سورة الأعراف، لذلك جاء القول مرسلا هكذا **(وَيَا آدَمُ) بمعنى أنه سيفهم الأمر بنفسه من مؤشرات في المحيط وهي كثيرة لو انتبه إليها.** ولكن هل حصل ذلك بالفعل ؟ يبدو أن الأمر لم يكن كذلك.

القضية المهمة هنا هي أنَّنا نستطيع القول وبضرس قاطع بأنَّ الحديث في الآيتين عن قضيتين مختلفتين. **الأولى تتحدث عن قضية لها ضوابط بينما الثانية فيها تفويض للإنسان ذاته.** وسوف يتضح الأمر أكثر.

الفرق بين: سكنى الجنّة والسكنى في الجنّة

لماذا طُلِبَ من آدم **(سكنى الجنة)** ولم يطلب منه **(السكنى في الجنّة)** فقيل له **(اسكن أنت وزوجك الجنّة)** ؟ دعونا إذن نتناول بالبحث والتأمل كلا من الجذور التالية:

• سَكَنَ . • جَنَنَ والجنّة .

لو تأملنا النصين السابقين – من سورة (البقرة: ٣٥) ومن سورة (الأعراف: ١٩) – حول سكنى آدم الجنة وقارنّاهما بنصٍّ آخر؛ قال تعالى: { وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ

ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ } (إبراهيم: ٤٥)، سنتمكن من فهم طبيعة التوجيه الصادر من السماء لآدم.

أول ما نلاحظه هو أن التعامل مع الفعل **(سَكَنَ)** جاء بطريقتين ما يجعل المعنى الناتج مختلفا. فـ **(سكن الجنّة)** يعني أمرا آخر غير **(السكن في مساكن)** فما هو المعنى المقصود من سكنى الجنّة ؟.

السؤال المطروح هو: لماذا لم يأتِ النصُّ هكذا (يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ **في** الْجَنَّةَ) ؟ وما كان سيكون الفرق ؟ سيتجلى لنا الفرق وسنتمكن من الوصول إلى إجابة مقنعة إذا تعرفنا قليلا على معنى الجذر **(سَكَنَ)** وكما يلي:

(سَكَنَ): السين والكاف والنون أصلٌ واحد مطّرد، **يدل على خلاف الاضطراب والحركة.** يقال سَكَن الشّيءُ يسكُن سكوناً. والسَّكَن: كل ما سكنتَ إليه من محبوب. والسَّكين: هو فِعَّيل لأنّه يسكّن حركةَ المذبوح به. ومن الباب السّكينة، وهو الوقار، وسُكان السفينة سَّمي لأنه يُسكّنها عن الاضطراب، وهو عربيٌّ.[١]

- دلالة أصوات حروف الجذر **(س – ك – ن):**

(س): صوت يدل على حركة بشكل غير واضح وغير عميق أولي.

(ك): صوت يدل على وقف، أو ضغط خفيف.

(ن): صوت يدل على ستر أو اختباء أو سكون.

(سكن): كلمة تدل على **حركة غير عميقة أولية، يتبعها ضغط خفيف، تنتهي بستر واختباء.**

عودة إلى الفرق بين الفعل اللازم والفعل المتعدي لفهم الفرق بين **السكنى** و **السكنى في:**

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الثالث، ص ٨٨ .

١. واضح **أن الفعل (سَكَنَ) فعل لازم** فنحن نتمكن من القول (سكنَ المطرُ) أو (سَكَنَ الطفلُ).

٢. وواضح أيضا **أن الفعل (سَكَنَ) هو فعل متعـدي** فـنحن نـتمكن مـن القـول (سكنَ احمدٌ مصرَ).

- ما يهمنا الآن هو النوع الثاني من الفعل وهو الفعـل المتعـدي (سَـكَنَ) سـيما في العبارة **(اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ).**

- هل العبارة أعلاه تشير إلى أمر ربوبي إلى آدم بأن يسكن (أي يستوطن) الجنّة ؟

يبدو أن الجواب هو: قطعا لا. لأن العبارة التي ينبغي أن تشير إلى أمـر الاسـتيطان هي عبارة (إسكن انتَ وزوجكَ في الجنة).

عليه يكون المعنى المطلوب **هي ليس أمراً للاستيطان وإنما هو أمر للسكون لما هو موجود في ذات وجود ونفسية آدم.** بمعنى **أن الجنَّة التي يجـري الحـديث عنهـا هـي موجودة وهو موجود نفسيا فيها ومطلوب منه أن يساكنها ويبقى فيها.**

تذكرون أننا سابقاً تحدثنا عن معنى الجذر **(جَنَ)** ونقول بأنَّ **(الجَنَّةَ)** تعنـي: **ذلـك الموقع أو الظرف الذي تتاح فيه الطاقات بشكل متكامل ودون قيود أو حدود وبحالة من إمكانية الانسجام الكامل معها.**

عليه فإن الجنة بطاقاتها المناسبة لآدم والمتاحة له بشكل كامل ودون قيود تعني أنـه قادر على الاستفادةِ منها بما يحقق له السعادة الكاملة نتيجة الانسجام بين ما يطلبه ومـا يجده. والحقيقة إن هذا هو أجمل مفهوم للجنة وهو أن السعادةَ فيها تتحقق نتيجة حالة الانسجام.

ويمكن لكل منا أن يتخيل متى شعر في حياته بأنه يعيش في جنّة ؟ سيجد أن أهـم ما يميز تلك اللحظات أو الفترات هو حالة الانسجام الكامل مع الحبيـب أو المحـيط

أو الأهل أو الوظيفة والشعور بالقدرة على الحصول على ما يريد وتحقيق حالة الإشباع دون معوقات أو قيود.

ولكنني **لا أنكر بوجود مكان مادي أيضاً سكنه آدم (المجموعة البشرية "ذكور وإناث") – وهو الذي حددنا موقعه في المغارة المقدسة الذي يكمن في سلسلة جبال السراة وبالتحديد في جبل شدا – وهذا هو المكان الذي يتم تأهيل آدم فيه ليكون الخليفة في الأرض.**

مما تقدم يمكننا القول بأن التوجيه الذي صدر إلى آدم هو لدفعه لاتخاذ قرار البقاء ضمن حدود قوانين تلك الجنة والاكتفاء بما هو موجود فيها من مساحات يمكنه من خلالها الحصول على الإنسجام وتحقيق السعادة الكاملة في المكملات التي يحتاجها ككائن حيّ.

بمعنى أنَّ المطلوب من آدم هو محاولة الحصول على ما يعتقد أنَّه يحقق له السعادة ولكن بعد أن يتأمل في كل جوانب الأمر **لتفادي الشبهات التي وضعت لها أجهزة إنذار في فطرته وفي تركيبته الخلقية الخاصة.** وشعوره بأنَّ الاقتراب من موضوعات معينة قد يهدد كيانه ووجود بخطر داهم هو ما أشارت إليه الآيات من خلال التحذير بأنَّه إذا اقترب من الشجرة فإنَّه سيقع في نوع من الظلم كما سيتبين معنا لاحقا. وما تشير إليه الآيات هو **(العهد) الذي تمَّ تفويضه إلى آدم ولم يكن لديه العزم الكافي في الحفاظ عليه.**

مما تقدم يمكن القول بأنَّ التوجيه الرباني لجنس آدم البشري هو أنَّه الآن أصبح يمتلك أزِمَّة بعض الأمور وعليه أن يتخذ القرار لنفسه سيَّما وأنَّ المقدمات اللازمة قد زُرعت في نفسه وإنَّ عليه الإكتفاء بما هو متاح له في هذه الحياة من مفردات الجنَّةٍ والتي يتمكن فيها من إتخاذ القرارات المطلوبة عبر عملية معرفية أغلبها مقنن والقليل الباقي منها مفوَّض إليه.

فجاء التوجيه إليه لممارسة حياته الطبيعية وبأنَّ ينتبه إلى الحفاظ على ما هو متاح لـه وعدم الإقتراب من شجرةٍ معيّنة فإنَّ مجرد الإقتراب منها سيوقعه في ظلمٍ لنفسه وهذا التحذير موجه له كفرد وكجيل بأكمله.

نستنتج ذلك من بقية الجملة في الآية المشار إليها وهي قوله **(وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا)** أو **(فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا)** حيث أشار النص إلى أن طريقة الأكل أو جهة الأكل لا إشكال فيها ما دامت تراعـي شرطـين أساسـيين: **البحـث عـن الإنسـجام وعـدم التقرب من الشجرة المنهي عنها وهي واقعة خارج حدوده الذاتية أو في ذاته ولكّنها معطلة.**

وكُلا / فكُلا

قلنا في تحليلنا لبداية الآيتين بأن هناك وصف لقضيتين مختلفتين.. التركيبان التاليان أيضا يصبان في نفس الإتجاه.

التركيب الأول **(وَكُلَا)** يعني: **أن عملية الأكل ستأتي في سياق منطقـي مـترابط يرتبط السابق فيه باللاحق بعلاقة منطقية.** كأن نقول مثلا: قررت أن اشـتري سـيارة فاتصلت بمعرض السيارة وقالوا لي أن هناك سيارة جيدة فذهبت إلـيهم وتفحصـت السيارة واتفقنا على السعر واشتريتها.

بينما في التركيب الثاني **(فَكُلَا): جاءت الفاء لتشير إلى علاقات غير متفـق عليهـا؛** وهو ما يشير إلى وجود وضع آخر مختلف عن الأول **إذ تبنى العلاقات هنا عـلى قـرار خاص وحالات خاصة.**

كأن نقول: خرجت إلى السوق ورأيت سيارة جميلة في معرض السيارات **فقـررت** أن اشتريها **فدخلت** إلى المعرض وتفحصت السيارة وسألت عن السعر وتعاملنا عليها **فقبلت** بالسعر النهائي واشتريتها.

نلاحظ **أن الفاء تأتي على أمور غير متوقعه أو غير متفق عليها،** وللتعبير عن علاقة ظهور سبب أو مؤثر وظهور نتيجة أو استجابة لذلك السبب أو المؤثر.

بعد إيضاح الفروق أعلاه دعونا ننظر في التركيب الأكبر فنقارن بين:

قال تعالى: { وَقُلْنَا يَا آدَمُ **اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ** وَكُلَا مِنْهَا } (البقرة: ٣٥).

قال تعالى: { وَيَا آدَمُ **اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ** فَكُلَا مِنْ } (الأعراف: ١٩).

١. التركيب الأول يتكلم عن قضية مقررة سلفا من قبل جهة مسؤوله عن آدم والمتحدث فيها متأكد مما يقول لأنه يتحدث عن صلاحياته وقراراته المتعلقة بآدم، وأنَّ عملية الأكل تأتي كنتيجة طبيعية وفي سياقاتها العادية المقررة سلفا. بينما التركيب الثاني الحديث فيه عن أمر مرتبطٍ بأمور ليست مقننة بهذا الشكل وإن القرار فيها تابع لآدم ذاته، فإذا صادفه ما يثير انتباهه فله أن يقرر.

٢. إنَّ الأمور التي يجري الحديث عنها في **التركيب الأول هي شؤون داخلية تابعة لنوع الجنة المشار إليها وأنَّ النتائج على درجة كبيرة من الضمان والنمطية** بينما في **التركيب الثاني يجري الحديث عن جنة أوسع والضوابط فيها أخفُّ والنتائج أقل ضمانةً.**

يمكننا أن نتأكد من صحة ما افترضنا من ملاحقة بقية التركيبين ومقارنتهما ببعض فنلاحظ الملاحظات التالية:

لقد تمَّ تحديد جنّة معيّنة للأكل منها في الحالة الأولى بالإشارة إلى الجنّة بالضمير (منْهَا) فقيل **(وَكُلَا منْهَا) في إشارة إلى جنّة معينة وأنَّ عملية الأكل متاحة للأكل منها.** بينما في التركيب الثاني **حُدِّدَ الأمر فقط بالسكن في تلك الجنّة وتركت عملية الأكل مفتوحة من خارجها فلم يقترن فعل الأكل بضمير عائد على الجنّة فقيل (منْ).**

بذا يكون الحديث في التركيب الأول عن أمرٍ مدروس وله جوانب محددة لذا اقترنت بمقولة **(وَقُلْنَا)** ثم أتبع ذلك الإشارة إلى أنَّ عملية الأكل من تلك الجنّة المراد التساكن معها هي عملية مدروسة ومضمونة النتائج.

بينما في التركيب الثاني لم تبدأ الآية بمقولة **(قُلْنَا)** وتمَّ الإكتفاء بمقولة **(وَيَا آدَمُ)** للإشارة إلى أنَّه مفوض في ذلك وأنَّ عملية مُساكنة الجنّة تبقى ضمن إطار ما تمَّ إقراره ولكن قرار الأكل من خارجها سيكون موكولا إلى آدم نفسه.

مفهوم (مِنْ) في النصين

أورد علماء اللغة ما يزيد على العشرة توظيفات لحرف الجر **(مِنْ)** فقالوا أنَّها تأتي للقيام بوظيفة: **إبتداء الغاية المكانية أو الزمانية / التبعيض / بيان الجنس / البدلية / التعليل والسببية / بمعنى (على) / بمعنى (في) / زائدة..** والتدقيق في علمها وتحليله يُظهر أنَّها جميعا تعود إلى **معنى إجمالي واحد وهو (التبعيض).**

فقولنا أنَّها لإبتداء الغاية المكانية أو الزمانية يعني **أنَّنا بها نحدد بعض نقاط الزمان والمكان من كل الزمان والمكان لبدء ما نتحدث عنه** كأن نقول: انطلقت من مكة. أو: بدأت ادرس من السادسة وإلى السابعة.

أما **بيان الجنس** فهو **اختيار بعض الأجناس من سائرها.** مثلاً: اشتريت خاتما من الذهب. فنحدد أحد المعادن من بين كافة المعادن التي تصلح لصناعة الخاتم.

والبدل هكذا أيضا **فهو بعض من كل** كأن نقول (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة) ونقصد بذلك القول أنَّكم قبلتم بالحياة الدنيا كبديل رغم أنَّها بعض من الآخرة. وهكذا..

عموما في الآيتين اللتين نبحثهما من سورة البقرة ومن سورة الأعراف، نلاحظ أنَّ: (مِنْ) جاءت في الحالتين: { وَكُلَا **مِنْهَا** رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا } (البقرة: ٣٥)، و { فَكُلَا **مِنْ** حَيْثُ شِئْتُمَا } (الأعراف: ١٩). **لتشير إلى هذا التبعيض فهي تُبيح للمخاطب** (آدم

الزوج المعبر عن مطلق الجنس الآدمي) **الأكل (مِنْ) بعض مما هـو موجـود في الجنّـة وخارجها بالطريقة التي يقررناها (حَيْثُ شِئْتُمَا).**

الفارق الوحيد الذي نلاحظه بين المناسبتين **هو أنَّ هناك ضمان للنتـائج في الـنص الأول تمَّ الإعراب عنه مباشرة بعد عملية الأكل** ليكون شاملا لكـل الحـالات التـي يقرران فيها نوع المأكول وطريقته { وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا } (البقرة: ٣٥).

وهنا لا بدَّ لأن نذكر بأنَّ عملية ضمان النتائج رغم أنَّها جاءت بعد الإباحـة المشـار إليها في عملية الأكل إلا أنَّها كانت مشروطة أيضا بشرط آخر وهو الإبتعاد عن شجرة معينة.

بينما جاءت القضية الثانية خالية من الضمانات وأوكلت فيها المسؤولية للـزوج آدم ذاتهما مع الإبقاء على الشرط الذي تـمَّ إشـتراطه في الحالـة الأولى وهـو الإبتعـاد عـن شجرة معينة.

ضمان النتائج = وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا

إنَّ إستخدام لفظة (رَغَدًا) يؤكد كلّ ما أسلفنا لأنَّه يشـير إلى **أنَّ النتـائج في عمليـة المساكنة للجنّة والأكل منها، مضـمونة وغـير متبوعـة بأيـة مخـاطر إذا تمـت ضـمن ضوابطها التي تمَّ توضيحها لآدم.** وحتى نتأكد من ذلك دعونا نتأكد من معنى اللفظ (رَغَدًا) كما يلي:

(رغد): عيش رغْد: **كثير. مُخْصِبٌ رفِيهٌ غزير.** وقوم رَغْد ونسوة رَغَـد: مُخْصـبون مغزرون. تقول: رَغِدَ عيشُهم ورَغُد، بكسر الغين وضمها، وأَرغَد فلان: أَصاب **عيشاً واسعاً.** وأَرغد ماشيته: تركها وسَوْمَها. والرغْدُ **الكثير الواسع الذي لا يُعييك من مال أَو ماء أَو عيش أَو كلإٍ.**[1]

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الثالث، ص ١٨٠ – ١٨١ .

- دلالة أصوات حروف الجذر **(ر – غ – د):**

(ر): صوت يدل على حركة سريعة منتظمة أو مرتبطة ومتصلة ومتكررة.

(غ): صوت يدل على غموض أو غياب الحركة ومعالمها.

(د): صوت يدل على دفع شديد متوقف.

(رغد): صوت يدل على حركة سريعة منتظمة ومتكررة، يتبعها غموض، وتنتهي بدفع شديد متوقف.

إذاً معنى **(الرَغَدْ)** هو: **(أمرٌ يتناوله قانون غيبي لتكون نتائجه في الواقع إيجابية ومنسجمة)** والمعنيان في المعجم والدلالة الصوتية منسجمان.

عليه فإنَّ لفظة **(رَغَدًا)** تعطينا تأكيدا على ما إفترضناه بالنسبة للتركيب الأول بينما بقي التركيب الثاني خاليا منه، ما يشير إلى عدم إمكانية ضمان النتائج في الأكل من خارج الجنّة وضوابطها.

مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا / مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا

هنا يمكننا ملاحظة المزيد من القيود والضوابط التي أُشيرَ إليها في الحالة الأولى والتي خلت منها الحالة الثانية وكما يلي:

التركيب الأول يشير إلى أنَّ الأكل من الجنّة ضمن ضوابطها حتى وإن كان بمشيئة آدم (الزوج) فإنَّه سيكون رغيدا وليس فيه نتائج سلبية. بينما التركيب الثاني يشير إلى واقع حال فيقول بأنَّ الأكل طبقا لمشيئة الزوج آدم أمرٌ ممكن ولكنَّ نتائجه غير مضمونة وليست ضمن الضوابط التي يمكن للقائل أن يعد بسلامة نتائجها.

و**(المشيئة)** تعني: **(الإختيار ضمن خيارات محددة سلفا داخل إطار تلك المشيئة)؛** بينما **(الإرادة)** تعني: **(توظيف أكثر من مشيئة أو الانتقال فيما بين المشيئات المختلفة).**

عليه فإن مشيئة الزوج آدم تعني **قدرته على التصرف ضمن القـوانين والضـوابط** ولكنه في الحالة الأولى ضمن مشيئات محددة مضمونة النتائج بينما في الثانية انتقال بـين مشيئات قد لا تحمد عقباه.

الأكل من منظورين

نستنتج من كل ما تقدم فروق جوهرية بين النصيّن المبحوثين:

قال تعالى: { وَقُلْنَا يَا آدَمُ **اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ** وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْـثُ شِـئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ } (البقرة: ٣٥).

فالحديث أعلاه عما هو داخل إطار الجنَّة الخاصـة بـالخليط (آدم) وتنبـيههما كـذكر وأنثى ينتمون إلى جنس بشري متعدد الأعراق، بتحري الدقـة في إختيـار المأكـل مـن داخل المجموعة والإبتعاد قدر الإمكان عما هو غير محبذ من الشجرة المنهي عنها. وهو المقصود من خلال ضمان حالة الرغد.

قال تعالى: { وَيَا آدَمُ **اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ** فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ } (الأعراف: ١٩).

أمّا في الآية الثانية فالحديث عن الأكل واختيار الشريك من المجموعات الأُخـرى المستبعدة من الخليط (آدم) ما دامت ضمن إطار نفـس الجنّـة وضـوابطها فيتـيح لهـما مشاكلة الأجناس الأخرى مع مراعاة عدم الاقتراب من الشجرة المنهي عنها.

الحديث بالإجمال عن علاقات التزاوج من أجل مواصلة الشعور بالعيش في الجنـة لأن الآيات جاءت في الحالتين تذكر آدم وزوجه ثم تذكر الأكـل مـا يجعلنـا نعتقـد أنَّ الفكرة هي حول قضية الانسجام بين الزوجين والأكل الجنسي والتـزاوج فـيما بيـنهما كمجموعات متقاربة.

زَوَجَ = دليل على ذلك

أنَّ كلمة **(زَوْجُكَ)** لا تشير إلى الأنثى في مقابل إشارة لفظة (آدم) إلى الذكر ؟ وإنَّما تُشير إلى الملائم لك من الجنس المقابل أو من المجموعات الأخرى فكلمة الزوج تطلق على الشبيه أو المناسب للانسجام معه أو للزوج المخالف في عملية الارتباط الجنسي كما في النصوص التالية:

قال تعالى: { لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ **يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا** ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) } (الشورى).

ففي النص أعلاه حينما يقول: **(يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا)** لا يقصد طبعا أن يجعلهم يتزوجون وإنَّما المقصود إنَّه يهب لهم مواليد مختلطة من البنين والبنات.

قال تعالى: **{ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ }** (التكوير: ٧).

هنا لا محيص لنا إلا اعتبار التزويج هو جمع المتجانسات من الأنفس في مجاميع وإلا كيف يمكن للنفوس أن تزوج بطريقة النكاح وهي نفوس والموقف هو موقف قيامة وحساب ؟ والإنسان لم يصل الجنّة بعد ؟..

النتيجة إذن أَّننا أمام خطابين عن حالتين وفي مناسبتين مختلفتين:

إحداهما متعلقة بمجموعة موحدة أفرادها تتشابه وتنسجم مع بعضها البعض مطلوب منهم أن يحافظوا على حالة الانسجام والسعادة من خلال الحرص على البحث عن الشريك النقي الخالي من الصفات المخَّلة بتلك الجنّة وتلك السعادة والذي يمكن معه الحفاظ على حالة الانسجام وتطويرها.

والثانية متعلقة بحالة تحري الدقة والحرص عند الخروج من المجموعة الواحدة إلى المجاميع الأخرى بحثا عن الشريك هناك، وفي هـذه الحالـة يُفـوَّض الأمـر للإنسـان وينبغي أن يكون أكثر دقة وأكثر حرصا على تفـادي الارتبـاط بـأفراد مـن مجموعـات أخرى فيهم صفات غير محبذة قد يكون أثرها واضحا للغاية في تدمير السعادة التي هو فيها والانسجام الذي يؤدي به إلى تلك السعادة.

النصان إذن لا يتحدثان عن شخصٍ – ذكر واحد – اسمه آدم وزوجته (حواء) – أنثى واحدة – وإنَّما عن كل فردٍ ينتمي إلى مجموعة آدم الإنسانية سـواء أكـان ذكـرا أو أنثى بأن يتحمل مسؤوليته في الحفاظ على نقاء المجموعة وانسجامها.

جغرافية جنة آدم

بحث الكثير من العلماء العرب والغرب عن مكان جنة آدم (جنة عدن)، الذي تتكلم عنه جميع الديانات السماوية. فكانت هناك مدرستين:

المدرسة الأولى: تقول أن مكان الجنة في السماء حيث أنها جنة الخُلد التي سيكون فيها الناس للعيش في النعيم في الآخرة بعد يوم الحساب.

أما المدرسة الثانية: فتقول أن الجنة هنا في الأرض وليست هي جنة الخُلد التي سيعيش فيها الناس جميعاً بعد يوم الحساب. وهذه هي التي أُهبط منها أدم بعد معصيته لربه.

في الحقيقة بحثت كثيراً في هذا الموضوع لأصل إلى حل علمي موضوعي، لا أنحاز فيه إلى معتقداتي السابقة التي تربيت عليها، ولا إلى قول المستشرقين أو الذين يفترضون الفروض دون دلائل علمية واضحة.

وما وجدته في هذا البحث كان كالتالي: أن آدم سكن وزوجته حواء موقعاً يدعى الجنة؛ قال تعالى: { وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ } (البقرة: ٣٥).

والجنة هذه بقعة أرضية غنية بمواردها وتحوي كل مستلزمات العيش الكريم؛ قال تعالى: { إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩) } (طه).

وعبارة **"وَلاَ تَضْحَى"** في الآية السابقة تدل على احتجاب الجنة عن الشمس وهو إشارة إلى أن الجنة تقع في أو ضمن منظومة تجاويف أرضية منفتحة على سطح الأرض بمغاور أو كهوف مشابهه لما يكتشفه الجيولوجيون بين الحين والآخر من تجاويف

أرضية ضخمة كتلك المكتشفة في إيران (غار صدراه شمال قم) أو مغارات غاية في الضخامة والتعقيد اكتشفت في عدة بلدان كالمكسيك وماليزيا وأستراليا.. الخ.

وقد يكون هذا التجويف في بطن سلسلة جبال شاهقة كجبال السراة بحيث يتعين على الخارج منها الهبوط إلى السفوح المنخفضة وهذا يفسر استخدام مفردة **"اهبطا"** من الجنة في قوله تعالى: { قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ } (طه: ١٢٣). وهذه الجنة تحوي أنهاراً عديدة جاء ذكر أسمائها في ذاكرة الكثير من الأمم الإنسانية.

المغارة المقدسة والفردوس الأرضي [١]

لقد عيّن العرب السوريون القدامى موضع الجنة في الجبل المقدس، وأطلقوا عليها أسماء كهذه: جنة "تلمون" (دلمون)، و "الفردوس"، و "أرض الأحياء"، و "مقام أو دار الأبرار"، و "حقول إيل" و "جنة عدن".. و "بستان أدونيس"..

يقول الدكتور (صموئيل كريمر): "وفي دلمون نفسها كان البابليون.. قد عينوا موضع "أرض الأحياء" التي كان يعيش فيها الخالدون منهم. وهناك من الدلالة المقنعة أيضاً على أن الفردوس المذكورة في التوراة، والمنعوت فيها بأنه "بستان" غرس في الناحية الشرقية من "عدن"، والموضوع الذي **تنبع من مياهه أنهار الأرض الأربعة التي من ضمنها دجلة والفرات،** يرجح أن يكون مطابقاً في الأصل لموضع "دلمون" مكان الفردوس السومري". [٢]

وإن "جنة تلمون"، كما وصفها الأدب العربي السومري، **هي أرض الخلود التي لا يوجد فيها مرض ولا موت ولا لغو.** [٣]

---

(١) د.أحمد داوود، تاريخ سوريا الحضاري القديم ١- (المركز)، ص ٢٩٩ – ٣٠٠ .

(٢) صمويل كريمر، من ألواح سومر، ترجمة: طه باقر، مكتبة المثني ببغداد ومؤسسة الخانجي بالقاهرة، ص ٢٤٢ .

(٣) نفس المرجع، ص ٢٤٤ – ٢٤٥ .

أما الأسماء التي أطلقت على كهوف الجبل المقدسة حيث منبع الأنهار والنعيم والجحيم (أو الهاوية) فهي:

حورا: وتعني المغارة، وهي "حيرتا" أيضاً أو "أرتاً" وتعني المغارة. وقد كتبت بأشكال شتى: "أورا"، "أور"، "إيرتا"، "أرتا". وهي التي قصدها لوجال بندا في رحلته إلى أرض الأحياء.

نفر: وتعني **الوفرة، الخصب، وردة الخصب.** وتلفظ "نيبر Nepr"، وهي المدينة – المغارة المركزية موطن الأرباب.

أرديو: حوض التطهير. وهو النهر المحيط بالصخرة المركز الذي يمثل الحجر الأساس الذي حمل القوة الخالقة. فصار **رمزاً للمركز، السرّة، ربة الخصوبة عشتار بالدرجة الأولى،** ولهذا فقد أخذ السوريون يبنون المعابد للربة عشتار على هذه الشاكلة: مركز بارز في الوسط يمثل السرّة محاط ببحيرة من المياه تمتلئ من ينابيع جارية حقيقية. وأوضح مثال لهذا التمثيل معبد الربة في عمريت قرب طرطوس على الساحل السوري دعيت باسمها.

أبيدو: أو "أبودو" وقد سميت باسم "بد" الجبل الذي لفظ بعدة أشكال "بودي"، "هبودي" إذ الهاء للتعريف، أبيدو.. الخ، وفيه ضريح أوزيريس. وإن جبل أبيدا، ووادي أبيدا، وبلدة أبيدا، من الأسماء البارزة في **سراة زهران.**

(نفر) أحد مغاور الجبل المقدسة [1]

كثيراً ما حدث الخلط بين أسماء المواقع المقدسة في الجبل المركز، من قمم أو مغاور أو وديان، وبين مثيلاتها التي حملت أسماءها تيمناً بالبقعة المقدسة. فبينما نرى كيف أن العرب الأقدميين أطلقوا على الوديان الكبرى في الوطن العربي الكبير منذ الزمن

(١) د.أحمد داوود، تاريخ سوريا الحضاري القديم ١- (المركز)، ص ١٢١ – ١٣٠ .

الموغل في القدم أسماء الدجلة، والفرات، والنيل، وبردى، وسيحان، وجيحان، وهـي الوديان التي تنبثق من المغارة المقدسة في الجبل المقدس لتروى "جنة عدن"[1]، نـراهم قد أطلقوا أيضاً أسماء المغاور المقدسة في الجبل المركز عـلى مـدنهم الأولى أيضـاً، مثـل حورا (أور)، أبيدا، نفر، أرك، حوراشليم (مغارة النسّاك أو المتعبدين)، طيبة.. الخ.

ونظراً للجهل بالتاريخ العربي القديم وباللغة العربية القديمة فقد شكّل هذا الخلط بين الأسماء والمواقع تناقضات وإرباكات لا حصر لها، مما انعكس، في المحصلة، تزويراً حقيقياً في التاريخ.

ومن بين هذه المواقع التي جرى الخلط فيما بينهـا كانـت **خارطـة المغـارة المقدسـة "نفر"** التي حسبها المؤرخون والباحثون الآثاريون خارطة لمدينـة "نفـر" في جنـوب العراق.

خارطة "نفر"، أو مسالك العالم الآخر

يقول (صموئيل كريمر): "ولعل أهم وثيقة في "مجموعة هلبرشـت" ليسـت مـن التآليف الأدبية السومرية على الإطلاق، وإنـما هـي خارطـة، وهـي **أقـدم خارطـة في التاريخ،** لقد رسمت تلك الخارطة على لوح محفوظ جيداً، وكبير الحجم، إذ يقـيس في حالته الراهنة **(٢١ × ١٨) سم.**[2]

لقد عثر على اللوح الذي رسمت فيه هذه الخارطـة في التنقيبـات التـي أجرتهـا في "نفر" في خريف عام ١٨٩٩ جامعة بنسلفانيا. وقد وجد في جرة من الفخار مع عـدد آخر من ألوح الطين المكتوبة، التـي **تـتراوح في تواريخهـا مـن ٢٣٠٠ إلى ٦٠٠ قبـل**

---

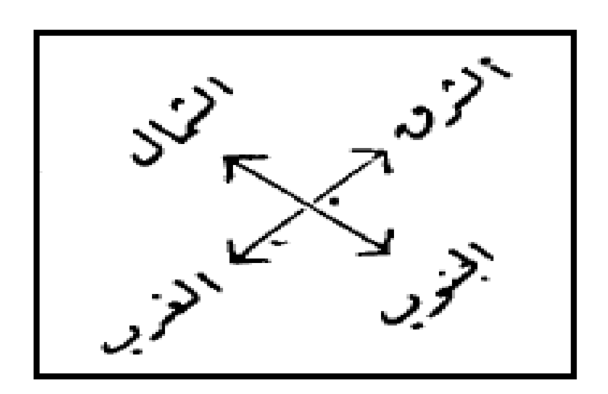
(١) كلمة "عدن" في العربية القديمة تعنى الخصب كما تعنى النعيم. وهي من الفعل عَدِنْ = نعمّ، فنّق، رفّـه، متّـع، دلّـل، أخصـب.. ومعـدونا = متـنعم، متفنـق، مخصـب، ومنـا كان الاسـم معـدونا (مادونا) بعد اختفاء العين. معدونوتا = تنعَم، تفنَق، لذة، خصب.

(٢) صموئيل كريم، من ألوح سومر، ص ٣٩٤ – ٣٩٥ .

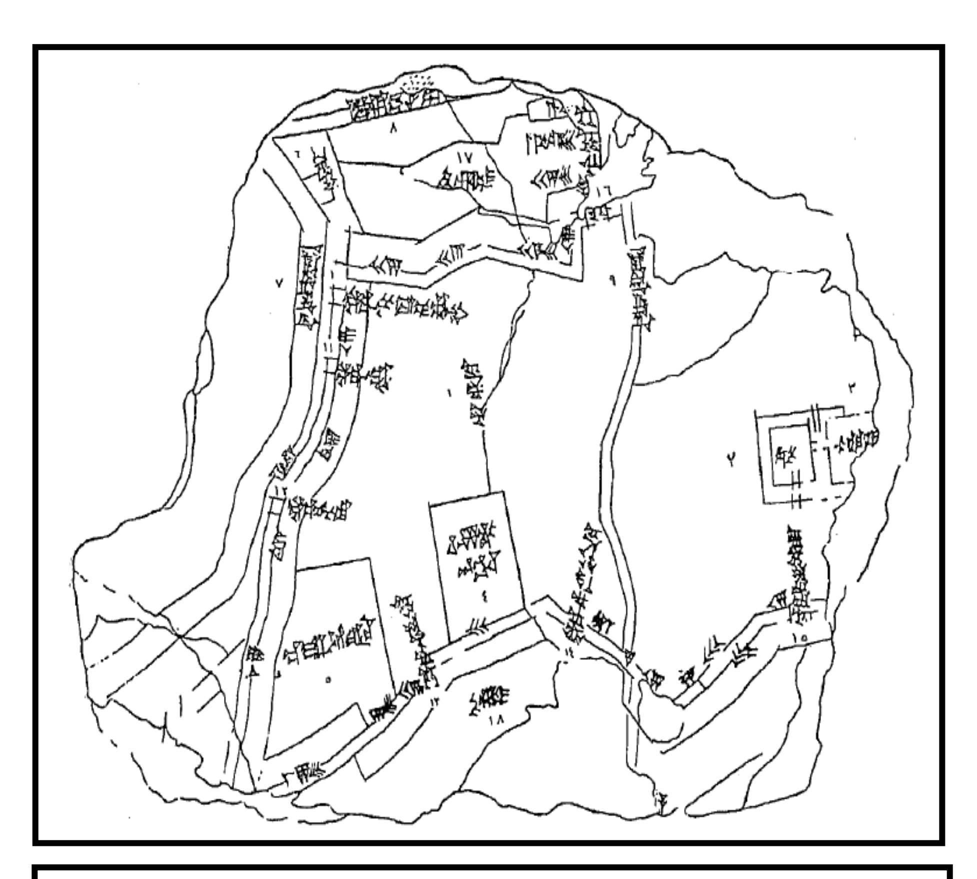
الميلاد، فهذه الجرة، بالاستناد إلى محتوياتها، كانت، كما وصفها المنقبون، متحفاً حقيقياً صغيراً. وفي عام ١٩٠٣ نشر (هرمان هلبرشت) صورة صغيرة لذلك اللوح في كتابه المسمى "التنقيبات في بلاد التوراة". ولكن تلك الصورة لم تكن واضحة، فكانت عديمة الجدوى تقريباً في صلاحيتها لترجمة الوثيقة وتفسيرها.

(وقد حاول ذلك جملة باحثين). وظل ذلك اللوح مطموراً في مجموعة ألواح هلبرشت حيث لم يستنسخ وينشر طوال هذه السنين الكثيرة. ولكن تمّ الآن استنساخه استنساخاً متقناً دقيقاً من جانب الدكتور "إينز بزنهاردت" تحت إرشادي وستظهر الدراسة الناتجة التي قمنا بها مشتركين في المجلة العلمية لجامعة (فردريك شيلر)". [١]

إن لغة الخارطة مكتوبة بالمسمارية المقطعية السومرية وبالأكادية واللغة هي العربية القديمة أي السريانية. وهي موجهة إلى الشمال الغربي والجنوب الشرقي بزاوية تقرب من ٤٥ درجة على الشكل التالي:



(١) صموئيل كريم، من ألوح سومر، ص ٤٠٠ – ٤٠١ .



(شكل: ١): خريطة مدينة "نفر": استنساخ الدكتور "إينز بزنهاردت" الأمين المساعد لمجموعة ألواح " هلبرشت" في جامعة " فردريك شيلر".

وقد دوّن في وسط الخارطة اسم **"نفر"** (رقم ١)، وكتبت بالعلامات المسمارية القديمة **"إنليل جي" أي إنليل المعظم.** ويقول (د.أحمد داوود): "أما شروحاتها التي قام بها **صموئيل** كريمر فهي خاطئة كلها، إذ انطلق، كغيره، من أن الخارطة هي لمدينة "نيبور" (نفر) التي أقامها العبيديون (أسلاف السومريين) في جنوب العراق، بينما هي خارطة للمدينة المغارة "نفر" حيث مقر الأبرار، ومجموعة المسالك والبوابات التي تقود إلى (الهاوية)".(١)

---

(١) د.أحمد داوود، تاريخ سوريا الحضاري القديم ١- (المركز)، ص ١٢٣ – ١٢٤ .

أما ما ظهر على الخارطة فهو كالتالي: [1][2]

١. **"إيقور"** (رقم ٢) وتعني: الوقور، الجليل، المهيب، المجيد، **وهو معبد سيد (رب) الجبل الأول.**

٢. **"جي أور" وتعني سيدة المغارة،** إذ أن "جي" تعني في القاموس السرياني: العظيم، الجبار، المجيد، الجليل، السني، البهي، المتلألئ، المزهر.. و "أور" هي "حورا" أي المغارة. (ولم يشرح كريمر معنى التسمية.

٣. بناء باسم **"أنيجينا"** (رقم ٤) ويعني الاسم **المنجيّ، المخلّص.** والكلمة من الفعل العربي القديم "أوجي" و "أنجي" (بالنون وبدونها) ويعني خلّص، نجّى، ومنه كان الاسم "أوجين" و "أونيجين" أي الناجي، الخالص. [يقول عنه كريمر إنه نوع من بناء مسوّر غير معروف الماهية].

٤. وفي موضع بعيد عند زاوية التقاء النهرين (الفرات ونن بردو) في الشمال الغربي يوجد ما يسمّى **"شماك"** (رقم ٦) وتلفظ الكلمة أحياناً **"اشماخ"** إذ يلطف الكافي اللفظ أحياناً إلى "خاء" كما عند الفينيقيين. وكلمة **"اشماك"** أو **"سماك"** في العربية القديمة تعني: **المتكأ، العرش، الصف.** ومثلها مسماك = متكأ، مسند، عرش، وبيت مسماك = متكأ، عرش [ويترجمه كريمر البيت الرفيع].

٥. وفي الزاوية الجنوبية الغربية توجد مساحة كبيرة كتب عليها "كيريس حورو Kiris Haura" (رقم ٥). فإن كان نقل الحروف صحيحاً عن المسمارية فإن كلمة **"كِرِسْ"** في العربية القديمة تعني: **رحم، كِرِش، جوف، قلب، بطن،** و **"حورو"** = **المغارة** [وقد ترجمها كريمر "بستان أو حديقة قلب المدينة أو

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٢٤ – ١٢٩ .

(٢)صموئيل كريم، من ألوح سومر، ص ٣٩٦ – ٤٠٠ .

الحديقة المركزية"]. والحقيقة إن الكلمة التي تعني البستان أو الحديقة أو الحقل المزروع هي "قوريس" وليست "كيريس"، ثم إن الكلمة إما أن تكون "كرش" أي "قلب" أو "قوريس" أي بستان.

فكيف جمع بين الكلمتين في كلمة واحدة ! ولما كان الموقع المقصود هو في زاوية من المغارة وليس في "قلبها" فإننا **نرجح أن تكون الكلمة في الأصل هي "قوريس" أي بستان، وعليه فإن المكان هو "بستان المغارة" وهو الفردوس.**

٦. ومن الشمال الغربي إلى الجنوب الغربي يمتد نهر عريض دعي "بورانن Buranun" وهو في العربية القديمة **"بُحرانو"** والكلمة تعني **المحنة، التجربة، يوم الدينونة.** وهو النهر الذي على النفوس الطيبة أن تعبره إلى الفردوس بواسطة زورق ملاح النهر أو تهلك فيه، (رقم ٧). [وقد ترجمها كريمر على أنه "الفرات". والحقيقة إن الفرات في العراق لا ينبع من الجنوب الغربي ويتجه إلى الشمال الغربي ليشكل زاوية أو نقطة التقاء مع نهر دعي "ننبردو" كما سوف نرى !].

٧. وفي الجهة الشمالية يجري نهر دعي **"ننبردو"** (رقم ٨). ويعني **سيدة الوفرة، والإكثار، والتناسل، والتنوع.** إذ "نينا" تعني السيدة، الربة، وبردو = الإكثار، الوفرة، **وهو النهر الذي شهد عملية التكاثر الأولى للنسل البشري في مقر الأرباب، مما أدّى إلى عملية الطرد من الفردوس الإلهي إلى الأرض.**

تقول الأسطورة: إن العجوز أم ننليل اعتزمت أن **تجمع بين (إنليل) وابنتها (ننليل)** "وفي الوقت الذي لم يكن فيه الإنسان قد خلق بعد، ويوم كانت مدينة **"نفر"** مأهولة بالأرباب فقط، كان فتاها (أي فتى نفر) هو الرب إنليل. فقالت السيدة لابنتها: "في المجرى الصافي أيتها المرأة، اغتسلي في المجري الصافي، تمشي يا ننليل على

شاطئ نهر نن بردو"، فإن ذا العينين المشرقتين، إن السيد ذا العينين النيرتين "الجبل العظيم"، الأب إنليل، ذا العينين الجميلتين سيراك، إن الراعي... الذي يقدر المصائر، ذا العينين الجميلتين سيراك، وسيعانقك (؟) وسيقبلك".

فاتبعت ننليل نصائح أمها، لكنها تصدّه في البداية. فاحتال عليها، وحملها في زورق في النهر واغتصبها، فتحمل منه بالرب "سين". وعندما غضب الأرباب لهذه الفعلة، فأمسكوا بالرب إنليل ونفوه في مقر الأرباب إلى الأرض (العالم الأسفل الفاني) وتبعته إمرأته. وفي الزورق عند المعابر على النهر الذي يخرج من أرض الجنة إلى العالم الأسفل "يتقمص" ثلاث شخصيات مختلفة ويتصل بها، فتنجب منه ثلاثة من سادة العالم الأسفل الأرضي.[1]

إن هذا يؤكد أن الأحداث جرت في مقر الأرباب، في مغارة الجبل المقدس في "نفر" المغارة، وليس في "نفر" المدينة في جنوب العراق المساة باسمها تيمناً، إذ أن الإنسان العاقل لم يكن قد وجد بعد، وإن نهر "نن بردو" هو في باطن المغارة، ثم يلتقي مع نهر "بُحران" عند الطرف الشمالي الغربي ليخرجا إلى البر مكونين وادي الفرات في جبل غامد.

٨. وفي وسط المغارة يجري نهر آخر من الشمال إلى الجنوب، وكأنما هو نهر تحت الجبال يظهر في المغارة ويختفي من طرفيه تحت الجبال في الشمال والجنون، دعي **"إد شا أورو"** (رقم ٩). **وهو بالسريانية "أحدثا حورا" أي حاجز المغارة،** المانع، القابض، الآخذ... الخ. [يترجمها كريمر نهر قلب المدينة، ويدعى الآن شط النيل].

---

(١) صموئيل كريم، من ألوح سومر، ص ١٦٤ – ١٦٦ .

وقد رسمت على الخارطة بوابات، أو أبواب، للمغارة، ففي الحد الغربي رسمت ثلاث أبواب:

الباب الأول: المسمّى **"كاجال موسوكّاتيم Kagal Musukkatim"** (رقم ١٠). ويعني **الباب الوهمي، الكاذب.** والكلمة في القاموس السرياني هي جمع **"موشوكوتا"** وتعني: الكاذب، الباطل، الوهمي، المجازي، عبثاً... و "موشوكايت" عبثاً، باطلاً، كذباً. [يترجمها كريمر: باب الأنجاس من الناحية الجنسية. ويقول: "لقد أشار عليّ بهذا المعنى الأستاذ آدم فلكنشتاين" !].

الباب الثاني: المسمّى **"كاجال ماك"** (رقم ١١). وتعني حرفياً: الباب الحقير، كما تعني باب "من هنا"، "هاهوذا". وهي من الكلمة العربية القديمة ماك = حقير، واطئ، منخفض، وماك = من هنا. ومن الفعل مك = حقر، نقص، كان دون، التصق، نزّل، خفض، طأطأ. وهذا يعني أنها **بوابة صعبة تضطر السالك أن يطأطئ وينخفض ويلتصق بالأرض، ويزحف، لكنها البوابة الحقيقية.** [ويترجمها كريمر: "البوابة السامية" !].

الباب الثالث: المسمّى **"كاجال جولا Kagal Gula"** (رقم ١٢). ويعني **الباب الدوّار، الذي يلتف على نفسه.** والكلمة في القاموس السرياني من "جول" = جال، دار، التف على نفسه، نفى، أبعد، طرح، نبذ. [ويترجمها كريمر: "البوابة العظيمة" !].

وفي الركن الشرقي نجد أيضاً ثلاث بوابات:

البوابة الأولى: وتدعى **"كاجال نانّا Kagal Nanna"** (رقم ١٣)؛ أي **بوابة الربة.**

البوابة الثانية: "كاجال أرك" (رقم ١٤). أي **بوابة الحجر المقدس،** الأصل، المبدأ، **الأساس،** الشرف، حجر البناء، **وباسمها دعيت مدينة "أوروك" العبيدية في جنوب العراق، ثم دعيت البلاد "العراق" فيما بعد باسمها.**

البوابة الثالثة: هي بوابة **"كاجال أجيبـي أوريشـه Kagal Igibi Urishe"** (رقم ١٥). وتعني **بوابة هيكل المغارة.** إذ أن "جيبي" = هيكل، و "حورا" = المغارة، و "حورشـا" = مذبح. [وقد ترجمها كريمر: "أي البوابة المواجهة لأور وهـي مدينـة أور الكلدانيين الوارد ذكرها في التوراة" !].

أما الحد الشمالي فليس فيه سوى بوابة واحدة، وهي البوابة المسمّاة **"كاجال نرجال** Kagal Nergal" (رقم ١٦). و "نرجال" أحد أرباب العالم السفلي الـذي لعـب دوراً مهماً في أسطورة "نزول أنانا إلى العالم السفلي". و **"نرجال" تعني النار الدائرة، الفائرة، المتموجة.** وتصوّر الخارطة مساحة كبيرة عريضة تغطي الجانب الشمالي تقريباً، هي منطقة النار (نرجال). وتكون، بالنسبة **للداخل من الباب الصحيح، إلى يسـاره، والحديقة أو الفردوس إلى يمينه.**

ثم ظهر على الخارطة في القسم الشمالي منطقة عريضة كتب عليها **"حيريتم"** (رقم ١٧) والكلمة في القاموس السرياني **"حيريتـو"** وتعنـي: **الخنـدق، الحفـرة، الجـب، الهاوية، شاطئ البحر.** [يترجمها كريمر بمعنى "الخندق" وهو صحيح !].

ويوجد على الحد الجنـوبي، وبصـورة موازيـة، خنـدق، أو هاويـة أخـرى شـديدة الاتساع (رقم ١٨) كتبت عليها كلمة "حيريتم" نفسها.

يقول (كريمر): "ومن الأمور المهمة التي تلاحظ في هذه الخارطة التفاصـيل التـي بينت فيها القياسات والأبعاد. إذ أنها عـلى مـا أخـبرني مسـاعدي الـدكتور "ادمونـد جوردن"، بعد درسه الدقيق، قد رسمت، في الأغلب، بموجـب مقيـاس معـين. أمـا المقياس المستعمل في الخارطة فيحتمل كثيراً أنه وحدة القياس المسمى "جــار Gar"

على الرغم من أن ذلك لم يذكر كتابة في الخارطة. وكان الـ "جـار" يحتـوي عـلى ١٢ ذراعاً ومقداره زهاء ٢٠ قدماً". [١]

- وعلى هذا فإن الأبعاد المسجّلة على الخارطة هي:

(رقم ١٤): قدره في الخارطة ٣٠ جار (وقد كتب الرقم ٣٠ بـثلاث عشرـات) أي نحو ٦٠٠ قدم. وهو عرض موضع "أنيجينا".

(رقم ٩): الذي دوّن عرضه بمقدار ٤ جار (وقد عبر عن الرقم ٤ بثلاث وحدات مرسومة إلى الأعلى ووحدة أسفلها) أي نحو ٨٠ قدماً. وهو عرض الماء الحـاجز مـن الدخول.

وبينت المسافة بين "الباب الكاذب" و الباب الصحيح "من هنا"، أي ما بين رقـم ١٠ و ١١ بمقـدار ١٦ جـار، أي نحـو ٣٢٠ قـدماً، في حـين أن المسـافة بـين البوابـة الصحيحة (رقم ١٦) وبوابة التيه أو البوابة الدوارة (رقم ١٢) – التي هي أكبر بثلاث مرات – قد ذكرت بوجه مضبوط بمقدار ٤٧ جار، أي نحو ٩٤٠ قدماً.

ويضيف (د.أحمد داودد)؛ قائلاً: "إن هذه الأبعاد من شأنها أن تؤكد لنا مرة أخرى أن التي أمامنا ليست خارطة لمدينة من مدن العراق القديم، حتى أنهـا لا تنسـجم مـع خارطة لمغارة. فالأبعاد المقدرة بالـ "جـار" كما أفترض الشـارح، لا يمكـن أن تكـون صحيحة حتى بالنسبة لمغارة من **مغاور الجبال في بلاد غامد من شبة جزيرة العـرب، التي تتسع الواحدة منها لبلد بكامله.** وسنرى بعض أوصاف تلـك المغـاور الخاصـة بأرض "الأحيـاء" الخالدين من خلال ما وصلنا من أخبارها عن طريق أولئك الذين جربوا الوصول إليها.

---

(١) صموئيل كريم، من ألوح سومر، ص ٣٩٩ .

إن هذا الوصف المفصل لمغارة "نفر" يعيد إلى ذاكرتنا ما سبق أن رأيناه عند عرب وادي النيل في "كتاب العالم الأسفل" من وصف لعالم ما بعد الموت، للمغاور التي تسكنها الأرواح، لـ "الشبكة المعقدة من المسالك في مملكة الأموات"، للطريق المؤدية إلى بستان المغارة، لبحر (أو نهر) المغارة الذي يفصل طريق البر عن طريق الماء، للطرق الملتوية التي تؤدي إما إلى النار أو إلى التيه والدوران.

وهي نفسها التي توجه إليها عرب وادي النيل باسمها "نفر" موطن أوزيريس أو أرض الأبرار. وقد دون اسم نفر في وسط الخارطة (الرقم ١).

ثم يُكمل (د.أحمد داودد)؛ قائلاً: إن هذه الخارطة الخارطة كانت تدّرس في المدارس السورية في الزمن السومري والبابلي. تقول الدكتورة (إيفلين كلنيكل – براندت): "كانت الجغرافيا لا تتعدى كونها علماً مساعداً غير قائم بذاته. وكانت بعض مبادئها الأولية تدرس في المدارس، حيث تؤكد وتنظر الصورة الدينية للعالم والتي يتصورها السومريون والبابليون. كانت الأرض انعكاساً للسماء كما جاء في علم اللاهوت، وكان على الجغرافيا أن تبرهن ذلك. كانت الأرض بالنسبة للبابليين أشبه بقرص دائري يحيطه النهر المرّ مع ثماني جزر. وكانت بابل تقع على مركز الأرض. وبالإضافة إلى هذا كانوا يملكون خرائط غير عملية للمدن والأنهار والجبال. وهذه الخرائط، بالدرجة الأولى، لاهوتية تصور نظراتهم إلى العالم والكون". إن هذا القول يؤيد وجهة نظرنا ويؤكدها فيما يتعلق بتلك الخارطة".

*****

إذن نخلص من هذه الخارطة أنها موقع المغارة المقدسة، التي في الجبل المركز (جبل شدا) – كما حددنا موقعه من قبل في هذا الكتاب – فهذا هو موقع الجنة التي سكنها آدم العاقل الأول كما سنرى تفاصيل هذه السكنة في الجنة، والمعصية التي أرتكبها آدم ليهبط منها.

الفصل الثاني

المعصية والهبوط من الجنة

وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ

قال تعالى: { وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا **وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** } (البقرة: ٣٥).

قال تعالى: { وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا **وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** } (الأعراف: ١٩).

نُكمل محاولتنا لإثبات خصوصية كل نصّ من خلال إكمال بحث النصف الثاني منهما والذي ورد فيه نهي الزوج آدم عن التقرّب من الشجرة.

- فما هي هذه الشجرة ؟ وهل يمكن أن تكون شجرة نباتية ؟
- ولماذا جاء النهي عن التقرّب منها وليس الأكل منها ؟
- ولماذا عُدَّ مجرد التقرّب من الشجرة ظلما ؟
- وأخيرا ماذا سينفعنا هذا في دعم فرضيتنا حول النشوء والارتقاء في النصوص القرآنية ؟

بعد أن بيَّنت النصوص أنَّ هناك قوانين تتحكم بعملية الإفادة مما هو متاح انتقلت إلى الإخبار عن التحذير من أمور معيّنة فجاء التركيب **(وَلاَ تَقْرَبَا)** ليثير الكثير من الاستغراب عند مقارنته بما اشتُهر عن قصة الأكل من الشجرة.

فأول ما يلفت النظر هو أنَّ التركيب لا يتضمن نهيا عن الأكل وإنَّما نهيا عن الاقتراب من الشجرة مخافة الوقوع في الظلم وحتى يتضح عمق ما يُثير الاستغراب في هذا التركيب دعونا نحاول تفكيكه كما يلي:

- واو العطف ودورها في تثبيت فكرة التوالي المنطقي المترابط.
- النهي عن القرب وليس عن الأكل.

- لماذا ينهى عن تناول ما هو متاح ولماذا النهي عن الشجرة وليس ثمار الشجرة ؟
- لماذا مجرد الاقتراب سيؤدي إلى الوقوع في الظلم ؟
- ما هو نوع الظلم الذي سيقع فيه المقتربون من الشجرة ؟

سنحاول الاستفادة قدر الإمكان من النتائج التي يوصلنا إليها البحث وكما يلي:

نلاحظ في الآية من سورة البقرة **أنَّ الواو استخدمت أربع مرات متتالية، واحدة منها لعطف الزوجين على بعضهما (أَنْتَ وَ زَوْجُكَ) وثلاث مرات للعطف بين أمور مستقلة نسبيا.** مع استخدام واحد للفاء للإشارة إلى أنَّ الاقتراب من الشجرة نتيجتهُ (فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ).

بينما في النصِّ الثاني من سورة الأعراف نجد أنَّ الواو استخدمت ثلاث مرات **واحدة منها للعطف الواضح بين الزوجين** (أَنْتَ وَ زَوْجُكَ) **واثنتان للعطف بين أمور مستقلة نسبيا. واستخدمت فاء السببية مرتان واحدة لتفويض آدم الزوج قرار الأكل بناءا على تقيمهما الخاص** (فَكُلاَ) **والثانية للإشارة إلى أنَّ الاقتراب من شجرة معيّنة ستكون له نتيجة سلبية** (فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ).

وقفة مع قواعد اللسان

نقول أنَّ الذهن البشري مصمم للعمل بمقتضى قوانين اللسان دون أن يعرف أنَّها قوانين فهناك عملية معقدة تجري في الذهن يتمُّ التنسيق فيها بين قوانين المنطق وطبيعة الألفاظ في محاولة من الذهن لتكوين أوضح صورة يمكن نقلها للآخر وهذه العملية تقوم على أساس برامج خاصة بكل لسان تنشط وتتقوى من خلال الممارسة في داخل ميدان لساني خاص تُطرح فيه اللغة بقوانينها على الطفل ومن خلالها كعملية تفاعلية تتطور قدرته على تكوين أنماط معينة للتراكيب التي يعتقد أنَّها اقرب للمنطق ومن ذلك مثلا:

في اللغة العربية واللغة الإنجليزية فإنَّ نفي وقوع الفعل نفيا جازما يتطلب العـودة بالفعل من حالة الماضي إلى حالة المضارع التي تعتبر في حالتهـا البسـيطة أفعـال تمثـل لحظة واحدة وانعدام اقتران الفعل بالزمن. فإذا أردت أن انفي قراءتي لكتاب أقول: لم أقرأ الكتاب، ولا أقول: لم قرأتُ الكتاب. بإعتبار أن النفي الجازم نفـى وقـوع الفعـل أساسا.

بالنسبة لعملية ذكر موضوعات مرتبطة مع بعضها بطريقة من الطرق، فإنَّ للذهن طرائقه للتعبير عن تلك العلاقات فإذا كانت الأوصاف متعددة للشيء في نفس الوقت رصفناها معا دون الحاجة إلى ربط تلك الصفات برابط فنقول مثلا (صُمٌّ بُكْـمٌ عُمْـيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ).

أمّا إذا كانت هناك أوصاف لحالات مستقلة ولا تمثـل جهـة واحـدة ولكـنَّ بينهـا علاقات معيّنة ينسجها رابط منطقي وينسقها مع بعضها فنحتاج هـا هنـا إلى (الـواو) فهي ستشير إلى أنَّ الأمرين مرتبطين بعلاقة منطقيـة تحـتِّم وجـود مـا يشـير إلى تلـك العلاقة وإن كانا مستقلين عن بعضهما بقدر معين بحيث لا يمكـن تـركهما دون رابـط واعتبار أنهما يصفان أمرا واحدا في لحظةٍ واحدة من قبيل (فِيهِ ظُلُـمَاتٌ وَرَعْـدٌ وَبَـرْقٌ) فكل واحد من الأمور الثلاثة له خصوصيته واستقلاله عن الآخر ولكن هناك ما يربط بين الثلاثة برابط معين وهو وجود العلاقة المنطقية التي تربطها بطريقـة معيّنـة كونهـا تحدث في ظروف خاصة تجمعها إلى بعض بتلك العلاقة.

أمّا إذا كانت هناك علاقة سببية بحيث يكون الأول سببا للثاني فإنَّنا نحتاج حينهـا إلى حرف (الفاء) للربط بين الأمرين (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ) أو (كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ) فلـولا أنَّهم اشتروا الضلالة بالهدى لما خسرت تجارتهم ولولا أنَّ الشخص المقصود في الشـق الثاني لم يستوقد النار لما ذهب الله بنور الذين أوقدوا له النار.

نظرة على النصين

دعونا الآن نستطلع النصيّن – من سورة البقرة وسورة الأعراف – مرة أخرى لنرى ماذا سيحقق لنا معرفة ما تعلمناه حول واو العطف وفاء السببية.

في النص الأول – من سورة (البقرة: ٣٥) – دعوة مفتوحة للزوج آدم بسكنى الجنّة والأكل منها من حيث شاءا رغدا بمعنى **أنَّ هناك علاقة منطقية تربط بين عملية السكنى وبين الأكل وانَّ الاستثناءات ليست إلا القليل القليل مما يمكن الحذر منه بمجرد عدم التقرّب لشجرة معروفة بالنسبة لهما.**

في النص الثاني إباحة للزوج آدم بالبحث عن الأكل من خارج الجنَّة والمتاح سيكون أقل بكثير مما هو متاح في داخل الجنَّة فإذا **(لاحظوا أننا استخدمنا الفاء للتعبير عن أن العلاقة غير مرتبة سلفا وانها تقع بناءا على قرار الزوج آدم)** اقتنع أحدهما بشريك معيّن فله الاقتران به شريطة عدم التقرّب من الشجرة المعروفة أيضا. وهنا الخيارات قليلة ولكن الاستثناءات في ذلك القليل أيضا موجودة وإن كانت تلك الاستثناءات قليلة هي الأخرى.

خلاصة ما نريد أن نقوله هو أنَّ هناك أمر – وهو التقرّب من الشجرة – مرتبط ارتباطا منطقيا وثيقا مع عمل سابق له فإذا وضعتم – أيُّها الزوج آدم – هذا الأمر في اعتباركم وعلمتم أنَّ العمل الثاني بالتقرّب من الشجرة سيؤدي بكم إلى الوقوع في الظلم بشكل طويل الأمد، فإنَّكم إذا رغبتم في عدم الوقوع في الظلم فعليكم أن تُحسِنوا اختيار العمل الأول بحيث لا يؤدي إلى الوقوع في الأمر الثاني لأنَّهما متلازمان. فتحاشي الأول يؤدي إلى تحاشي الوقوع في الثاني.

المعادلة التي نخلص إليها هي التالية:

للبقاء في داخل الجنَّة = لا بأس بالتمتع بكل ما فيها ضمن قوانينها الطبيعية والنتائج ستكون مضمونة في حال عدم الإقتراب من شجرة معينة ومعروفة.

التمتع بالنعم من خارج الجنة = أمرٌ لا بأس به أيضا وهو متاح وله نتائج مرتبطة بحسن القرار والاختيار مع مراعاة عدم الاقتراب من الشجرة المعيّنة أيضا والتي تمتد بأفرعها داخل الجنّة وخارجها.

معنى الجذر (قَرُبَ)

بعد هذا دعونا نتعرف على الجذر (قَرُبَ) ونرى ما هي الأمور المستهدفة من خلال توظيف بعض مشتقاته هنا.

يقول "الراغب الإصفهاني": القرب والبعد يتقابلان، يقال: قرُبتُ منه أقرُبُ، وقرُبتُهُ أقرَبُهُ قُربا وقربانا، **ويستعمل ذلك في المكان، وفي الزمان، وفي النسبة، وفي الحظوة، والرعاية، والقدرة.**[1]

أول ما يُلفت النظر في الفعل **(قَرُبَ)** هو أنَّه **(فعل لازم)** بمعنى أنَّه **يشير إلى تحرك ذاتي من الفاعل** فحينما نقول: قَرُبَ الموعد. فهذا يعني أنَّ الموعد بذاته يقترب منا.

فإذا أردنا أن نغير إتجاه حركة الفعل ونجعله فعل متعديا فينبغي أن نعينه بإضافة حرف في مبناه أو باستعمال حرف جرّ معه. فنقول مثلا: أنا أَقتَرِبُ من الشجرة.

بالنسبة للآيتين موضوع بحثنا فقد **جاء الفعل المشتق من هذا الجذر فيهما فعل لازما: (وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ) .**

الملاحظة الثانية التي نستفيدها من واقع التعريف الذي يقدمه الراغب الإصفهاني هو شمولية فعل القُرب فهو كما يقول الراغب (يستعمل في المكان، وفي الزمان، وفي النسبة، وفي الحظوة، والرعاية، والقدرة) **ما يعني أنَّ الأمر تابع للفاعل أولا وانَّه لا يتوقف عند حالة مكانية أو زمانية فقط.**

---

(١) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٦٦٣ .

على أساس ما تقدَّم فإنَّ القرب والإقتراب يستعمل للتعبير عن **حالة خاصة جدا تكشف عن قدر من الألفة والإنسجام والإرتقاء بمستوى المعرفة عن الأمر المتقرّب منه، ناهيكَ عن تقلص المسافة المكانية بين الفاعل لفعل القرب والمتقرب منه.**

وهذه قضية هامة في توسيع إطار المعنى.. فحينما أقول قَرُبْتُ الشجرة فإنَّ هذا يشير إلى معنى واسع للغاية ويفتح المجال أمام مئات الاحتمالات للطريقة التي تمَّت فيها عملية القًرب من الشجرة.

بينما لو قلت: إقتربتُ من الشجرة فهذا لا يعني إلا معنى واحد يجعل مني ومن الشجرة كيانين مستقلين عن بعضهما ويشير إلى أن عملية الاقتراب كانت مكانية صرفة ما لم يرد في النص ما يغير من ذلك.

لذا نحن نستعمل الفعل المشتق من القُرب للإشارة إلى أمور عديدة واسعة ومختلفة **فنعبر عن العلاقة الجنسية بين الزوجين بالقرب.** فلو قال الزوج : **قَرُبَ الرجل زُوجته.** نفهم انَّه يقصد العمل الجنسي ولكن إذا قال: **اقتربَ الرجل من زوجتهِ.** فإنَّنا ننتظر تفصيل أكثر لأنَّنا سنفهم نوعا من الاقتراب المكاني لا أكثر إلا إذا قال: اقتربت من زوجتي اجتماعيا أو نفسيا.

سنرى من خلال مطالعة النصوص التي تمَّ فيها توظيف مشتقات الجذر (قَرُبَ) بأنَّ هذا الجذر أوفر حظا للاستخدام في النواحي المعنوية منه في النواحي المادية، نتيجة كون الفعل الأصلي هو فعل ذاتي ومعنوي ولازم. ويمكن أن يتضح معنا هذا الأمر من مجرد ملاحظة المشتقات القرآنية التالية:

التقرّب ومشتقاته / التقرّب إلى الله تعالى / القربى ومشتقاتها / ذا مقربة / ذا قربى/ ذا القربى / الأقربون / القريب ومشتقاته / من قريب / قريب من / أقرب / المقرَّبون / القربان / القُربة والقربات.

أمثلة قرآنية للجذر (قَرُبَ)

وردت مشتقات الجذر (قَـرُبَ) في ٩٦ موضـعا مـن القـرآن الكـريم تشـمل كـل المشتقات التي اشرنا إليها أعلاه. منها ١١ موضعا تمَّ فيها توظيف مفهـوم القُـرب في قوله تعالى:

{ **وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ** فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ } (البقرة: ٣٥).

{ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ **فَلَا تَقْرَبُوهَا** } (البقرة: ١٨٧).

{ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ **وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ** حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ } (البقرة: ٢٢٢).

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا **لَا تَقْرَبُوا** الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ } (النساء: ٤٣).

{ **وَلَا تَقْرَبُوا** الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ } (الأنعام: ١٥١).

{ **وَلَا تَقْرَبُوا** مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ } (الأنعام: ١٥٢).

{ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ **فَلَا يَقْرَبُوا** الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا } (التوبة: ٢٨).

{ **وَلَا تَقْرَبُوا** الزِّنَا ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا } (الإسراء: ٣٢).

خلاصة معنى القُرب مما تقدم يمكننا القول بأنَّ القرب يتضمن المعاني التالية:

١. القرب النفسي من الشيء والإحساس به داخليا أو لنقل انَّه قـرب بـين جـوهر الشيئين المقتَرِب والمقترَب منه.
٢. وجود نوع من الملابسة بين جوهر الْمُقْتَرِب والأمر الْمَقْتَرَب منه.
٣. الإشارة في القرب تشمل القرب المكاني و الزماني و الظرفي والنفسي و المعنـوي و الاجتماعي وما إلى ذلك.

٤. إذا كان الفعل لازم فإنَّه يتسع للمعاني المختلفة المشار إليها في النقطة السابقة وهو يدفع السامع في الغالب إلى التأمل في المعنى المطلوب.

٥. تمَّ توظيف فعل الاقتراب كثيرا في الناحية الجنسية بين الزوجين واعتبرت كلمة (مقاربة) أو (القُرب) إشارة إلى العمل الجنسي بين الزوجين.

٦. إذا كان الفعل متعدِّي فهو في الغالب يقتصر على معنى واحد يحتاج المتحدث إلى تحديده وإلا فإنَّ المتلقي سيفهم انَّه قرب مكاني.

على أساس المعاني المشار إليها وجدنا أنَّ المفسرين قالوا وبضرس قاطع بأنَّ القرب هنا معناه الأكل لأنَّهم شعروا بتلك المعاني تفوح رائحتها من الفعل (قَرُبَ).

وعلى أساس ما تقدَّم أيضا **فإنَّ القرب يمكن أن يكون هو العمل الجنسي** وليس أكلا لثمرة من شجرة أدَّت بالنتيجة إلى وقوع العمل الجنسي للإنَّ فعل القرب بذاته يشير إلى تلك الملابسة.

على أساس ما تقدَّم أيضا فإنَّ وجود إثنين في عملية المقاربة أو القرب من الشجرة أمر لازم في القضية لذلك تمَّ التأكيد على هذه القضية في النصين ووردت العبارة فيها **ضمير المثنى** هكذا **(وَلاَ تَقْرَبَا) فالظلم الذي يجري التحذير منه يحتاج إلى إثنين ذكرٌ وأنثى ولا يتحقق إلا بوجودهما معا** ولذلك بدأت الآيتان بالعبارة (يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ).

فضلا عن **أنَّ العمل الجنسي يعتبر في الأصل نوعا من الأكل باعتبار ما يضيفه إلى الآكلَينِ كلٌّ من الآخر.**

أسماء الإشارة

قبل أن نبدأ في محاولة فهم معنى الشجرة والجذر الذي جاءت منه (شَجَرَ) دعونا نلفت النظر إلى أنَّ (الشَّجَرَةِ) وردت في الآيتين معرفةً ومسبوقةً بإسمِ إشارةٍ للقريب (هذه) ما يعني أنَّ الشجرة في الحالتين محددة وقريبة من الزوجين آدم.

ولكن في مناسبة أخرى ورد تعبير **(تِلْكُمَا)** في قوله تعالى: { فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا **أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ** وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ } (الأعراف: ٢٢).

فوردت لفظة (الشَّجَرَةِ) محلاة بألف لام التعريف ما يعني أنَّها ذات الشجرة المشار إليها في النصيّن ولكنَّها هذه المرة بعيدة وقريبة في نفس الوقت وبتعبيرٍ مُذهلٍ علينا فهمه قبل مواصلة البحث عن معنى الشجرة.

فما هي **قصّة التركيب (تِلْكُمَا)** وكيف سيدعم هذا التركيب فرضيتنا وكيف سنرفع التناقض المحتمل في كون الشجرة قريبة وبعيدة في نفس الوقت.

لفهم هذا التركيب لا بدَّ لنا أول من عرض توضيحي لمثل هذه الحالات ثُمَّ النظر في تراكيب قرآنية مشابهة ربما تكون معانيها أوضح.

هناك تركيبات ترتبط فيها أسماء الإشارة مع بعض الضمائر لتكوين لفظة تعبر عن نوع من الارتباط بين تلك الأسماء وبين الضمائر المرتبطة معها ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

ذا ---- تصبح: ذلكَ / ذلكِ / ذلِكُما / ذانِكَ / ذلِكُم / ذلِكُنَّ .

تي ---- تصبح: تلكَ / تلكما / تلكم .

ولو أردنا تفكيك أي واحد من هذه التراكيب سنجده يتكون من التالي:

١- اسم الإشارة الذي يدل على أمر أو شيء أو موضوع معين.

٢- لام الملابسة للربط بين المشار إليه وبين المخاطب. يعني لإشعار المتلقي (أنّي أنبهك للأمر).

٣- ضمير المخاطب مع ما يشير إلى كونه مفرد أو مثنّى أو جمع.

أهم ما في الأمر هو أنَّ ضمير المخاطب يأتي للتأكيد على انَّه هو المقصود بالتنبيه على المشار إليه.

أسماء الإشارة المشهورة والتي وردت في القرآن الكريم كثيرا هي: تلك/ ذلك/ هذا/ هذه للتعبير عن الأمر المشار إليه وتنبيه المخاطب إلى ذلك الأمر، ويُصار أحيانا إلى التأكيد على جانب من العلاقة بين الأمر وبين المخاطب من خلال تراكيب أعقد من قبيل (تلكم/ ذلكم..).

في النصوص القرآنية وردت (تلكم) مرة واحدة و(تلكما) مرة واحدة و(ذلكما) مرة واحدة و (ذانكَ) مرة واحدة (ذلكنَّ) مرة واحدة، إلا أنَّ (ذلكم) وردت ٤٤ مرة ولم أحصِّ سائر أسماء الإشارة الواسعة الانتشار من قبيل (ذلك/ تلك).

أسماء الإشارة الشائعة (هذا/ هذه/ ذلك/ تلك) تشير إلى القضية التي يجري الحديث عنها دون التأكيد على وجود علاقة جوهرية مباشرة وخاصة مع المخاطب بينما أسماء الإشارة (ذالكما/ تلكما/ ذالكم/ ذلكنَّ / تلكم) تريد التأكيد على علاقة خاصة وعلى ملابسة قوية بين الموضوع المشار إليه والمخاطب وعلى وجود جذور ورابطة سابقة خاصة. سواء كان قريب أو بعيد وسواء كان المخاطب مفرد أو مثنى أو جمع.

يحق الآن لسائلٍ أن يسأل: **ما ربط كل ما قدمنا بموضوعنا وبالعبارة التي تشير إلى (الشجرة) باسم الإشارة المختص بالقريب من الأمور ؟**

إن وصف الشجرة في الآيتين من سورتي البقرة والأعراف بعبارة **(هَذِهِ الشَّجَرَةَ)** ثُمَّ وصفها في (الآية ٢٢ من سورة الأعراف) أيضا بالعبارة **(تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ)** لا بدَّ أن يكون له معنى سنحاول التوصل إليه بعد فهم التركيب (تِلْكُمَا).

قال تعالى: { فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا **أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ** وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ } (الأعراف: ٢٢).

وهذا يعني أن الربّ قال لهما: **ألم أنهكما عن الشجرة المرتبطة بكما ارتباطا جوهريا وأقل لكما بأنَّ أي شطن وأي خروج عن الضوابط والقوانين سيؤدي بكما إلى ما لا تحمد عقباه ؟** وهذا كلّهُ طبعا تعبير عن حالة الندم التي شعرا بها بعد الأكل وظهور نتائجه على الصعيد الواقعي.

ولكن السؤال الذي لا مفرَّ منه هو: لماذا جاء وصف الشجرة بما يشير إلى البعيد وليس القريب، فلماذا لم يقل (أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ هذه الشَّجَرَةِ) أو (أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ الشَّجَرَةِ) ؟ باعتبار أن الخطاب جاء مباشرة بعد تذوق الشجرة وظهور عوراتهما وبدئهما بتغطيتها بورق الشجار كما يروى ؟ ذلك لأنَّ الأمر مرتبط بالقضايا التالية:

١- أن **الشجرة هي شجرة واحدة في الحالتين** ولكن لا يمكن وصفها للجميع بالقرب باعتبار **أن بعض فروعها كان موجودا في داخل الجنّة التي كانا فيها وبعض فروعها كان خارج تلك الجنة.**

٢- أن النهي عن الشجرة كان موجودا داخلهما في الحالتين وأنَّهما كأنثى وذكر كانا يشعران بأنَّ هناك نوعا من الظلم في عملية التقرب من تلك الشجرة نتيجة لظواهر وأمور بادية كانت تفرض عليهما الاحتياط وعدم الاقتراب أصلا.

٣- أن الشجرة لها ارتباط وثيق بنفسيهما وتكوينيهما وإنَّها ليست شجرة نباتية إطلاقا ولذلك كان لا بدَّ من استخدام التركيب (تِلْكُمَا) لكشف هذا التلابس

والارتباط النفسي والعضوي مع الشجرة. لتوضيح أنَّها بعيده في الـزمن لوقـوع فعل التقرب منها سابقا وقريبة لان فروعها موجودة في نفسيهما.

معنى الجذر (شَجَرَ):

إنّني أفترض التالي: **الشجرة هي شجرة (صفات وراثية منحَّاة) تمثـل جانبـا مـن الصفات الموجودة في الإنسان المأدوم من أعراق مختلفـة متقاربـة وموجـودة في بيئـة واحدة تجعلها متقاربة في الصفات وأكثر قدرة عـلى الانسـجام رغـم وجـود بعـض الأفراد ممن يحملون صفاتً سيئةً من تلك الشجرة المنهي عنها.**

تلك الشجرة كانت موجودة في بعض الأعراق الأخرى خارج تلك البيئة (الجنّـة) بحيث كانت كأعراق (زيتونية) تحمل في الغالب نسبة أعلى من الصفات السيئة القوية بإفراط والمراد تنحيتها وإنَّ تلك الأعراق كانت تحتاج إلى عمل أكثـر وتطـوير بمعـزل عن الأعراق (التينية) المأدومة، حتى يتم تخليصها من الصفات السيئة بدرجة عالية ثم السماح باختلاط النوعين من أجل الاستفادة من سائر الصـفات والطاقـات الإيجابيـة القوية الموجودة في تلك الأعراق من خارج بيئة آدم.. قريبا منـه أو بعيـدا عنـه.. لأنَّـه أصبح حينها قادرا على قطع مسافات كبيرة وصار يفكر بـالهجرة وبالبحـث في محيطـه بمختلف الاتجاهات.

إلا أنَّ ما وسم الكثير من أفراد سلالة آدم من عدم الاحتياط عـرَّض البرنـامج إلى هزّةٍ قوية يشير إليها النص التالي: { وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا} (طه: ١١٥). فتم اختلاط النوعين وظهرت أمور سلبية قوية كما سيتضح معنا أكثر في مراحل لاحقة من البحث.

بعد أن كوّنا صورة أوضح عن معنى القرب وحتى تكتمل الصورة دعونا نتعـرف على الجذر (شَجَرَ) لنرى إن كـان مـا نقولـه يسـتقيم بحيـث يمكـن أن تكـون لفظـة (الشجرة) قابلة للتعبير عما أسلفنا أو أنَّها لا تنطبق إلا على هذه الشجرة النباتية.

(شجر): الشين والجيم والراء **أصلان متداخلان ، يُقرب بعضُهما من بعض ، ولا يخلو معناها من تداخُل الشّيء بعضِه في بعض ، ومن عُلُوٍّ في شيءٍ وارتفاع**. فالشَّجَرْ معروفٌ ، الواحدةُ شَجرة ، **وهي لا تخلو من ارتفاعٍ وتداخُلِ أغصـان**. وشَجَر بين القوم الأمرُ ، إذا اختلف أو أختَلَفوا وتشاجَرُوا فيه ، **وسّميت مشاجرةً لتداخُلِ كلامِهم في بعض**.(١)

(شجر): الشَّجَرُ من النبات: ما قام على ساق؛ وقيل: كل ما سما بنفسه، دَقَّ أَو جلَّ، قاوَمَ الشِّتاءَ أَو عَجَزَ عنه... واشْتَجَرَ القومُ : تخالفوا: **ورماح شواجرُ ومُشْتَجِرة ومُتَشاجِرَة: مُخْتلفة مُتَداخلة.. والُمشاجَرة: المنازعة...** والشَّجْرُ الصَّرْف. يقال: ما شَجَرَك عنه ؟ أَي ما صَرَفك؛ وقد شَجَرَتْني عنه الشَّواجر. ومنه شَجَرَ الشيءَ عن الشيء إِذا نَحَّاه..(٢)

- دلالة أصوات حروف الجذر **(ش – ج – ر):**

(ش): صوت يدل على حركة تشعب وانتشار.

(ج): صوت يدل على جهد أو شدة.

(ر): صوت يدل على حركة سريعة منتظمة أو مرتبطة ومتصلة ومتكررة.

(شجر): كلمة تدل على **حركة تشعب وانتشار، يتبعها جهد وشدة، وتنتهي بسرعة منتظمة ومتصلة ومتكررة.**

فهي كتلة لها طاقة عالية وقابلية على الانتشار عموديا وأفقيا إلا أنَّ طاقتها وقدرتها على الانتشار لا تظهر إلا بعوامل وشروط معينة.

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الثالث، ص ٢٤٦

(٢) ابن منظور، معجم لسان العرب، الجزء الرابع، ص ٣٩٤ – ٣٩٨ .

فالشجرة: فالشجرة في الأصل بذرة تحمل تلك الطاقة الكبيرة والتي لا تظهر إلا بالإنبات في محيط مناسب وتزويدها بالماء وتعريضها للشمس والهواء وسائر الظروف التي تضغط عليها وتفككها وتطلق طاقتها من عقالها.

شجرة العائلة: هي أيضا بذرات وبويضات موجودة لدى الذكر والأنثى من البشر يتسلط الضغط على البويضة الملقحة بلقائهما، فتبدأ بإطلاق طاقتها ويظهر فرع جديد في شجرة الأبوين. وهكذا.

الشجار: بذرة موجودة في النفوس كموقف موّحد ولكن فيه طاقة قابلة للانفلات والظهور والتجلي تظهر بالجدال نتيجة ضغط على نقطة معيّنة ما يؤدي إلى الانقسام في الآراء وظهور تشعبات كثيرة لها أصل واحد.

قال تعالى: { أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ **أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا** أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) } (الواقعة).

فشجرة النار من أبرز الأمثلة القرآنية على مصاديق أخرى للشجر غير الشجر النباتي؛ فكأنَّ النار التي يوريها الناس من حطب أو وقود لتُظهر طاقتها ولهيبها، كأنَّها تنتمي إلى شجرة لها أصل واحد ومستعدة للتفرّع والتجلي أينما توفرت الظروف المناسبة لذلك.

عليه فإنَّ من المستبعد أن تكون الشجرة المنهيِّ عن التقرّب منها هي شجرة نباتية وإنَّ من المرجح أن يكون معناها مرتبطا بالعلاقة بين الذكر والأنثى من مجموعة آدم سواء في داخل المحيط المنسجم الذي تمَّ توفيره لهم كجنس جديد أو خارج ذلك المحيط عبر الاختلاط مع مجموعات أخرى خارج المجموعات التي تمَّ أدمها مع بعض.

فكما أنَّ الشجرة قد تكون شجرة النار فهي من الممكن جدا أن تكون جزءا من شجرة الصفات الوراثية التي يحملها الإنسان – ذكرا أو أنثى – في داخله والتي تمثل شجرة الصفات المبلسة.

والعلم اليوم مكننا من رؤية تلك الشجرة – اقصد **شجرة الصفات الوراثية** حسنها وسيئها – وكيف أنَّها عبارة عن **مجموعة من الأشجار المتشابكة والتي يمثل التقرّب من بعضها تحريكا لبعض الصفات المُبلسة وتنشيطا لها** كما نرى اليوم كيف تمكنت بعض المخططات الشيطانية من تحريك الرغبة بالقتل لدى بعض الناس وتكوين مجموعات من الناس يمثلون مكائن للقتل والتخريب.

فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ

قال تعالى: { **فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ** لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) } (الأعراف).

قال تعالى: { **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ** قَالَ **يَا آدَمُ** هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) **فَأَكَلَا** مِنْهَا فَبَدَتْ **لَهُمَا** سَوْآتُهُمَا **وَطَفِقَا** يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ **وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ** فَغَوَىٰ (١٢١) } (طه).

دعونا أولا نثبّت الملاحظات والتساؤلات التالية حول النص:

جاء التعبير في سورة (طه: ١٢٠)؛ **(فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ)** بينما ورد في سورة (الأعراف: ٢٠)؛ بالطريقة التالية **(فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ)** فكانت تعدية الفعل اللازم (وسوس) في الأولى بـ (إلى) وفي الثانية بـ (لـ) وهو يشير لا شك إلى اختلاف في طبيعة الوسوسة.

لماذا كان السؤال الذي طرحه الشيطان موجه إلى آدم فقط – على فرض أنّه إنسان ذكر – ولم يوجه إلى زوجه ؟ أقصد لماذا لم يرد التعبير هكذا (قال هل أدلكما).

لماذا تعود الآية لاحقا وبعد أن تتحدث عن فعل ثنائي قام به ذكر مع أنثاه للحديث بصيغة المفرد فتقول (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) مشيرة إلى ربط المعصية والغواية بالرجل الفرد المفترض فقط ؟..

وأخيرا وكما أشرنا سابقا فإن الآية تؤكد في الختام بأن عملية الاجتباء والتوبة تمت من قبل الله تعالى لآدم (الرجل المفترض) وهو أمر ملفت وغريب.

مقارنة بين نصين

قد يكون مستبعدا التفكير في أنَّ الفرق بين **(فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ)** و **(فَوَسْـوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ)** على أنَّه فرق هام وجوهري سيَّما وأنَّ المفسرين دأبوا على إلغاء هذا الفرق واعتبار أنَّ العبارتين متساويتان ففي رأي الأغلبية إنَّ (وسـوس لـه = وسـوس إليـه) ولكننا نفترض أنَّ هناك فرقا جوهريا بناءا على **قاعدة (الفرق في المبنى يؤدي إلى فـرقٍ في المعنى).**

ويمكن لنا فهم الأمر بسهولة لو حاولنا اقتناص الفرق بين العبارتين التاليتين:

١- أنا ذهبت إلى المدرسة العام الماضي.

٢- أنا ذهبت للمدرسة العام الماضي.

فالأولى تعني أنني قمت بزيارة إلى مبنى المدرسة – الذي يعرفه السامع أو المتلقي – العام الماضي، بينما العبارة الثانية تعني أنني إنسان متعلم كنت اذهب للمدرسـة العـام الماضي وغير معلوم الفترة الزمنية التي إستغرقتني في ذلك ولكـن المقصـود هـو إننـي متعلم وابن مدارس. والدليل أنّني درست في المدرسة العام المـاضي والفـرق لا شـك جوهري وكبير.

(اللام) تستخدم للملابسة لذا فهي لا تأتي مع الماديات وإنـما تـأتي مـع المعنويـات بمعنى انك لا تتمكن من القول (كتبتُ رسالة للملك) وتقصد أنَّكَ (كتبتَ رسالة إلى الملك) فالأولى فيها ملابسة بين الرسالة والملك فهـي قـد تكـون رسـالة أمـرك الملـك بكتابتها أو قد تكون رسالة حول الملك ترفع من شأنه أو تحثه على العدل أيًّا كـان هـذا الملك، بينما الثانية هي رسالة منك مرسلة إلى الملك قد تبلغه وقد لا تبلغه.

عليه يكون الفرق بين (فَوَسْوَسَ **إِلَيْهِ** الشَّيْطَانُ) و (فَوَسْوَسَ **لَهُـمَا** الشَّـيْطَانُ) في أنَّ الأولى تعني أن آدم بعيد عن الوقوع في مقصد الوسوسة وأن الحـديث في تلـك الآيـة يشير إلى أمهات الموضوعات المتعلقة بعملية الوسوسة والأكـل مـن الشـجرة بيـنما في الآية الأخرى والذي قامت على أساس استخدام **(لام الملابسة)** فان الحديث عن أمـرٍ

تلابس به آدم مع مقصد الوسوسة وهو قريب لذا ترى أن الأمر جاء يفصَّل المراحل واحدةً تلو الأخرى وأن الملابسة واضحة في استخدام الآية لضمير المثنى. فاستخدام ضمير المثنى يُشير إلى نوع من الإطلاق بالنسبة لكلا الفردين من المثنى بمعنى أن القول (فكلا/ حيث شئتما/ ولا تقربا) تشير إلى أن الخطاب مطلق وليس محدد بالثنائي وإنما اشمل من ذلك بمعنى أن الإباحة والتحديد تشملهما معا وكلا على حدة مع آخر.

فإن التعبير الوارد في سورة الأعراف **(فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ)** يشير إلى فكرة التقرب أكثر من التورط مع الشجرة المشار إليها لاستخدام **(لام الملابسة)** إذ لم يقل كما قيل في سورة طه **(فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ)** باستخدام حرف الجر **(إلى)** ما كان يشير فيها إلى مسافة ابعد بينما في سورة الأعراف أصبح الأمر متلابسا معهما وأصبح التورط قاب قوسين أو أدنى، وأصبحا ذكورا وإناثا اقرب إلى تلك الشجرة كما يبدو من النص { لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ } (الأعراف: ٢٠).

عليه سينفعنا هذا التفريق في افتراض أن يكون الحديث عن مناسبتين مختلفتين ما يدفعنا إلى التأكيد على أنَّ الأمر ليس كما هو متعارف ومشهور وأنَّ القصة أطول واعقد.

معنى كلمة (وسوس)

هذه الكلمة جاءت من التركيب البنائي العربي **"وس – وس"؛** إذن فهي كلمة مشتقة من الجذر الثاني (وَسَ)، فتكرر هذا الجذر مرة أخرى ليكون هذه الكلمة (وسوس). فما معنى هذا الجذر في المعاجم والدلالة الصوتية له من القرآن الكريم ؟. دعونا ننظر في المعنى.

(وسس): الوَسْوَسَة والوَسْواس: **الصوت الخفي من ريح..** والوَسْوَسَة والوِسْواس: **حديث النفس.** والوِسْواس، بالكسر، المصدر. والوَسْواس، بالفتح: هو

الشيطان. **وكلُّ ما حدَّثك ووَسْوس إليك، فهو اسم**. ويقال لِهَمْس الصائد والكلاب وأَصواتِ الحلي: وَسْواس. والهَمْس: **الصوت الخفيّ** يهز قَصَباً سِبّاً، وبه سمي صوت الحلي وَسْواساً... الوَسْوسة: **الكلام الخفي في اختلاط**. وفي الحديث: الحمد لله الذي ردّ كَيْده إلى الوَسْوسَة؛ هي **حديث النفس والأَفكار**.[1]

- دلالة أصوات الجذر **(و – س):**

(و): صوت يدل على ضم وتموضع الحركة في المكان.

(س): صوت يدل على حركة بشكل غير واضح وغير عميق أولي.

(وس): كلمة تدل على ضم وتموضع الحركة في المكان، تنتهي بشكل غير واضح وغير عميق أولي.

إذاً؛ نجد توافق بين المعنى المعجمي والدلالي الصوتي، في أن (الوَسْوَسَة) هي: **الهمس والخفاء؛** ككلّ الإيحاءات الإقناعية المتكررة التي تستعملها الإعلانات الدعائية اليوم لتسلب إرادة المستهلِك المُتلقّي بثَّها.

وقلنا من قبل أنَّ معنى لفظة (الشيطان) تشير إلى: **خروج ذلك التكوين الأساسي في بناء أيَّ تكوين أكبر من الحدود المقيَّدة له بحيث لا تكون فعاليّة ذلك التكوين الأصغر مطابقة للبرنامج الموضوع له. ما يؤدي إلى ظهور أثر سلبي متعلق بالتكوين الأكبر.**

ويكون الشيطان المشار إليه فيما يتعلق بالإنسان وتحذيره منه بمختلف النصوص القرآنية هو: ما ينتج عن خروج ذلك التكوين عن قيوده وعدم العمل بطريقة قياسية ما ينتج عنه خروج بعض التصورات والأفكار والمشاعر والنوازع والدوافع وما إلى

(١) ابن منظور، معجم لسان العرب، الجزء السادس، ص ٢٥٤ – ٢٥٥ .

ذلك عن الأُطر المحددة لها في داخل النفس والتراكب مع بعضها البعض في تكوين جديد يؤثر بدوره على النفس وعلى البرامج الأصليّة فيها.

معنى كلمة (يُبْدِيَ)

جاءت هذه الكلمة مشتقة من الجذر الثلاثي **(بدا)؛** والذي أتي بمشتقاته في القرآن حوالي ٣٤ مرة، فدعونا ننظر إلى معنى هذا الجذر في المعاجم والدلالة الصوتية له من القرآن الكريم.

(بدو): الباء والدال والواو أصلٌ واحد، وهو **ظُهور الشيء**.[(١)]

بَدا الشيء بُدوّاً وَبداءً أي: **ظهر ظهوراً بيّناً،** قال تعالى:{ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧)} (الزمر)،{ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا (٤٨)} (الزمر).[(٢)]

- دلالة أصوات الجذر (ب – د – آ):

(ب): صوت يدل على الانتقال من شيء لنقيضه.

(د): صوت يدل على دفع شديد متوقف.

(آ): صوت يدل على إثارة وامتداد في الزمان والمكان.

(بدا): كلمة تدل على الانتقال من شيء لنقيضه، يتبعها دفع شديد متوقف، وينتهي بإثارة وامتداد في الزمان والمكان.

قال تعالى: { **لِيُبْدِيَ** لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا } (الأعراف: ٢٠).

قال تعالى: { **فَبَدَتْ** لَهُمَا سَوْآتُهُمَا } (طه: ١٢١).

معنى كلمة (وُرِيَ)

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، ج ١، ص ٢١٢ .

(٢) الراغب الإصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ١١٣ .

جاءت هذه الكلمة مشتقة من الجذر الثلاثي (ورى)؛ والـذي أتـت بمشـتقاتها في القرآن حوالي ٣٢ مرة، فدعونا ننظر إلى معنى هذا الجذر في المعاجم والدلالة الصـوتية له من القرآن الكريم.

(ورى): يقالُ: وارَيْتُ كذا: إذا **سَتَرْتهُ**. وتَوَارَى: **اسْتَتَرَ.**[1]

- دلالة أصوات الجذر **(و – ر – ى):**

(و): صوت يدل على ضم وتموضع الحركة في المكان.

(ر): صوت يدل على حركة سريعة منتظمة أو مرتبطة ومتصلة ومتكررة.

(ى): صوت يدل على إثارة وامتداد في الزمان والمكان.

(ورى): كلمة تدل على **ضم وتموضع الحركة في المكان، يتبعهـا تـرابط وتواصـل الحركة مع بعضها بشكل متكرر، وتنتهي بإثارة وامتداد في الزمان والمكان.**

معنى كلمة (سَوْءَاتِهِمَا)

جاءت هذه الكلمة مشتقة من الجذر الثلاثي (سـوء)؛ والـذي أتـت بمشـتقاتها في القرآن حوالي ١٦٧ مـرة، فـدعونا ننظـر إلى معنـى هـذا الجـذر في المعـاجم والدلالـة الصوتية له من القرآن الكريم.

السُّوءُ: **كلُّ ما يغُمُّ الإنْسَانَ مِنَ الأُمُـورِ الدُّنْيويّـة، والأُخْرَويـةِ، ومـنَ الأحْـوَالِ النَّفْسِيَّةِ، والْبَدَنيَّة، وَالخارجةِ، مِنْ فَوَاتِ مالٍ، وَجاهٍ، وَفَقْدِ حمِيمٍ**؛ وقوله: { وَاضْـمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ } (طه: ٢٢)، أي: **من غـير آفـةٍ بها،** وقال: { إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ } (النحل: ٢٧). وَعُبِّرَ عن كلَّ مـا يقْبُحُ بالسُّوأَى، ولذلك قُوبِلَ بالحُسْنَى، قال: { ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ **أَسَاءُوا السُّـوأَىٰ** }

(١) الراغب الإصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٨٦٦ .

(الروم: ١٠). كما قال: { لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ } (يونس: ٢٦)، والسَّيِّئَةُ: **الفِعْلةُ القبيحة، وهي ضدُّ الحَسنةِ.**[1]

- دلالة أصوات الجذر **(س – و – ء):**

(س): صوت يدل على حركة بشكل غير واضح وغير عميق أولي.

(و): صوت يدل على ضم وتموضع الحركة في المكان.

(ء): صوت خفيف يدل على ظهور مفاجئ في الزمان والمكان.

(سوء): كلمة تدل على حركة بشكل غير واضح، يتبعها ضم وتموضع الحركة في المكان، وتنتهي بظهور مفاجئ في الزمان والمكان.

إنّ مدرسة الترادف، جعلت معنى **"السوأة"** و **"العورة"** واحداً، حتّى أنّك لا تفتح تفسيراً كبيراً، أو حتّى تفاسير الجيْب كما يُسمّونها حتّى تجد على الهامش أو الأسفل هكذا **(السوأة: العورة).** إنّ المرء العربيّ ليُدهش أنْ يجد معظمَ المفسّرين **يزعمون أنّ "السوأة" هي "العوْرة" البدنية،** مع أنّ القرآن لمْ يقلْ "سوأة" واحدة بل قال **"سوءات" متعدّدة،** و أنّه حين أخبَر، فقال: { فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ **لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ** ۚ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ **فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي** ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ } (المائدة: ٣١)، حتماً لا يعني أنْ يدفن الأخُ "عَجْز" أخيه ويدسُّه في التراب ويُبقي باقي أطراف الجسم خارجا !!

لقد تمّ التفريق بين (السوأة) و(العورة) في كتاب الله بالمعاني المختلفة للعورة أيضاً: { أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ **عَوْرَاتِ النِّسَاءِ** } (النور: ٣١)، { وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ۚ **ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ** } (النور: ٥٨)، {وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ **إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ** } (الأحزاب: ١٣)؛ فالقرآن قادرٌ

(١) الراغب الإصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٤٤١ .

على أنْ يقول "عورة" هنا أيضا، في قصّة آدم لو كانت ! على أنّ العورة أيضاً لا تعني في حقيقتها الجزء البدنيّ المستقبح كشفه للغير، بل مواضع الإصابة التي ينبغي المواظبة على حفظها أو سترها.[1]

فـ **"السوأة"** هي: **كلّ فعلٍ أو حال يُسيئ، كلّ ما يسُوء المرءَ ويُقلّل من احترامه أو كرامته أو قداسته.**

والحيّ فله **سوءات، سوأة البطن، وسوأة الفرج، وسوأة الجهل، وسوأة الذلّ، وسوأة الطمع، وغيرها؛ وكلّها تتبع طغيان الغرائز على العقل الأعلى واستجابته لها،** كما حدث لآدم.

وكلمة "سوءة" مفردة، ومثنّاها سوأتان وجمعها سوءات، ثمَّ بعد ذلك تمت تثنية الجمع إلى جمع مثنى **"سَوْءَاتُهُمَا" دلالةً على عدد الذين مارسوا هذه الممارسةَ من إناثٍ وذكورٍ** – كما أسلفنا – والذين لا يعلم تعدداهم إلا الله، ولكنَّ اللفظ لغةً يدلُ على أنَّهم ستة فما فوق.

خدعة الشيطان (مَلَكَيْنِ أو خَالِدِينَ)

قال تعالى: { وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن **تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ** } (الأعراف: ٢٠).

قال تعالى: { قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ **شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ** } (طه: ١٢٠).

---

(١) أنظر إلى: مادة (عور)؛ أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الرابع، ص ١٨٤ – ١٨٦؛ وتكون العورة بهذا ظرف زمن مواظبة الحفظ كما في (ثلاث عورات) أو ظرف مكان مواظبة الحفظ كـ (بيوتنا عورة)، ومنه جاء "الأعور" لأنّه فسدت عينٌ منه، ونقول بالدّارج من لهجاتنا "عوَّرَه" أي أصابه بسوءٍ وبألم.

نلاحظ ارتباط مسألة "معاشرة الهمج – الشجرة المنهي الاقتراب منها – خارج الجنّة" بالوصفيْن **"ملكيْن"** أو **"خالدين"** في الجنّة، فالصفة الأولى (الملائكيّة) مانع حقيقي "ذاتيّ" من التزاوج مع شجرة الهمج نظراً لتغاير الجنس، والصفة الثانية (الخلود داخلاً) مانع حقيقي "موضوعيّ" نظراً لعدم إمكانيّة الخروج من الجنّة.

أنَّ؛ النصّ الأوّل **(فَوَسْوَسَ لَهُمَا)**، تعدّى باللاّم، أما النصّ الثاني **(فَوَسْوَسَ إِلَيْه)** تعدّى بـ **(إلى)**، وإنّ تعدّي فعْل الوسوسة **"باللام"** يعني أنّ الموسْوَس له، عليه أنْ **(ينفعل) هو (حركة ذاتيّة: نفسيّة مثلاً، أو اعتقاديّة، أو عاطفية)**، لذلك عقّب في الأولى سبحانه: { لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا } ، فيتهيّج كلٌّ منهما منفعلاً تجاه غرائزه.

أمّا التعدّي بالحرف **"إلى"** فعليه أنْ **(يفعل شيئاً) (حركة موضوعيّة)** ويتّجه إلى هدفٍ كالخروج من الجنّة أوّلاً، وممارسة المعصية في الخارج ثانياً. فالملخّص أنّ **"لِـ" هدفها نفس الموحى له وتنتهي عنده، و "إلى" هدفها يمتدّ إلى خارج الموحى إليه.**

وهذا يُرجّح أيضاً أنّ الوسوسة الأولى **(فَوَسْوَسَ لَهُمَا) تمّت وهما في الجنّة فقط حيث الإيحاء ذاتي وعلى مستوى القناعة الفكريّة لإجراء التغيير النفسي، أمّا الوسوسة الثانية (فَوَسْوَسَ إِلَيْه) فحرّكت سلوك آدم (كجنس "ذكر وأنثى") ورافقته منذ البداية حتّى نقطة النهاية،** وأقوى ما كان بثّ هذا الإيحاء الشيطانيّ حين كان يصدر إلى آدم (كجنس "ذكر وأنثى") من ناحية شجرة الهمج "ذكر وأنثى"، بحيث تمّ الاستحواذ على آدم تماماً بهذا البثّ القوي الملحاح خارج الجنّة.

الشيطان يوسوس لهما (آدم كجنس عاقل "ذكر وأنثى")، متحايلاً كشبْهِ متشكّكٍ في جنسهما البشريّ؛ فيقول: (لا أعتقد أنّ الربّ نهاكما أنتما عن الشجرة، بل كان نهيُ الربّ عامّاً موجَهاً لمن يليق به، وهو في الحقيقة موجّهٌ للملائكة لا لكما، هم نقلوه إليكما ظنّاً أنّ حكمهم وتكليفهم هو بنفسه ينطبق عليكما، ما نهاكما عنها اللّهم إلاّ أنْ

تكونا ملائكة وأنا لا أدري، أو أنْ تكونا من فئة الخالدين[1] في الجنّة الذين لا يخرجون منها وفي وضعٍ ثابتٍ لا يتناسلون، فالفئتان الممنوعتان بالأصالة: **الملائكة التي تستطيع الخروج من الجنّة لكن لا تتزاوج مع شجرة البشر لاختلاف جنسهما (مانع ذاتيّ)، والفئة الأخرى مِنْ سدَنة الجنّة أو خدَمتها والقائمين عليها لا يخرجون بالمرّة بل ممنوعون وخالدون فيها (مانع موضوعيّ)،** وأنتما كما يبدو لستما من الملائكة كما أنّكما لستما من الخالدين فيها، بل بَشَرٌ مسموحٌ لكما الخروج والتنزّه خارجا على الأقلّ).

هذا ملخّص ما عناه الشيطان، هو يفعل الشيء الطبيعيّ الذي حَذّرهما الربّ منه **(فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنْ الْجَنَّةِ)** فاختصار عبارته: **(لا يصدق عليكما النهيُ إلاّ أنْ تكونا ملَكيْن، أو من جنسٍ كائنات أُخرى فُرِض عليها البقاء الأبديّ في الجنّة وعدم السماح بالخروج منها أو التناسل من شجرة الهمج، وأنتما لستما كذلك، فلماذا لا تخرجان؟).**

وطبعاً هما سيُجيبان في قرارة أنفسهما على السؤال المفتوح المُضمَّن في: (إلاّ أن تكونا ملكيْن؟): أنّهما ليسا ملَكيْن، والآخر (أو تكونا من الخالدين؟) ففعلاً: هما ليسا من خدَم الجنّة الخالدين عن الخروج أو الذين لا يتطوّرون ويتغيّرون، فهكذا أوقعهما الشيطان وأقنعهما.

فالخروج كان ميسّراً لآدم (كجنس عاقل "ذكور وإناث") بدليل أنّهما نُبِّها بعدم إخراج الشيطان لهما منها لا بعدم الخروج مطلقاً؛ بمعنى أنه يمكنهم الخروج من الجنة والدخول لها، ولكن التحذير من إتباع **"خطوات الشيطان"** في أن يعصوا أوامر الرب فيتم إخراجهم منها.[2]

---

(١) إنّ معنى "خلَد" هو: الثبات والملازمة، فيقال: خَلَدَ: أقام، وأخلَدَ أيضاً. وليس هو "الأبديّة" وإلاّ لما قال تعالى: (خالدين فيها) ١١ مرّة في كتابه.. راجع: مادة (خلد)؛ أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الثاني، ص ٢٠٧.

(٢) جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، وعصى آدم: الحقيقة دون قناع، ص ١٤٠ – ١٤١ .

فالخلاصة **أنّ آدم وزوجه (كمجموعة بشرية تم تطويرها للإنسانية العاقلة) لمْ يتيقّنا أنّ النهي سقط عنهما فعلاً بل ظلاّ شاكّيْن، فهما خرجا يُجرّبان إذاً، والشيطان قد نصب لهما فخّيْن ليُقنعهما أنّ النهي بمعاشرة الشجرة قد سقط عنهما:**

الأوّل: أنّهما ليسا ملَكيْن فلا يُمنع عليهما الاختلاط بهمج شجرة البشر.

الثاني: أنّهما غير خالدين، فيستطيعان الخروج وعدم ملازمة الجنّة.

فكان أنْ جرّبا الثانية ورأوا فعلاً أنّهما بإمكانهما الخروج والرجوع، فتعزّز الشكّ بسقوط النهي لدى آدم فانساق إلى المعصية.

الشيطان قَاسَمَهُمَآ

قال تعالى: { **وَقَاسَمَهُمَا** إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ } (الأعراف: ٢١).

ففي شرح لفظة **"قَاسَمَهُمَآ"** ظنَّ المفسرون أنَّ الشيطانَ قد أقسم لهما بالله إنَّه لمن الناصحين، وهذا ليس إلا اجتهاداً منهم لغموض القصة. إذ إنّ الشيطان لا يُقسِمُ للإنسان أنّه ناصحٌ له، وإنّما يستدرجه حتى يخدعه وينسى تحذيرَ الملأ الأعلى (الملائكة المدبرون) له.

فالشيطان "قاسمهما" ولم "يقسمهما"... فما الفرق لغةً بين "قسمهما" و"قاسمهما"؟

القسم: **هو تجزئة الشيء إلى قسمين**[1]، أما "المقاسمة" فهي على وزن مفاعله، وتعني: تكرار الفعل أكثر من مرة، كأن تقول "قتل" و "قاتل". ونحن نظنُّ **أن الشيطان قسمهم أولاً إلى: مجموعة إناث ومجموعة ذكور بأن أراهما سوءاتهما. ثم قسمهم مرة أخرى إلى مجموعة مطيعة ومجموعة رفضت الانصياع له.** وهكذا تكرر التقسيم. هذا يفسر القسمة البسيطة إلى مجموعتين أولاً، وسنرى أنَّ العقابَ قد وقع

---

(١) أنظر مادة (قسم)؛ أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، ج ٥، ص ٨٦ – ٨٧.

لاحقاً على المجموعة العاصية فقط. بعد هذه القسمة الأولى عاد الشيطانُ ليستدرجَ المجموعةَ التي استجابت له ليستقيم المعنى مع لفظ تكرار القسمة **"قَاسَمَهُمَآ"**.

لا بُدَّ أن نلاحظ مقدار الجهدِ الفكري والعملي الذي بذله الشيطانُ للوصول إلى ما أراد الوصول إليه، من خلال النزاع الشيطاني داخل نفس آدم (كمجموعة بشرية عاقلة "ذكور وإناث") بدأ بالفعل بالنجاح، فتم مقاسمتهم في ذلك الفعل الشيطاني.

والمدخل الذي دخل به عليهم بحجة هذه؛ هو النصيحة !.. { إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ } ؛ والنصحُ يدلُ على **ملاءمة بين شيئين وإصلاح لهما** [1].

ويمكننا الآنَ أن نتخيلَ أن الشيطانَ وبكل هدوءٍ لاءم بينهما، أي جعل مع كلِّ ذكرٍ أنثى مناسبة. قسم المجموعة التي أطاعته إلى مجموعةِ ذكورٍ ومجموعةِ إناث... وصار يزاوجُ بينهما بأن يختارَ من مجموعة الذكور ذكراً وينصحه مع أنثى من مجموعة الإناث، وهم في نشوتهم تلك لمّا يرتكبوا مُحَرَّماً بعد، وإنّما يخطون خُطُوات (خُطُوات الشيطان) نحو شجرة الخلد.. ثم بعد ذلك: **(فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ)**.

فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ

في سورة البقرة (الآية: ٣٥)، وسورة الأعراف (الآية: ١٩)، المنهيّ عنه هو: { وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ } ، بالنصّ نفسه في الاثنتيْن. يُقابله في سورة طه (الآية: ١١٧)، أنّ المنهي عنه هو طاعة عدوّهما الشيطان في الخروج من الجنّة: { فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ } ، حيث يُريد أنْ يدلّهُما على موقع الشجرة.

النتيجة: أنّ **"الشجرة" (سلالة الهمج) كانت موجودةً خارج الجنّة، في الأنحاء المحيطة بها، ومن الجنّة بإمكان المرء أنْ يُشرف عليها ويلحظها.**

في سورة الأعراف (الآية: ٢٢)؛ نلحظ فعلاً أن الشيطان "دَلاّهُمَا" فما هي التدلية؟

(١) أنظر مادة (نصح)؛ أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، ج ٥، ص ٤٣٥ .

قـال تعـالى: { **فَـدَلَّاهُمَا بِغُـرُورٍ** ۚ فَلَـمَّا ذَاقَـا الشَّـجَرَةَ **بَـدَتْ لَهُـمَا سَـوْآتُهُمَا** } (الأعراف:٢٢).

قال تعالى: { لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا **أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَـنْهُمَا لِبَاسَـهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا** } (الأعراف: ٢٧).

النتيجة: أنّ **"دَلَّاهُمَا"** = **"أخرجهما نازعاً عنهما لباسـهما"**. فـماذا نجـد في اللغـة معنى **"دلّى"** ؟

(دل): الدال واللام أصلان: أحدها **إبانة الشيء بأمارةٍ تتعلّمها** ، والآخَر **اضطرابٌ في الشيء.** فالأول قولهم: دللتُ فلاناً على الطريق. والدليل: **الأمارة في الشيء.** والأصل الآخر قولهم: **تَدَلْدَل الشَّيءُ ، إذا اضطرَبَ.** [1]

(دلى): الدال واللام والحرف المعتل أصلٌ يدلُ على **مقارَبة الشَّيء ومداناته بسُهولةٍ ورِفق.** [2]

دلاّها: أيْ **نزعها وجذبها ليُخرجها. واسترسل منحدراً.** ودلاّه بغرور أي **أوقعه في ما أراد من تغريره،** ودلى بالشيء **استقى به، وتوسّل.**[3]

وكلمة بغرور جاءت من جذر **(غَرَ)** وهي تعني: واغترَّ بهِ **خُدع وظنَّ بِهِ الأَمْن فلم يتحفَّظ.** قيل الغُرُور **تزيين الخطأ بما يوهم انهُ صواب. والمَغْـرُور المخـدوع والمُطمَـع بالباطل.**[4]

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الثاني، ص ٢٥٩ – ٢٦٠ .

(٢) نفس المرجع؛ ص ٢٩٣ .

(٣) بطرس البستاني، محيط المحيط، ص ٢٩٠ .

(٤) نفس المرجع، ص ٦٥٥ .

(غَرَ): الغين والـراء أصـولٌ ثلاثـةٌ صـحيحة: الأوّل **المِثـالِ** ، والثـاني **النقصـان** ، والثالث **العِتْق والبَياضُ والكرَم.** فالأول: الغِرار: المِثال الذي يُطبَع عليه السَّهام.[1]

إذن؛ معنى (فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ) أي: **جذبهما رويداً روياً إلى خارج الجنّة لينحدرا بعد نزعهما من لباسها. فالشيطان جذب المجموعة العاصية لربها والتي طاعته هو – عن طريق أنه قَاسَمَهُمَآ – من خلال (الغرور)؛ أي مثل – من خـلال التفكـير والخيـال "الوسوسة" – لهم الطريقة الخاطئة لممارسة الجنس من خلالها، والتي يقول لهم أنها العملية الجنسية الصحيحة. فوقعوا في وهم وخديعة الشيطان لهم.**

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الرابع، ص ٣٨٠ .

(ذَاقَا الشَّجَرَةَ) و (أَكَلَا مِنْهَا)

قال تعالى: { فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا **ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ** ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ } (الأعراف: ٢٢).

قال تعالى: { **فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ** ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ } (طه: ١٢١).

قال تعالى: { يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا **أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا** } (الأعراف: ٢٧)

معنى لفظة (ذَاقَا الشَّجَرَةَ)

لفظة **(ذَاقَا)** جاءت من الجذر العربي **(ذوق)**؛ والتي وردت مشتقاتها في القرآن حوالي ٦٣ مرة. فدعونا ننظر في المعاجم ودلالة الأصوات الفيزيائية لهذا الجذر.

(ذوق): الذال والواو والقاف أصلٌ واحد، وهو **اختبار الشيء من جِهَةِ تَطَعُّمٍ.**[١]

- دلالة أصوات الجذر **(ذ – و – ق):**

(ذ): صوت يدل على مقاومة وتقييد للحركات في اتجاه معين.

(و): صوت يدل على ضم وتموضع الحركة في المكان.

(ق): صوت يدل على قطع أو وقف شديد.

(ذوق): كلمة تدل على مقاومة وتقييد للحركات في اتجاه معين، يتبعها ضم وتموضع الحركة في المكان، وتنتهي بقطع أو وقف شديد.

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الثاني، ص ٣٦٤ .

وكلمة (ذاقا): كلمة تدل على مقاومة وتقييد للحركات في اتجاه معين، يتبعها إثارة وامتداد في الزمان والمكان، ثم وقف شديد، وتنتهي أيضاً بإثارة وامتداد في الزمان والمكان.

أنّ (ذوق) الطعام هو بالفم ولأوّل وهلة (أيْ عمليّة يجري فيها تسييل اللّعاب/ الرّيق)، وهي تحدث فيها إثارة للإنسان حيث يبدأ تركيزه كله يذهب إلى الأكل من الطعام.

والذوق لا يعني التذوق باللسان فقط، وإنّما هي **عمليةُ الإحساس التي تدل على المحسوس؛** كما في قوله تعالى: { **لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ** إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ } (الدخان: ٥٦).

والنّفس إذا نظرتْ إلى شيء وأعجبها فقد ذاقتْ، وإنْ طال وقوفُها واستمتاعها فقد أكلتْ واستمتعتْ، وإنْ لمْ تفعل شيء سوا بالعين.

معنى كلمة (أَكَلًا مِنْهَا)

(أكل): الهمزة والكاف واللام بابٌ تكثر فروعه، والأصل كلمة واحدة، ومعناها **التنقُص**.[1]

فتعريف **(الأكل):** هي **عملية استهلاك من كتلة موجودة في المحيط لتحقيق إضافة للكتلة الآكلة ما سيؤدي إلى نقص في الكتلة المأكول منها. وظهور أثر على الآكل وهذا الأثر قد يؤدي إلى زيادة مادية ظاهرة على الآكل وقد لا يؤدي إلى تلك الزيادة المادية الظاهرة، والأثر كذلك أما أن يكون فوري أو بعد حين، مباشر أو غير مباشر، إيجابي أو سلبي.**

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الأول، ص ١٢٢ .

لذا **فالأكل قد يكون عملية مادية مباشرة و قد يكون عملية معنوية غـير مبـاشرة** فأكل الطعام عملية مادية مباشرة وأثرها معنوي غير مبـاشر فالإنسـان يأكـل الطعـام ليستفيد طاقة يستهلكها لاحقا.

والأكل قد يكون ناتجه مجرد **(الإنقاص) من المأكول لأيِّ شيء** كقولـه تعـالى: { إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ **لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ** بِالْبَاطِلِ } (التوبة: ٣٤).

فالأكل هو نوع من الاستهلاك. وأكل مال اليتامى هو استهلاك لذلك المـال مـن قبل الشخص المعتدي على حقوق اليتامى وكذا أكل أموال الناس بالباطـل فـلا أحـد يتصور أن عملية الأكل لمال النـاس بالباطـل تعنـي أن الآكـل سـيقوم بعمليـة مضـغ للدنانير والدراهم !..

وأكل آدم (كمجموعة بشرية متطورة عاقلة عددها حوالي ٣٢ بشري "ذكور وإناث") من شجرة الجنس كان كذلك فهما قد **استهلاكا من طاقة بعضهما البعض لفائدة مرجوة أو لإضافة إلى كلٍّ منهما أو إنقاص من كلٍّ منهما عبر كلٍّ منهما.** فهما بالنتيجة قد **أكلا من شجرة الجنس والصفات الوراثية المنتقلة بينهما.**

وبالتفسير العلمي الحديث فإن العملية الجنسية هي أكـل لأنَّ (الحـيمن الـذكري) مادة فيها طاقة تنقل الصفات الجينية من الطـرف الأول إلى الطـرف الثـاني بمعنـى أن الأنثى أكلت من الذكر (حيامنه) بما فيها من نصف الصفات الوراثية للذكر.

والذكر أكل واستهلك من الأنثى (بيضتها) بما فيهـا مـن نصـف صـفاتها الوراثيـة والزيادة المتحققة له قد تكون نفسية وبدنية ولاحقـة باعتبـار أن البيضـة سـتتحد مـع الحيمن لتكوين وليد تابع للأب وللإم. وبالخلاصة أيضا فإنَّ كل واحد منهما أكل مـن الثاني عدد الكروموسومات النصفية لتكوين البيضة الملقَّحة.

نزع اللباس

قال تعالى: ﴿ **يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا** ﴾ (الأعراف: ٢٧).

و**"اللباس" ليس هو "الثياب"**، فالثياب تُلبس فعلاً، والليل لباس أيضاً، والعذاب لباس والخوف والجوع لباس، والزوج لباس، والحُليّ تُلبس، والتقوى لباس، فكلُّها ألبسة حسب مواردها القرآنية التي جاءتْ، **وكلّ مداخلة ومخالطة هي "لباس"**[1]، وقد استعمل سبحانه كلتي المفردتيْن "اللباس" و"الثياب" في القرآن بحيث لا يصحّ وضع أحدهما موضع الأخرى، ويكفيك قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ **هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ** ﴾ (البقرة: ١٨٧)، وقوله: ﴿ **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا** ﴾ (النبأ: ١٠)، واستخدم المفردتيْن معاً كقوله: ﴿ **وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا** خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ (الكهف: ٣١).

وإنّ مفردة **"نزع"** ترينا أنّ الأمر يحتاج قوّة وممانعة، **فالشيطان استخدم كلّ ما يملك من حيلة، و إصرار، وكذب، وتغرير وتأكيد و مقاسمة، ليُزحزح آدم العاقل عن مقرّه ويخرج من حصنه (لباسه)**، وآدم العاقل ظلّ يتألّم ويتقلّب ويُصارع ويُغالب ويدفع هذا الوساوس والأفكار مدّة، فالنزع يُعطي هذا المعنى، والحقيقة أنّ القرآن لمْ يستعمل النزع للثياب (التي هي غير اللباس قطعا)، فمسألة خلع الثياب سمّاها سبحانه في موضعيْن **"وضع الثياب"**، أمّا **عمليّة النّزع فهي تجري على شيء كان مستقرّاً ومتشبّثاً على وضعه الحاليّ بحيث لا يُعرف إلاّ به كالطبيعيّ**، و في العادة تجعل المنزوع غريباً أي غير قابل للعودة لوضعه السابق.[2]

أنّ إخراج الشيطان لآدم من الجنّة ليتسلّلا إلى خارجها، جاء بعد أنْ ظلّ "ينزع" (بالمضارع المستمرّ) بكلّ إصرار مِن لباسهما الواقي، فهو أمرٌ حصل بالتدريج وهما في

---

(١) أنظر مادة (لبس)؛ أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الخامس، ص ٢٣٠.

(٢) جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، وعصى آدم: الحقيقة دون قناع، ص ١٠٩ .

داخل الجنّة واكتمل بخروجهما منها طوعياً، **فأعقبه إراءة السوءات (تهييج الغرائـز)،** فما هو اللباس الذي كان آدم (كمجموعة عاقلة مكونة من ٣٢ فرد "ذكـور وإنـاث") يلبسانه وهما في الجنّة، ونزعه الشيطان عنهما شيئاً فشيئاً فأدّى الإغراء بهما ليخرجا مـن الجنّة، وبنزعه ذاك اللّباس عـنهما فقـط يسـتطيع أنْ يكشـف لهـما سـوءاتها أيْ يُـريهما الغريزة والشهوة التي كانت مخفيّة فيهما مُسـتكنةً وغـيرَ مُفعّلـة ؟ أيْ همـا حـالان إمّـا وجودٌ للّباس فلا سوءات مسيطرة، وإمّا السوءات المُذلّة المسيطرة فيعني أنّ اللّباس قد تمّ نزعُه، لا رُوحٌ ولا عقْل يمنع.

إنّ أحداث قصّة آدم وبنيه أعطتنا مصاديق للبـاس، لأنّهـا قصّـة واحـدة، ونُـودي الأبناء بتردّي لباس التقوى وعدم الوقوع في خطأ الأبوين.

فما هو اللباس؟ هو نفسه **الالتزام، هو التقوى، هو نفسه حصن الله، هو نفسه البرمجة الرّوحية، هو نفسه الثبات في كنف الله وتحت أمره والثقة به، هو نفسه العيش في مستوى واعٍ روحيٍّ نورانيّ سامٍ،** وأقلّ ما يستر منه هو المحافظة على لباس الزوجيّة العاصم، فأيُّ رجلٍ اشتهى امرأةً غير زوجه، أو امرأةٍ اشتهت رجلاً غير زوجها، فقد خلعا لباس زوجيّتهما حينئذٍ، **ومستوى اللباس الأرقى من لباس الزوجيّة هو العقل الرادع لصاحبه "لباس التقوى"،** أمّا أعلى لباس فهو الحالة الروحيّة السامية، هذا اللّباس المواري للسوءات ، { لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } (الأعراف: ٢٦)، الذي إذا انفقد استيقظت الحاجات المذلّة (السوءات) مِن كلّ صوب، جوعٌ بأنواعه، وعري بأصنافه، وظمأ وضحو بكلّ ألوانه، إنّه لباس الذكر، ذكْر الله والالتزام بتعاليمه، لذلك لا نندهش إنْ رأينا سبحانه في سورة طه، يبتدئ المشهد بذكر نسيان آدم، { وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا } (طه: ١١٥)؛ وينتهي بقوله: { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ } (طه: ١٢٤). ثمّ يُسمّي الإعراض

عن الذكر نسياناً للآيات، في الآية التي تليها: { قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦)} (طه).

ونلاحظ بصراحة تامّة في التعقيب على قصّة المعصية الأولى وتحذير الآدميّين: أنّ الإعراض عن ذكْر الله يُورث عمى الباطن، عمى البصيرة والحدْس، ذهاب نور الدّاخل والتخبُّط، وسنرى بعد قليل ارتباط هذا العمى بـ "الخصف" أيضاً.[1]

الخصف من ورق الجنّة

قال تعالى: { فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا **وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ** ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا... } (الأعراف: ٢٢).

قال تعالى: { فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا **وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ** ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ } (طه: ١٢١).

إنّ جملة **"وطفِقا يخصفان"**، قد عُطفت بالواو في السياقيْن، بعد بدوّ السوءات (غلبة فضيحة الغرائز)، فمشهد النتيجة؛ أنّهما **"طفقا يخصفان"، فما هو هذا الطفوق والخصف،** الذي ناداهما ربّهما بعده في سورة الأعراف **"ألمْ أنهكما عن تلكما الشجرة"؟** ولماذا أخّر سبحانه في سورة طه جملة **"وعصى آدم ربّه فغوى"**، بعد عبارة **"الخصّف"؟**

ظنّ المفسرون أنّ (نزع اللباس)، هو التعرّي من الثياب، وبالتّالي ظنّوا بأنّ (الخصف) هو خياطة ثياب من أوراق الشجر ! ولا ندري لماذا لمْ يُعاوِد آدم (كمجموعة عاقلة مكونة من "ذكور وإناث") لبس ثيابها التي نزعاها بدلاً من الانشغال بالخياطة والتطريز وهما عُراة ؟ وهل الظرف المهولُ والصّادِم إذّاك يسمح بنسج ثيابٍ من ورق الأشجار؟! **فما هو الخصف من ورق الجنة ؟**

---

(١) جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، وعصى آدم: الحقيقة دون قناع، ص ١١٠ – ١١٢ .

فكلمة **"طفقا"** من الجذر العربي **(طَفَقَ)** والذي معناه في المعجم: **ابتدأ واخذ وواصلَ الفعل.**[1]

- دلالة أصوات الجذر **(ط – ف – ق):**

(ط): صوت يدل على اتجاه الحركة بعيداً عن المركز.

(ف): صوت يدل على تفرق الحركة في كافة الاتجاهات.

(ق): صوت يدل على قطع أو وقف شديد.

(طفق): كلمة تدل على **اتجاه الحركة بعيداً عن المركز، يتبعها تفرق الحركة في كافة الاتجاهات، وتنتهي بقطع ووقف شديد.**

ومع إضافة حرف ألف المد الذي معناه:

(آ): صوت يدل على إثارة وامتداد في الزمان والمكان.

(طفقا): كلمة تدل على **اتجاه الحركة بعيداً عن المركز، يتبعها تفرق الحركة في كافة الاتجاهات، ثم يتبعها قطع ووقف شديد، تنتهي بإثارة وامتداد في الزمان والمكان.**

أما كلمة **"يخصفان"** جاءت من الجذر العربي **(خصف)** والذي معناه في المعجم: **اجتماعِ شيءً إلى شيء. وهو مطّرِدٌ مستقيم.** [2]

- دلالة أصوات الجذر **(خ – ص – ف):**

(خ): صوت يدل على إخماد الحركات في مكانها وكبت جماحها فيحدث توقف عند هذا الحد.

(ص): صوت يدل على حركة متصلة محددة ومغلقة.

(ف): صوت يدل على تفرق الحركة في كافة الاتجاهات.

---

(١) بطرس البستاني، محيط المحيط، ص ٥٥٢.

(٢) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الثاني، ص ١٨٦ .

(خصف): كلمة تدل على **إخماد الحركات في مكانها وكبت جماحها، فتكون متصلة محددة ومغلقة، وتنتهي بتفرق الحركة في كافة الاتجاهات.**

وكلمة (يخصفان) دلالة أصواتها: هي كلمة تدل على **خروج ووضوح الحركة، يتبعها إخماد الحركات في مكانها وكبت جماحها، فتكون متصلة محددة ومغلقة، ثم يتم تفرق الحركة في كافة الاتجاهات، فيتبعها بإثارة وامتداد في الزمان والمكان، وتنتهي بستر واختباء.**

إذن **(الخصف)** هو: **عمليّة عقليّة قياسيّة تعويضيّة عن فقدان نور الباطن (بصيرة الرّوح)، وهي استدلاليّة بمطابقة الآثار للمتابعة ،** صار إليها آدم (الجنس العاقل) ليعود إلى الجنّة بعد الخطيئة والمعصية، بتلمّس ورق الجنّة وآثارها ليستدلاّ طريق الرجوع، فنجحت المجموعة المطيعة وما فلحت المجموعة العاصية بل غوت لأنّها عصت ربها.

فما هو وَرَقِ الجَنَّةِ ؟

لا شك أن كل متدبر يقف طويلاً عند هذا التعبير. الانطباع الذي يتبادر إلى أذهاننا أنَّ وَرَقِ الجَنَّةِ هو ورق الشجر، ولكنّ هذا ليس مقصد النصَّ القرآني، وما كان الله يعجزه أن يصف ورق الشجر بهذا اللفظ الصريح.

فكلمة **(وَرَقَ)** جذر عربي معناه في المعجم هو: **أصلانِ يدلُّ أحدُهما على خيرٍ ومال، والآخر على لونٍ من الألوان.**[1]

- دلالة أصوات الجذر **(و – ر – ق):**

(و): صوت يدل على ضم وتموضع الحركة في المكان.

(ر): صوت يدل على حركة سريعة منتظمة أو مرتبطة ومتصلة ومتكررة.

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء السادس، ص ١٠١ .

(ق): صوت يدل على قطع أو وقف شديد.

(ورق): كلمة تدل على **ضم وتموضع الحركة في المكان، منتظمة ومرتبطة بشكل متكرر، تنتهي بقطع ووقف شديد.**

نظرة عامة على المشهد

نعيد المشهد حسب ما قدّمناه من معطيات:

آدم (كمجموعة عاقلة تم تطويرها مكونة من ٣٢ فرد "ذكور وإناث") ينخدع بوسوسة الشيطان التخاطريّة معهما (على المستوى النّفسيّ) أي مارَس عليهما عمليّة (دلاّهما بغرور) (يُخرجنّكما من الجنّة) (فتن أبويكم)، فيغريهما بالتخلّي شيئاً فشيئاً ويوماً بعد يوم عن **السموّ والمنعة التي هما فيها ليشوّقهما الخروج من الجنّة ليطلاّ على خارجها ويزرع فيهما الفضول ووعود الأماني،** حتّى أنْ اكتمل **"نزع هذا اللباس" النورانيّ الحصين، فاغترّا وخرجا من الجنّة، وهناك (ذاقا) منظر الجنس الهمجيّ المتعرّي لتلك الشجرة البشريّة ، قدح في مجموعة آدم أحاسيس الشهوة المُستعرة كما لا يزال إلى اليوم يقدح أيّ مشهدٍ جنسيّ أثَره في كلّ آدميّ (فأكلا) من اشتهاء تلك المشاهد والرّغبات،** لذلك جاء الشرع الربّانيّ يأمرُ بالتحامي عن هذه المواطن وبالستر و التحشُّم والحياء والعفاف وعدم التبرّج وحفظ الفروج وغضّ البصر، **وبدتْ لهما سوءاتهما وحاجاتهما الدونيّة التي تطلب الإشباع بما توفّر من ممنوعات، ففقدا إذّاك نور الباطن وأظلم عالَمَ الرّوح وعالَمَ الجنّة للذي اعتاد أنْ ينظر بعين الرّوح،** وخبت الحواسّ الباطنيّة العُليا، بعد أنْ كان ذلك العالَمَ المنير مُشرِقاً آلَ إلى غروب، وأشرق في المقابل عالَمُ المادّة فتوقّدت الحواس المادّية للذي ينظر بعين الحدقة، فانحدرا إلى المستوى البشريّ، عندها تسمّرت (مجموعة مطيعة من جنس آدم العاقل) – بعد أن **"فقاسمهما الشيطان"**

بذلك إلى **مجموعات من الذكور ومنها الإناث ومنها المطيع ومنها العاصي** الذي سيكمل للقرب من الشجرة – مكانها **وتوغّلت "المجموعة الآدمية العاصية" بالخصوص أكثر لتنتهك الأمر بعصيانها الجاهر (وعصى آدمُ ربَّه)، ويُعاشر (تقربا) الشجرة الهمجية،** و لمّا أنْ خمدتْ أواراتُ الغرائز، لمْ يستطيعا الرجوع إلى ما كانا عليه، ولأنّهما فقدا النّور ضلاّ طريق العودة إلى الجنّة، هنا نستطيع أنْ نفهم الأمر الذي لمْ يفهمه كهنة التوراة حين كتبوا عن آدم وحوّاء في ذلك المشهد **(فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَان)**[1]، **لا عرْي بدن، بل عرْيٌ عن لباس النور،** وكان هذا في مشهد النّدم، لذلك قالا إذّاك **"ظلمْنا أنفسنا"** والظُّلْم مِن الظلمة **أي جلبنا الظلمة على أنفسنا بتعريتها من لباس الرّوح ومخالفة الأمر،** أمّا انفتاح أعينهما على هذا العالَم بالتشوّق والذي أدّى إلى المعصية فهو انغلاق الأعين عن عالَم النور، بأنْ يُحشر المرء في تلك الأجواء **"أعمى"**.[2]

(١) سفر التكوين (٣ : ٧).

(٢) جمعية التجديد، وعصى آدم: الحقيقة دون قناع، ص ١١٦ – ١١٧؛ بتصرف.

الهبوط الجماعي من الجنة

بعد أن استعرضنا بشكل مفصل ودقيق قصة معصية آدم وخروجه من الجنة؛ الآن نتدبر باقي الآيات التي تحدث عن الهبوط من الجنة بعد هـذه المعصـية وكيـف أن ربـه تاب عليه وتلقى منه الكلمات.

أستعرض معكم الآيات القرآنية التي تحدثت عن القصة كلها:

قال تعالى: { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩) } (البقرة).

قال تعالى: { وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) } (الأعراف).

قال تعالى: { وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا

يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧) } (طه).

هبوط التوبة الأول

نعود لنتدبرَ تفاصيل الآيات التي وصفت تلك الأحداثَ:

قال تعالى: { فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ **وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)** } (البقرة).

قال تعالى: { فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ **وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣)** } (طه).

ولَمَّا كانت الآيات – أعلاه – تحكي قصة طويلة جداً في بضع كلماتٍ فقط، كان من المسْتحسن أن نرتب الأحداث ترتيباً زمنياً حَسْبَ ما ورد في الآيتين:

سورة البقرة: المعصية – هبوط – فـ تلقى – فـ تاب عليه – هبوط جماعي.

سورة طه: المعصية – ثـمَّ – اجتباه – فـ تاب عليه – هبوط جماعي.

من هنا يمكن أن نرتب الأحداث كما يأتي:

١. ارتكب آدم المعصية حَسْبَ آيات سورة البقرة وطه.

٢. صدر أمر لبعضهم بالهبوط، إذ لم تصف الآية "جميعاً"... هذا الأمر الأول في آية البقرة فقط.

٣. فتلقى آدم من ربه كلمات فور هبوطه "حرف العطف فاء" كما في آية سورة البقرة فقط.

٤. سورة طه وصفت المعصية أولاً... ثمَّ... اجتباه ربه. حرف العطف " ثمَّ" يفيد التتابع مع التراخي أي وجود فترة زمنية طويلة بين المعصية والاجتباء، ومن هنا نفهم أنّ آية سورة طه لم تُصرح بالهبوط الأول وتَلقِّي الكلمات التي صرحت بها آيات سورة البقرة، وإنما اكتفت بالإشارة إلى فترة زمنية طويلة بين المعصية والاجتباء.

٥. كلمة "اجتباه" في سورة طه تؤكد أنّ الهبوط الأول لم يشمل كل مجموعة آدم، وكأن العقاب كان جزئياً قام به بعضُ مَن ارتكب المعصية، كما رأينا حينما شرحنا كلمة "فقاسمهما"؛ لذلك جمعه الله للحظة التوبة التي سبقت الأمر الأخير بالهبوط الجماعي كما في الآيتين.

٦. بعد أن تلقّى الكلمات كما في سورة البقرة والاجتباء في سورة طه، تاب عليه ربُّه كما في السورتين.

٧. بعد التوبة صدر الأمر الأخير بالهبوط، وهنا كان الأمر مصحوباً بلفظ "جميعاً" في السورتين؛ ليتميز هذا الهبوط الجماعي الأخير، من هبوط التوبة غير الجماعي الذي وصفته سورة البقرة حيت تلقى آدم الكلمات.

إذنْ وبعد فترة محددة من ممارسة العقوبـة عـلى بعـض جماعـة آدم، جمعهـم الله مـن تشتتهم؛ ليرجع إليهم ويرحمهم من العذاب الذي أوقعه عليهم.

مفهوم الاجتباء

جاءت كلمة (الاجتباء) من الجذر العربي (جبى)؛ دعونا ننظر للمعنى في المعـاجم وفي دلالة الأصوات الفيزيائية القرآنية لهذا الجذر.

(جبى): الجيم والباء وما بعده من المعتل أصلٌ واحدٌ يدل على **جَمْع الشيء والتجمُّع.**[1]

- دلالة أصوات الجذر **(ج – ب – ى):**

(ج): صوت يدل على جهد أو شدة.

(ب): صوت يدل على الانتقال من شيء لنقيضه.

(ى): صوت يدل على إثارة وامتداد في الزمان والمكان.

(جبى): كلمة تدل على جهد وشد، يتبعها انتقال الحركة إلى نقيضها، وتنتهي بإثارة وامتداد في الزمان والمكان.

(أجتبى): كلمة تدل على ظهور مفاجئ في الزمان والمكان، يتبعهـا جهـد وشـد، و اجتذاب واجتماع الحركات، ثم انتقال الحركة إلى نقيضها، وتنتهـي بإثـارة وامتـداد في الزمان والمكان.

إذن؛ (الاجتباء): **عملية تطبيق كتلة معينة على مواصفات سـابقة بعـد أن تكـون الكتلة قد خرجت عنها.**

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الأول، ص ٥٠٣ .

النصوص القرآنية تشير إلى **أنَّ (الاجتباء)؛ دوماً يكون من بعد عملية ابتعاد عن قوانين الله بدرجة من الدرجات** ، لذلك قرنت عملية الاجتباء بعملية الهداية والتوبة وإتيان الحسنة أو الوضع مع الصالحين.

فـ **(الاجتباء)** يعني: **إعادة الضبط على مواصفات قياسية سابقة.**

فعليه يكون الاجتباء في قصة آدم هو **إعادة ضبط (آدم) – كمجموعة عاقلة تم تطويرها مكونة من "ذكور وإناث" – على المقاييس والمواصفات القياسية السابقة.**

فـ (آدم) هو جيل من البشر العاقل تعرض – بعد ذوق وآكل وتقربه من شجرة الهمج المحرمة – في بعض عناصره إلى التلف والخروج عن التصميم الأصلي أو عن قواعد التحديد للجيل الجديد، فعاود الرب إعادة ضبطه طبقاً للمقاييس والمواصفات السابقة فتكون الأجيال اللاحقة أكثر استقرارا قياساً إلى عمليات التطوير المفترضة.

الكلمات التي تلقّاها آدم

قال تعالى: { **فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ** } (البقرة: ٣٧).

دعونا أولاً نعرف معنى لفظة **(فَتَلَقَّىٰ)** ولفظة **(كَلِمَاتٍ)**؛ لنفهم المعنى بشكل دقيق.

(لقى) معناه: في اللغة لها ثلاثة أصول، أحدها: **طرح الشيء أو إلقاؤه،** أمّا الثاني فهو: **توافي شيئين،** ومنها "اللقاء" أو توافي شخصين أو شيئين اثنين متقابلين، أما الأصل الثالث فهو: يدل على **عوج،** والعقاب الطير سمِّي "القوة" لاعوجاج منقاره.[1]

(تلقى): كلمة تدل على **اجتذاب واجتماع الحركات، يتبعها ثُقل في الحركة بشكل متصل لازم، ثم قطع ووقف شديد، منتهي بإثارة وامتداد في الزمان والمكان.**

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الخامس، ص ٢٦٠ .

(كلمات) جاءت من الجذر **(كَلَمَ / كَلِمَ)؛ ودلالتها الصوتية كالتالي:**

(ك): صوت يدل على وقف، أو ضغط خفيف.

(ل): صوت يدل على حركة ثقيلة متصلة لازمة.

(م): صوت يدل على جمع متصل ينضم ويتداخل ويتكامل في أطار واحد.

(كلم): كلمة تدل على **وقف وضغط خفيف، يتبعها ثُقل في الحركة بشكل متصل لازم، منتهي بجمع متصل متداخل ومتكامل في أطار واحد.**

- **ولنجري عملية تفكيك للجذر مرة أخرى بشكل تفصيلي لنرى إلى ماذا يدلنا:**

بداية لا بدَّ من القول **بأنَّ أصوات الجذر (كَلَمَ/ كَلِمَ) كلها أصوات حسيّة بإمتياز ما يعني أنَّ هذا التسلسل بكامله متواجد في عالم المادة والحسّ.**

(الكاف): سيدل **على قطعٍ أو ضغطٍ خفيفٍ وعلى الاحتكاك والكثرة والتراكم والضخامة،** ما يعني أنَّ الكتلة ستولد مع حدودها الخارجية مضغوطة تعاني من الضيق فتشعرك بأنَّ عناصرها تحتك ببعضها نتيجة ضيق الميدان المخصَّص لها فتولِّد عليك ضغطاً وتنبيهاً.

(الكاف): ستدل على **التشبيه** أيضا، عليه فإنَّ ذلك سيثير في نفسك شعوراً بالمقارنة المستمرَّة، لا تدري بين ماذا وماذا! إنَّه مجرد إحساس بضرورة البحث عن أمرين يتقارنان.

فإذا جاءت (اللام) بصوتها الذوقي ارتقت بمرتبة التسلسل قليلاً لتوحي بحركةٍ من الترقِّي والارتفاع إلى الأعلى ومحاولة التقرُّب من الإدراك لفهم الحركة، وهذا سيعطي للتسلسل نوعاً من التخفُّف من أعبائه.

(اللام): فيها تنبيه ملفت إلى طبيعة ما يجري ما سيعزز من قوة التنبيه الذي ولَّدته الكاف لديك بوجود ما تنبغي مقارنته بغيره.

(اللام): تدلُّ على حركةٍ بطيئةٍ متصلةٍ لازمةٍ بمعنى أَنَّها ستدفع عناصر الكتلة إلى الحركة بشكلٍ عام وتغير اتجاهها من الضيق والالتزام بالمكان إلى مطلق الحركة ولكن الاتِّجاه ن يكون واضحاً، فهو موضعيٌّ في الغالب لا يدفع إلى الانتقال.

(اللام): ستدل أيضا على حركتين مترابطتين الأولى فيها نوع من الإلغاء والمحو والإذابة، والثانية على الإلصاق والتعليق والإسناد.

بمعنى أنَّ الكتلة ستُصاغ بطريقة جديدة وتبدو أكثر رشاقة وأصغر حجماً وبحدود جديدة وبذا سينشأ التعارض بين ما تقوم به اللام وبين ما قامت به الكاف وتريد أن تواصل القيام فيكون التعارض سمة الموقف.

فـ (الكاف) تميل إلى التجمع والتكاثر بينما اللام تميل إلى التخلُّص من الكثير من العناصر وإعادة ترتيب البقية بطريقة رشيقة. فإذا قبل التسلسل بالمهمتين فإنَّ الكتلة ستتوزع بطريقة توحي بوجود ما يفصل بين مجاميع في الكتلة فهي مثقلة في جانب وفارغة في جانب آخر ما سيلفت النظر عموماً إلى معاني يمكن رسمها أو تصورها.

(اللام): تدل على الملكية ما سيعني أنَّ جهة ما هي التي توجه الحركة نحو هذا التعارض وستلزم كل مجموعة من عناصر الكتلة للالتزام بموضع معين وكأن قائداً يحاول توزيع قطعاته بطريقة معيَّنة و(الكلُّ) تحت تصرفه وأمره.

فإذا جاءت (الميم) بصوتها اللمسي- عادت للهبوط بمرتبة التسلسل إلى أوطأ مراتب الحسّ المباشر وأكثرها تجسداً ووضوحاً في عالم الواقع موحية بذلك بالمزيد من التجسُّد والارتباط بالواقع.

(الميم): ستدل على تكامل الحركة ما سيعني أنَّ الكتلة ستتلقى اللمسات الأخيرة على شكلها الخارجي وتكتسب بذلك هويتها وصفاتها النهائية.

(الميم): تدل أيضا على جمعٍ متصلٍ يدلُّ على الحرارة والإنجماع والانضمام ما سيعني أنَّ الكتلة وبعد أن اكتسبت شكلها النهائي فإنَّها ستكتسب حياتها وشخصيتها وما يميزها عن غيرها ويعطيها استقلاليتها وأثرها في النفس.

(الميم): ستدل على الذاتية والانطواء ما سيعني أنَّها ستساهم في دفع جزء من كتلة التسلسل إلى الإلتمام على نفسه بطريقة تكرس شخصية الميم مع قبول الالتزام بالحدود التي صاغتها (اللام) فيكون الأمر (كَلَمَاً) وهو أشبه بالجرح الذي يفصل كتلتين ويولِّد حرارة في الإحساس نتيجة الجرح. وبذا يتم الوصف المطلوب من التسلسل (كَلَمَ) ليشار به إلى: ما يجري تكوينه بطريقة مؤثرة في المحيط بحيث أنها تزيح من هنا ومن هناك لتأخذ لنفسها موقعا متميزا لتمثيل قضية معينة بذاتها وللتنبيه على مسألة بذاتها فيكون الإحساس بها قوياً.

وهذا هو الكلم الذي هو: **الكلام والذي يقوم في الغالب بعملية جرح للواقع وفصل بين كتلتين ليكون تأثيرا معينا بالنفس يشبه تأثير المخطط البياني فهو مرتفع تارة وهو منخفض تارة أخرى.**

وهذا أيضاً هو الكلم الذي يعني: **فتحا للواقع وجرحا للكتلة المتلقية.**

سيَّما وأنَّ الحركة في التسلسل دوما فيها إشارة إلى وجود جهتين جارحة ومتلقية للجرح.

والكلم أعمُّ من الكلام، فالكلام يحتوي على الألف بعد اللام ليشير إلى عملية مرتبطة بالزمان والمكان وفيها تنبيه مستمر على تواصلها فالكلام يشير إلى عملية متواصلة لم يكتمل أثرها النهائي، بينما الكلم يعني استقرار للحالة المقصودة والمعنى المستهدف.

عليه فإنَّ معنى لفظة **(كلمة)** هو: **ما يجري تكوينه بطريقة مؤثرة في المحيط مرتبطا بغائب معين وهو المعنى أو هو الموجِّه للمعنى والمقصود إيصاله في هذا الواقع إلى جهة معينة إما بذاته أو بمعناه.**

عليه **فكلمة الله تعالى قد تكون كلمة لها معنى مقصود كالقانون الربوبي أو الكتب السماوية أو ما تحتويه من السور أو الآيات.**

وهو نفس المعنى الذي نستخدمه نحن للتعبير عن خطاب كامل أو أمثولة أو فكرة معبرة ومتكاملة. وبذا يمكن تقسيم الكلمات التي وردت في القرآن الكريم إلى ما يلي:

١. **مخلوقات الله تعالى من البشر.**
٢. **الكلمات الواردة (القوانين الربوبية) في القرآن والكتب السماوية الأخرى، أو في القرآن التكويني في العموم.**

ومن خلال هذا كله يمكننا التفريق بين **(القول)** و**(الكلام)** كالتالي:

(الكلام): (وسيلة/ أداة) يعني: **وصول الفكرة إلى الذهن المتلقي أو النفس بالمجمل عبر قرع مباشر للحواس من الخارج.**

(القول): (جوهر/ معنى) يعني: **فكرة مكتملة الجوانب موحاة إلى الطرف المتلقي مهما كانت طريقة إيصالها، كلام أو صورة أو نص مكتوب أو غير ذلك.**

عليه يمكن القول بأنَّ مكوِّنات عمليتي التكليم و القول هي التالية:

الكلام = جهة أولى مرسلة + فكرة + وسيلة نقل + جهة متلقّية.

القول = فكرة موحاة. مهما كانت طريقة النقل.

قال تعالى: { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن **يُكَلِّمَهُ اللَّهُ** إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ } (الشورى: ٥١).

فالكلام هو عملية إيصال المعنى المراد من (القول) بطريقة من الطرق عبر طرق الحواس المرتبطة بالواقع الخارجي. وتكليم الله تعالى لأيِّ بشرٍ هو عملية إيصال أيَّة فكرة إلى ذلك البشر بأيَّة طريقة من الطرق المشار إليها في الآية طبقاً لقوانين الله تعالى.

فتكليم الله تعالى للبشر لا يعني التلفظ بكلمات ولا يعني أنَّ الله تعالى هو جهة مستقلَّة وتقوم بإيصال فكرة معيّنة إلى أحد البشر وإنَّما **هي عملية يُشار بها إلى الطريقة التي يتمُّ بها إيصال أيَّة فكرة للبشر عبر عمل القانون الإلهي بطريقته النمطية القائمة على قوانين المشيئة الإلهيّة.**

وهي إمـّا أن تكون وحياً بأن تجتمع مقومات هذه العملية في أحد البشر بأن يكون لديه القدرة على استلام الوحي الإلهي ويكون هناك قرار سماوي لإيصال فكرة معيّنة لهذا الإنسان أو بطريقة وقوع الأحداث العامة في الحياة الدنيا، فتكون الفكرة أو الرسالة المراد إيصالها بالتكليم غير واضحة وخلف حجاب تحتاج من الإنسان إلى التوسُّل بقوانين مشيئية إلهيّة أخرى لكشف الفكرة التي تختفي وراء ذلك الحجاب أو بطريقة إرسال الرسل التي تقوم بعمومها بالإيحاء بقوانين المشيئة الإلهية إلى سائر الناس.

فالكلمات التي تلقّاها آدم (كمجموعة عاصية)؛ حين قرّر الربُّ مواصلةَ عبدِه:

١. تلقّى المجموعات الباقية من جنسه التي كانت داخل الجنة ولم تعصى ربها، فأُخرت من الجنة وهبطت له لتبشره وتحمل معها هذه الكلمات.
٢. تلقّى مع هذه المجموعات الباقية (قراراً) أبدياً ببقاء الذرية في الأرض متاعاً إلى حين، على أن يعود الصالحون منهم إلى الجنّة.
٣. تلقّى (وعداً) بمجيء الهدى لآدم (المجموعة العاصية) وبنيه، عبر الملائكة (هدى)، أو عبر الرسل البشريّين (رُسُلٌ منْكُم).
٤. تلقّى منهجاً أبدياً ليستقيم عليه هو وأبناؤه، وظلّت هذه التعاليم تعمل في كلّ الشرائعساريةً لا تُنسَخ ولا تبديل لها.

ومن هذه الكلمات انطلق آدم لتشييد البيت الحرام في مكّة. فعلى هذا نُعيد تصحيح المفاهيم: الكلمات التي تلقّاها آدم ليست هي "كلمات التوبة"، بل "كلمات زامنت التوبة".

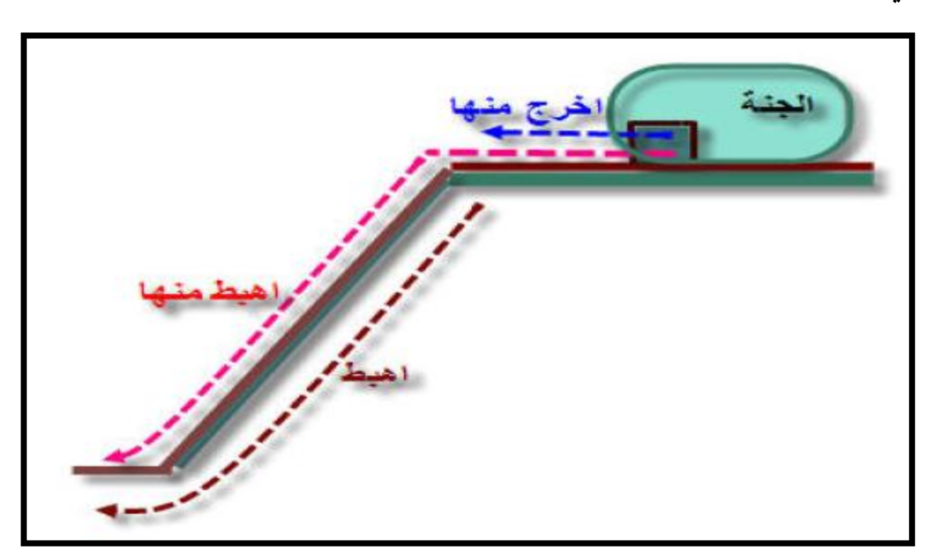
الهبوط الجماعي الأخير

قال تعالى: { **قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** } (البقرة: ٣٨).

قال تعالى: { **قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ** } (طه: ١٢٣).

(هبط): كلمةٌ تدلُّ على **انحدار**.[١]

إذن حين هبط آدم وزوجه كمجموعات عاصية في البداية – وهي التي عاشرت الشجرة الهمجية – وكمجموعة مطيعة لأوامر الرب ولم تقترب من الشجرة المحرمة التي هبطت في النهاية. أين كان هذا المكان الذي أهبطوا فيه؟..



(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء السادس، ص ٣٠ .

روي عن ابن عباس قال: (أهبط آدم بالهند وحواء بجدة فجاء في طلبها حتى اجتمعا فازدلفت إليه حواء فلذلك سميت المزدلفة وتعارفا بعرفات فلذلك سميت عرفات واجتمعا بجمع فلذلك سميت جمعا) و (وأهبطت حواء بجدة من أرض مكة).[(١)]

ورووا (فخرج آدم (عليه السلام) من الهند يؤم البيت الذي أمره الله عزّ وجل بالمصير إليه حتى أتاه فطاف به ونسك المناسك فذكر أنه التقى هو وحواء بعرفات فتعارفا بها ثم ازدلف إليها بالمزدلفة ثم رجع إلى الهند مع حواء فاتخذا مغارة يأويان إليها في ليلهما ونهارهما).[(٢)]

ولعلي أذكركم مرة أخرى حتى لا يختلط عليك الأمر أيها القارئ العزيز أن لفظة "آدم" أقصد بها في كل حديثي من خلال القرآن ومن خلال تدبري هو كالتالي:

إنَّ "آدم" في القرآن هو اسمُ جنس، يشيرُ إلى مجموعةِ البشر الذين بدأ تطويرهم قبل حوالي (٢٥٠ ألف سنة) إلى إنسان عاقل، من قبل الملأ الأعلى بأمر الله تعالى، ثم اصطفى من بعدهم نبيَّه الأوّلَ الذي ظهر في حدود حوالي (١٠ آلاف سنة مضت) والذي حمل نفس اسم هذه المجموعة وهو "آدم".

وقلنا **أن لفظة "آدم" تعني الملائم الموافق للتغيير.** فإن اللفظ يرمز لمجموعة من البشر تم تطويرهم حتى أصبحوا مُلائمين، لأن يمنحهم الله – تعالى – العقل؛ الذي به يكون خليفة في الأرض، ولديه القدرة على بناء الحضارة.

---

(١) أنظر إلى:

- **أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف – مصر، ط ٢، ج ١، ص ١٢١ – ١٢٢ .**
- **الشوكاني (محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الصنعاني)، فتح القدير: الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار النوادر – الكويت، ج ١، ص ٧١ .**
- **جلال الدين السيوطي، الدر المنثور، ط ١ [بهامشه القرآن الكريم مع تفسير ابن عباس]، بيروت: دار المعرفة، ١٣٦٥ هـ، ج ١، ص ٥٥ .**

(٢) بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، ج ١، ص ١٣٣ .

إن كلمة **"آدم"** تعني: **الشبيه، المثيل، النظير.** وهي من الجذر العربي القديم "دم" وتلفظ "دمو" باللهجة السريانية و "دما" باللهجة الفينيقية ويعني: **الدم، الأصل، المثل، الند، المثيل، النظير، المثال، النموذج، الشخص، الطيف، الشبح.** ومن الكلمة جاءت "دمية" في العربية الحديثة وتعني مثيل الشيء، نظيره، استنساخه ولو بصورة مصغرة أو مقزمة. وقد جاءت التسمية من الاعتقاد العربي القديم بأن الرب (أي السيد السماوي وليس الإله الواحد) الذي تولى عملية خلق الإنسان الأول بإذن ربه، خلقه على مثاله أو على شاكلته، فسمّي "آدم" أي **المثيل، الشخص.**

أما "حواء" فتعني **الخصيبة، أو سيدة الخصب، أو الشديدة الخصوبة؛** وما تزال اللغة العربية تحتفظ بهذا المعنى حتى اليوم، فالأرض الحواء هي التي تضرب خضرتها إلى السمرة أو السواد لشدة خصوبتها، واحواوّت الأرض اشتدت خصوبتها.(١)

ومن هنا أستنتج وأقول أنه حينما هبطت المجموعة كاملة على الأرض من الجنة أخذ الذكور اسم "آدم" وزوجه الإناث أصبح اسمها "حواء".

نُكمل الحديث عن مكان الهبوط لهم أين كان بالتحديد ومكانه على الخريطة اليوم؛ يقول اليعقوبي: "وأخرج الله آدم وحواء مما كانا فيه، فيما يقول أهل الكتاب، في تسع ساعات من يوم الجمعة، وهبطا إلى الأرض، وهما حزينان باكيان، **وكان هبوطهما على أدنى جبل من جبال الأرض إلى الجنة، وكان ببلاد الهند،** وقال قوم: على أبي قبيس، **جبل بمكة، ونزل آدم في مغارة في ذلك الجبل سماها مغارة الكنز،** ودعا الله أن يقدسها. وروى بعضهم أن آدم لما هبط كثر بكاؤه، ودام حزنه على مفارقة الجنة، ثم ألهمه الله سبحانه أن قال: لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك، عملت سوءا وظلمت نفسي، فاغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم! فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه واجتباه، و أنزل له من الجنة، التي كان فيها، الحجر الأسود، وأمره أن يصيره إلى مكة،

---

(١) د.أحمد داودد، تاريخ سوريا الحضاري القديم ١-«المركز»، ص ٢٥١ .

فيبني له بيتا، فصار إلى مكة وبنى البيت، وطاف به، ثم أمره الله أن يضحي له، فيدعوه ويقدسه، فخرج معه جبريل حتى وقف بعرفات، فقال له جبريل: هذا الموضع أمرك ربك أن تقف له به. ثم مضى به إلى مكة، فاعترض له إبليس، فقال : ارمه ! فرماه بالحصى، ثمَّ صار إلى الأبطح، فتلقته الملائكة، فقالت له: بر حجك يا آدم ! لقد حججنا هذا البيت قبلك ألفي عام".[1]

وحيث ذكر اسم جبل أبي قبيس المطل على الكعبة المشرفة قبالة بلاد الهند وقع التيه والتشتت. ولكن هل ترتفع هذه الغمّة إذا علمنا أن هناك أيضا **جبلاً محاذياً لبطن مكة يدعى جبل هندى** (انظر خريطة رقم: ١)[2].

فيكون الإشكال بين جبلين محيطين ببطن الوادي المكي وليس جبلاً بمكة وبلاد في شرق الكرة الأرضية.

والجدير بالذكر أن المنطقة الواقعة على مقربة من جبل هندى بمكة تسمى إلى اليوم **بمنطقة الهنداوية** (انظر خريطة رقم: ٢). فمن ذا الذي استبدل كلمة "جبل" بكلمة "بلد" فحرّف الحقيقة بجرة قلم؟ وفتح بذلك الباب لسيل من التكهنات والإسرائيليات.

أنّ **(هند = هـ + ند) الهاء للتعريف + نُد أي أرض نود**، التي صُحّفت إلى "بود / بوذ" أحياناً، ولا علاقة لشبه القارة الهندية بها بالمرّة، بل هي **شرق الجزيرة العربية من جبال السروات، ونود، هي الأرض الجبليّة الأولى، نُد أو نُتء، بنفس المعنى، وهي جنوب مكّة**، التي قالت التوراة أنّ قايين نُفي إليها (فَخَرَجَ قَايِينُ مِنْ لَدُنِ الرَّبِّ وَسَكَنَ فِي **أَرْضِ نُود شَرْقِيَّ عَدْن**) (سفر التكوين ٤ : ١٦).[3]

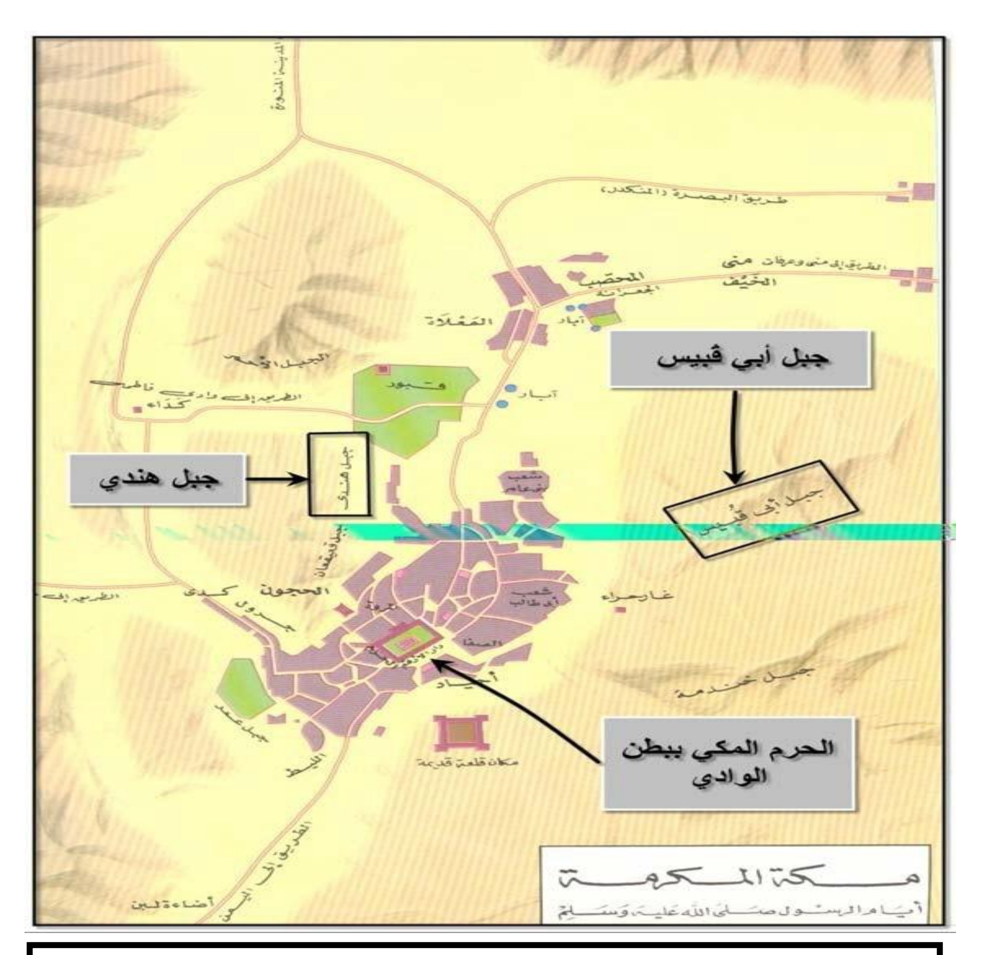
---

(١) أحمد بن يعقوب بن وهب المعروف بـ (اليعقوبي)، تاريخ اليعقوبي، تحقيق: عبد الامير المهنا، ط١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – لبنان – بيروت، ٢٠١٠ م، ج ١، ص ٣٠ – ٣١ .

(٢) حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ط ١، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ص ٦٢ .

(٣) جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، وعصى آدم: الحقيقة دون قناع، ص ٨٢ .

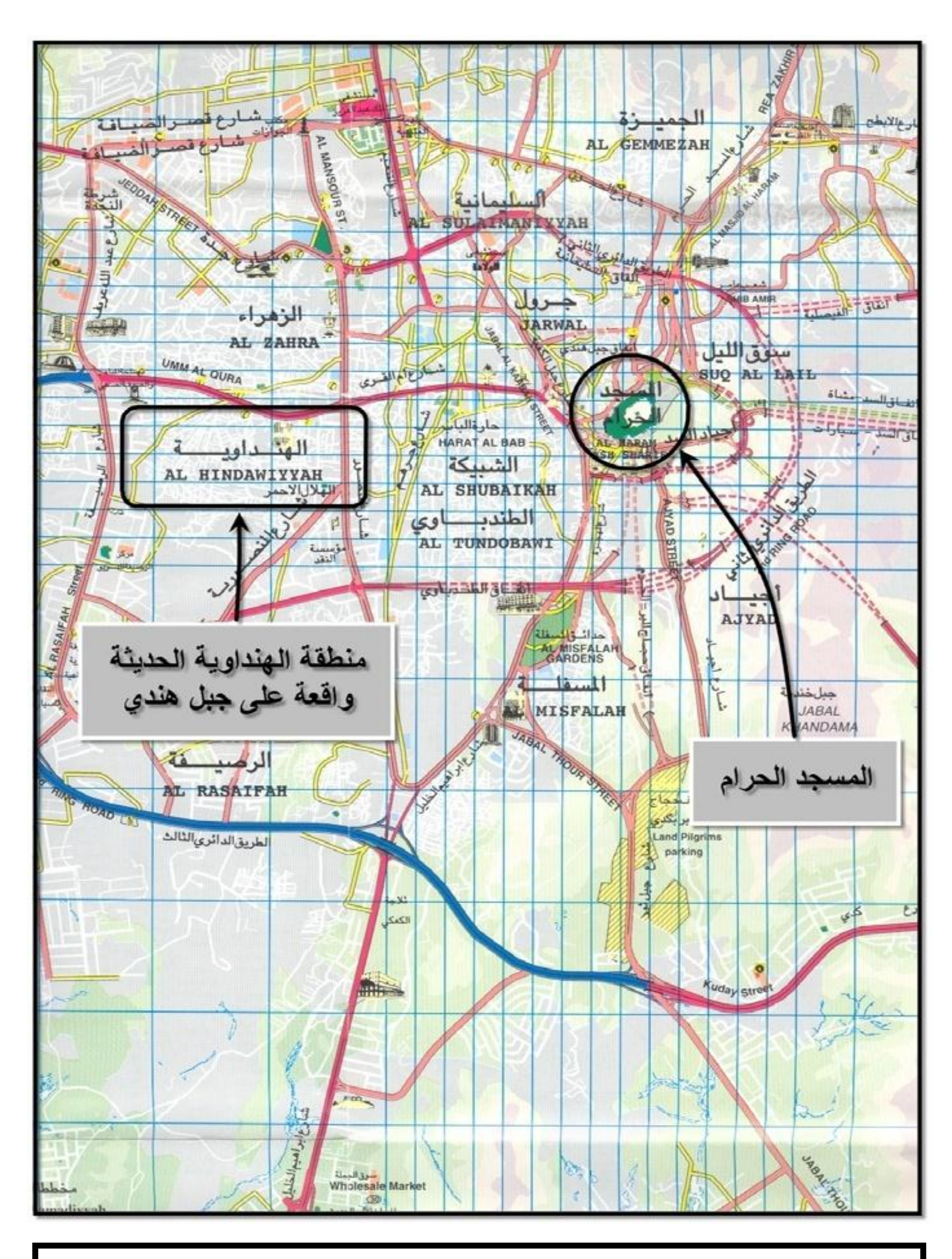
أرض نود سمّاه السومريّون (نودي – مُـد) أي جبـل مُـد، جبـل الإمـداد الربّـاني والمائي والغذائي، والنود هو النُتء، المرتفع، وسمّاه سريان المنطقة أسفله (قاع – مُـد) وتسقط العين لدى السريان والقاف تُنطق (گ) فيلفظونها (گا – مُد)، أي (أرض مُد) وهي التي تقلّصت الآن لمنطقة ضيّقة تُدعى (غا – مد = غامد) في سراة شـبه الجزيـرة قرب الباحة.[1]



(خريطة رقم: ١): جبل هندي هو احد جبال مكة يقع مقابـل لجبـل أبي قُبـيس وكلاهما مطلاّن على الحرم المكي.

---

(١) جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، بين آدمين: آدم الإنسان وآدم الرسول، ص ٢٠٠ .



(خريطة رقم: ٢): منطقة الهنداوية بمكة المكرمة تقع على سـفح جبـل هنـدي المقابل لجبل أبي قُبيس.

إنزال الأنعام

قال تعالى: { خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا **وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ** ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٦) } (الزمر).

قال تعالى: { أَوَلَمْ يَرَوْا **أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ** (٧١) **وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ** (٧٢) **وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ** ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) } (يس).

قال تعالى: { أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ } (الغاشية: ١٧).

قال تعالى: { وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٤٢) **ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ** ۖ **مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ** ۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) **وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ** ۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) } (الأنعام).

قال تعالى: { وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ } (النحل: ٦٦).

قال تعالى: { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ } (النحل: ٨٠).

قال تعالى: { وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا } (النساء: ١١٩).

كل هذه الآيات وغيرها الكثير في النص القرآني تكلمت عن الأنعام؛ وفي هذه الفقرة لن أدخل في الكثير من التفاصيل الدقيقة التي تخص هذا الموضوع، ولكن سأعطي لمحات من هذا الموضوع عن أهمية الأنعام في المسيرة الإنسانية من قصة "آدم" وخصوصاً بعد هبوطهم من الجنة.

مفهوم الإنزال

أنَّ الله لم يصف كيفية "خلق" الأنعام، وإنَّما وصف كيفيةَ وجودها على الأرض، وهو الإنزال في شكل ثمانية أزواج. وأنَّ كلمة "أنزل" في اللغة هي: **كلمة ميكانيكية تفيد النزولَ إلى الأرض من السماء،** كما ينزل المطر من السحاب، وكما أنزل القرآنَ من السماء، وكما أنزل الحديدَ من خارج الغلاف الجوي.

أي أنَّ الأنعام ما خُلقت على الأرض، وإنَّما نزلت مخلوقة في شكل ثمانية أزواج. أنَّ الأنعام نزلت في حالة ثمانيةِ أزواج (ذكرانا وإناثا)، **ولم تمرَّ بمراحلِ خلقٍ وتطورٍ مماثلةٍ للبشر في الأرض.**

جذر **(نَزَلَ)** في المعجم يعني: النون والزاء واللام كلمةٌ صحيح تدلُّ على **هُبوط شيء ووقُوعه.** ونَزَل عن دابَّتِه نُزُولاً. ونَزَلَ المطرُ من السَّماءِ نزولاً. [١]

وعليه سأنتقل إلى المعنى الدلالي الصوتي القرآني للجذر (نَزَلَ)؛ ويكون معنى "النزول" الذي يشار به إلى: **إعادة تشكيل الكتلة بطريقة جديدة ترتبط فيه الكتلة المقصودة بالمكان أو الموضع الخارجي بشكل قوي وتميل إلى الانتقال من حالةٍ إلى حالة**

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الخامس، ص ٤١٧ .

من أجل الاستقرار على الحالة الجديدة. فقد بدأت من الغيب ثم بلغت أدنى مراتب الحسّ المباشر.

فهي تشير إلى: **عملية انتقال من الأعلى إلى الأدنى مرتبة أو موضعا أو من المتحرك إلى الساكن ولكن بمخطط إدراكي مسبق.**

فـ (الإنزال) هو: وصف للقضية بشكل كامل غير ملتفت للتفاصيل. لذا فإن أراد النصُّ القرآني التحدُّث عن مطلق القيام بعملية نقل لشيء أو أمر من الأعلى مرتبة إلى الأدنى مرتبة فسوف يوظِّف تركيب (الإنزال).

إذن؛ (الإنزال): **هو نقل شيء معين من الأعلى رتبةً إلى الأدنى رتبةً.**

سواء أكان ذلك مكانياً أو زمانياً أو معنوياً أو حسّياً أو رُتبةً من قبيل نقله من عالم الإدراك والتصور إلى عالم التصديق والتنفيذ المادي.

التركيب (أَنْزَلَ): هو فعل ماضي الفاعل فيه مستتر تقديره (هو) وقد ورد في (٥١ موضعاً)، تشير جميعها إلى المسؤول عن الإنزال دون الإشارة إلى طريقة ذلك الإنزال.

تعداد آباء الإنسانية [١]

من الملاحظات اللافتة للنظر في آية نزول الأنعام أنَّ الله حدَّد باللفظ عددَ الأنعام التي نزلت { وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ } ، من غير أن يوضِّح في أيِّ موضعٍ لماذا كانت ثمانية ولم تكن سبعة أزواج أو تسعة مثلاً، ولماذا حدَّد الرقم ؟ إذ كان من

(١) هذا الجزء المرجع فيه:

- د.عماد محمد بابكر حسن و م.علاء الدين محمد بابكر حسن، آذان الأنعام: دراسة قرآنية عليمة لبحوث داروين في الخلق والتطور، ط ٤، دار هيباتيا – أسوان – إدفو، ديسمبر ٢٠١٢ م، ص ٣٧١ – ٣٧٢ .

الممكن أن يشير إلى أنَّه أنزل الأنعام من غير تحديد للعدد، إلا إذا كان في هذا الرقم حكمةٌ تفيد الإنسان في زمن من الأزمان.

فإنَّ العدد الذي نزل لا بُدَّ وأن يكون مكافئاً من حيثُ الفائدةُ وإحداثُ الاكتفاء العادل بين كلِّ مجموعة آدمَ الأولى، رغم وجود فرق كبير بين أحجام الأنعام وفوائدها باختلاف أنواعها.

وسنأخذ من تاريخ سيرة النبي محمد ما يُفيدنا؛ ففي موقعة الحديبية عندما اضطر المسلمون للرجوع قبل دخول مكة أمرهم الرسولُ أن يتحللوا من إحرامهم ويذبحوا الهدي كفارة لذلك، حينها جعل النبي قيمةً لكلَّ بهيمة تُذبح، وهي **أنَّ الناقة تكفي لسبعة أشخاص**. وقد ذَبح الصحابةُ **مائتي ناقة لأنَّ عددهم كان ألفاً وأربعمائة حَسْبَ أشهر الروايات**. وقد ذهب الفقهاء إلى **أنَّ البقرة تكفي لسبعةٍ أيضاً**؛ وذهبوا إلى أنَّ **الشاة والخروف يكفي كلٌّ منهما لشخص واحد في الهدي**. بالطبع فإنَّ العلاقة هنا ليست علاقة كمٍّ ولكنها علاقة كيف، إذ إنَّ الناقة – ربَّما – تطعم مائة، والخروف يمكن أن يطعم عشرين، ولكن جعلت السُّنة قيمةَ الناقة سبعة والخروف واحداً لحكمةٍ يعلمها الله وحده.

فإذا أعطينا لكلٍّ من أزواج الأنعام قيمته الرقمية في عدد الذين يجزي عنهم في الهدى، فربما نستنتج أن عدد الذين أنزلت لهم ثمانية الأزواج مساوٍ لذلك العدد. بمعنى آخرَ **فالأنعامُ التي نزلت كانت اثنين من الإبل واثنين من البقر واثنين من الضأن واثنين من الماعز**، فلو تمَّ توزيع هذا العدد للحجيج ليؤدّوا به ما عليهم من هدي **لكفت الإبل أربعة عشر، والبقر أربعة عشر، والخراف اثنين، والمعز اثنين، ليكون المجموع اثنين وثلاثين شخصاً فقط** يمكن أن تجزي عنهم أزواج الأنعام الثمانية التي نزلت بنص القرآن. فهل يكون هذا هو عدد المجموعة التي نفخ الله فيها من روحه

وسكن الجنة ثم أهبطت إلى مكة ؟ الله وحده أعلم، ولكنَّ السرَّ في عدد الأنعام التي نزلت يظلُّ مجال بحثٍ وتدبُّرٍ.

ومن هنا كانت فكرتنا عن أن العدد الذي أُختِيرَ من البشر ليتم تطويره إلى الإنسان العاقل في الجنة هو (٣٢ آدمي "ذكور وإناث").

والعلم الحديث اليوم يذهب إلى هذا الموضوع، إن مجموعة صغيرة هي من شكلت أنسال هذا العالم من خلال الهجرة الإنسانية الأولى.

المراجع

١. د.عائشة عبد الرحمن، **مقالٌ في الإنسَان: دراسة قرآنية،** ط ٢، القاهرة – مصر، دار المعارف، ١٩٦٩ م.

٢. د.محمد شحرور، **الكتاب والقرآن: قرَاءة مُعَاصرة،** ط ١، دمشق – سورية، دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٠ م.

٣. د.محمد شحرور، **القصص القرآني: قراءة معاصرة، المجلد الأول: مدخل إلى القصص وقصة آدم،** ط ١، دمشق – سورية، دار الساقي بالاشتراك مع مؤسسة الدراسات الفكرية المعاصرة، ٢٠١٠ م.

٤. د.عبد الصبور شاهين، **أبي آدم: قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة،** ط ٢، القاهرة – مصر، دار أخبار اليوم، ١٩٩٨ م.

٥. د.عالم سبيط النيلي، **أصل الخلق وأمر السجود: بين الأنا وبين الولاية والتوحيد،** ط ١، قم، دار ذوي القربى، ١٤٣٧ هـ.

٦. قسم الدراسات والبحوث في جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، **الأسطورة: توثيق حضاري،** ط ١، سلسلة: عندما نطق السراة ج٣، دار كيوان – الحلبوني – دمشق، ٢٠٠٩م.

٧. قسم الدراسات والبحوث في جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، **الخلق الأول: كما بدأكم تعودون،** ط ١، سلسلة: عندما نطق السراة ج٤، دار كيوان – الحلبوني – دمشق، ٢٠٠٩م.

٨. قسم الدراسات والبحوث في جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، **وعصى آدم: الحقيقة دون قناع،** ط ١، سلسلة: عندما نطق السراة ج٥، دار كيوان – الحلبوني – دمشق، ٢٠٠٩م.

٩. قسم الدراسات والبحوث في جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، **بين آدمين: آدم الإنسان وآدم الرسول،** ط ١، سلسلة: عندما نطق السراة ج٦، دار كيوان – الحلبوني – دمشق، ٢٠٠٩م.

١٠. د.حسن حامد عطية، **قضية الخلق: من الوحي إلى دارون،** ط ١، دار الخيال، يناير ١٩٩٩ م.

١١. **النقد التاريخي،** يشمل: لانجلوا و سينوبوس: **المدخل إلى الدراسات التاريخية،** بول ماس: **نقد النص،** امانويل كانت: **التاريخ العام،** ترجمها عن الفرنسية والإلمانية: عبد الرحمن بدوي، ط ٤، الكويت: وكالة المطبوعات، ١٩٨١ م.

١٢. وجيه كوثراني، **تاريخ التأريخ: اتجاهات – مدارس – مناهج،** ط ٢، الدوحة – قطر، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، يونيو ٢٠١٣ م.

١٣. هرنشو، **علم التاريخ،** ترجمة: عبد الحميد العبادي، سلسلة المعارف العامة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٧ م.

١٤. ماري لين رامبولا، **دليل الكتابة التاريخية،** ترجمة: د.تركي بن فهد آل سعود و د.محمد بن عبدالله الفريح، الرياض – السعودية، دار الملك عبد العزيز، ١٤٣٤ هـ .

١٥. د.ستيفن ماير، **التوقيع في الخلية: الدنا وأدلة التصميم الذكي،** ط ١، ترجمة: د.آلاء حسكي ومهند التومي وآخرون، القاهرة – مصر، مركز براهين للأبحاث والدراسات، يناير ٢٠١٧م.

١٦. أحمد بن فارس بن زكريا، **معجم مقاييس اللغة،** تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩ م.

١٧. محمد بن مكرم ابن منظور، **لسان العرب،** دار صادر – بيروت.

١٨. الراغب الإصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن،** تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط٤، دار القلم – دمشق، ٢٠٠٩م.

١٩. بطرس بستاني، **محيط المحيط،** مكتبة لبنان – بيروت، ١٩٨٧م.

٢٠. محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، **مختار الصحاح،** دائرة المعاجم – مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٦ م.

٢١. لويس معلوف، **المنجد في اللغة والأدب والعلوم،** ط ١٩، المطبعة الكاثوليكية – بيروت.

٢٢. أ.د.يمنى طريف الخولي، **فلسفة العلم في القرن العشرين: الأصول – الحصاد – الآفاق المستقبلية،** مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٤ م.

٢٣. د.محمد بهجت قبيسي، **ملامح في فقه اللهجات العربيات: من الأكادية والكنعانية وحتى السبئية والعدنانية،** دار الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق – سوريا، ط١، ٢٠٠١ م.

٢٤. ابن حزم، **رسائل ابن حزم الأندلسي،** تحقيق:احسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٧ م، الجزء الرابع.

٢٥. ابن حزم الظاهري، **الفصل في الملل والأهواء والنحل،** تحقيق: د.محمد إبراهيم نصر و د.عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٩٦ م، الجزء الخامس.

٢٦. نصر حامد أبو زيد، **مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن،** المركز الثقافي العربي و مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الدار البيضاء – المغرب، ط١، ٢٠١٤ م.

٢٧. أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، **تفسير القرآن العظيم،** تحقيق: سامي بن محمد السلامة، ط ٢، دار طيبة للنشر والتوزيع – الرياض، ١٩٩٩ م، الجزء الأول.

٢٨. أبي الفداء إسماعيل بن عُمر بن كثير، **تفسير القرآن العظيم،** دار المعرفة – بيروت، ١٤١٢ هـ، الجزء الثالث.

٢٩. أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)،** تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف – مصر، ط ٢، الجزء الأول.

٣٠. الشوكاني (محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الصنعاني)، **فتح القدير: الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير،** دار النوادر – الكويت، الجزء الأول.

٣١. جلال الدين السيوطي، **الدر المنثور،** ط ١ [بهامشه القرآن الكريم مع تفسير ابن عباس]، بيروت: دار المعرفة، ١٣٦٥ هـ، الجزء الأول.

٣٢. أحمد بن يعقوب بن وهب المعروف بـ (اليعقوبي)، **تاريخ اليعقوبي،** تحقيق: عبد الامير المهنا، ط١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – لبنان – بيروت، ٢٠١٠ م، الجزء الأول.

٣٣. أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، **صحيح البخاري،** تحقيق: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية للنشر – الرياض، ١٩٩٨م.

٣٤. الحافظ أبي الحسين مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم،** بيت الأفكار الدولية للنشر – الرياض، ١٩٩٨م.

٣٥. أحمد بن محمد بن حنبل، **مسند أحمد بن حنبل: وبهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال،** المطبعة الميمنية – مصر، ١٣١٣ هـ، الجزء الأول.

٣٦. جارونر، **علم الآثار،** مترجم من كتاب: خلاصة العلم الحديث – الرسالة الرابعة، ترجمة: د.زكي محمد حسن ومحمود حمزه، سلسلة: المعارف العامة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٦ م.

٣٧. هيجل، **محاضرات في فلسفة التاريخ، الجزء الأول: العقل في التاريخ،** ترجمة: د.إمام عبد الفتاح، ط ٣، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ٢٠٠٧م.

٣٨. محمد عبده ومحمد رشيد رضا، **تفسير المنار،** الجزء الأول، ط ٢، القاهرة – مصر، دار المنار ، ١٩٤٧ م.
٣٩. قيس حاتم هاني الجنابي، **فلسفة التأريخ،** ط ١، الدار المنهجية للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، ٢٠١٦م.
٤٠. د.حسين مؤنس، **قصة الأنثروبولوجيا: فصول في تاريخ علم الإنسان،** العدد ٩٨ ، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت، فبراير ١٩٨٦ م.
٤١. محمد الجوهري وعلياء شكري وأخرون، **مقدمة في دراسة الأنثروبولوجيا،** (بدون ناشر) – القاهرة، ٢٠٠٧ م.
٤٢. برومليه وبودولني، **الأثنوس والتاريخ،** ترجمة: طارق معصراني، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٨م.
٤٣. شارلوت سيمور – سميث، **موسوعة علم الإنسان: المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجيا،** ترجمة: مجموعة من أساتذة علم الاجتماع، العدد ٦١، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ١٩٩٨ م.
٤٤. د. يسري عبد الرزاق الجوهري، **شمال إفريقية: دراسة في الجغرافيا التاريخية،** دار الجامعات المصرية، الإسكندرية – مصر ١٩٧٠م.
٤٥. د.محمد السيد غلاب و د.يسري الجوهري، **الجغرافيا التاريخية: عصر ما قبل التاريخ وفجره،** ط ٢، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٥ م.
٤٦. جوزيف كامبل مع بيل مويرز، **سلطان الأسطورة،** تحرير: إيجي سوفلاورز، ترجمة: بدر الديب، المشروع القومي للترجمة – المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة – مصر، ٢٠٠٢م.

٤٧. مرسيا الياد، **مظاهر الأسطورة،** ط ١، ترجمة: نهاد خياطة، دار كنعان للدراسات والنشر – دمشق، ١٩٩١م.

٤٨. مرسيا الياد، **المقدس والعادي،** ترجمة عادل العوا، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٩م.

٤٩. ميرسيا إيلياد، **الأساطير والأحلام والأسرار،** ترجمة: حسيب كاسوحة، منشورات وزراة الثقافة السورية – دمشق، ٢٠٠٤م.

٥٠. أحمد كمال زكي، **الأساطير: دراسة حضارية مقارنة،** ط ٢، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة – مصر، ٢٠٠٠م.

٥١. فراس السواح، **الأسطورة والمعنى: دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية،** ط ٢، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة – دمشق، ٢٠٠١م.

٥٢. أحمد داوود، **العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود،** ط ١، دار المستقبل – دمشق، ١٩٩١ م.

٥٣. د.أحمد داوود، **تاريخ سوريا الحضاري القديم ١- « المَرَكَز »،** ط ٣، دار الصفدي – دمشق، ٢٠٠٤م.

٥٤. أحمد داوود، **تاريخ سوريا الحضاري القديم،** ج ٢، ط ١، دار الشرق – دمشق، ٢٠٠٤م.

٥٥. سامر إسلامبولي، دراسة **إنسانية في الرّوح والنّفس والتّفكير،** (نسخة إلكترونية)؛ ٢٠٠٩م.

٥٦. د.عمرو شريف، **الإلحاد مشكلة نفسية: علم نفس الإلحاد،** ط ١، نيو بوك للنشر والتوزيع – القاهرة، ٢٠١٦م.

٥٧. د.عمرو شريف، رحلة **عقل: هكذا يقود العلم أشرس الملاحدة إلى الإيمان،** ط ٨، مكتبة الشروق الدولية – القاهرة، ٢٠١٤م.

٥٨. عماد محمد بابكر حسن، **أمي كاملة عقل ودين،** دار إبداع – القاهرة.

٥٩. د.عماد محمد بابكر حسن و م.علاء الدين محمد بابكر حسن، **آذان الأنعام: دراسة قرآنية عليمة لبحوث داروين في الخلق والتطور،** ط ٤، دار هيباتيا – أسوان – إدفو، ديسمبر ٢٠١٢ م.

٦٠. د.وليام ديمبسكي و د.جوناثان ويلز، **تصميم الحياة: اكتشاف علامات الذكاء في النظم البيولوجية،** ترجمة: د.موسى إدريس وأخرين، ط ١، دار الكاتب للنشر والتوزيع، الإسماعيلية – مصر، ديسمبر ٢٠١٤م.

٦١. د.فاضل عبد الواحد على، **عشتار ومأساة تموز،** ط ١، دار الأهالي للنشر والتوزيع، دمشق – سورية، ١٩٩٩م.

٦٢. دانييل كيفلس و ليروي هود، **الشفرة الوراثية للإنسان: القضايا العلمية والاجتماعية لمشروع الجينوم البشري،** ترجمة: د.أحمد مستجير، العدد ٢١٧، سلسلة: عالم المعرفة – الكويت، يناير ١٩٩٧.

٦٣. المعهد الأمريكي للدراسات اليمنية، سلسلة الدراسات المترجمة، ج ٤، **دراسات في الآثار اليمنية: من نتائج بعثات أمريكية وكندية،** ترجمة: د.ياسين محمود الخالصي، ٢٠٠١م.

٦٤. علي بن صالح السلوك الزهراني، **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية: بلاد غامد وزهران،** ط ٢، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر – الرياض، ١٩٨١م.

٦٥. حمد الجاسر، **في سراة غامد وزهران،** ط ٢، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر – الرياض، ١٩٧٧م.

٦٦. صمويل كريمر، **من ألواح سومر،** ترجمة: طه باقر، مكتبة المثني ببغداد ومؤسسة الخانجي بالقاهرة.

٦٧. حسين مؤنس، **أطلس تاريخ الإسلام**، ط ١، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي.

المجلات العلمية والمواقع

١. قصي هاشم فاخر الموصوي، **المنهج اللفظي الترتيلي في فهم النص: المحاولة والنتائج**، مجلة مسارات – السنة الثالثة، العدد ٨، تونس، خريف ٢٠١٦م.
٢. (Norman N. Whalenk)، **هل اتخذ الإنسان الأول طريقه من أفريقيا إلى اليمن عبر باب المندب؟**، ترجمة: د.عبد الحكيم شايف محمد و أزهري مصطفى الصادق، مجلة الإكليل (صنعاء)، وزارة الثقافة، العددان (٢٩ – ٣٠)، مارس ٢٠٠٦.
٣. جيفري روز، **إضاءة جديدة على إنسان ما قبل التاريخ في واحة الخليج العربي**، ترجمة: أ.د.أزهري مصطفى صادق علي، الجمعية السعودية للدراسات الآثرية، الرياض، ٢٠١٤م.
٤. فاضل الربيعي، **علم الأساطير أو الميثولوجيا هو جزء من منظومة علوم متقاربة ومتشابكة في المناهج**، نُشر في الملحق الثقافي لجريدة " الوطن" العمانية، بتاريخ: ٢٢ يوليو ٢٠١٨ م.
- http://alwatan.com/details/273799
٥. دراسة علمية من خلال موقع **(مؤسسة نور Nour Foundation):**
- http://www.nourfoundation.com/events/Beyond-the-Mind-Body-Problem/The-Human-Consciousness-Project.html
- http://www.nourfoundation.com/events/Beyond-the-Mind-Body-Problem-New-Paradigms-in-the-Science-of-Consciousness.html
6. http://humanorigins.si.edu/evidence/human-family-tree

7. **How We Are Evolving,** By: Jonathan K. Pritchard, Scientific American, on: 1 October, 2010.
8. **Chimpanzee and human Y chromosomes are remarkably divergent in structure and gene content,** Vol 463, (28 January 2010).
9. **Comparing the human and chimpanzee genomes: Searching for needles in a haystack,** By: Ajit Varki and Tasha K. Altheide, Published: Genome Research, 2005, Vol:15 .
10. **The Forgotten Continent (How China is rewriting the book on human origins),** BY: JANE QIU. Nature, VOL 535, (14 July 2016).
11. **A damp dispersal out of Africa.** Nature 519, (05 March 2015).
12. Axel Timmermann, and Tobias Friedrich. **Late Pleistocene climate drivers of early human migration.** Nature 538, (06 October 2016).

(الوثائقي Documentary)

1. **Beautiful Minds,** Richard Dawkins, BBC Four, 25th April 2012.
2. **Becoming Human: 1- First Steps.** (31 August 2011), NOVA.
3. **Becoming Human: 2- Birth of Humanity.** (31 August 2011), NOVA.
4. **Becoming Human: 3- Last Human standing.** (31 August 2011), NOVA.
5. **Dawn of Humanity.** (16 September 2015) NOVA and National Geographic.

المحاضرات والندوات

١. قصي هاشم فـاخر الموصـوي، إبلـيس والشـيطان والجـن، ج١، لنـدن، ١٤ نوفمبر ٢٠١٤م.

٢. قصي هاشم فـاخر الموصـوي، إبلـيس والشـيطان والجـن، ج٢، لنـدن، ٢١ نوفمبر ٢٠١٤م.

٣. قصي هاشم فـاخر الموصـوي، إبلـيس والشـيطان والجـن، ج٣، لنـدن، ٢٨ نوفمبر ٢٠١٤م.

٤. قصي هاشم فاخر الموصوي، إبليس والشيطان والجن، ج٤، لندن، ٥ ديسمبر ٢٠١٤م.

٥. قصي هاشم فـاخر الموصـوي، إبلـيس والشـيطان والجـن، ج٥، لنـدن، ١٢ ديسمبر ٢٠١٤م

٦. قصي هاشم فـاخر الموصـوي، إبلـيس والشـيطان والجـن، ج٦، لنـدن، ١٩ ديسمبر ٢٠١٤م.

٧. قصي هاشم فاخر الموصوي، قصة الخلق، ج١، لندن، ٢١ فبراير ٢٠١٥م.

٨. قصي هاشم فاخر الموصوي، قصة الخلق، ج٢، لندن، ٢٢ مارس ٢٠١٥م.

٩. قصي هاشم فاخر الموصوي، قصة الخلق، ج٣، لندن، ٥ أبريل ٢٠١٥م.

١٠. قصي هاشم فاخر الموصوي، قصة الخلق، ج٤، لندن، ٣١ مايو ٢٠١٥م.

الفهرس

الباب الأول: تاريخنا في الميزان

الفصل الأول: منهجية كتابة التاريخ

الفصل الثاني: منهج تدبر النص القرآني

الفصل الثالث : مصادر كتابة التاريخ

الباب الثاني: مـن أنـا ؟!

الفصل الأول: إبليس والجن والشيطان

الفصل الثاني: الروح والنفس

الفصل الثالث: الأطوار البشرية

الباب الثالث: التطوير والمعصية والهبوط

الفصل الأول: تطوير البشر في الجنة

الفصل الثاني: المعصية والهبوط من الجنة



أسطورة آدم وحواء

أرى أن الشباب اليوم بدأ يتجه نحو ما يسمى اليوم بـ "الإلحاد"؛ وقد أنتشر الإلحاد بشراسة بين الشباب، خصوصاً بعد ما يسمى بـ "الربيع العربي".. لأن هذه الثورات العربية منحت الفرصة للشباب أن يعبر عن رأيه بكل جراءة؛ فقد كسر كل القيود من حوله، وأصبح لا يخاف من أي سلطة فُرضت عليه بالقوة..

وأحد هذه السلطات التي فُرضت على الشباب العربي اليوم هي: "السلطة الدينية".. لذلك بدأ يثور على تلك السلطة وبدأ في اتجاهه إلى "الإلحاد"؛ وبدلاً من احتواء هؤلاء الشباب بدأ رجال الدين بتكفيرهم وسجن البعض منهم بحجة أنهم ينشرون الإلحاد بين الشباب!..

فأنا كمفكر لن أفعل مثلما فعل رجال الدين، بل أنني قد حللت وقيمت وبدأت في البحث والكتابة الفكرية من أجل معالجة القضايا التي يُثيرها الشباب المعترضون على الدين بسبب ما يعرضه رجال الدين من فكر ديني تقليدي قد يعارض العلم الحديث..

ومن أهم هذه الموضوعات هو موضوع "نظرية التطور"؛ وفي هذا الكتاب سوف يكون كل التركيز على النص القرآني، لطرح مفاهيم قرآنية جديدة لها علاقة بـ "قصة آدم في النص القرآني".. وفي النهاية كل ما أطرحه لكم في هذا الكتاب هو بالدليل والمنطق القرآني، وأنا لا ألزم به أحد على الإطلاق..

وفي هذا الكتاب لن أُلفق بين النص القرآني والعلم الحديث؛ بل على العكس تماماً. سوف ابدأ من النص القرآني ذاته محاولاً فهم النصوص القرآنية التي أتت على ذكر موضوع واحد وهي "قصة آدم"..

MohamedKhalawy.com